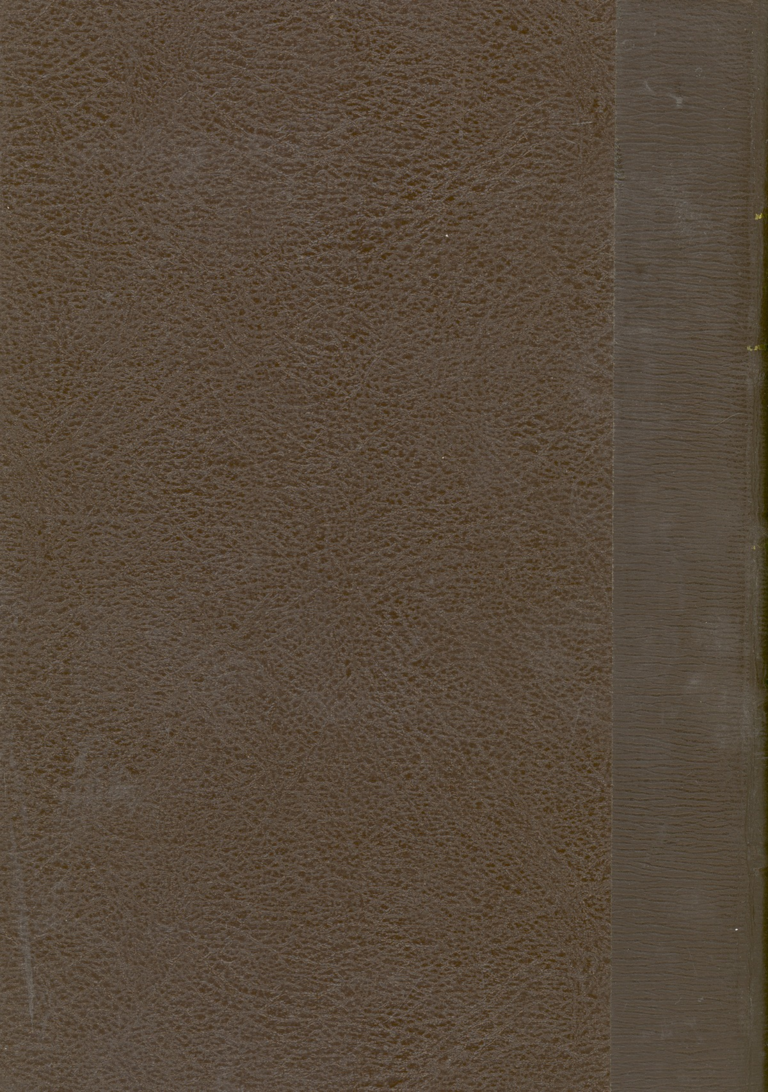


ديوجين

مصباح الفكر

(مقالات مختارة)



مجلة دولية لعلوم الإنسان

يصدرها المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الإنسانية

بمعاونة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة

وتصدر النسخة العربية

بإشراف وزارة التعليم العالى - الشعبة القومية لليونسكو

مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة

المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الإنسانية

الهيئات العلمية المنضمة إليه :

* الاتحاد الدولى للمجامع العلمية .
* » » للجمعيات الفلسفية .
* اللجنة الدولية للعلوم التاريخية .
* » » الدائمة لعلماء اللغة .
* الاتحاد الدولى لجمعيات الدراسات الكلاسيكية .
* » » لعلوم النوع الإنسانى والسلالات البشرية .
* اللجنة الدولية لتاريخ الفن .
* الجمعيـة الدولية لدراسة تاريخ الأديان .
* الاتحاد الدولى للآداب واللغات الحديثة .
* » » للمستشرقين
* الجمعيـة الدولية لعلم الموسيقى .
* الاتحاد الدولى لعلوم ماقبل التاريخ والتاريخ القديم .
* المؤتمر الدولى للمشتغلين بالدراسات الأفريقية .

محتويات العدد

لجنة تحرير ديوجين

تصدر مجلة ديوجين فى أربعة أعداد فى السنة بخمس لغات

ثمن العدد من النسخة العربية ١٠ قروش

الناشر

سجل العرب

مارتان بالميرز

الأساليب التكنيكية للحضارة العقلية

ترجمة : د . فؤاد زكريا

إن السؤال عما إذا كانت الحضارة الغربية فى مجموعها تؤلف وحدة ذات بناء متماسك ، يثير مشكلات تستعصى على الحل بالنسبة إلى الكتابة المجردة للتاريخ . أما بالنسبة إلى التاريخ ذاته ، فإنه مشكلة حقيقية ، وقد أخذت أهمية هذا السؤال تزداد يوماً بعد يوم فى وقتنا وعصرنا هذا الذى أصبحت فيه هذه الحضارة على اتصال دائم بحضارات القارات الأخرى . ففيم ينحصر البناء الأساسى للعالم الأوروبى ؟ وما سماته المميزة بالقياس إلى الحضارة الشرقية ؟ . إن هذا السؤال ، إذ يؤدى إلى تأكيد التباعد الشديد بين هـــذه المشكلة ، التى هى وليدة التاريخ ، وبين الكتابة التجريبية للتاريخ [أو التأريخ التجريبى] ، ينقلنا حتما إلى مجال فلسفة التاريخ .

ولكن هذا يؤدى إلى إثارة مشكلات أخرى. فإذا كان من الواضح أن المناهج التجريبية لا تصلح على الإطلاق لتعليل وجود عنصر بنائى تركيبى فى التاريخ ، فإن الفلسفة من جانبها تتعرض لخطر الوقوف فى مجال لازمانى ، والسقوط فى مزالق القطعية (الدجماطيقية) . على أن هذا البعد الخفى الذى يشهد بوجوده

(*) كاتب هذا المقال هو مارتان بالميرز Martin Palmaers ، ولد عام ١٩٢٢ ، وتخرج فى جامعة باريس ، واشتغل محرراً علمياً بالمكتبة الملكية فى بلجيكا . وتدور مؤلفاته حول الفن الغربى والحضارة الغربية . ومن أعماله الأخيرة كتاب الفن وديالكتيك المحسوس L'Art et la dialectique du sensible ومقالات بعنوان : « الأفق المتسع لفلسفة الفن Horizon élargi de la philosophie de l'art فى «مجلة جامعة بروكسل» ومقال « الفن والفينومينولوجيا » فى مجلة Dialoog ، ومقال « الفلسفة وضدها La phil. et son contraire » فى مجلة Archives de Phil. .

فهم التاريخ ، لا يمكن بأية حال أن يكون خارج نطاق الحوادث ، وإن لم يكن يبدو أبدا — ولا يمكن أن يبدو — بوصفه ظاهرة فريدة . فهذا البعد ، بقدر ما يكون هو ذاته عنصر العمق ، والعمل البنائى ، فى التاريخ ، هو بعد تاريخى بالمعنى الصحيح . أما الفلسفة فإنها تتجاهل الزمان والمكان وأشكالها التاريخية ، بحجة المحافظة على ما هو كلى ، وبذلك تتحول إلى أيديولوجية مظاهر ، ولا تستطيع أن تجد مهربا من لقب « الحكاية الحالمة Traumgeschichte » الذى كان ماركس ينتقد به هيجل ، عن خطأ دون شك .

ولا يبدو لهذا الإشكال إلا مخرج واحد : أن يصبح المؤرخ فيسلوفا أو الفيلسوف مؤرخا . وبعبارة أخرى ، فلا بد من أن تقترن الملاحظة التجريبية للوقائع التاريخية الجزئية بتفسير عميق ، ويجب أن يحقق هذا التفسير ويصحح ويعدل ويؤيد على الدوام بواسطة الوقائع الجزئية . وبعد أن يتم التثبت من كل شىء على النحو الصحيح ، ينبغى أن يعاد فهمه من جديد على النحو الكفيل بإظهار معناه . وفيما بين هاتين الخطوتين يقوم جدل لانهاية له ، يشكل فهما تاريخيا كاملا ، ويتيح التوصل إلى وحدة بنائية ذات دلالة من وراء كتلة الظواهر التى لا يستطيع المرء أن يتحرر منها أبداً .

ولاجدال فى أن هذه مهمة شاقة عسيرة ، تقع على عاتق أى مؤرخ يتخذ من أرفع المشكلات البشرية موضوعا لاهتمامه . وهذا الطريق الطويل المتعرج هو الذى رأى أرنولد توينبى أنه الطريق الوحيد الممكن ، وإن لم يكن قد سار فيه إلى نهايته .

ذلك لأن توينبى يرى أن من الأمور التى لا يمكن أن يتطرق إليها ظل من الشك ، أن تاريخ أية حضارة لا يتألف من عناصر منعزلة ، بدرجات متفاوتة ، مالم يربط بينها خيط أساسى . فهذا المؤرخ الأوروبى العظيم يرى أن هناك قانونا كليا ينظم — بدرجات متفاوتة — كل عناصر الحضارة بطريقة منهجية ، وهو يقول إن تاريخ الغرب يكشف ، برغم الاختلافات التى لا يمكن إنكارها ، عن

وحدة وترابط معين ، هو حقا ترابط غير ظاهرى ولكنه مع ذلك حقيقى بمعنى الكلمة . وبعبارة أخرى فليس ثمة تعارض بين وجود منطق معين ، وبين التاريخ حين يُفهم بعمق. على أن هذا المنطق ليس فى كل الأحوال قاعدة تنتمى إلى الفكر ، فهو ، بوصفه شكلا للتاريخ ، قاعدة توجه الفكر ، وتشكل على أنحاء معينة العنصر الأبولونى فى عملية الصيرورة الديونيزية(*) . ولو شئنا أن نعبر عن ذلك بتعبيرات مستمدة من « كانت » ، لأمكننا من الآن فصاعدا أن نتحدث عن مادة « قبلية » apriori تتطور ، من جهة ، فى التاريخ ، وفيه وحده ، وتكون من جهة أخرى هى الشرط الترنسندنتالى الكلى للتاريخ .

فإذا فرضنا أن هذا الرأى ، الذى يظل مهددا بخطر التعارض مع آراء كثير من المؤرخين الذين يتعلقون بالمناهج التجريبية وحدها ، هو رأى صحيح ، فمن الواجب بطبيعة الحال أن يتقدم إلينا حاملا أوراق اعتماد صحيحة تزكّيه عندنا . ذلك لأنه إذا كان يبدو معقولا تماما ، بل غير مشكوك فيه ، من وجهة نظر « نقد العقل التاريخى » ، فإنه ليس واضحاً فى أعين أولئك الذين يمارسون كتابة التاريخ. وكما لاحظ « ريمون آرون Raymond Aron » ، ففى وسعنا تماما أن نتصور الحضارة الغربية على أنها — مثل كثير من الحضارات الأخرى — لاتكوّن وحدة منظمة فحسب ، بل تمثل أيضا تجمّعا لعناصر مختلفة مضطربة لا رابط بينها(١) .

فى هــذه الحالة ينحصر البرهان الضرورى فى تحديد النواة المركزية التى

(*) يشير المؤلف هنا إلى التقابل المشهور الذى وضعه نيتشه بين العنصرين الأبولونى والديونيزى فى كل حضارة : فالأول هو عنصر التناسب والتناسق والعقل والمنطق ، والثانى هو عنصر السورة والحماسة والانفعال المتدفق . [المترجم]

(١) ر. آرون : « وحدة الحضارات وكثرتها » . فى كتاب « التاريخ وتفسيراته » R. Aron, «Unité et pluralité des civilisations», in «L'Histoire et ses interprétations» (Colloquium of C'érisy-la-Salle 1958) P. 44.

ينجذب وينظم حولها كل هذا التاريخ . فإذا كان من الصحيح ، كما يقول توينبى ، أن المعرفة الغربية الوضعية ، والأساليب الفنية الغربية (التكنيك) ، ترتبط مباشرة بالحضارة المسيحية ، فإن مما له أهمية خاصة أن نحدد هذه الروابط ، وخاصة فى هذه الحالة ذات الدلالة البالغة ، التى تمثل أبرز نقاط المشكلة موضوع البحث .

العقل ومنطقه :

هذا الرأى الذى نتقدم به لا يفتقر ، فى نظرنا ، إلى التبرير . فالأمر الذى يظهر فعلا بإلحاح لا شك فيه ، فى كل تعبير عن الحضارة الغربية ، لا سيما فى ذلك الموقف الطبيعى الشامل للبشرية التى تبعث الحياة فى هذه الحضارة ، هو سيطرة العقل على نحو لا نزاع فيه ، أو على الأقل ذلك الاتجاه الذى لا يقاوم ، إلى اتخاذ العقل قيمة عليا . ففى العقل تكمن عظمة الغرب ، وفيه يكمن داؤه . إن العقل هو الذى خلق فلسفة المجتمع الغربى ولاهوته وعقيدته ومعرفته وأساليبه الفنية وبناءه وتنظيمه. والعقل هو الذى يزودنا بمقولات تفكيرنا ، ويسيطر على أحكامنا ، وعلى نصوصنا وحججنا ، بل إنه يتحكم — على نحو لا يخلو من مفارقة — فى مشاعرنا وتجاربنا وعواطفنا وعاداتنا الاعتباطية ، وهو الذى يشيد سلم القيم التى نعترف بها ، فهو بالاختصار يشكّل ماهية العبقرية الغربية فى نوعيتها المميزة . وإذا كنا نشهد للعقل صورا متباينة كل التباين ، بل صوراً متعارضة ، فإن هذا لا يحول على أى نحو دون تنظيم وتجسيد منطق يظل متماثلا ، وتظل له أساسا نفس الاتجاهات . هذه المعقولية لا تؤدى على الإطلاق إلى استبعاد ظواهر لا عقلية معينة ، بل إنها تؤدى — على عكس ذلك — إلى ظهورها ، وبدلا من أن تفلت هذه الظواهر من قبضة القانون الكلى الذى يحكمها ، نراها تتمثل على هيئة مقابل متآلف للعقل ، يتمشى تماما مع المنطق ، ويؤلف مع المنطق كُلاً واحداً ، محكم الارتباط ، وإن يكن تنوعه يتميز بالثراء . والواقع أن من العبث أن يعترض المرء بأن عدداً كبيراً من العناصر التى تنتمى إلى تاريخ الغرب لا يمكن ردها إلى المعقولية . ذلك لأنه إذا كانت هذه

العناصر، من أمثال الفن، والأدب ، والدين، والخرافة، والأخلاق، والأيديولوجيات، والعنف ، والحب ، والحرب ، وكل العناصر الأخرى المماثلة التى يستحيل بدونها تصور تاريخ أوروبا ، بل يستحيل وجوده — إذا كانت هذه العناصر تنتمى إلى مجال لا منطقى ، بدرجات متفاوتة ، فإنها لا تؤدى مع ذلك إلى تغيير الإطار العام لهذا التاريخ . بل إن الحقيقة على عكس ذلك ، إذ أن اللامعقول هو الذى يتأثر فى أعماقه ، ويعاد توجيهه ، حينما يصبح عنصراً فى حضارة عقلانية[1] . وهكذا يصبح الفن شيئاً يحتاج إلى خبرة عميقة ، ويغدو ظاهرة ثقافية تتسم بالكمال الرفيع ، ولا يرقى إليها سوى عدد محدود من الجماليين المتخصصين ، ويتخذ الدين صورة كنسية ، ويخلق مجتمعاً له سمات تماثل ، بدرجات متفاوتة ، سمات المجتمع السياسى والصناعى، كذلك فإن الحروب ، وإن كانت دائما تقترن بأشد أنواع العنف تعسفاً ، فإنها تنتفع اليوم من استخدام الأساليب الفنية الدقيقة التى تتيح القضاء على الخصم بدقة علمية فائقة .

وعلى ذلك فنحن لا ندعى أن تاريخ الغرب هو ذاته تاريخ المنطق ، كما أننا أبعد من ذلك عن الادعاء بأن المظاهر اللاعقلية يمكن إرجاعها إلى مظاهر أخرى تُعد أولية ، برغم طبيعتها الظاهرة . بل إن التأكيد الوحيد الذى يبدو فى نظرنا غير قابل للتفنيد هو أن العقل يضفى وحدة شكلية ، واتجاها محددا ، على مضمون متنوع ، بحيث إنه يقوم بدور القاسم المشترك الأعظم . فهو يمثل أوسع أفق يضم كل الظواهر ، ويقوم على حد تعبير هوسرل ، بوظيفة « الغائية الكامنة » فى التاريخ . ففى هذه الحضارة نجد المعقول واللامعقول يواجه كل منهما الآخر ويحوّره على الدوام ، ولا يمكن أن يُفهم أحدهما بدون الآخر ، وكل منهما يستحيل فهمه إلا فى ضوء

---

(١) سوف نعرض رأينا فى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل فى حالة الدين على التخصيص . ومن جهة أخرى نود أن نوجه انتباه القارئ إلى أن هذه النظرة القائلة بفهم الحضارة الغربية فهما كليا تتم على مراحل متعاقبة ، بحيث تؤدى المرحلة اللاحقة دائماً إلى تصحيح السابقة .

هذه الوحدة الجامعة بين الأضداد ، وكل منهما يهيب بالآخر ، ويعارضه ، ويكمله ، تماما كما هي الحال في العلاقة التي تجمع بين ديكارت وباسكال ، وهيجل وكيركجورد ، وشلنج في عهده المتأخر وفي عهده المتقدم ، والمثالية والوجودية ، والشخصانية والمادية ، والمسيحية والإلحاد . ومنذ هذه اللحظة نجد أنفسنا إزاء منطق جدلي . فمن طبيعة العبقرية الغربية أن تحيط معطيات الطبيعة والتاريخ بصورة خاصة قابلة للتغير الجذري ، ولديها قدرة ملحوظة على التوليد(١). والواقع أنه إذا كان العقل صورة كلية ، فإن نشاطه لا يتوقف بحال عند حد تشكيل مادة معطاة من قبل على نحو شكلي صرف . فالمعقولية تولد « أيضا » تاريخا تحيطه بقوانينها الخاصة . وهي تضل طريقها وتتجاوز ذاتها ، وتغترب عن ذاتها وتدعمها ، وتقهرها لكي تصبح كفئاً لذاتها ، وتفقد ذاتها بعض الوقت في الشكل الموجود حين تصبح في هوية تامة معه . وعلى الرغم من أن هذا التكافؤ لا يتحقق أبداً تحققاً كاملا ، فإن دينامية العقل تهفو إلى تحويل كل المعطيات التجريبية إلى صورتها الخاصة ، وإلى الاستعاضة بانتصاراتها الخاصة عن كل الأشكال الأخرى للحقيقة . والحق إن هـــذه الصورة المزدوجة للعقل هي التي نجدها تمارس تأثيرها في الفلسفة والمنطق واللاهوت ، وهي التي تشيع الحياة في العلم والتكنيك ، فضلا عن البناء الأساسي للمجتمعات الصناعية . والأمر الذي يهمنا الإشارة إليه من الآن فصاعدا هو المنطق الباطن للمعقولية ، كما تمارس تأثيرها في مختلف أشكال الثقافة . ذلك لأنه إذا كان صحيحاً أن للعقل تاريخاً شديد التنوع ، بل تاريخاً يتساوى في امتداده مع تاريخ الغرب ، وإذا كانت مرونته لا حد لها من الوجهة العملية ، فلا بد له مع ذلك من أن يكشف في كل مظاهره عن سمات متماثلة أساسا ، ولا بد للنشاط هذه القوة الخفية من أن يسير وفقاً لخطة دقيقة إلى أبعد حد . فما هي هذه القوة الخفية ، وما الخطة التي تسلك وفقا لها ؟

---

(١) يصدق على ذلك ما قاله برجسون عن الميتافيزيقا : « إنها ستعتمد على نظرية المعرفة ، مثلما ستعين على المعرفة أن تعتمد على الميتافيزيقا» . (التطور الخلاق) .

إن المعقولية تبدو فى جميع مظاهرها على هيئة لغة محددة للعالم ، يقام على أساسها معنى يكون فيه العقل هو نقطة البداية ، أى مرتبطاً بأساس الأشياء . فالمنطق يقرر الظواهر فى ضوء مبدأ أساسى يتخذمقياسا ونموذجا وتبريراً لما يقول به . وأياً كان الشكل التاريخى للمعقولية ، فإن طبيعتها تقضى بأن ينبثق عنها كيان نهائى تكون مهمته هى تفسير الوجود فى عمومه والحكم عليه وتبريره . فمهمة هـذه اللغة تفسيرية وتعليلية فى أساسها . وحقيقتها لابدمن أن تتخذ شكل التطابق والصواب والتكافؤ . ومقولاتها تصدر عن مجال البديهيات ، وبذلك ينبثق عنها عالم هندسى يطيع قوانين « الرياضة الكلية » .

وتؤدى أولوية العقل إلى خلق عملية تمثل وتجانس فى المادة المتباينة . ذلك لأن هذا الأساس المشترك ، الذى هو مقياس كل ما يوجد وأنموذجه ، يحاول أن يلغى الكثرة الكيفية والتمايز . فالعقل يكشف عن اتجاه مؤكد إلى بعث التجانس فى معطيات الطبيعة ، وهو ميال إلى التكرار ، يخلق الهوية والتماثل فى موضوعاته ، ويفرض على الخليط المبهم للظواهر « نزعة هندسية كامنة ، على شكل منطق طبيعى ، تزداد بالتدريج تغلغلا فى صميم المادة الجامدة » على حد تعبير برجسون(١) . إن العقل يتجه إلى تلخيص الأشياء ووضعها فى أطر محددة ، كما يفهمها ويستبقها ، وهو يرتب الأشياء « ويجمدها فى مجموعات متشابهة »(٢) لكى يقيسها وفقا للنماذج ، وينتفع منها آخر الأمر . فهو يحاول ، إذا ما ترك يتصرف بحرية ، أن يضم الواقع فى كليته ، وأن يمتد بقدر ما تمتد التجربة كلها . وهكذا يتجـــه العقل دواما إلى الاستمرار ، ويصبو إلى نوع من اللانهائية ، ولهذا السبب حاول فلاسفة مثل كانت وبرجسون ونيتشه وهيدجر أن يدينوا ذلك الخداع الذى يتمثل طوال تاريخه .

ويدل إحـداث المنطق لهـذه التحولات ، أولا ، على أن له طابعا ميتا فيزيقياً ،

---

(١) برجسون : التطور الخلاق .

(٢) نيتشه : إرادة القوة .

حتى فى أشد صوره تمسكا بالروح الوضعية . والحق أن المرء أن يتساءل : أليس اتخاذ كيان نهائى شرطا لكل وجود ، ووضع مقياس كلى يتخذ معياراً مطلقاً للوجود والمعرفة ، وتأكيد أن الحقيقة هى ذاتها مطابقة موجود نهائى ، أياً كان ، وإحلال الدقة العلمية محل كشف الطبيعة — أليست هذه كلها خطوات نحو تنظيم ميتا فيزيقى ؟ الحق إنه ، إذا كان تطور العلم الحديث يكشف عن اتجاه متزايد إلى صبغ المعرفة بصبغة شكلية ، وإذا كان كل ما تقـــدر عليه المعرفة المعاصرة هو أن تستخدم اللغة المصطنعة للرموز الرياضية فى بناء تصوراتها ، فإن ذلك يرجع إلى أن المثل الأعلى لشىء معقول معقولية كاملة هو الذى يولد المعرفة ويحكمها ويوجهها إلى غايتها . فالنزعة العلمية الحديثة تنطوى على نظرة ميتافيزيقية إلى الواقع ، وهى تنمى هذه النظرة وتخصصها — دون وعى منها — تمشيا منها مع الصورة الديكارتية لشجرة المعرفة(١) . وليس من شك فى أن هذه النظرة الميتافيزيقية خفية غير معترف بها ، بل إنها كثيرا ما تنكر ويعترض عليها صراحة فى كل شكل من أشكال الوضعية ، وهى دائما فكرة فيها تجديف وافتقار إلى النضوج، لاسيما بالنسبة إلى المثل الكلاسيكى الأعلى للمعرفة ، الذى حددت الصورة الديكارتية معالمه الرئيسية . ومع ذلك فإن هذه النظرة الميتافيزيقية غير الظاهرة تظل لها فعاليتها فى جميع مظاهر المعقولية، التى تتخذ بالفعل صورة أنطولوجيا شكلية فى كل الأحوال. ومن ثم يبدو أن الخطة التى اقترحها أوجست كونت ، والتى يقسم بمقتضاها تاريخ الغرب ثلاث مراحل ، هذه الخطة التى يشوبها نقص أساسى ، هو طابعها التجريدى الزائد . فإذا كان صحيحاً أن المعرفة العلمية قد فقدت وحدتها المادية منذ عهد بعيد ، فإن هذه الوحدة تظل راسخة ، فيما يتعلق

---

(١) ديكارت : رسالة إلى الأب كلود بيكو (مقدمة « مبادىء الفلسفة ») . وتؤكد الصورة التى اقترحها ديكارت من جهة ، أن الطابع الرياضى للفيزياء يأتى من الميتافيزيقا ، كما تؤكد من جهة أخرى أن كل العلوم ترتبط فيما بينها ارتباطا أساسيا بحيث تسمى المعرفة فى مجموعها « بالفلسفة » .

بصورتها(١)

هذه السمة الأولى تؤدى إلى سمة أخرى، أشد مفارقة حتى من السابقة، ولكنها لا تقل عنها أساسية وكلية. فالمعقولية تتميز دائما بسمة لاهوتية. والواقع أنه إذا كان العقل يبحث عن الأساس، وإذا كان يحكم على كل وجود ابتداء من شيء معقول قبل كل شيء، ويزوده بالقواعد الكلية للمعرفة، وإذا كان نوع المعرفة المكون على هذا النحو تفسيريا أو تبريريا، فإن من طبيعته أن يبعث من ذاته موجوداً أساسياً نهائياً، لا يكون قد سببه شيء، وإن كان هو ذاته سبباً لكل وجود. هذا التحديد لا ينفصل عن المنطق؛ بل إنه يلازمه حتى فى أشد أنواع العقلانية إلحادا. وهذه السمة، التى تترتب مباشرة على السمة السابقة، أشد منها خفاء. ومع ذلك فإن وجود العنصر اللاهوتى — لا اللاهوت — فى كل أشكال العقلانية هو أمر لا جدال فيه. ذلك لأن العنصر اللاهوتى يسبق اللاهوت ويولده، مثلما أن العنصر الميتافيزيقى يسبق الميتافيزيقا ويخلقها. وكلا التحديدين ترجع جذوره إلى المنطق، الذى يعملان معاً على إيضاح أبعاده الأساسية. فبعد أن يبعث العقل فى معطيات الطبيعة تجانسا قويا، على نحو يؤدى إلى استيعاب الجزئيات فى وحدة جامدة، وبعد أن يتم تشكيله للظواهر بحيث تلائم ذاته، مستخدما فى ذلك قوانين المنطق، يقوم العقل بتكوينها على أساس مطلق معين، يحيط بها امتدادا، ويكونها عمقا. والواقع أن هذه الحركة المزدوجة التى تهدف إلى صبغ الأشياء بالصبغة المعقولة إنما هى حركة واحدة؛ إذ أن «السبب الكافى» هو قاعدة رئيسية فى المنطق. وهو فى الوقت

---

(١) عرضنا هذه النقطة، وكذلك النقطة التالية، عرضا مفصلا فى مقالنا «الأفق المتسع لفلسفة الفن « Horizon élargi de la philosophie de l'art » فى مجلة جامعة بروكسل (١٩٦٦ — ٦٧)، ١٩، رقم ١ — ٢ ص ٨٨ — ١١٥. وفضلا عن ذلك فإنا نستبيح لأنفسنا أن نشير هنا إلى كتاب بعنوان «الفن وديالكتيك المحسوس « L'Art et la dialectique du sensible »، وهو كتاب سيظهر قريباً، ويعالج هذا الموضوع.

نفسه بعد أساسي من أبعاد الأشياء . أو بعبارة أدق فإن المنطق هو الذى يولد البناء الفيزيائى ، فضلا عن الميتا فيزيقى للظواهر — وهو البناء الذى يفترض الواقع مقدماً بطبيعة الحال — وهذا البناء بدوره يجعل قواعد الفكر ضرورية . فالعقل صادر على المطلق بوصفه الأساس النهائى ، الذى يتخذ منذ تلك اللحظة شكل مبدأ كلى للمعقولية .

وهكذا لن يكون من المغالاة أن نقول إن المنطق هو أصل الإله ومنشؤه : فالأساس يحتاج إلى أساس ، وكل نور يحتاج إلى مصدر ، والعقل يحتاج إلى تبرير نهائى . وأيا كانت الطريقة التى يتعين بها هذا الإله theos فى النواحى الأخرى ، وسواء فهمنا العقل الأعلى بمعنى روحى أو مادى ، فوق الطبيعى أو كونى ، مؤله أو إنسانى ، فإن الأساس يوضع فى أية لحظة معينة بوصفه « الأولى » الذى منه يكون الوجود ، أو عملية الصيرورة ، أو المعرفة » [1] . فهناك ، خلال كل تلك التنوعات التاريخية التى تؤلف « التاريخ الزمنى » للعقل ، هوية معينة فى الصورة ، هى التساوى بين الواقع والمطلق ، والتشابه بين الموجود والموجود الكامل ، والاستعاضة عن الحقيقة بكشف الطبيعة ، والمساواة بين الحقيقة وبين الحقيقة الأولى أو الأخيرة ، والتعادل بين المعرفة والتبرير والحكم .

فالعنصر اللاهوتى لا يحدد معالم اللاهوت وحده ، بل يحدد أيضاً معالم الفلسفة والرياضيات والعلوم بوصفها صيغاً للمنطق . ومن هنا استطاع نيتشه أن يقول فى نهاية كتاب « شجرة نسب الأخلاق » « إن إيماننا بالعلم مازال يرتكز على إيمان ميتا فيزيقى . فنحن مفكرى اليوم ، نحن الملحدين أعداء الميتافيزيقا ، نستمد بدورنا القبس الذى يضىء طريقنا من نار أوقدتها ألوف السنوات من الاعتقاد ، ومن ذلك الإيمان المسيحى الذى كان يشارك فيه أفلاطون بدوره ، والذى يرى الله على أنه هو الحقيقة ، ويرى الحقيقة على أنها إلهية »(٢) . ففى رأى نيتشه أن المعرفة قدر

---

(١) أرسطو ، الميتافيزيقا ، ١ ، ١٠١٣ .

(٢) « شجرة نسب الأخلاق » The Genealogy of morals ، الترجمة =

مكتوب عـــلى الغرب ، وهى تسير فى طريقها بغريزة حيوية لا يزيدها الإخفاء والقمع إلا نشاطا . على أن المعرفة ، كما سنقترح بعـد قليل ، ليست فقط هى الحقيقة الحضارية الباهرة التى يميل الفرد الى الإشادة بموضوعيتها وصحتها الشاملة ، بل انها أيضاً ، وقبل كل شيء ، هى الروح العامة التى تحركنا جميعاً ، علماء كنا أم بلهاء ، وهى ترسم خطوط نوع من أنثروبولوجية الإنسان الغربى ، وأصولها ترتبط ارتباطا وثيقاً بأعماق الذاتية السيكولوجية . ولنقـل بلغة نيتشه إن العقل العلمى يتحكم فيه نظام من القيم ينبغى الـكشف عنه إذا ما أراد الإنسان أن يرى نفسه وقد تجرد من أوهامه الضائعة . ومن جهة أخرى فإن هـذه اللغة اللاذعة تـكشف ، على نحو لا يخلو من مفارقة ، عن نوع معين من الروح الديكارتية عند ذلك الذى كان ينطق بها . فهناك فى الواقع تشابه ملحوظ بين طريقة عرض نيتشه للمعرفة ، من حيث إن القوة الدافعة إليها هى الغريزة اللاهوتية ، وبين الصورة الديكارتية التى تـكشف عن تغلغل جذور المعرفة فى الميتا فيزيقا . فالمعرفة من حيث ماهيتها تشير إلى أشياء أخرى . أما إذا نظرنا إليها فى ذاتها فإنها تظل غير قابلة للفهم عـلى الإطلاق ، ويخفى علينا أصلها وتتغذى من مصادر خارجة عن نطاق العلم . وهكذا نضطر فى كلتا الحالتين إلى التفكير فى ماهية المنطق من خلال أساس غيبي . وبالفعل نجد أن نيتشه بوجه خاص لا يخامره أى شك فى أن هـذا الأساس يتجاوز قطعاً نطاق المعقولية . وهـكذا نجد أنفسنا الآن إزاء تلك المفارقة المشهورة التى كشف عنها تفـكير نيتشه : فالعقل مبنى على اللا عقل ، والمعقولية على اللا معقول ، والمعرفة على الإيمان .

= الفرنسية بقلم Henri Albert . ويظهر هذا النص نفسه فى فقرة من كتاب « العلم المرح Le Gai Savoir » ترجمة Viallatte ، ص ٢٨٦ ــ ٢٨٩ ، وعنوان هذه الفقرة « فيم نكون ، نحن بدورنا ، أتقياء » . وقد قدم « بيرو H. Birault » تعليقا عميقا على هذه الفقرة فى مجلة الميتافيزيقا والأخلاق Revue de métaphysique et de morale (١٩٦٢) ٦٧ ، ص ٢٥ ــ ٦٤ .

فما هو إذن هذا العقل اللامعقول ، وهذا الأساس الذى لا يمكن تبريره ؟ وما هو هذا التعمق فى الجذور ، الذى هو ذاته بلا جذور ؟

الأساليب التكنيكية:

إن أيا من الأسئلة التى ظللنا نطرحها حتى الآن لم يجد إجابة عنه ، وستظل طريقة بحثنا فى هـــذا الموضوع مشوبة بنقص أساسى مالم نتعمق فى الأساس الحقيقى للمعقولية .

على أن السوابق الممهدة للعقل ، وإن تكن وثيقة الارتباط به ، ليست هى ذاتها منطقية . والحق أن المرء حين يقوم، مثل نيتشه، بتحليل نفسى للمعرفة، يبدو له أن المنطق له جذور عميقة ترجع إلى رغبة هائلة فى السيطرة : فما يؤدى إلى ظهور المعقولية ليس هو العقل ، وإنما هو الرغبة فى السيطرة على الطبيعة . وبعبارة أخرى فإن للقصد العميق للعقل سياسى ، ومن هنا كان للمرء الحق فى أن يتحدث عن سلطان المعرفة: فالمعرفة تأمر، وتسيطر، وترهب؛ ولغتها تنبثق من الفن العسكرى . وإذ تضفى المعرفة على ذاتها صورة طبيعية ، وترجع العالم إلى حالة موضوع يتعين تفسيره وقياسه والتحكم فيه وفهمه وإدراكه ، فإنها تكشف عن طابع تكنيكى بالمعنى الصحيح، بحيث يتعين علينا أن ننسب إلى التكنيك ، فى نهاية المطاف ، تلك الخصائص التى يكشفها لنا المنطق. وهكذا فإن علم الآثار المتعلق بالحضارة الغربية يبين لنا أن التصميم الذاتى واتجاه الذات الواعية إلى تحقيق مصلحتها يترابطان ترابطا وثيقاً . ولهذا السبب كان من حقنا تماما أن نتحدث هنا عن «سيمانطيقا الرغبة semantic of desire» (١) ، وهو تعبير يستهدف إيضاح الجدل المتبادل بين اللفظ والإرداة ، الذى يكون أصل

---

(١) يرجع هذا التعبير الى بول ريكير P. Ricoeur الذى يلجأ إليه كثيرا فى كتابه الأخير: «فى التفسير . دراسة عن فرويد De l'Interprétation, Essai sur Freud» باريس ١٩٦٥ .

المعرفة فيه راجعاً إلى الرغبة ، وينجم ذلك عن إيضاحها لذاتها عن طريق انعكاسها في المنطق . ويدل هذا الجدل في الوقت ذاته على أن «الوعي يتجاوز الرغبة ، وأن أي شيء لا يمكن أن يتجاز الوعي من حيث هو موقف مبدئي ، وتأكيد أصلي ، وتوسع مباشر»(١) . وهكذا فإننا ، حين تتتبع أصل المعقولية ، نكتشف وجود طاقة لم تكن هي التي تولدت عنها الحضارة الغربية فحسب ، بل إنها أيضاً تشل هذه الحضارة تماما . وهذا هو المعنى الذي استخدمه نيتشه حين تحدث عن العقل العلمي — لا عن المعرفة فقط — بوصفه الروح الأوروبية . والحق إننا حين نضفي على هذا اللفظ دلالة فلسفية عميقة ، كتلك التي أضفاها عليه هيجل ، نجد أنفسنا إزاء رغبة الوعي في الاستحواذ على العالم لذاته ، ورغبة الإنسان في أن يؤكد ذاته ويكون منتميا إليها . تلك ، كما يقول نيتشه ، هي المصادرة التي تقوم عليها المعرفة ، وهو يضيف أن تلك هي مصادرة المنفعة .

وتكشف الأساليب التكنيكية عن هذا المعنى الإنساني . فهي تعبر عن الرغبة التي لا حدّ لها في صبغ العالم بالصبغة الإنسانية عن طريق المعرفة . وهي ليست أصلا تُردّ إليه المعقولية فحسب ، بل إنها أيضاً قوة دافعة تسري في تاريخ النزعة الإنسانية الغربية بأسرها ، وتنتشر اليوم في جميع أرجاء العالم ، وتعمل على تحسين ظروف الحياة على نطاق عالمي بصورة تدعو إلى الدهشة .

إن المنطق يتكشف بادئ ذي بدء بوصفه أسلوبا تكنيكيا قصد منه أن يزود الإنسان بالمعلومات اللازمة لجعله قادرا على الفعل . إنه منطق غزاة منتصرين ، لا بمعنى أنه يتحول إلى شيء عملي ، أو أنه يستخدم بمثابة أيديولوجية السلوك : بل إنه في ذاته سلوك بالفعل ، وهو سلوك سياسي وعسكري يهدف إلى إخضاع الموضوعات ، التي يطبق عليها ، لسلطانه. وبهذا المعنى تكون كل معرفة «تطبيقية» ، ولا تفلت المعرفة «الخالصة» من هذه القاعدة الأساسية في المنطق . فالحضارة الغربية

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٥٤ .

تكشف عن ماهية تكنيكية تمارس عملها فى كل إنجاز من إنجازاتها ، سواء أكان ميتا فيزيقيا أم لاهوتيا أم علمياً أم تكنولوجيا بحق. ولقد كانت الأساليب التكنيكية هى التى رسمت منذ البداية الشكل الخاص الذى يتميز به الموقف الإنسانى ؛ فهى تقترح طريقة فى النظر إلى الأشياء ، وترسم معالم صورة للإنسان ، وتقيم نوعا من السلوك المشترك بين الذوات ، وتحدد حقيقة فى المكان والزمان ، أى أنها بالاختصار الشكل الذى يتجلى عليه الوحى الغربى على التخصيص ، وهو الوحى الذى لا تتكشف الظواهر فيه إلا بفضل مبررها وقيمتها ، وفعاليتها ، وتأثيرها ، وواقعيتها ، وهى العوامل التى تؤلف « أيضا » نسق الأخلاق . وترجع قوة هذا النسق الأخير إلى الرغبة فى السيطرة ، كما أن الإلزام الذى يفرض به قوانينه يستمد مباشرة من سلطة العقل القادر على كل شىء . ولهذا السبب استطاع هيدجر أن يقول إن الأساليب التكنيكية هى إهابة عقلية بالطبيعة «واستدعاء» (Herausforderung) لها[1]. وفى ترجمة أندريه تريو André Tréau « للمقالات والمحاضرات Essais et conférence» ، يقول : «إن الأساليب التكنيكية الحديثة تهيب عقليا بالطبيعة ، وتقف لتفحصها ، ومعنى أنها تهيب بها عقليا هو أنها تستدعيها أمام العقل، بأن تضع الطبيعة فى نظام العقل الذى يقتضى قبل كل شىء أن تقدم الطبيعة تفسيراً لتصرفاتها وأسبابا لها»(٢) .

أما عن التكنولوجيا المعاصرة فإن المؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع يقولون عن حق إنها تميز حضارتنا ؛ فهى تحدد آفاق كل أفكارنا ، وتشكل على نحو متزايد البيئة الطبيعية لأفعالنا جميعاً . وهذا أمر مؤكد . فمن الواضح كل الوضوح أن التنظيم الصناعى ، والإنتاجية ، والاستغلال العلمى للطاقة ، والكفاءة التكنولوجية للمجتمع ، تضعنا فى موقف جديد ، لم يكن له من قبل أى نظير فى

---

(١) هيدجر « مسألة التكنيك Die Frage nach der Technik » فى « مقالات ومحاضرات Vorträge und Aufsätze » ، الناشر Pfullingen ، ١٩٥٤ ، ص ١٣ ــ ٤٤ ؛

(٢) « مقالات ومحاضرات » ص ، ٢٦ ، هامش .

التاريخ ، وأن هذه الظواهر تؤدى إلى حدوث عمليات ديالكتيكية لم يسمع بها أحد من قبل . ومع ذلك فهل من المشروع الكلام عن مرحلة أساسية جديدة فى التاريخ ؟ قطعا لا ! فإذا كان البناء التكنولوجى للمجتمع المعاصر ينطوى ، فى نواح متعددة ، على عناصر لم تعرف من قبل ، فلا بد أن نؤكد أن سماته الأساسية قد تحددت من قبل فى الخصائص الأساسية للمعقولية الشاملة ، التى لا تُعد التكنولوجيا المعاصرة إلا آخر شكل من أشكالها . ولهذه التكنولوجيا المعاصرة بدورها ، بل قبل غيرها ، طبيعة سياسية . فعلى الرغم من أن المعقولية تتبدى على أشكال شديدة التنوع ، بل هى فى نواح معينة أشكال متعارضة تعارضا كاملا ، فإنها تكشف مع ذلك عن تجانس فى البناء ترجع ديناميته إلى هوية الأضداد . فهنا نجد أنفسنا إزاء بناء ديالكتيكى لا تكون أية لحظة فيه منفصلة انفصالا تاما . ولا يمكن أن تحدث فى داخله تحولات جديدة جدة مطلقة . فنحن نجد دائما نفس الماهية الشكلية ، مهما تباينت العناصر الثقافية التى تُغلّف بها ، بحيث يكون التاريخ الذى تحدد معالمه مترابطا فى أساسه ، أيا كانت الفوارق الظاهرة فيه . والأمر الذى أدى إلى تلك النتيجة الغريبة ، وهى أن هذه الفوارق بعيدة كل البعد عن أن تكون مطلقة ، كما أن الارتباطات فى داخل الحضارة الغربية — من جهة أخرى — بعيدة كل البعد عن أن تكون مباشرة ، هو التقاء الأساليب التكنيكية مع العقيدة المسيحية .

هذا الالتقاء ، مهما بدا فيه من مفارقة ، ليس التقاء عفويا على الإطلاق ، بل إن نفس بناء المجتمع الغربى هو الذى يجعله ضروريا ومفهوما ؛ ذلك لأن المسيحية بدلا من أن تزعزع حكم العقل ، قد عملت فى الواقع على تأكيده ودعمه إلى أقصى حـد بفضل طابعها اللاهوتى . إذ أن ما يميز الدين المسيحى ليس الدين ، وليس ارتباطه بالمقدس ، وإنما هو اللاهوت ، الذى هو تبرير عقلى للعالم كما يصوره الدين . هـذا اللاهوت ينحصر فى نزع طابع القداسة عن الطبيعة ، وجعلها دنيوية لصالح الوجود الأعلى الذى ينظر إليه على أنه هو العقل الأول للعالم . وهـذا الفصل بين

الطبيعة وبين المقدس ، يعمل لصالح المنطق الذى يظل مع ذلك لاهوتاً ، مما يكشف عن طابعه اللاديني الخالص. وكل ذلك يقال دون سوء نية ، بل فى ظل الحرية التى يقتضيها الفكر الفلسفى. فالإله المشخص، والموجود الأعلى الكامل، خالق العالم وغايته ، هو ذاته نزع للصبغة الإلهية عن المقدس . ويؤدى ذلك إلى إلقاء ظل من الغموض على العلاقة بين الإنسان وبين الألوهية ، وإلى بذر بذور الإلحاد(١). ومن ثم فمن الصحيح أن الآلهة تُمحى وأن العالم يسلم قياده للدنيوية حيثما انتشرت المسيحية . ولما كان هـــذا هو مصير الغرب وأهله ، فإن الإحساس بالمقدس يغيب فيه عند المؤمنين بقدر ما يغيب عند غير المؤمنين . فكلهم تشيع فيهم الروح البروميثية اللازمة للتكنيك ، وهى تشل حضارتنا بأسرها ، وبدلا من أن يعمل الدين على الحيلولة دون تحليق الآلهة بعيداً ، نراه يعجل بالفصل القاطع بين السماء والأرض .

وهـكذا تتبدى المسيحية على أنها هى العقيدة الملائمة للغرب . فهى تستعيض عن العالم الدينى الذى يكون كل شىء فيه إلهيـا قابلا لأن يفهم برؤية معينة للعـالم (Weltanschauung) وبنظرة عامة إلى الحياة والتاريخ وكذلك سلم للقيم التى تبدأ بقيمة غير مشروطة وتتيح إصدار حكم على العالم ووضع مقياس وضابط له . وتتمثل المسيحية قبل كل شىء فى صورة الكنيسة التى لا يمكن أن يكون مثلها الأعلى إلا إمبراطورية مقدسة ، مهما كانت التعديلات التى يدخلها المرء عليها . فعقيدة الغرب التى تتمشى مع روح الأرض التى أصبحت منتشرة فيها ، يتجلى فيها

---

(١) نود أن نشير إشارة عابرة إلى محاولة ملفتة للنظر ، لتصور الألوهية بلا إله ، فى فكر جان نابير Jean Nabert . فمن طريق انحراف بسيط عن الفلسفة التأملية ، يعرف نابير الألوهية بأنها رغبة الوعى فى أن يكون مكافئا لذاته : « إن الرغبة فى الله هى الرغبة فيما يبقى على نحو ما يطالب الوعى ، التى هى مغروزة فى تكوينه » (الرغبة فى الإله Le Désir de Dieu ، باريس ١٩٦٦ ، ص ٢٣).

(نشر هذا الكتاب بعد وفاة المؤلف).

من الآن فصاعدا طابع عقلانى بالمعنى الصحيح . وبفضـــل العقل يتغلغل المطلق بوصفه تشيؤا (reification) وتشخيصاً للبعد الدينى فى العالم المقدس . ومن ثم فإن ما تهفو مثل هـــذه العقيدة إلى تـكوينه ليس « الإنسان التـــدين (homo religiosus) بل هو « الحيوان العاقل rational animal » أو «مدينة الله» التى لا تختلف جوهريا عن «كاليپوليس» عند أفلاطون. فإذا كان من الأمور المؤكدة أن المدينة الأفلاطونية أصبحت منتشرة فى العالم كله كما يقول شاتليه (١) ، فلا يقل عن ذلك صحة أن حلم أفلاطون لم يتحقق تحقيقاً كاملا إلا بفضل الصيغة المسيحية التي أضفيت عليه .

وهـكذا فإن المجتمع المسيحى هو « أيضا » البيئة الطبيعية التى تنمو فيها الأساليب التـكنيكية . وليست هذه الأساليب مجرد إضافات ملحقـــة بالمنطق والميتافيزيقا واللاهوت والعلوم والعقيدة المسيحية ، بل إنها على العـكس من ذلك ، هى المـاهية الـكلية والنوعية للحضارة الغربية ؛ ذلك لأن الدين المسيحى بقدر مايبنى على عقيدة الخلق ، ويجعل منها مبدأ لـكل حقيقة ، يعطى نفسه الحق فى السيطرة على الـكون وضبطه والتحكم فيه . فالخلق هو ما يصدر عن الإرادة الإلهية ، وفـكرة الأساليب التـكنيكية تتحقق تحققاً كاملا فى هذه الهندسة الإلهية . فالأمر المؤكد أن أعلى ما تصبو إلى تحقيقه الروح التـكنيكية هو : الله بوصفه مهندس العالم ، وهذه الحقيقة تعلو على كل ما عداها ، وخاصة على فـكرة الطبيعة ، التى تخضع لأوامر قوة عالية لازمانية ، حاضرة فى كل شىء وقادرة على كل شىء . وهنا أيضا تـكشف العقيدة المسيحية عن طابع سياسى بالمعنى الدقيق ، ليس فقط بمعنى أن تركيب الـكنيسة لا يكاد يختلف عن تركيب المجتمعات الزمنية ، بل أيضا — بمعنى أعمق — لأن الـكنيسة تنشأ عن غريزة سياسية وعسكرية ، تتخفى وراء الوعود المتعلقة بالخلاص . فمن الملاحظ أن مشكلة «خلاص الروح» تشكل تحويرا وتدنيساً

---

(١) ف شاتليه F. Châtelet : أفلاطون . باريس ١٩٦٥ ، ص ٢٤٥ .

خطراً للقداسة ، نظرا إلى مضمونها المرتكز حول الإنسان ، والأهم من ذلك أنها تمارس ضغطا شديداً على الضمير عن طريق تقييده بسلطة دينية ، تقوم بدور الوسيط الذى يحقق التوبة والنجاة . ونتيجة لذلك لا يعود الإحساس بالقداسة هو الذى يؤكّد وينمّى ؛ بل إن الحقيقة المسيحية إنما تؤدى ، على عكس ذلك ، إلى سقوط العالم الدينى فى هوة المعقولية ، ونزع صفة القداسة عنه .

وبالمثل فإن فكرة التكنولوجيا المعاصرة تتحدد مقدما بوصفها ماهية العقيدة المسيحية. ففكرة المطلق، مفهومة بالمعنى اللاهوتى ، تنشأ عن الرغبة فى السيطرة التى اتضح لنا من قبل أنها هى أصل المنطق ، ومثل هذه السيطرة غير المشروطة هى الهدف الذى تضعه التكنولوجيا نصب عينها . ولهذا السبب كنا نشهد فى أيامنا هذه تحالفا يدعو إلى الدهشة بين الكنيسة والمجتمع الصناعى ، بحيث يستهدف هذا الأخير تلقى التأييد من الأولى حتى يصبح من الممكن إقامة « حلف رومانى Pax Romana » كامل ، يتيح للتكنوقراطيين أن يمضوا فى تنظيم العالم بطريقتهم، دون أن يعترضهم شىء ، مما يؤدى فى الوقت ذاته إلى التعجيل بنهاية المسيحية . وبهذا المعنى يمكن القول إن العقيدة المسيحية لا يتم تجاوزها أبدا . وعلى عكس ما يُعتقد فى كثير من الأحيان ، فإن المسيحية لا تجد صعوبة فى إيضاح موقفها بجلاء ، وإذا كان هذا « الإرجاء » يخلق أحيانا متناقضات داخلية عميقة ، فإنه يتمشى تماما مع الاتجاه السلوكى الذى ظلت الكنيسة تسير فيه دائما . فمن الآن فصاعدا تصبح الحالة الدائمة للكنيسة هى حالة المجتمع الذى نعيش فيه جميعاً ، وحتى حين يختفى كل أثر للإيمان الدينى ، سنظل نعيش فى ظل هذا النوع من المسيحية ، وفقاً لقوانين اللاهوت الذى انتزع منه طابعه المسيحى الأصيل [1] . وهكذا فإن المجتمع العقلانى التكنيكى

---

(١) فيما يتعلق بالمذهب المسيحى Christentum والمسيحية Christianity ، يلاحظ هيدجر فى كتابه « مسالك الغابة Holzwege » (ص ٢٠٢ — ٢٠٣) : « أن المذهب المسيحى هو عند نيتشه المظهر التاريخى والدنيوى والسياسى للكنيسة، ولشهوة=

قد خلق هـذه العقيدة لـكى تلائمه . وفى مقابل ذلك فإن المسيحية تؤيد الأساليب التـكنيكية ؛ فهى تدعمها وتؤكدها فى أشد مظاهر الإيمان بعدا عن المعقول . وبدلا من أن يلحق أى ضرر بنظام المنطق، نتيجة لروح التدين الباطنة التى يتسم بها العصر الحديث ، فإن تلك الروح ، التى ينبثق منها الله بوصفه القيمة العليا للتجربة الدينية ، والتى تقوم أساسا على الالتزام الوجودى لعضو الـكنيسة — تقوّى من حضور المطلق ، وتدعم ، على نحو فريد ، ما هية التـكنيك ، منظورا إليه هاهنا على أنه قوة تنظيمية مسيطرة . كذلك فإن الأساليب التـكنيكية الحديثة ، ومعها العلوم الوضعية والمذاهب الوضعية الفلسفية ، تـكشف — على نحو لا يقل عن الميتافيزيقا الـكلاسيكية ذاتها — عن طابع مسيحى غيبى ، لا يستطيع أى منها أن يتخلص منه ، حتى مع تأكيدها أن المعقولية هى الاتجاه الطبيعى للإنسان الغربى .

كل ذلك يكشف عن عظمة هذه الحضارة وعن نقائصها فى الوقت ذاته . أما العظمة فلأن المعقولية قد مكنت الإنسان الغربى من أن يحرر نفسه من قدر معين من العبودية التى كانت قيداً على كرامته الإنسانية . وأما النقائص فلأن المنطق والعقل والتـكنيك ليسوا أبدا هم المصدر الأصلى الذى تستمد منه حياة الإنسان غذاءها . وفيما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة ، فإن على المعقولية أن تحرص دائما على ألا تحل محل الوجود ، وتتحول بذلك إلى عقلانية .

فهل هذه الحضارة تمر فى الوقت الحالى بفترة أزمة ، أم أنها تزداد قوة ؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال ، لأن التاريخ لا يزودنا بالمعايير التى نقيس بها

= السلطة عندها. فى إطار تـكوين الإنسانية الغربية والحضارة المسيحيـة لا يكون المذهب المسيحى بهذا المعنى هو نفسه الحياة المسيحية للعقيدة الإنجيلية . إن من الممكن أن تندرج حياة غير مسيحية بسهولة تحت المذهب المسيحى ، وتتخذ منها عاملا من عوامل القوة ، كما أن الحياة المسيحية ، من جهة أخرى ، لا تحتاج بالضرورة إلى المذهب المسيحى . ولهذا السبب لم يكن إجراء مناقشة أساسية حول المذهب المسيحى صراعا ضد ما هو مسيحى ، مثلما أن نقد اللاهوت ليس فى الوقت ذاته نقدا للإيمان الذى يفترض أن اللاهوت يقوم بتفسيره . »

الحضارة الكاملة ، والتى يمكننا بواسطتها أن نحكم على حضارتنا الخاصة . ومن الجائز أن القانون الشامل الذي يؤكد وجود متعارضات داخل التاريخ ، يقضى بأن نقول بوجود تقدم وتأخر فى الوقت ذاته ، بحيث يكون معنى ذلك هو استحالة الانتفاع من هذه الأفكار فى كتابة التاريخ الإنسانى . وعلى أية حال فليس هدفنا هنا هو الإدانة أو التبرئة ، فنحن لم نضع أنفسنا فى ذلك الوضع الواهم ، وضع القضاة الذين يصدرون حكمهم على التاريخ . بل إن هدفنا الأصلى ، الذى تعمدنا فيه أن نتخلى تماما عن روح التنقيب ، كان هو الوصول إلى الواقع التاريخى الذى ولدنا فيه ، والذى سيظل الإنسان فى مجتمعنا يولد فيه . ومن جهة أخرى فإن هذا النقد ، الذى نستخدمه هنا بالمعنى الكانتى ، قد أتاح لنا أن ننزع هالة الغموض عن عدد من الظواهر ، وهو أمر له ضرورته وفائدته .

أما عن معرفة الطريق الذى يحتمل أن تسلكه الحضارة بعد الآن ، فان هذا السؤال ، شأنه شأن أى سؤال عن المستقبل ، لا معنى له . غير أن هناك أمرا واحدا مؤكدا : هو أن هذا التاريخ سيظل يتحدد أساسا ، كما كان فى الماضى ، بالحركة الجدلية بين العقل واللاعقل ، وهى حركة من طبيعتها ألا تحقق كل التوقعات البشرية . فالوجود المجرد والوجود العينى يتجاوزان العقل ، حتى لو كان مطلقا . والإنسان الغربى ، شأنه شأن كل إنسان آخر ، لا يمكن أن يقنع بأية نزعة إنسانية ، أو بأى معنى نهائى مخفى فى الأعماق [1] . إنه إنسان يكتمل بقرابته من الكلى الشامل ، الذى لا يرفض الجزئيات بحال ، وإنما يستوعبها لكى يضفى عليها طابعها العينى الحقيقى ، والذى هو « شىء قريب : بل هو الأقرب ، الذى نتجاوزه دائما لا لشىء إلا لأنه هو الأقرب »[2] .

---

(١) هيدجر : مسالك الغابة ، ص ٢١٨ .

(٢) الموضع نفسه .

مكسيم رودنسون

السيولوجيا الماركسية

والأيديولوجيا الماركسية

ترجمة: د. محمد القصاص

١ — أفكار ماركسية أم نظام ماركسي ؟

تجرى كلمة الماركسية على الألسن بصورة متداولة . ويومئ استخدام هـذا المصطلح إلى وجود مجموعة متماسكة جيدة الترابط من الأفكار التى تـكون نظاماً اكتشف كارل ماركس خطوطه الموجهة على الأقل . ولابد أن يكون هـذا النظام يشتمل ، نظرياً إن لم يكن فى الواقع ، على مجموعة المشاكل العقلية والأخـلاقية بل والجمالية التى تطرح نفسها أمام البشرية . وأن يحمل معه على الأقل منهجا لحلها ، وأنه بالفعل، بالنسبة لـكثير من مريديه قد حلها ؛ أو على الأقل قدحل الجزء الأكبر منها . وادعاؤهم أنهم أنصار تفـكير مفتوح يرى أن هناك كثيرا مما يجب الـكشف عنه بل ومما تجب مراجعته تـكذبه فى الواقع معارضتهم لضروب الاستمرار وضروب المراجعة . ومن ثم فإننا لا نرى أن هناك ما يميز الماركسية بصفة جوهرية عن النظم الفلسفية التقليدية، بالرغم من كل ما قاله ماركس والماركسيون ضد ادعاءات النظم السابقة التى من هذا القبيل .

ونحن نعرف صيحة ماركس حين قال فى سنة ١٨٨٢ : « أنا لست مركسياً ! » نعم، إنها صرخة غضب موجهة أولا وقبل كل شىء نحو الاتجاه السياسى « للماركسيين » الفرنسيين . ولـكنها تخفى وراءها جانباً كبيرا من الحقيقة. ذلك أن ماركس لم يرد

إقامة نظام فكرى . وإنما عبر عن آراء حول ميادين مختلفة ، بعضها بعيدة المدى ، وبعضها عرضى محدود الأهمية . ولا شك أنها بالنسبة لبعض الميادين تشكل مجموعة متصلة تكون نظاماً من مقترحات منهجية أو حتى نظرية « إقليمية كاملة » . وهى مشتتة بالنسبة لميادين أخرى .

وبطبيعة الحال هناك رابطة بين هذه الدعاوى والأفكار والآراء المختلفة ، فهى من جهة تجر بعضها بعضا ومن الواضح أنها تكون نظاماً من حيث أن تفكير كل إنسان ومواقفه تكون نظاماً ، من حيث أن كل فكرة وكل موقف يمكن أن يفسر (مثاليا) لدي كل منا فى اتصاله بغيره من الأفكار والمواقف . ولكن ذلك من ناحية أولى، لا يعنى بالضرورة أن كل عنصر فى هذا النظام ليس له بديل يمكن تصوره ، بديل ممكن (وهنا ، فى أغلب الظن تطرح مسألة الحتمية نفسها). ومن ناحية ثانية ، وبوجه خاص ، ليس معنى ذلك أن هذه العناصر مرتبطة بعضها ببعض بمتطلبات الشيء موضوع التفكير . ووجودها فى النظام واختيار المفكر لها وطريقة ارتباطها بغيرها خاضعة أيضاً لشخصية الشخص وأفكاره السابقة وميوله النفسية وأفكار بيئته وعلاقاته بالآخرين ومتطلبات نشاطه ، إلخ. وحتى إذا كان النظام الذى نحن بصدده ضروريا بالنسبة لذهن ماركس (فى الحالة التى تشغلنا) فان ذلك لا يستتبع أن تكون هذه العناصر مرتبطة ضرورة بالنسبة لتحليل الواقع أو بالنسبة للمتطلبات اللاحقة لشك « فلسفى » فى ظروف اجتماعية وثقافية وعقلية معدلة .

وذلك ينطبق بطبيعة الحال على جميع المفكرين . ولنأخذ مثلا لذلك نظام أرسطو الذى يعتبر تماسكه أمراً لا شك فيه . فالمنطق الأرسطو طاليسى لا يزال ، فى معظمه صحيحاً فى مستوى معين ، والسياسة أو الأخلاق تتضمن كثيراً من الإشارات التى لا تزال قابلة الاستعمال ، أما علم الكون فلم تعد له إلا أهمية تاريخية .

هذا المثل يبين لنا أن تماسك تفكير ما يمكن أن يقدر بالنسبة لمجموع هذا التفكير أو بالنسبة (لمناطق منه) . ولما كان التماسك فى عرف الأذهان العادية يسود دائماً بالنسبة للشخصية الفردية ، فإن عدم التماسك كثيراً ما يكون كبيراً جداً بالنسبة للتوافق المنطقى للأفكار ، حتى ولو كانت هذه الأفكار تنتمى إلى ميدان

واحد بعينه . أما المفكرون والعلماءفيصلون بطريقة طبيعية إلى تكوين نظم تفكير «إقليمية» يسود فيها تماسك نسبى . ولكن لابد من وجود تفكير واسع النطاق لكى يتجاوز هذه المرحلة . وقد كان ماركس مفكراً واسع النطاق جداً . ولكنه لم يكن رجلا فوق الطبيعى (superman) ، فيمكننا أن نصل معه إلى درجة غير عادية من التماسك . ولكن هذا التماسك لا يكون كاملا . وتكشف لنا نظمه الفرعية عن درجة كبيرة من التماسك الموضوعى الداخلى (لتمييزه عن التماسك الذاتى بالنسبة لشخصية المفكر الكلية)وهى تختلف كثيراً من حيث درجة الصحة ، فالصحة الإجمالية لأحدها لا تستتبع بالضرورة الصحة الكلية أو الجزئية للأخرى . وبالتالى لا يمكن أن تكفى (قراءة) ماركس لكى ينكشف أمام أبصارنا ، عن طريق التفسير ، جوهر الأشياء أو حتى جوهر المجتمع البشرى .

ونحن نعرف أن العمل الجوهرى لماركس يتعلق بالاقتصاد السياسى ، أى أنه يتعلق عمليا بالبنية الاقتصادية الرأسمالية . وفى هذا الفرع تسود درجة عالية من التماسك الداخلى وإن لم يكن هناك شك فى أن بعض عناصره قابلة للتنافر وأن صحة بعضها (بل وصحة الخطوط الموجهة فيها) لاتستتبع صحة الجميع. ولكن اختيار هذا الميدان من الدراسات انبعث من نظام دعاو خاصة بالعلاقات بين الظواهر الاقتصادية والظواهر الاجتماعية الأخرى التى تضفى على الأولى أهمية خاصة فى حركة التطور التاريخى . هذا النظام من الدعاوى الذى يمكن تسميته بالنظام السوسيولوجى (وسنعود فيما بعد إلى الكلام على هذه التسمية) يتمتع هو الآخر بقدر عظيم من التماسك الداخلى . وينطوى على فكرة جمالية ، من مستوى عام جداً (أقل عمقا بكثير من النظام الاقتصادى وأكثر منه إيغالا فى التفاصيل) لدولابية المجتمعات الداخلية ، لا من جهة بنيتها الثابتة فحسب ، بل أيضا من جهة تطورها الحركى . وإذا كان هذا النظام السسيولوجى قد أوحى بالاتجاه نحو الدراسة الاقتصادية ، فإنه من غير الأكيد أن يكون التماسك تاما بين الاجتماع والاقتصاد . فإن الدراسة

الاقتصادية وما يصحبها من عمل سياسي قد أديا إلى مراجعات جزئية للدعاوى السسيولوجية التي كانت قد رسخت من قبل .

ومن جهة أخرى أخذ التفكير الاجتماعي نفسه يستمد معينه ليس فقط من الاستطلاع العلمي الذي لا يكل ، بل أيضاً من حاجة أخلاقية ، تقوم على أساس الحنق على المجتمع الرأسمالي والموجه نحو التغيير الخير للعلاقات الاجتماعية عن طريق الثورة. وينبعث هذا الاهتمام من أيديولوجية سابقة، ضمنية جزئيا على الأقل ، وكان من شأنها أن تؤدي إلى أيديولوجية معدلة إن قليلا وإن كثيراً ، ومتماثلة ، صنعت من نتائج الدراسات الماركسية ، ومن نشاطه السياسي ، ومن الظروف التاريخية .

وهكذا نرى أن أفكار ماركس ودراساته الموجهة نحو تفسير الواقع وكذلك اتجاهه المذهبي (الإيديولوجي) الموجه نحو تعديل الواقع ، نرى أن ذلك كله ينحصر في إطارات ويستند إلى مبررات من آراء فلسفية عن الطبيعة والعالم ، عن الإمكانيات والوسائل القادرة على تعريفنا به وتعديله . فهناك إذن فلسفة ما ركسية في حالة تبعية قصوى للايديولوجية الماركسية . ومن التالية(بالمعنى الماركسي التقليدي) أن نقول ، كما يفعل الكثيرون من الماركسيين ، بأن أيديولوجيته تعتمد، على العكس من ذلك ، على اختياراته الفلسفية . فماركس لم يحرر آراءه الفلسفية إلا في فترة لم يكن فيها قد تناول بعد العمل الذي قام به في فترة نضوجه . ولسنا نعرف التعديلات التي أدخلها عليها فيما بعد إلا عن طريق ملاحظات غير صريحة وعن طريق تحليل مفترضات قبلية ضمنية لهذا التصرف أو ذاك من تصرفاته .

ومن الناحية التاريخية تعتبر آراؤه الفلسفية التي كونها في شبابه ، تحت تأثير أيديولوجيته الضمنية المبدئية وما تلقاه من تعليم ، هي التي قادته إلى تناول دراسة الدولابيات(١) الاجتماعية . كما أنه قد استعان بالتعليم الذي تلقاه والقراءات الكثيرة (وإن كانت كلها في ميدان محدود) التي قام بها وبتجاربه الخاصة وتجارب إنجلس لتكوين فكرة ما عن الدولابيات الاجتماعية ، لتكوين مذهب سسيولوجي معين . هذا المذهب هو الذي قاده إلى دراسة الاقتصاد السياسي ، وهو الذي صبغ النتائج

(١) ترجمة كلمة mécanismes . المترجم .

التى وصل إليها بصبغته. وكل هذا التطور قد تم على أساس أيديولوجية مبدئية أصابها التعديل خلال الطريق إن قليلا وإن كثيراً .

يمكننا إذن أن نميز فى آراء ماركس ودعاويه عدداً ما من النظم «الإقليمية» : فلسفة واجتماع واقتصاد وأيديولوجية . ويمكننا هنا أن نقول ، من الناحية المنهجية ، إن تماسكها وتوافقها الموضوعى فيما بينها لا يبدوان فيها منذ البداية. وعلى المفسر أن يقوم بتبيانهما إذا افترض وجودها . ومن جهة أخرى سنعمد هنا إلى ترك الفلسفة والاقتصاد جانبا ، إلا فيما يتعلق ببعض الملاحظات المقتضبة . فغرضى ينحصر فى أن أفحص ، من حيث الخطوط العريضة ، العلاقات القائمة بين الدعاوى الاجتماعية لماركس والماركسية ، من جهة ، وبين الاتجاهات الإيديولوجية للحركة الأيديولوجية الماركسية (بما فيها الاتجاهات التى تبرز بالفعل لدى ماركس) ، من جهة أخرى .

٢ — أسس السسيولوجية الماركسية :

سبق أن ذكرنا أن ماركس قد أصدر ، ولا سيما فى « الأيديولوجية الألمانية» Deutsche Ideologie سنة ١٨٤٥ ، سلسلة من الدعاوى حول بنية المجتمع الإنسانى وتطوره الحركى (ديناميته)، ويغلب على الظن أنها روجعت جزئيا فيما بعد (ولكن بصورة ضمنية على وجه العموم) .ويمكن لهذه الدعاوى أن يعتنقها باحثون (وهذا ما حدث للجزء الأكبر منها بالفعل) دون أن يشاركوا ماركس فى آرائه الفلسفية أو الأيديولوجية . ذلك أنها قابلة للانفصال عنها من الناحية النظرية على الأقل. فيجب إذن أن نمنحها صفة النظام ذى النمط العلمي،دون أن نعتنق بالضرورة فكرة وضعية العلم . ولما كانت هذه الدعاوى موجهة نحو تقنين القوانين والثوابت الدينامية ، فإنه يمكننا — كما يريد البعض ممن ينفرون من مصطلح السسيولوجيا أن يفعلوا (لاعتبارات أيديولوجية بحتة) — أن نعتبر هذا النظام نظرية للتاريخ البشرى . ولكن الأفكار الخاصة بالتطور الحركى التاريخى تبدو فيه كنتائج فكرة لمجموع البنية الخاصة بأى مجتمع إنسانى ممكن . والتاريخ

الذى يعالجه ماركس فى نصوصه غير الفلسفية — ليس أى تاريخ ، وإنما هو تاريخ المجتمع البشرى (ومن الأفضل أن نقول تاريخ المجتمعات البشرية) ؛ وهو يقوم على أساس التخطيطات الأولى لعلم المجتمع . لذلك لا نرى من الخطأ أن نعود فنطلق عليه مصطلح السسيولوجيا الذى ابتكره أوجست كونت . أما أن نطلق على هذا النظام من المقترحات اسم (المادية التاريخية) كما جرت العادة بين جانب كبير من أنصار الحركة الإيديولوجية الماركسية من أجل أسباب إيديولوجية بحتة ، وكما تقترح أيضا المدرسة الألقوسية ، فإن ذلك أمر يخلو من كل معقولية . وليس له من معنى إلا الخلط بين اسم علم واسم دعوى خاصة إهدارا للطريقة التى يجب أن يتصور عليها منهج هذا العلم أوموضوعه النوعى . ذلك أنه إذا كان لدينا أى تصور مثالى للمجتمع أو للتاريخ ، حتى ولو قام البرهان القاطع على زيفه ، أفلا يكون ذلك أيضاً نوعا من السيسيولوجيا أو نظرية للتاريخ ؟ لقد جرت العادة منذ الأزل على تسمية أى علم بمصطلح يشير إلى موضوعه النوعى ومستقل عن الدعاوى التى تتعلق به . وليس هناك من أحد يتكلم عن مركزية الشمس (أو عن الكوبرنيكية) ، ولكنهم يتكلمون عن الفلك أو النظام الشمسى .

وتقوم السسيولوجية الماركسية على أساس مبادىء أولية للغاية ، بل تعتبر بديهيات . وقد فرضت نفسها بهذا الاعتبار قبل ماركس بزمن طويل على جميع السياسيين الواقعيين بل وعلى جميع المفكرين الواقعيين فى مادة التاريخ أو السياسة . ويعتبر ماركس تأليفاً من أعم النتائج كلها التى يمكن استخلاصها من ملاحظة التطور التاريخى (١) . وإذا كانت هناك حاجة إلى التركيز عليها ، فذلك بصفة جوهرية لأنها ، أولا ، منكورة فعلياً أو نظرياً ، برغم بداهتها ، من جانب

(١) Deutsche Ideologie فى كتاب : ك . ماركس ، « الكتابات المبكرة » K. Marx, Die Frühschriften الذى نشره س. لاندشوت S. Landschut ستتجارت ، كرونر Kroner ، ١٩٥٣ ، ص ٣٥٠ . قد أخذت ذلك عن ترجمة م. روبل Rubel بعنوان ، كارل ماركس ، محاولة لترجمة عقلية .

Karl Marx, essai de biographie intellectuelle ، ط باريس ، ريفيير ، ١٩٥٧ ، ص ١٩٤ .

الأيديولوجيين (يقول ماركس فى إحدى مسوداته . « تكاد تنحصر الأيديولوجية بأسرها تارة فى اقتراح تصور غير معقول [Verdrechte] للتاريخ، وتارة فى التغاضى التام عن التاريخ(١) »)، وثانياً لأنه لابد، من أجل بناء نظرية صحيحة للمجتمع والتاريخ، من الانطلاق ابتداء من هذه المقدمات والاحتفاظ بها حاضرة دائماً فى أذهاننا .
ولنلاحظ أنه من المستساغ ، بل من الضرورى ، بل ومن المهم جداً أن نبحث خلال المفترضات الضمنية فى خطوات كتابه « رأس المال » بوجه خاص ، عن كيفية تطور المشاكل الماركسية فيما بعد ، ولكن هذه المشاكل التى حظيت بالثراء والتطور لا تتناقض فى أية لحظة مع المقدمات السسيولوجية العامة المعروفة فى « الإيديولوجية الألمانية Deutsche Ideologie مهما كانت العلاقات بين موقف ماركس فى هذا المؤلف وأفكاره السابقة أو اللاحقة .

ويمكننا أن نحرر ، على النحو التالى ، أساس ذلك الموقف السسيولوجى(٢).
يتكون مجتمع ما حول مهام جوهرية لا يمكن أن يبقى بدونهـا . والمجتمع كالفرد يجتهد أولا وقبل كل شىء فى أن يواصل وجوده (أكثر من جوهره) وأن يخلده، وإذن فى أن ينتج وسائل وجوده وأن يكرر إنتاجها إذا أتى عليها الاستهلال ، وأن يكرر نفسه بنفسه . والعلاقات المنظمة حول هذه المهام (وليس الشعور بهذه العلاقات أو سلكها فى صورة نظريات) لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية بأسرها . ولابد لجميع الأشكال الأخرى للعلاقات وللشعور أن تتكيف تبعاً لهذه العلاقات ، فى حين أن العكس ليس صحيحاً . وأقل ما ينبغى لتنظيم المجتمع وشعوره هو ألا يعرقلا هذه المهام . فهناك عملية لاشىء فيها من التجريدية تتحلل إلى ضروب عديدة من

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٤٦ . ترجمة روبل ، نفس المرجع ، ص ٧٧
(٢) أرانى هنا أطور بعض الشىء تحليلاتى فى كتابى «الإسلام والرأسمية » ، Islam et capitalisme ، ط باريس ، س ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

ضغط « طبيعة الأشياء » (ولا يُشعر بها فى غالب الأحيان) ، ومن شأنها أن تميل إلى استبعاد كل أشكال التنظيم والشعور التى كان يمكن بتطورها الذاتى أن تصبح عقبة فى سبيل إنجاز هذه المهام . كما تميل أيضاً إلى العمل على اتخاذ أشكال التنظيم أو الشعور المواتية لهذه المهام الجوهرية ، وذلك لا يتم دون صعوبات وضروب توتر وكفاح ، ودون أن تترك « آثاراً منها » .

وهناك قانون آخر لاحق بالمشاكل الماركسية فى السسيولوجية — ولكن إبراز ماركس له أقل تصريحاً من سابقه — تمكن صياغته هكذا . ففضلا عن المهام الجوهرية المشار إليها فيما سبق والتى يفرضها كل مجتمع على نفسه ويمكن تسميتها المهام الجوهرية الأولية ، فإن المجتمعات ، كالأفراد بل وسائر المجموعات من أى نوع كان ، تتجه ، بصورة كامنة على الأقل ، إلى إظهار بعض التطلعات التى يمكن أن تنفتح على ما نستطيع أن نسميها بالمهام الجوهرية الثانوية . وهى تطلعات يتحتم الدفاع عنها وعند اللزوم تصعيد مزاياها المادية والمعنوية التى تستمتع بها المجتمعات بصورة جماعية (ويكون هذا الدفاع وهذا التصعيد عن طريق المنافسة وعند اللزوم عن طريق الكفاح) . وكذلك تصبح هذه التطلعات ، فى ظروف معينة ، على أكبر جانب من القوة ، لا تكاد تقل قوة عن ضروب الدفع الأولية التى تدفع إلى متابعة تحقيق المهام الجوهرية الأولية . وهى الأخرى تدعو إلى الشعور بها عن طريق ضغوط غير محسوسة وفى غالب الأحيان غير شعورية ، على مستويات البيئة الاجتماعية جميعها . ولكن المجتمع يمكن أن ينقسم إلى مجموعات وظيفية هرمية النظام ومتعارضة يطلق عليها ماركس اسم الطبقات (ويحدث هذا التقسيم دائماً أعلى قاعدة معينة). وتتصور هذه الطبقات المهام الاجتماعية فى مستواها هى وليست فى مستوى المجتمع الإجمالى . وفى هذه المجتمعات الهرمية تميل تطلعات الطبقة المسيطرة إلى أن تتصور على أنها تطلعات المجتمع الإجمالى . وهنا أيضاً تميل الأشكال الأخرى للعلاقات الإنسانية والشعور — وإن كان ذلك بصورة أقل قسراً — إلى التكيف تبعاً للعلاقات التى تتكون حول

هذه التطلعات ، فى حين أن العكس غير صحيح . وأقل ما يتحتم على تنظيم المجتمع وشعوره هو ألا يعرقل متابعة المهام المتصورة تبعاً لهذه التطلعات .

وماركس لم يعبر عن هذا القانون أو هذه الراسية إلا فى صيغ ملغزة ، فلسفية ، مستعارة من لغة هيجل . « إنها الناحية السيئة التى تنتج الحركة التى تصنع التاريخ بإثارة الصراع . . .) وهو يقول أيضا فى مناظرته مع برودون Proudhon إن الطبقة تصبح ثورية . ويتأتى لتغير حادث فى القوى المنتجة أن يحدث عدم اتساق معين فى علاقات الإنتاج يؤدى إلى تراكم الأضرار بالنسبة للطبقة المحرومة والخاضعة (« الجهة السيئة ، ضرر المجتمع ») وكذلك بالنسبة للمجتمع الإجمالى . « لما كان من الضرورى أولا وقبل كل شىء عدم الحرمان من ثمار الحضارة ، من ثمار القوى المنتجة المكتسبة ، فلابد من تحطيم الإطارات التقليدية التى اكتسبت فيها [1] . » ويعرض هذا القانون فى صيغة بديهية فيقول « هل مما يثير الدهشة أن ينتهى مجتمع قائم على تعارض الطبقات إلى التناقض الوحشى ، إلى الالتحام بالأيدى باعتباره الحل الأخير[2] ؟ » ومماله دلالته البالغة أنه لا يستعير خاتمته من مفكر نظرى أيا كان ، بل من كاتبة مفروض أنها استخلصتها عن طريق الحدس من التجارب الجارية البشرية المعروفة تاريخيا ، وهى جورج صاند : [مادامت هناك طبقات ومنازعات طبقية] ، « عشية كل تعديل عام للمجتمع ، فستكون الكلمة الأخيرة للعلم الاجتماعى دائما هى : « القتال أو الموت ، الصراع الدامى أو العدم . على هذا النحو نطرح المسألة نفسها بصورة لا تقبل الجدل » . (جورج صاند[3]) . فكل الطبقات التى استولت فيما مضى على السلطة سعت إلى تثبيت المركز الذى وصلت إليه عن طريق إخضاع المجتمع بأسره للشروط التى توفر لها رفع دخلها (den Bedingungen

---

(١) تعاسة الفلسفة فى ك ، ماركس ، المؤلفات الاقتصادية ، جـ ١ ط جليمار ، ١٩٦٣ ، (مكتبة البلياد) ، ص ٨٩

(٢) نفس المرجع ، ص ٩

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

« . [1](ihres Erwerbes

وهكذا تبرز أسس الجملة التعميمية الشهيرة ذات الصبغة الغنائية للبيان : تاريخ أى مجتمع حتى يومنا هذا ليس شيئاً آخر غير تاريخ صراع الطبقات . » وهى جملة أخذ انجلس على عاتقه حصر مرماها ، وإن لم يفعل إلا أن عبر عن رأى متداول فى تلك الفترة . ولـكن ماركس لم يحاول قط أن يبحث عن متضمناتها التى تتجاوز صيتها بمدى بعيد . وهذه السلبية لها أصولها الأيديولوجية التى سنحاول استخلاصها فيما سيلى . ويبدو لى أن الطريقة التى بها أصوغ القانون الـكامن متضمنة فى سلسلة من خطى تفـكير ماركس والماركسية وإن كان لها ما يبررها باعتبارها تعميما للتجربة التاريخية .

وفى وسعنا أن نقرر ، كنتيجة لذلك تعضدها الملاحظة العملية (ومنها ملاحظة رجل العمل التى تـكاد تـكون ملاحظة تجريبية) ، أنه من النادر أن توجد نية أو ظاهرة أو مصادفة أو حادثة من الحياة الاجتماعية يمـكن تفسيرها بتطـور مستقل استقلالا تاما يجرى فى دائرة مغلقة من دوائر التنظيم أو الشعور — وهذا على عكس المفترضات الساذجة للتصور العامى المتداول « المثالى » للتاريخ . ويبدو من المستحيل أن هذه الأمور لا تدخل فى اعتبارها — على مستوى معين من التسلسل السببى — العلاقات الناشئة حول المهام الجوهرية (أولية كانت أم ثانوية) التى تميل إلى التـكيف تبعاً لها . والشعور بالذات — الذى له دور وظيفى فعال للتنسيق والتعبئة فى الحياة الاجتماعية — من شأنه أن يتـكيف تبعا لذلك بصنع تفسيرات ثانوية مؤطرة بتخطيط تبريرى عام ، وتبريرات ، ونسج نظريات مثالية تذهب إما إلى حد الروح المذهبى فى الدفاع ، وإما إلى حد الخيال المسرف فى الهجوم (ذلك إذا

---

(١) ك. ماركس وف. انجلس ، البيان الشيوعى ، مثلا ، فى تاريخ وسياسة
(Marx-Engels, Studienausgabe, III) جـ١ Geschichte und Politik ،
فرانكفورت ، فشر ، ١٩٦٦ ، ص ٦٨ ؛ مترجمة فى ك. ماركس ، المؤلفـات الاقتصادية (وقد عدلت فيها بعض الشىء) جـ ١ (البلياد) ، ص ١٧٢ .

أخذنا بكليات مانهايم Mannheim . ولابد لكل دراسة للتفسيرات (ولو كانت ضمنية ، فى صورة وقائع تنظيمية) التى يقدمها الشعور الاجتماعى لمضمونات الشعور بوجه عام ، أن تتضمن دراسة لتكيفها الشعورى واللاشعورى ، وأن يتجنب أخذها على الاعتبار الذى تدعيه لنفسها ، كما يحدث فى أغلب الأحيان : أى على أنها نتيجة لنشاط شعورى تام ، على أنها انعكاس خالص قائم بذاته للواقع الموضوعى .

وكل سسيولوجيا تهمل نظريا أو [و] عمليا هذه المبادئ يمكن أن توصف بأنها غير ماركسية ، أما كل تلك التى تأخذها فى اعتبارها الأول فهناك مايبرر وصفها بالماركسية . وهكذا أمكن الكلام على فلك كوبرنيكى وبيولوجيا تطورية ، ما دامت المكتشفات الأساسية لكوبرنيكوس وداروين لم تكن قد اعترف بصحتها من الجميع . غير أنه من المحتمل أن تظل المقاومة للاعتراف العام باكتشافات ماركس وقتا أطول بكثير (وربما إلى الأبد) لأنها تستند إلى بواعث إيديولوجية قوية

٣ — ايديولوجية ماركس :

باعتبارها أصلا للسسيولوجية الماركسية .

لم يكن ماركس مفكرا قادراً فحسب ، بل كان أيضا مكتشف قوانين سسيولوجية واقتصادية ، كان مؤسس أيديولوجية وحركة أيديولوجية توجهها هذه الأيديولوجية .

ووظيفة الأيديولوجية أن تقدم توجيهات عمل فردى وجماعى . وهى تصدر عن تصور مقيَّم للعالم الذى تتكون عناصره المختلفة متأثرة بعوامل متنوعة.وتختار قيمة أو قيما عليا تعمل على انتصارها بالنسبة لموضوعات (أو أشياء حسبما يراد) : الأنية نفسها ، المجموعة بتعاريفها المختلفة ، ولكنها فى غالب الأحيان المجموعة الجنسية التى هى الأمة. الإنسان دون اعتبار لأى مجموعة، وأخيرا العلة الأولى . وحول هذه القيم وهذه الموضوعات أو الأشياء ذات القيمة تتكون وتنعقد أيديولوجية تتطلب أيضا اختيارات على مستويات أخرى لتكتسب بعض القوام .

وقد بدأ ماركس ، كما تقدم ذكره ، من اختيار أيديولوجى سابق يحتل مكانه فى تقاليد معينة ، تقاليد القرن الثامن عشر . والقيم التى صوت فى جانبها هى الحرية والمساواة والإخاء بالنسبة لجميع بنى الإنسان . هذا الاختيار المبدئى هو الذى أوحى إليه بميدان دراساته وكان له أثره فى نتائجه العلمية ، إذ جعله ينفر مثلا من الاستنتاجات التى يبدو له من الصعب التوفيق بينها وبين تلك النتائج أو من طرح مشاكل مسرفة فى التعقيد لم يكن لديه الوقت ولا الميل إلى تناولها .

واختياره هذا ليس خاصاً به بأية حال . كما أن مشاكله الإيديولوجية المبدئية هى مشاكل اليسار الأوروبى كله فى تلك الفترة .وقد كانت المسألة الكبرى تنحصر فى استخلاص دروس الفشل أو النجاح الغامض من الثورة الفرنسية . وهذا الجو يذكر بقوة بجو مثقفى اليسار الأوروبيين بعد انتزاع جذور الاستالينية . فهل يتحتم التسليم أم متابعة الحلم فى وجود مجتمع يتفق مع الحق والعدل ، وفى هذه الحالة الأخيرة كيف الوصول إلى ذلك وعلى أى أسس ؟

وماركس فلتيرى من حيث التربية وقليل الميل إلى اللصوق بالقومية بسبب تقاليده الأسرية،وكان مولعاً منذ عهد التلمذة بالنموذج الإنسانى الذى «يخدم الإنسانية على خير وجه(١) » و «مثالياً» كما قال أكثر من مرة فى خطابه إلى والده بتاريخ ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٧(٢) ، أى أنه يرفض الفردية . وسيكون الإنسان موضوع أيديولوجيته .

فميله للكفاح السياسى (حيث نراه يجيب بناته فى « اعترافاته » عن ستينات

(١) بحث نهاية — الدراسة الثانوية (أعمال ماركس ، مجلد ١ ج١ ـ ٢ ص ١٦٤-١٦٧) تذكره من ترجمة ب . نيكولايفسكى B. Nicolaïevski وا. مينشن — هلفن O. Maenchen-Helfen كارل ماركس ، ترجمة فرنسية ، باريس ، جليمار ، ١٩٣٧ ، ص ٢٠ وما يليها .

(٢) المكتابات الأولى ، ص ٢ و ٦ ، كذلك مثلا ، « نقد فلسفة هيجل السياسية ، Kritik der Hegelschen Staatsphilosophie » نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(القرن الماضى قائلا : «فكر تكن عن العادة ؟ الكفاح» وطموحه (بالمعنى النبيل للكلمة)،وشمول نظرته كانت تحول بينه وبين الإقبال على العمل الجزئى،أى خدمته الإنسان باعتباره عالماً ، باعتباره أستاذاً ، باعتباره فرداً مرتبطاً بإنجاز مهمة متواضعة فى مكان معين . كان ذلك كله (ومعه واقعيته) يحول بينه وبين الاعتماد على طريق بطىء لتحسين حال الإنسان : طريق التربية والتعليم الخلقى والتقدم الفنى ، الخ . هذه السمات الخلقية تجعله ينحاز لجانب التقاليد المتفائلة التى تبرر شدة نشاطه السياسى والاجتماعى على أساس إيمانه بإمكانية تحسين حال المجتمع تحسيناً جذرياً ، وبالتالى ، ومن هذا الطريق فعلا ، تحسين حال الإنسان . وقد ثبت أقدامه فى هذا الطريق التأثير النظرى للمادية الحسية التى انتشرت فى انجلترا وفرنسا خلال القرن الثامن عشر والتى تقول بأن الظروف والأوضاع تشكل الإنسان .

إن شمول نظرته وطموحه العقلى هما اللذان جعلاه يحاول منذ شبابه الأول ، أن يدمج آراءه ومعارفه فى نظام كلى وأن يبررها على هذا النحو . وإذا كانت قد اجتذبته المعرفة الصوفية gnose الهيجلية التى ظل مبهوراً بها طوال حياته ، فقد أبعده عنها الاتجاه الهيجلى (أو المتأثر بالفلسفة الهيجلية) نحو التوفيق بين الواقع والفكرة على أساس قبول الواقع . فهو منذ البداية وليس فقط منذ البحوث التى حول فورباخ Feuerbach لم يرد أن يقبل الفلسفة إلا بمقدار مايؤدى تحقيقها إلى تغيير العالم(١) . وفى التاسعة عشرة من عمره كان من الدروس التى تلقاها أن محاولته لبناء نظام تأليفى ميتافيزيقى قادته « إلى أحضان عدوه ، كما تفعل جنية البحر(٢) . وإذا كانت فلسفة فورباخ الإنسانية الجذرية وكذلك نقده لهيجل قد ملآه حماساً ، فإن دراساته لعلم الإنسان لم تلبث أن تسلك معه سلوك « جنية خداعة » أخرى . وكان لابد له من هيكل مذهب آخر لكى يبرر له كفاحه المتفائل الذى أصبح مبدأ. وإذا كانت كل فلسفة تقوده بعيداً عن هذه البديهة،فقد كان مسوقاً ، كما قال فى رسالته

(١) رسالة الدكتوراه فى مؤلفاته الأولى ، ص ١٢ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٨ ، وقارن ص ١٥ من المدخل .

للدكتوراة ، أن يسلك مسلك تيميستوكل Thémistocle فى « تأسس أثينا جديدة على عنصر جديد(١) »هذه هى النقطة البؤرية فى نقده لبرينو باور Bruno Bauer

هذه هى الفروض الأيديولوجية الأولية التى طرحت بصورة ضمنية ضرورة الثورة فجعلته أولا يرفض مباشرة أن الثورة قد وقعت بالفعل ، وبعد ذلك دفعته إلى البحث عن قاعدة ، عن أرض صلبة تنطلق منها فى نهاية الأمر الثورة الحقيقية التى فلتت من روبسبيير وخانها نابليون . فالمتطلبات الأخلاقية التى أدت إلى الانضمام للثورة الفرنسية لا إلى قيامها قد عجزت عن أن تحقق نفسها لأن الجمهورية الديمقراطية لم تنته إلى تغيير الطبيعة الإنسانية الذى نادى به روسو بالذات ، أو بالأحرى لم تنته إلى إعادة تغييرها ، إلى عودتها إلى حالتها البدائية ، حالة التطابق التام بين الفرد والإنسان الاجتماعى . إنها لم تفعل أكثر من أن أعطته حقوقاً . ذلك أن أنانية الإنسان البغيضة ، تلك الأنانية التى ينبغى التغلب عليها ، لم يستطع تجاوزها من جراء أن الحصول على المساواة حدث على مستوى الدولة ، نظرياً ، فى شكل حقوق ممنوحة ، وليس على مستوى المجتمع المدنى ، محلياً ، فالتحرر السياسى لايعنى التحرر الإنسانى . لقد ألغيت « الطوائف الثلاثة » ولكن لم يكن معنى ذلك أن الثورة قد تمت كما يقول البورجوازيون وهيجل . فقد تدرجت « فى قلب المجتمع نفسه ... فى مجالات فى حالة تحرك دائم ، على مبدأ التحكم البحت » تميزات أخرى تقوم على معايير من المال والتعليم . فالبورجوازية « قد حررت المجتمع كله ولكن فقط بافتراض أن يوجد المجتمع كله فى موقف هذه الطبقة ، أى أن يمتلك ، مثلا ، أو يستطيع أن يحصل ، كما يحلو له ، على المال والثقافة » . الثورة إذن لاتزال واجبة التنفيذ .

وصراع الطبقات الذى كان يسلم به كل الكتاب البرجوازيين كمبدأ للتفسير فى الماضى ، هل يظل صحيحا بالنسبة للمستقبل ؟ نعم ، قد يكون قد تم صراع الطبقات

---

(١) فى المسألة اليهودية Zur Judenfrage فى : مؤلفات كارل ماركس ، و ف. انجلس ، مجلد ١ ، ج ١ ، برلين ديتس Dietz ، ١٩٦١ ، ص ٣٧٠ .

(٢) فارن م. روبل ، كارل ماركس ، ص ٨٤ .

القائمة على القانون ، الطوائف (états, Stände) ، ولكن انتصار الطائفة الثالثة لا يعنى انتصار الإنسان . فالإنسان الأنانى ماثل دائماً ، وحقوق الإنسان حقوق شكلية ، « الدولة تظلم والقانون يزيف » والطوائف Stände تفسح المجال للطبقات القائمة على المال .

ونحن نعرف أن ماركس كان ، فى هذه المرحلة ، يتردد فى الاختيار الذى يتخذه . وإذا كانت الثورة النهائية لم تصنع ، فكيف نصنعها . ومع من ؟ إن واقعيته جعلته يرفض فكرة قيام ثورة عن طريق النقد النظرى . كما أن شفافيته ومتطلباته الأخلاقية وكفاحه جعله ينبذ فكرة أنه لم تعد هناك حاجة لقيامها . والمذاهب التى تمثل أمام ذهنه لإحداث الثورة : الشيوعية والاشتراكية المثالية (اليوتوبيه) ليس فيها ما يجذب ذكاءه النظرى . وفى باريس نراه يتعرف على طبقة الكادحين (le prolétariat) وعلى مفكريها اليوتوبيين . وقد عملت تجارب إنجلس ومقالاته على تعضيد تجاربه المباشرة ودعمها . فاكتشف الحقيقة الواقعة لكفاح الطبقات فى المجتمع البورجوازى ، حقيقة الطبقة الكادحة ، الطائفة الرابعة ، تلك الطبقة التى رأى أنها هى وحدها الجديرة بإيصال ثورة الإنسان الكلى إلى نهايتها . وقد تعلم من إنجلس أن الاقتصاد السياسى يمكن أن يزوده بتحليل مشخص علمى لهذا المجتمع ولهذا الكفاح الطبقى . إنه ينقد مذاهب الثورة الاجتماعية الحالية من النشاط السياسى والمذاهب التى ترى فى الثورة السياسية الحالية من الروح الاجتماعى هدفا كافيا . فتغيير الدولة لا يكفى ، بل لابد من محو الملكية الخاصة ومحو الدولة .

على هذه الأسس المستوحاة من الأيديولوجية سيقوم ماركس بتكوين نظامه السيولوجى ، وابتداء منها سينطلق فى الدراسة الاقتصادية . أما الأسباب التى أوحت إليه بإبراز دور الإنتاج وإعادة الإنتاج فترجع إلى ضرورة استبعاد نظريات الثورة ذات النشاط النظرى البحت ، الثورة السياسية البحتة ، تلك النظريات التى تعتبر الدولة البورجوازية الديمقراطية كافية لكل حاجات الثورة ، التى تقدر أن المطالب المعنوية والدينية يجب أن تكون كافية لتوجيه الثورة .

والإلحاح فى الكلام على ميل المجموعات الاجتماعية إلى الوصول إلى أعلى حد فى مصالحها ليس له منبع إيديولوجى أو سلبى غير هـذا المنبع . وانعدام التسامى والاصطباغ بالطابع الأيديولوجى فى المجتمع البـورجوازى — (أى الانطلاق من مبدأ الاقتناع بأن الثورة الفرنسية لم تتم) — هو الذى دعا ماركس إلى أن يعكس فى المستوى النظرى رؤيته للكفاح داخل الطبقات الاجتماعية وبينها ، ذلك الكفاح الذى مارسته منذ الأبد السياسات التى تتمتع بالصفاء والواقعية .ومعنى ذلك بكل بساطة العدول الصريح عن السذاجة (سواء أكانت قائمة على الصدق أم على النفاق) . . . على الأقل فيما يتعلق بالمجتمع البورجوازى أو مجتمعات الطبقات التى سبقته .

والمنبع الأيدلويوجى المحتمل لهذه الدعاوى لا يستلزم بأية حال عدم صحتها العلميـة . ذلك أن الأيديولوجية يمكن أن تضرب على المعنيين بالعمى كما يمكن أن تضىء أمامهما السبيل . إنها تقوم على إدراك واقعى من خلال منشور . وفى بعض الظروف يمكن للمنشور أن ينقل صورة صحيحة نسبياً . وهناك كثير من الأفكار العلمية التى ترجع إلى أصل أيديولوجى . غير أنه من المهم أن يجرى إعدادها ، أيا كان أصلها ، تبعاً لمتطلبات النهج العلمى . وقد أدت بماركس رؤيته الأيديولوجية المبدئية إلى تعميمات سليمة ذات طابع علمى (هذا على الأقل فى رأيى) يجب أن تكون أساساً لكل دراسة للمجتمع البشرى على مستوى معين . وليس معنى ذلك أن الصياغة التى صاغها فيها ، تلك الصياغة الإشارية ؟ بل الضمنية فى بعض الأحيان والغارقة فى لغة مزدحمة بالأخباث الفلسفية ، تعتبر مرضية دائماً . إنها فى حاجة إلى مزيد من الإعداد والتحرير .

٤ — ضروب التناقض بين سيسيولوجية ماركس وأيديولوجيته

لم تقتصر أيديولوجية ماركس على هذا الدور الإنشائى المثمر . ففى نفس الوقت الذى كانت تتطور فيـه وتتحدد ، كانت تقود ماركس إلى نتائج لا تعضدها مبادئه السسيولوجية بل وتتناقض معها . ذلك أنها إذا كانت قد هدته إلى أساس انطلاقته العلمية ، فإنها أيضاً قد أعمته مراراً عديدة .

والأيديولوجية الماركسية أيديولوجية « يوتوبية utopique » ، بالمعنى الذى لهذا المصطلح لدى مانهايم Mannheim ، أى أنها موجهة نحو تقييم حالة مستقبلة ؛ وهى أيديولوجية نشطة ، أيديولوجية كفاح ، أى أنها تدعو إلى تحقيق هذه الحالة المستقبلة . وهناك لكل أيديولوجية من هذا النمط قوانين كامنة قائمة بذاتها . وسنحاول هنا أن نستخلص بعض هذه القوانين على أساس مجرد تعميمات (أسلم بأنها إجمالية) ابتداء من التجربة التاريخية .

ويبدو أن أحد هذه القوانين ينحصر فى التقييم البالغ أقصى حدوده ، فى الوصول بالموضوع إلى حد المثالية ، فى الوصول بفاعل الكفاح وكذلك بهدف الكفاح إلى هذه الدرجة . وإننا نرى هذا القانون فى حالة نشاط حتى فى حالة الكفاح من أجل أهداف قليلة المثالية مثل ضروب الكفاح الوطنى .

ويعتبر الانتصار المستقبل للطبقة العاملة مساوياً للخلاص النهائى للبشرية،مساوياً للعودة إلى الإنسان البدائى لدى روسو ، إلى الفكرة الهيجيلية ، إلى تحقق الإنسان العام لدى فويرباخ . إنه على حد تعبير النشيد الدولى « الكفاح الأخير La lutte finale » . (هنا ، كما يحدث فى غالب الأحيان ، تعبر الأيديولوجية الشعبية صراحة وبصورة عنيفة ، ساذجة ، عما يعبر عنه رجال الفكر بصورة ضمنية يسترها خفر العلم أو الفلسفة) . فماركس يتحرج بصورة ضمنية ، غير شعورية ، أمام فكرة « إيثاس(١) بيانكور » على حد تعبير سارتر المشرق ، أى أنه لا يريد إضعاف حماس الطبقة العاملة عن طريق صورة للانتصار غير صورة الانتصار الكلى الخالى من المشاكل .

وهناك قانون آخر لأيديولوجية الكفاح يبدو فى التقليل من قيمة جميع أنواع الكفاح الأخرى غير تلك التى انخرطت فيه . وهكذا تستبعد ضروب الكفاح بين المجتمعات الكلية أو بين الأمم ، وغيرها من ميدان التقنين النظرى ، من ميدان ما هو جوهرى وهام فى الأيديولوجية ، وكذلك الحال بالنسبة لضروب الكفاح

(١) حى عمالى بباريس . المترجم .

التى لا تنعقد حول ملكية وسائل الإنتاج، بين الملاك وغير الملاك. وهكذا نستبعد من ميدان التقنين النظرى ضروب الكفاح بين طوائف الملاك المختلفة ، الكفاح بين مجاميع الملاك التى تتميز فيما بينها كيفاً أو كماً . وأيضاً يستبعد الكفاح من السلطة السياسية إذا كانت لا تقوم على أساس تشابكات اجتماعية . ففاعلية السياسية من الأمور التى تهمل . كما أن إمكانية الطغيان والاستغلال غير المرتبطة بملكية وسائل الإنتاج مستبعدة أيضاً من الناحية العملية . وهنا أيضاً تختفى الخاطرة « بإيثاس بيانكور ». ومن ثم ترددات ماركس حول طريقة الإنتاج الآسيوية ودور البيروقراطية باعتبارها طبقة فى مجتمع من هذا النمط . وليس من الضرورى أن تعزى هذه الترددات إلى عدم الأمانة العقلية كما فعل ڤتفوجل Wittfogel . فإن تأثير الأيديولوجية يقدم لنا تفسيراً مرضياً كل الرضاء .

ولكن ماركس كان أيضاً عالماً . إنه يعرف الوقائع ، وكثيراً ما تبهر الوقائع النظر. والقوانين السسيولوجية التى استخلصها ماثلة دائماً أمام عقله. ومن ثم كانت هناك بعض الآراء وبعض تحاليل المواقف وأحياناً بعض بدايات التقنين النظرى التى تناقض بعض دعاويه الكبرى كما صيغت تحت التأثير الأيديولوجى ، ولكنها على العكس من ذلك تتفق ومقدماته السسيولوجية . وهذه التحليلات التاريخية تعمل حساباً كبيراً لصراع الأمم . فهو يلاحظ ، بالنسبة للتاريخ الرومانى ، أن ضروب الصراع الجوهرية فى الجمهورية الرومانية كانت بين مستويات مختلفة من الملاك (أشراف وعامة) ، لا بين طبقة من الملاك وطبقة من غير الملاك[1] . ويمكننا أن نرى هنا

---

(١) ك. ماركس ، ف. إنجلس ، المراسلات ، ج ٢ ، ديتس، ١٩٤٩ ، رقم ٣٤٩ ، ص ١٠٥ ، الترجمة الفرنسية ، مراسلات ك. ماركس و ف. إنجلس ، ترجمة ج. موليتور ، ج ٤ ، باريس ، كوست ، ١٩٣٢ ، رقم ٣٠٨ ، ص ١١٠ ، وقارن ا. ش فلسكيف E. Ch. Welskopf Die Produktionsverhältnissenim Alten Orient ، und inder Griechisch - Romischen Antike, ein Diskussionsbeitrag, برلين ، مطبعة الأكاديمية ، ١٩٥٧ ، ص ١٩٧ وما يليها .

منبع ضروب الإبهام التى تكتنف لديه فكرة الطبقة التى لم يعرفها فى أى مكان . كما أنه أيضاً يسلم لوقت معين ، وإلى حد معين ، بطريقة الإنتاج الآسيوى مع محاولته التخفيف من نتائج هذه الفكرة ، إذ يحول مثلا رجال الدين فى مصر القديمة إلى طائفة من فني الزراعة ، إلى نوع من «رجال الصناعة» على الطريقة السانسيمونية (ك . بابا يوانو K. Papaioannou)(١) .

وقانون آخر من قوانين أيديولوجية الصراع يبدو فى الميل إلى رؤية الواقع فى صورة طرفين متناقضين لا وسط بينهما . فالطرف الإيجابى فى الصراع ، وهو الطبقة الكادحة le prolétariat ، يوضع فى أعلى درجة من المثالية . وقد كان ذلك من السهل على ماركس الذى لم يتعامل فى بداية الأمر إلا مع الطائفة المختارة من الكادحين (وبوجه خاص أشباه الكادحين) الذين كانوا يتبعونه بكل إخلاص لتأثرهم الشديد بثقافته وقوته النظرية . أما جمهور الكادحين فقد كانوا صامتين ، وأولئك الذين كانوا يعارضون ماركس وأفكاره (مثل فايتلنج Weitling الذى كان يحظى بالإعجاب أول الأمر) فكان من السهل استبعادهم من الصورة باعتبارهم متأثرين بالأيديولوجيةالبورجوازية . وماركس ، فيما يخص صراع الطبقة الكادحة ، لا يعمل أى اعتبار لسلبية التنظيم الأيديولوجى . فهو يرفض التسليم بوجودها لنفوره من تلك النتيجة البديهية التى تترتب على هذا التسليم : وهى التناقضات الممكنة بين هذه السلبية وبين تطلعات الكادحين الأساسية ، وبالتالى إمكانية الصراع الداخلى للطبقة الكادحة والمجتمع الكادح ، إمكانية عدم إخلاص (سواء أكان كليا أم جزئيا) الطبقة الكادحة للدور الذى يقع على عاتقها . وهو يشتد فى مناقضة باكونين Bakounine الذى يتنبأ بإمكان قيام دكتاتورية على الكادحين باسم الكادحين ، وبالتالى يسلم بسلبية التنظيم (التى يرجعها إلى «الطبيعة البشرية») ويرد ماركس على ذلك بمثال الجمعية التعاونية للعاملين ، وهو رد ضعيف بالنسبة

---

(١) ك. بابا يوانو ، « ماركس والحكم المطلق » مستخلص من العقد الاجتماعى ، مجلد ٤ ، عدد ١ ، يناير سنة ١٩٦٠ .

لعقل على هذه الدرجة من الذكاء[1] . ولكنه يريد أن يسلم بأن الصراع الاجتماعى يؤثر تأثيرا مباشرا وبطريقة شفافة ودون مشاكل داخلية على الثورة الحميدة . ومن هنا كان نفور ماركس وإنجلس من فكرة وجود حزب منظم واعتمادهما على النقابية التى لا يصح بأية حال أن ترتبط بحزب سياسى[2] . ولعل هناك عاملا شخصيا آخر يتدخل فى هذا الأمر ، وهو تحرجهما من أن يجد نفسيهما مرتبطين بجميع « الحمير » (على حد تعبيرهما) الذين قد ينضمون إلى نفس الحزب . نعم حدث فى أواخر حياة ماركس وإنجلس أن فرضت المشاكل الداخلية نفسها بصورة قهرية وظهرت أحزاب ماركسية أو متأثرة بماركس وأثارت ديناميتها الخاصة صعوبات بالنسبة لمؤسس المذهب . ولكن هذين اعتبراها مشاكل صغرى مرتبطة بعوامل سيكولوجية : ضعف تفاهم الأتباع محدودى الأفق .

أما الخصم فأنه يوضع فيما يقابل هذه الدرجة من «الشر» ، أى فى أشد درجاته. نعم إن ماركس يكن إعجابا لا حدله بالدور الذى لعبته البورجوازية فى التاريخ إلى حد أن نراه يطلب فى بعض الأحيان أن تقام ابتهالات حقيقية لتكريمها . ولكنه من جهة أخرى يستهجن الاستغلال الرأسمالى بحنق أخلاقى يصل إلى درجة الشناعة . والأهم من ذلك أن هذا الشر يميل إلى أن يكون نوعا من الأسطورية (أهو أيضا قانون ؟) فالصراع بين البورجوازية والكادحين لم يكن يقتصر على نوع من التعديل فى علاقات القوى بين الأطراف المعينة . كانت الظروف الخارجية لهذا الصراع هى التى تؤدى إلى أحداث سياسية — هى التى تؤدى إلى مجابهة بين الطوائف البورجوازية (أو الإقطاعية) المختلفة . وسيقع ميدان الصراع الطبقى تحت تأثير هذه الصراعات السياسية بوجه خاص . وعلى هذا النحو سينقاد ماركس وإنجلس إلى المساهمة فى

---

(١) ك. ماركس ، ملاحظات هامشية على (النظامية الفوضوية) لباكونين ف (دراسات فى الأيديولوجية الماركسية Etudes de Marxologie ، ٢ :(Cahiers de l'I.S.E.A.) عدد ٩١ ، أكتوبر ١٩٥٩ ، ص ١٠٧ — ١١٧ ، ص ١١٣ .

(٢) قارن ك بابا يوانو « الطبقة والحزب » (من العقد الاجتماعى مجلد ٧ عدد ٥) .

هذه الصراعات . وستهم روسيا — بالذات — بأنها القلعة ، بأنها البؤرة الرئيسية لقوى الرجعية . ولكن الخصم الرئيسى يجرح إلى اقصى حد ، يعرض فى أشد الألوان سوادا . ويوصم بالميل إلى أشنع المناورات وأكثرها ريبة . وسيسود الاتجاه إلى اعتبار النشاط الروسى أهريمانيا (١) وبالغا أقصى درجات الشر . وسيفترض أن معسكر الرجعية تحكم إدارة واحدة ، اتجاه موحـــد . ومن هنا نشأ الانجذاب الغريب من جانب ماركس وإنجلس نحو الأفكار «المتسمة بالجنون السرسامى (٢)» لدافيد أركهارت David Urquhart المتعصب لتركيا بقدر ما هو مبغض لروسيا ، كما تفسر لنا ذلك أيضا صداقتهما اياه ومشاركتهما فى صحفه . فقد أقنع ماركس نفسه بالحقيقة العميقة لهذه الدعاوى ، وبخضوع بالمرستوم التام لروسيا . وقد حدا به بغضه لروسيا الميال إلى التعميم أن يسير بكليته « فى الطرق المادية للماركسية ، طرق سياسة العلاقات الدولية العتيقة» (و . بلومنبرج W. Blumenberg).(٣) بل إنه عكس على الماضى نفس الصور التى يعتقد أنه يقرؤها فى الحاضر . فالتواطؤ بين لندن وبطرسبورج يرجع ، على الأقل ، إلى بطرس الأكبر . ويميل التاريخ — فى فترة قصيرة على الأقل — إلى أن يصير ميدان للمؤمرات وللمناورات الخفية التى تدور على غير علم من الجماهير . ومن هنا نرى ماركس يلغى متطلبات السياسة حينما يتعلق الأمر بالعامل الإيجابى ، بالطبقة الكادحة ، ويعمد إلى الإسراف فى تقديرها حين يتعلق الأمر بالعدو .

وعلى نفس المنوال يبالغ إلى أقصى حد فى تقدير العوامل الموضوعية المفترض أنها تساهم فى انتصار الطبقة الكادحة . وهذا الميـــل هو الذى يتحكم إلى أقصى حد فى

---

(١) أى شر كله من أهريمان إله الشر فى الديانة المانوية . المترجم

(٢) السرسام مرض عقلى تطغى فيه إحدى الأفكار على كل ملكات الذكاء لدى المريض به . المترجم

(٣) ف. بلومنبرج W. Blumenberg ، Karl Marx in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten ، بها مبرج ، روفولت ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٢ .

توجيه التحليلات التى يقوم بها « رأس المال » عن دينامية النظام الرأسمالى. فبالرغم من حذره وتحرجه العلميين اللذين يتجليان فى كثير من تحفظاته المتعقلة ، نراه ينساق إلى أن يجد تحليله ينصب على تطلعات غائية ، وإلى أن يقلل من شأن العوامل التى يمكن أن تعوق هذه التطلعات ، إلخ .

وأخيراً نرى أن مجهوده نحو التعقيد النظرى يبتعد عن المجالات التى يبدو أنها غير مواتية لفكرة الصراع أو التى قد يؤدى أخذها فى الاعتبار إلى التشكيك فيها أو حتى إلى وضع حدود وقيود لهـا . ومن هنا جاء إهماله ، فى ميدان الفلسفة ، للمسائل العامة كمسائل المعرفة والأخلاق . إذ يفترض أنها مما يمكن إهماله بكل سهولة. بل إن ل . ألتهوسر L. Althusser يتكلم عنها باعتبارها « غير مسائل » . فمثلا نرى أن الأساس الأخلاقى الضمنى الذى لا ينبغى الشك فيه ينتهى إلى الحط الجذرى من شأن تحليل هذه المسألة . وكان ماركس وإنجلس يثوران كلما ذكرت أما مهما القيم النهائية للنشاط البشرى . فهما لا يريدان أن نسير معهما من أجل العدالة ، بل فقط من أجل قضية الطبقة الكادحة ، مع إهمال أننا ننضم إلى قضية الطبقة الكادحة لأن انتصارها يمثل انتصار العدالة. فلماذا هذه الثورة وهذا الإصرار على تجنب مطالب بينة ؟ من جهة لأن القول بخدمة الطبقة الكادحة وفاء لقضية العدالة قد يفهم منه أن العدالة قد لا تكون دائماً وفى كل مكان بجانب الطبقة الكادحة ، وفى هذه الحالة يتحتم إنكار هذه الطبقة باسم العدالة . وبوجه خاص لأن هذا المسلك قد يؤدى (وقد أدى بالفعل) إلى استطرادات غير ذات خبرة من جانب الحالمين ومثيرى الشغب والحمق ، الخ ، فتدور المناقشة ــ على غير بنية من المتناقشين ــ على أساس أفكار أيديولوجية مرتاب فى أمرها ، وتنقلب باستمرار إلى ثرثرة سهلة تشكك فى أمر المسالك (أو الاختيارات) المبدئية . ذلك أن المهم من الناحية العملية (وكل نشاط ثورى يدل على صدق ذلك حتى يومنا هذا) أن يوضع الأساس المبدئى للحركة خارج نطاق كل مناقشة ، وإلا أصبح غير ناجح . ومن ثم جاء رفض كل مناقشة أخلاقية يمكن أن تشكك فى اختيار عامل الطبقة المكافحة باعتباره مبدأ أساسياً .

وإذن فهناك متناقضات عديدة بين الأيديولوجية الماركسية من جهة، وبين مبادىء السوسيولوجيه الماركسية بل وبعض أفكار ماركس العامة من جهة أخرى . ومن الحق ، بالنسبة لسلامة وصدق هذه المبادىء وتلك ، أن نفصلها من مجموع النظام الماركسى وأن نناقشها واحداً واحداً مع إضافتنا إليها قيما مختلفة .

ومن جهة أخرى يخضع دمجها فى نظام كلى أيضاً لوجه ما من أوجه الواقع . وليست هذه المبادىء مرتبطة منطقياً فقط بالنسبة لتلك الوحدة التى يكونها تفكير ماركس الذى يخضع لشخصية ماركس بأسرها ، للعوامل التى كونته ، بل أيضاً لم يكن مجموعها ليحوز هذا النجاح ولم يكن ليحظى بكل ذلك التعضيد إلا لأنه يجيب بأمثل وجه على متطلبات الفترة (دون أن يكون ذلك بأى حال ضمانا تلقائياً للصدق العلمى لهذه العناصر التى تكونه والتى إنما يبررها تقييم على هذا الاعتبار). وهذا هو السبب فى أن ذلك النظام قد تمخض عن حركة أيديولوجية على هذا النحو من القوة وأن بعض الحركات المتفرقة قد استلهمته جزئياً بما فيها بعض الحركات ذات الأيديولوجية المتعصبة قومياً رغم نفور ماركس من هذا النوع من الأيديولوجية.

وإذا كانت « الماركسية » قد لاقت هذا النجاح ، فذلك لأن ماركس كان يزود كل أيديولوجية للصراع الإنسانى الفعلى بسمات النبل الأيديولوجى والفلسفى . فقد كان يعمد إلى الحماس الكفاحى ويصوغه فى صورة نظريات ، ونعنى ذلك الحماس الذى كانت تخلقه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مضافاً إليها عوامل الوجود التى كثيراً ما دفعت بعض الطوائف إلى اختيارات من هذا القبيل . كان يوجه الأيديولوجية التى يزودهم بها نحو نوع معين من الصراع ، وهو الصراع الاجتماعى ، مع تزويدها أيضا بمذهب اقتصادى يقوم على أساس علمى ، وبالتالى يتمتع بكل ضروب الهيبة التى للعلم فى عصرنا . « فالماركسية » تقعيد نظرى للتفاؤل الإيجابى المصفى من كل إشارة إلى ما فوق الطبيعة ، وذلك إلى جانب أنها تقعيد

نظرى للصراع الاجتماعى داخـــل المجتمع الرأسمالى باعتباره هدفا أساسياً لذلك التفاؤل الإيجابى .

وتلاقى أحكام القيمة بأحكام الواقع من الأمور الثوابت فى جميع الحركات الأيديولوجية القائمة على التفاؤل الإيجابى سواء أكانت دينية أم إلحادية ، عالمية أم قومية .وقد كان من الممكن للمكافحين الثائرين فى جميع هذه الحركاتأن ينضموا إلى النداء الذى يوجهه نشيد وارسو الماركسى إلىالطبقة المكافحة ، وهو : «قضيتك عادلة ونفسك قوى » ولكن فقط مع إضافة هذا التحديد بالنسبة للحركاتالدينية : ونفسك قوى لأن الله يعينه ويلهمه .

ومن شأن كل أيديولوجية يوتوبية نشطة أن تعمد ، كما فعل ماركس(بالرغممن الملاحظات الهامة جداً المنبثة فى دعاواه السوسيولوجية بل والاقتصادية) إلى التقليل من قيمة مســـائل الاستقرار والتظـام الاجتماعى فى سبيل مســائل الثورة والدينامية الثورية .

ومن السهل أن نفهم إغراء « الماركسية » حتى لأولئك الذين يرفضون فـكرة الصراع الاجتماعى رغم طابعها الأساسى . ذلك أن التفاؤل النشط غير الدينى الذى يصاغ فى صورة نظرية يقدم لهم نموذجاً أيديولوجيا . فيمكنهم ، وفاء لهذا النموذج ، أن يخلطوا الأهداف الوطنية التى يسعون إليها بالأهداف الاجتماعية التى تقدمهـا الماركسية باعتبارها الأهداف الأساسية . ولـكن ذلك ليس من الأمور الحتمية . ومن جهة أخرى ، أولئك الذين يرتبطون بأيديولوجية دينية ولـكنهم فى الوقت نفسه يقعون تحت إغراء ثورية متفائلة على مستوى الصراعات الأرضية ، يمـكنهم بسهولة أن يتبنوا جزءاً كبيراً من أيديولوجية ماركس والمـاركسية ، وما عليهم فى هذه الحال إلا أن يربطوا هدف هذه الأيديولوجية بالإرادة الإلهية .

٥ ـ من الأيديولوجية الماركسية :
إلى السوسيولوجيات الماركسية .

لم يكن فى نية ماركس فقط أن ينشر أيديولوجيته (التى تشتمل على عناصر

سوسيولوجية ذات طابع علمى) ، بل أيضـــاً أن يسلح بها الطبقة الكادحة لـكى تستطيع أن تحقق دورها فى تغيير العـالم على أحسن وجه . فانضم ، كما نعرف ، إلى منظمات غايتها أن تقوم بدور المرشد للطبقة الكادحة ولـكن دون أن يقتنع دائمـــاً بضرورتها (١) . وكان على العكس من ذلك أتباعه المباشرون ، فقد أحسوا الضرورة الحيوية لهذه المنظمات من أجل توجيه النشاط الثورى للطبقة الـكادحة فى السبل المتفقة مع متطلبات الأيديولوجية . وإذن فقد كونوا ، ابتداء منها ما اقترحت أن نسميه بحركة أيديولوجية ذات منهج اجتماعى سياسى مؤقت وأغراض دكتاتورية . وأظن أنه من الضرورى أن نذكر هنا تعريفاً لمميزات الحركات التى من هذا القبيل كما استطعت أن أحدده (٢) .

١ — أيديولوجية (بالمعنى الواسع) ذات طابع « يوتوبى » (بمعناه عند مانهيم Mannheim ينضم إليها أعضاء الحركة صراحة ، وتقدم إجابات على عدد من الأسئلة الأساسية حول موقف الإنسان ودوره فى العالم ، وعن طبيعة العـالم والمجتمع ؛ وهذه المبادئ الأيديولوجية « هى الأساس لتوجيهات موصى بها أو مقررة بالنسبة لسلوك الفرد فى حياته العامة أو الخاصة ، وهذه (المبادئ) غير « نقية » (كما يمكن أن تـكون فى غيرها) ، ولـكنها تقدر باعتبارها جزءا من نظام دينامى تقدم فيه عناصر غير عقلية دوراً أيضاً . هذا إلى أن تلك الأيديولوجية ذات ميل كلى ، بمعنى أنها تميل إلى مد توجيهاتها وأحكامها إلى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والخاصة ، ويعبر عنها فى مجموعة (مفتوحة أو مغلقة حسب الأحوال) من نصوص إشارية ذات

---

(١) انظر ك. بابا يوانو ، « الطبقة والحزب » المقال متقدم الذكر .

(٢) م. رودنسون ، « مشاكل دراسة العلاقات بين الإسلام والشيوعية » Problématique de l'étude des rapports entre l'Islam et le communisme (فى « ندوة عن السيبولوجيا الإسلامية » ، الفصول ١١ — ١٤ ، سبتمبر ١٩٦١ ، بروكسل ، مركز دراسة مشاكل العالم الإسلامى المعاصر ، ١٩٦٢ : Correspondance d'Orient ، رقم ٥ ، ص ١١٩-١٩٤٩) ، ص ١٢٦ وما يليها.

طابع مقدس أو شبه مقدس ، وتنتقل جزئياً أو كلياً من الوجهة « اليوتوبية » إلى الوجهة « الأيديولوجية » (بالمعنى المانهايمى) فى حالة ما إذا انتصرت الحركة .

٢ — برنامج مؤقت يصمم كما لو كان يهدف إلى التطبيق العملى للمبادئ الأيديولوجية عن طريق الإنشـــاء الإذعانى لقواعد الحياة الاجتماعية التى توصى بها هذه المبادئ أو تتطلبها ، وذلك على أوسع رقعة ممكنة من الأرض ، وإذن عن طريق إقامة دولة تحت رقابة هذه الحركة ، ويترتب على ذلك وجود خطة عامة (Stratégie) وخطة حركية tactique من أجل الوصول إلى هذا الهدف ، وبعد الوصول إليه ، من أجل الدفاع عن تلك الدولة وتدعيمها وتوسيعها ، إذا حانت الفرصة ، ومن أجل الكفاح ، فى داخلها ، ضد القوى المعادية للحركة ، وتطبيق المبادئ التى نحن بصددها إلى أبعد حد ممكن .

٣ — تنظيم عضوى يتضمن عادة أركان حرب (غالباً برئاسة رئيس وحيد ذى سلطة لا حد لها) كما يتضمن طائفة من الموظفين المرتبين ترتيباً هرمياً وطائفة من الأيديولوجيين .

٤ — عادات وطقوس ورموز تبين الانضمام إلى الحركة ووحدة هذه الحركة

واعتباراً من فترة معينة يبدو أن تكوين حركة من هذا القبيل (وربما بدرجات شديدة الاختلاف) هو الشرط الضرورى لتجنيد جماهير كبيرة من أجل التغيير « اليوتوبى » لبعض الظروف الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية . فهناك ، إذن ، حاجة إلى قاعدة اجتماعية مستمدة من الجماهير غير الراضية ذات المطالب . ويمكن لاحتجاج هذه الجماهير أن يكون ذا أثر على الناحية الاجتماعية (كما حدث جزئياً بالنسبة للمسيحية على الأقل فى القرون الأولى من تاريخها ، وعلى وجه التأكيد بالنسبة للشيوعية) أو على الناحية القومية (كما فى الإسلام فى فتوحات القرن الأول من الهجرة) . فنرى إذن أن تحديد هذا النوع من الحركة لايتناقض مع الدعاوى الماركسية الأساسية التى يبدو لى أنها من مكاسب السوسيولوجية الدائمة . والواقع أننا إذا أردنا تركيز ماسبق قوله ، فإنه يبدو لنا أن النواة الأساسية لهذه الدعاوى

هى الأمر الأول فى تاريخ صراع الطبقات الاجتماعية والجنسية من أجل الرقابة القصوى للأشخاص والممتلكات . غير أنه يلاحظ هنا أن نجاح هذه الصراعات يمر فى بعض الحالات بتكوين حركة من ذوات الطابع السابق . ومثل هذه الحركات لاتنجح إلا بقدر ماتجذب إليها أتباعاً جماهيرية كبيرة مقتنعة ومصممة ولا يمكن لهذه الحركات أن تصل إلى ذلك إلا إذا كانت تجيب على رغبات تلك الجماهير ومطالبها ، سواء أكانت «طبقات اجتماعية أم أجناساً»، وذلك بترجمتها فى برنامجها وفى مبادئها .

وقد نمت أيديولوجية الحركة الأيديولوجية الماركسية منذ البداية ، ولم تكف عن النمو والثراء بمرور الزمن . وقد حدد البروجرام الزمنى هو الآخر فى خطوطه العريضة منذ البداية : وهو إقامة نظام اقتصادى واجتماعى يؤسس على جماعية وسائل الإنتاج . أما الخطة العامة والخطة الحركية فإنهما لم يحددا إلا فى غضون مبادئ مبهمة . ذلك أنه كان من شأن التنظيم والعادات والطقوس والرموز أن تصنع تحت تأثير القوانين الاجتماعية التى تحكم هذا الطابع من الحركات وحين وضعت الأسس التى تجيب على الرغبات الحيوية للطبقات الاجتماعية العريضة .

ولست أريد هنا أن أدرس تطور الأيديولوجية الماركسية . بل سأقتصر على النظر فيما أدى إليه تقمصها فى حركة أيديولوجية بالماركسيين من تعميق القوانين والمعطيات التى استخلصها ماركس أو من إفسادها .

هناك مجالان أهملهما ماركس فى دراسته الدينامية الاجتماعية لحركة الطبقة الكادحة ، وقد اكتشفا عمليا تحت ضغط مطالب النشاط الفعلى . وهما مجال التنظيم ومجال الأيديولوجية . ولكن متطلبات الأيديولوجية كانت فى الوقت نفسه تدفع إلى إنكار تأثيرها الخاص إنكاراً كلياً أو جزئياً ، إلى تحديد استقلالها فى أضيق حد .

وأما مجال التنظيم فى الحركة الكفاحية فقد سلم ماركس وإنجلس بضرورته ، ولكن مع بعض التحفظات . ولكن الأحزاب الاجتماعية الديمقراطية ، والحزب الديمقراطى الألمانى بوجه خاص ، قد وضعته فى الصف الأول . ومن جهة أخرى

كان يعتبر من التجديف الذى يضر بالفاعلية التعبيئية للحركة أن يسمح بالتسليم بحدوث غش من أى نوع فى الترجمة التى يقوم بها التنظيم لرغبات الطبقة المكافحة التلقائية . وفى أغلب الظن أن البعض قد شعروا بذلك . ولكنهم كانوا يمتنعون عن القول به ، وبوجه خاص عن تقنينه نظرياً . فقد كان البناء الديمقراطى للحزب يعتبر ضماناً لصدق هذه الترجمة .

ونحن نعرف أن لينين كان على العكس من ذلك يعلق أهمية جد كبيرة على نظرية الحزب . والذى دفعه إلى ذلك هو الموقف الروسى وواقعيته الكبيرة ، تلك الواقعية التى يقابلها لدى كثير من المنظمين السياسيين والتى يسميها س. شرام S. Schram بمناسبة الكلام على ماوتس تنج « باللينينية الطبيعية » . فضعف قابلية الجماهير الروسية لترجمة رغباتهم إلى عمل ناجح فى رأيه بل وللانضمام إلى أيديولوجية عادلة فى نظره هو الذى ساقه إلى التمييز بين الرغبات الظاهرية المختلطة لدى الطبقة المكافحة على وجه العموم وترجمة تلك الرغبات على أيدى نخبة من المكافحين المحترفين ، من المفكرين فى واقع الأمر ، ترجمة من شأنها أن تستخلص المتضمنات الكامنة فى تلك الرغبات المختلطة . ولا يمكن لهذه الترجمة إلا أن تكون من عمل عقول متمرسة بالنظرية العلمية الماركسية على فهم الدروب « الحقيقية » لتحقيق هذه الرغبات .

وكان من الممكن أن تكون نظرية الحزب هـذه اكتشافا سسيولوجيا . ولكن الأيديولوجية لدى لينين واللينينيين منعتها من أن تكون كذلك . فقد كان من المسلم به أنه لامناص من وجود الحزب ، ولكن على أن تكون الترجمة التى تقدمها لرغبات الجماهير هى وحدها الصحيحة . وهـذه الترجمة كانت صحيحة تبعاً للعلم الماركسى . فكان يفترض ، ضمنا ودون تصريح ، أن أمانة الترجمة التى تقوم بها النخبة الماركسية تجذب جمهرة الحزب التى تتعرف فيها على ميولها الكامنة بصورة غامضة ، وأن هذه العملية تعمل عملها مرة أخرى بعد ذلك بـين الحزب فى مجموعه وبـين الطبقة العاملة . وكان مقدراً لوسائل تنظيم المركزية الديمقراطية أن

تكون ضمانا ضد الإنسياقات غـير الحكومة من جانب جمهور المنضمين للحزب الذين يمكن فى بعض الأحيان أن تناقض تلقائيتهم وأن تخون الترجمة « الصحيحة » لرغباتهم الخاصـة بأن تحولها إلى أفكار ، وبوجه خاص إلى أحداث وقتية . وبالاختصار عليهم أن يلتزموا لدى دخولهم الحزب ، بالتسليم بأن النخبة الموجهـة (وهى مع ذلك نخبة مفتوحة إلى حد ما) هى وحدها التى تملك مفتاح هذه الترجمة الصحيحة . أما أخطاء الترجمة التى تقع من الجماهير الكادحة خارج الحزب فإنها تصحح من تلقاء نفسها عن طريق المشاهدة العملية للنتائج الموفقة الناجمة من اتباع الخط السليم . وقد كان لينين على استعداد للتذرع بقسط كبير من الصبر أمام إنفاق الوقت والجهد الذى تفرضه أخطاء الطبقة الكادحة فيما يتعلق بمنافعها «الحقيقية» وأيضا أمام ضياع الوقت والجهود الذى تسببه أخطاء أخرى أكثر درامية من تلك ، وهى الأخطاء التى يمكن توقعها من جماهير من غير الطبقة المكافحة ولكنها حليفة لها . ولكن واقعية ستالين العنيفة المتشائمة وواقعية غيره من المتحمسين قـد أدت بهم منـذ البداية إلى استخدام القوة المتزايدة فى ضم الطبقة الكادحة والجماهير إلى الخط السليم من أجل مصلحتها . ذلك أنهم لم يكونوا فقط يرون أنه لا بد من ضياع الوقت والجهود فى انتظار اقتناعها بسلامة ذلك الخط بل أيضاً أن ذلك قد يؤدى بفرض استراتيجية مصيرها إلى أن تضيع إلى الأبد أو إلى الانخراط فى طريق تخريبى بصورة لا تقبل الرجعة . هذا إلى أن تلك الورطة التى وجدوا أنفسهم أمامها ليست خاصة بالحركة الشيوعية بأية حال . فكل أولئك الذين أرادو العمل من أجل الشعب أو من أجل شعب ما قد واجهوها ، ومن أمثلتهم اليعقوبيون فى فرنسا .

كانت الضرورة الأيديولوجية تدفع إلى تصوير انضمام الجماهير للخط السليم على أنه أمر محقق ، ولم يكن ذلك إلا تعجيل الحوادث ، كما قيل، لأننا منذ سنة ١٨١٣ كما يقول ماركس — « نقتصر على أن نبين [للعالم] لماذا هو يكافح وأن الوعى

شيء يجب عليه أن يحصله حتى ولو لم يرد[1] » . كانت هذه الضرورة تحتم إنكار الشقاق الذي كان يعتبر مؤقتا حتى لا يعطى العدو أسلحة عن طريق الكشف له عن قوة الخلافات الداخلية ، حتى لا تصاب باليأس طوائف أخرى من نفس الجيش ، وهكذا تمهد متطلبات الخطة العامة (stratégie) إلى التشويه الأيديولوجي للواقع .

ومع ذلك فإن الانشقاقات التي تلت إعلان النظرية اللينينية عن الحزب الطليعي قد ألقت شيئاً من الضوء على كل اتجاه في مواجهة الآخر . فإن روزا لوكسمبورج Rosa Luxembourg وتروتسكي Trotsky مثلا قد كشفا جيدا في الحزب اللينيني عن خطر انقسام بين مصالح النخبة الموجهة ورغباتها وبين مصالح ورغبات الجمهور في داخل الطبقة الكادحة وخارجها ، ورأيا يدفعان إلى إقامة دكتاتورية من الطائفة الأولى على الطبقة الكادحة وعلى الشعب .

ولكنهما لم يريا (وإن كان تروتسكي قد رأى ذلك فيما بعد) أن هذا الكشف كان الوجه الآخر من كشف يائس محتوم ، وهو أن تصورهما للحزب الديمقراطي الذي يترجم الرغبات التي يفترض أنها صحيحة للجماهير المنضوية تحته والتي يقودها كانت تجيب على متطلبات لا يمكن تجنب فاعليتها الخاصة . وقد انساق لينين بدوره بسبب حوادث سنة ١٩١٤ بوجه خاص إلى استهجان الأحزاب الاجتماعية الديمقراطية باعتبار أنها تخون المصالح الحقيقية للعمال . ولكن لما كانت ثقة الأيديولوجية في فضائل الطبقة المكافحة قد حالت بينه وبين الاسترسال في تحليله ، فقد فسر هذه الخيانة على أنها انحياز لمصالح ورغبات طائفة واحدة من هذه الطبقة ، وهي طائفة الأرستقراطية العمالية . وكان يمكن لذلك أن يكون نقطة

---

(١) ماركس ، خطاب الى روج Ruge ، سبتمبر ١٨٤٣ ، في Aus dem literarischen Nachlass لكارل ماركس وفريدريش انجلس ، نشر فر . ميرنج Fr. Mehring ، مجلد ١ ، برلين ـ ستوتجارت ، ديتس ١٩٢٣ ، ص ٣٨٢ . وارجع لترجمة ب. ا. نيزان Nizan في كتابه كارل ماركس ، قطع مختارة ، باريس ، جاليمار ، ١٩٣٤ ، ص ١٨٥ .

انطلاق لتحليل سسيولوجي مثمر لطبقات العمال المختلفة ولتحول مصالحهم ورغباتهم من النواحي النظرية والأيديولوجية والاستراتيجية .

ولكن متطلبات العمل الاستراتيجية والأيديولوجية قد وقعت مرة أخرى في سبيل الاسترسال في هذا التحليل . وكان يمكن لهذا التحليل أن يؤدي إلى عدم تقديس الطبقة العاملة في مجموعها وإلى تبيان أن الاختلاف الذي كشف عنه لا يدل على مجرد تأخر في الوعي أثار انقساما بين الجماهير في غلالة رقيقة منها حيث سينتهي الأمر بالجماهير العريضة بالانتصار لامحالة ، بل يدل على هوة لا يمكن تخطيها وكان يمكن الانتهاء إلى ورطة الاختيار بين حزب من النخبة يدفع الجماهير رغم أنفها نحو نتيجة لا تريدها وبين تسليم الحزب أمام أماني الجماهير ، تلك الأماني التي ترفض الأيديولوجية الأساسية للحركة . وإذا كان ينبغي ألا يضرب باليأس على (بيانكور Billancourt) فإنه ينبغي أيضاً عدم الكشف عن أن أمل بيانكور أمل كريه بحسب المعايير التي اتخذت . ومن هذا التستر الاستراتيجي على الموقف الحقيقي ، سينتقل الأمر سريعاً إلى التعامي الإرادي، والذي لا تزيده الأيام إلا صدقاً عن هذا الموقف . وأصبح لا يمكن النجاة من ذلك إلا عن طريق التذرع بنوع من الصفاقة . ولكن الصفاقة نفسها نوع من التعامي .

ويقوم مجال التنظيم في المعارضة على نطاق الحزب ، على نطاق الدولة (التي تميل إلى أن تصبح هي والحزب شيئاً واحدا) بعد النصر . وقد انساق ماوتس تونج إلى اكتشاف الفاعلية المستقلة نسبياً لسلطان الديوانية Bureaucracy في الدولة والحزب سواء أكان ذلك في الاتحاد السوفييتي أم في الصين نفسها، وربما جاءه هذا الكشف عن طريق التصور التعميمي لمنطق الواقع الذي ينبع من نظرية الخلق الصيني القديمة (ين ويانج yin et yang) والمعرفة الهيجلية الصوفية ، ومن أصالة تفكيره وجرأته ، ومن إرادته أن يكون مستقلا وقوياً . إنه يرى (ويقول ذلك بوضوح ، وهو شيء جديد دون ريب) أن مصالح البيروقراطية ورغباتها يمكن أن تتناقض مع مصالح الشعب ورغباته ، إن الدولة والحزب يفسران هذه المصالح والرغبات المتحالفة

بتقنينها أيديولوجيا كما لو كانت صادرة عن الشعب بأسره . وهذا هو ماسبق أن رآه تروتسكى وقاله . وهنا أيضاً نقطة انطلاق لتحليل سسيولوجى مثمر . ولكن هنا أيضاً وقفت الأيديولوجية عقبة فى سبيله . ذلك أن ماو لايستطيع أن يقول علنا (حتى ولو كانت هذه فكرته ، وهو ماليس بأكيد) بأن اتجاه الدولة والحزب السوفيتيين يمكن أن يترجم ليس فقط الرغبات والمصالح البيروقراطية السوفيتية بل أيضاً مصالح الشعب الروسى ورغباته إلى حد ما . فمن الواضح أنه لايستطيع أن يتصور دولة دون بيروقراطية كما لايمكن أن يسلم أيضاً بأن تستمر البيروقراطية فى توسيع امتيازاتها تبعاً لرؤية ماركس السسيولوجية وضد أيديولوجيته . وفى مبدأ الأمر وقبل أن يصل إلى أن يحدد بدقة مجال التناقضات فى الدولة الاشتراكية ، خرج من ذلك بالقول بأن هذه التناقضات ستظل غير متضاربة ، لن تنصب على ضروب الكفاح المسلح ، وهذه ليست إلا أمنية مخلصة لم يحاول مطلقاً أن يبين كيف تتحقق . وفيما بعد ، ولما كان متشبثاً بتفاؤله الذى يأبى عليه الحل الاستالينى الموصوف بالصفاقة والماكيافيلية ، فإننا نراه يتجه بوضوح إلى محاربة الميول البيروقراطية الضارة فى الدولة والحزب ، وذلك بأن أفسح الطريق أمام التعبير عن رغبات الطبقات غير البيروقراطية (يعدل ضمنا عن دعوى عدم التعارض ، وهذه دعوة إلى الأمام) وهذه هى الثورة الثقافية . وينتهى به الأمر إلى رؤية تتفق مع سسيولوجية ماركس (لا مع أيديولوجيته) مع امتداد لها يشمل الصراعات الداخلية فى المجتمع الاشتراكى . ولكنه (وكذلك تروتسكى) لايستطيع الكف عن رؤية مجتمع متوافق حيث يوجد بعض البيروقراطيين « الصالحين » قليلى العدد والقوة الذين يترجمون بأمانة رغبات ومصالح شعب مفروض فيه أنه هو نفسه واضح الرؤية . ذلك أن الأيديولوجية والإرادة الصارمة فى عدم إيئاس « البيانكوريين » الصينيين تمنع من التسليم بالاستمرار اللانهائى لميول الاستغلال والطغيان وضروب الصراع الداخلى ضد هذه الميول . إنهما يدفعان نحو الحل الأيديولوجى للسذاجة والوعظية اللتين كشف ماركس عنهما الستار دون هوادة حينما كان الأمر يتعلق بالمجتمع البورجوازى الذى نتج عن الثورة الفرنسية .

إن الأمر يتعلق بالكفاح ضد البيروقراطيين السيئين وصنع صالحين غيرهم ، كما كان يتعلق بالنسبة للبورجوازيين « الصالحين » بأن يحلوا محل النواب السيئين ممثلين للشعب أبناء مخلصين يهتمون بالمصلحة العامة قبل كل شيء .

كذلك اكتشف ماوتس تونج داخل الحركة الماركسية أهمية الصراع بين الأمم . ولكن هنا أيضاً تمنع الأيديولوجية من تخييب أمل الشعوب فى تطلعاتهم المتناقضة نحو تصعيد المزايا التى يتمتعون بها . فالنظام الاقتصادى الداخلى يدفع الأمم الرأسمالية إلى إرادة السيطرة على الأمم الأخرى واستغلالها . والأمر كله يرجع إلى ذلك . فضروب النزاع بين الأمم المسيطر عليها والمستغلة من جانب الامبرياليين ترجع كلها إلى تأثير مناورات الامبريالية . أما ضروب النزاع بين الأمم الاشتراكية فتأتى من التأثير الضار للبيروقراطية المتسمة بطابع المراجعة والتى تشوه رغبات الشعب. وليس من الممكن العدول عن الرؤية اليوتوبية لعالم متوافق على النطاق العالمى تحت التأثير المفيد للتنظيمات الاقتصادية المفيدة التى تكون قد اتخذتها جميع الأمم ، (وهذا أيضاً ماحمله إنجلس ولينين اللذان كانا هما الآخران يتبينان فى بعض الأحيان تضارب المصالح القومية الذى يمكن أن يتلو الثورة ولكنهما كانا يميلان إلى تحديده بفترة انتقال) .

من هنا نرى كيف أن الأيديولوجية قد منعت مبادىء السسيولوجية الماركسية من الامتداد العام إلى دراسة ميكانيات التنظيم والأيديولوجية فى الحزب الماركسى المعارض وفى الدولة الاشتراكية (ميكانيات التنظيم وميكانيات الأيديولوجية متوازية فى مجملها ولذلك لم نشر إلى الثانية فيما تقدم إلا قليلا) . ويمكننا أن نطور هذه الاعتبارات إلى ما لا نهاية إذ أن الدراسة العلمية التى تسمح بذلك لم تكد تبدأ . ونريد أن نختتم بذكر صورة أخرى لتأثيرات الأيديولوجية هذه على الفكر الماركسى ومنعها لإمكان وثبات أى تحليل سسيولوجى محتمل .

كل صراع يجب أن يضع نصب عينيه مساعى العدو وحيله . وكل أيديولوجية الصراع ينبغى لها أن تعمل على تحذير أتباعها من هذه المساعى والحيل . وعليها أن

تبسط وتجمل لكى تسهل هذه اليقظة وتجعل فى الطوق فضح هذه الألاعيب .

ومن الممكن أيضاً أن يتجه عقل الإنسان الملتزم بالصراع أى العقل المكافح ، من الممكن أن يتجه تلقائياً إلى أن يكتشف فى كل مكان فعلا خفياً ، حيلة للعدو ، وذلك لأنه يخشاه . وإذا جاز لنا أن نستخدم تعبير فلسفة العصور الوسطى ، فإنه يجب دائماً افتراض أن الانتقال من حالة القوة إلى حالة الفعل أمر جاهز ، وأن الحدث يتحقق فى غالب الأحيان . ومن وراء كل فعل مضر بالقضية يحس بوجود قصد الإضرار . ومن هنا جاء الميل إلى تصوير العدو فى شكل إجمالى أسطورى ، ذلك الميل الذى يستبعد من مجال الرؤية وجود ظواهر تند عن الكفاح إما بإهمالها وإما بإرجاعها إلى ظواهر كفاح . فليس هناك من ظاهرة أو حادثة لا تهم الكفاح . ووراء كل نكبة خاصة تجب محاولة البحث عن النشاط الشرير مختلف الأشكال من جانب العدو . وهذه عملية مشابهة فى المجال الاجتماعى ، لما يحدث فى بعض حالات الهذيان البارانوبى (المتسم بجنون العظمة) إن قليلا وإن كثيراً فى المجال النفسى الفردى .

هذا إلى أن هناك عدة عوامل سسيولوجية لاصقة بدينامية الحركات الأيديولوجية فى كثير من الحالات على الأقل ومن شأنها أن تسهل عملية التصوير الأسطورى الإجمالى هذه . وفيها يلاحظ وجود ضغط صامت ولكنه مستمر من جانب سواد المنضمين من أجل الصياغات البسيطة الواضحة الإجمالية ذات القيمة الأخلاقية والمحملة بأغراض وأهداف الحركة ذات المدى القصير أو الطويل . إنهم يطالبون بصياغات مركزة ، أو بالأحرى بمتون ، ومن حين لحين بتوجيهات معصومة من الخطأ . وكذلك المنظمون والمخططون يرون أنفسهم مندفعين فى نفس الطريق بحكم متطلبات العمل ، وإن حرصوا على أن يكون تحليلهم فى المجال التكتيكى أكثر دقة ، ولكنهم لا يتمنون أن تذاع نتائج هذا التحليل لأسباب واضحة . فهناك إذن اتجاه لتحالف موضوعى بين القاعدة وبين طائفة المنظمين والمسئولين السياسيين ضد المفكرين الذين يريدون تعميق التحليل ، لا تحليل الظروف بل التحليل النظرى ،

ويزيد من ضرورة هـــذا الاتجاه أن طول تفرعات المسلك العقلى لا تتفق وتقرير الأيديولوجية السريعة الحركة . ولهذا كثيراً ما رأينا فى الكنائس كيف يتحالف ضد علماء اللاهوت جمهور المتدينين من الشعب والمنظمون(١) الذين يحرصون على ألا تفلت الجماهير من قبضتهم . هذا إلى أن هذا التحالف يستفيد من حليف ثالث ، من جزء من نشاط النظريين والمفكرين ، من الخيانة الداخلية للكتاب . فهؤلاء يعتبرون دعاة فى نفس الوقت ، يعتبرون أتباعاً مخلصين وكثيراً ما يميلون إلى اتهام أنفسهم بأنهم لا يشاطرون المكافحين غير المثقفين إيمانهم النقى الذى يخلو من كل شائبة ، وأنهم يبحثون عن مشاكل حيث لا توجد مشاكل ، أو حيث لا تكون هناك مشاكل ملحة ، وأنهم على هذا النحو يعرضون أنفسهم للوقوع فى شراك الشيطان التى لا تنتهى أو فى شراك عدو الطبقة . ويمكن لطائفة المنظمين أن تعمد بسهولة إلى فضحهم أمام القاعدة بتهمة أنهم يعملون على الانفصال عن رغباتها الأولية وإلى تحميلهم مسئولية التوترات التى تقوم بين هذه الرغبات وبينهم هم أنفسهم كطائفة موجهة. وكل هـذه السلسلة من التوترات والمنافسات والصراعات الصامتة التى تصل إلى مرحلة الخصومة فى بعض الأحيان ، وهى مجال بالقوة للملاحظات السيولوجية المثيرة ، نقول كل هذه السلسلة تند ، على هـذا النحو ، عن انتباه العناصر التى لعلها أكثر من غيرها تسلما بدراستها (بالقوة أيضاً) . ويميل العدو من جهة إلى التقليل من شأن هـذه التوترات وإلى اعتبار أن الحركة بأسرها كل شيطانى مصاب بطبيعة الحال بانحرافات فطرية فى الحكم العقلى ، ويمكن تفسيرها على وجه الخصوص بالميل نحو المناورات الخبيثة .

وهكذا نرى أن الحـركة نفسها تميل إلى التسليم بأنها تند عن القوانين السسيولوجية العامة . وكل من يسأل عما هى الحقيقة يجد نفسه منساقاً أن يجيب بما

---

(١) انظر م. رودنسون «ريشار سيمون ومعارضته الصياغة المذهبية» Richard Simon et la dédogmatisation ، مجلد العصور الحديثة ، العدد ٢٠٢ ، مارس ١٩٦٣ ، ص ١٧٠٠ ـ ١٧٠٩ .

أجاب به عيسى الناصرى : أنا الحقيقة والحياة . فالغضب يجيب على كل غمز بأن القوانين التى يمكن اكتشافها خارجة يمكن أن تنطبق عليه .

نرى بوضوح كيف تعمل هذه العمليات ليس فقط فى الحركة الماركسية بل أيضا فى الحركات المتأثرة بالماركسية فى العالم الثالث الحاضر . فصبغ الأمبريالية بالطابع الأسطورى يصل فيه إلى درجة معدومة النظير . ومع ذلك فإن هناك حقائق واقعية يقوم على أساسها هذا الميل . فمن المؤكد أن هناك اتجاها من جانب اقتصاد متطور إلى أن يستمد بتفوقه أكثر الفوائد الممكنة من أنواع اقتصاد أقل تطوراً . ولا شك أن هناك علاقات بين مجموعات الضغط الاقتصادى والسلطة السياسية . ولكن التحليل السسيولوجى والاقتصادى الدقيق للطرق والوسائل التى تحاول بها المجموعات التى نحن بصددها أن تصعد امتيازاتها إلى الحد الأقصى ، وللطريقة التى تؤثر بها على السلطة السياسية ورد فعل هذه السلطة يستبعد ضمنا بل وصراحة بفروغ صبر وإصرار . ونرى أن عمليات التصوير الأسطورى ترجع فى الوقت الحاضر جميع الإمبرياليات إلى واحدة فقط ، هى إمبريالية الولايات المتحدة ، وكل النشاط السياسى الأمريكى يرجع إلى مجرد الترجمة عن الميول المفترضة لمجموعات الضغط الاقتصادى الأمريكية وجميع الضغوط الاقتصادية والسياسية الأمريكية على أقطار أخرى ، إلى أوامر مباشرة تطاع بطريقة آلية . وهكذا ينتهى الأمر إلى تصوير صورة أسطورية « للامبريالية » ، هذا المسخ الشرير ذى المخ الوحيد الذى يقع فى مكان ما بين وول ستريت Wall street والبنتاجون (وزارة الحربية الأمريكية) ، وذى القرون الشعورية العديدة التى لا يكشف أى منها عن إرادة خاصة به . ولكن قابلية التصديق لهذه الصورة الأسطورية تهتز اهتزازاً عنيفاً لدى العناصر البعيدة كل البعد عن الكفاح الحقيقى الذى يجرى فى العالم الثالث : عناصر المثقفين الأوروبيين ، بل والجماهير الأوروبية . ذلك أن التصوير الأسطورى ينتهى بإلقاء الشك فى نفوسهم تجاه الحقائق الواقعية التى تحيق بهذه الصورة . ولكن هذه العقبة تبدو ضئيلة بالنسبة لما لهذه الصورة من قوة محركة لدى جماهير العالم الثالث وأيضاً

لدى أشد العناصر استعداداً للانضمام إلى جانبهم ، وهى طوائف الثوريين الضئيلة فى العالم الرأسمالى الذين خاب أملهم من قلة فاعلية القضايا التى طرحت عليهم فى مجتمعاتهم الخاصة . وهكذا نرى مرة أخرى كيف تقف الأيديولوجية عقبة فى سبيل أى مجهود للتحليل السسيولوجى العميق بالرغم من أن مبادىء السسيولوجية الماركسية تقدم لهذا التحليل نقطة انطلاق مثمر .

٤ — سلامة الماركسية وتماسكها :

لقد حاولنا أن نبحث فيما سبق بوجه خاص كيف أن الأيديولوجية الماركسية قد عاقت إلى حد كبير التقدم الممكن لقيام سسيولوجية ماركسية عميقة .

وهذا لا يعنى أن تطوير مثل هذه السسيولوجيا أمر مستحيل . فقد قدم ماركس عموميات هامة حظيت بالقبول (كما سبق أن قيل) خارج « الماركسية » من طوائف عديدة من الباحثين فى جميع العلوم الإنسانية — ومع ذلك فإنه إذا كان خصبها قد منع من أن يؤتى كل ثماره داخل الحركة الأيديولوجية الماركسية ، فإنه أيضاً قد قوبل بالتعويق خارج هذه الحركة على أيدى الأيديولوجيات الغامضة التى تسمى إجمالا بالأيديوليجيات البورجوازية والتى لا تتوقف هى الأخرى عن أن تفرز فى كل مستوياتها توجيهات ضارة بكل متابعة مثمرة للبحث . ولهذا لم يكن من غير المفيد أن يعلن المرء أن ماركس أيضاً فى ميدان السسيولوجيا .

ومن جهة أخرى يمكن للقيم الأساسية التى تتصل بالأيديولوجية الماركسية أن يتبناها (وهــذا ما حدث) كثير من الأفراد والمجموعات التى تقبل دعاوى السسيولوجية الماركسية أو لا تقبلها . وليس فى وسع هذه الدعاوى (ككل عنصر من عناصر رؤية علمية للواقع) إلا أن تنير مجهود هؤلاء الأفراد والجماعات من أجل تسجيل هذه القيم فى الواقع . وليس الانضمام إلى هذه القيم فى حد ذاته هو الذى ساهم فى تعويق نمو السسيولوجية الماركسية بقدر ما ساهم فيه اعتبارها أسساً سلوكية لحركة أيديولوجية بالمعنى الذى حددناه فيما سبق . كما أنها هى أيضاً التى تكون القوانين السسيولوجيه اللاصقة بالعمل فى أى حركة أيديولوجية مهما

كانت . ونحن نرى ذلك جيداً فى العالم الثالث حيث تتلكأ خطى التفكير السسيولوجى بسبب دينامية الحركات الأيديولوجية التى لم تعتنق القيم الماركسية والمبادئ السسيولوجية الماركسية إلا جزئياً .

ومعنى ذلك أنه يمكن للمرء دائماً وبصورة سليمة أن يعتنق فى آن واحد الدعاوى الكبرى للسوسيولوجية الماركسية وأن يظل وفياً للقيم الأساسية الأيديولوجية الماركسية . ولن ألجأ فى ذلك إلى غير الفلسفة الماركسية التى أعتقد أنها لا تنفصم عن هذين الموقفين . هذا وإن كان مصطلح الفلسفة الماركسية غير مناسب . فهو مصطلح مبهم تحشر تحته آراء ماركس الفلسفية من جهة ومن جهة أخرى النظم الكلية للماركسية الجديدة (ومنها فى المقام الأول الخطة السوفييتية) تلك التى تدمج إن قليلا وإن كثيراً الدعاوى السسيولوجية الماركسية وأسس الأيدولوجية الماركسية وبعض العناصر الأخرى وتحولها إلى مركبات طموحة . وفى الحقيقة يبدو لى أن هذه الدعاوى وهذه القيم الأساسية تستطيع أن تتفق مع فلسفات مختلفة كل الاختلاف على شرط أن توليها هذه الفلسفات حدا أدنى من الصحة .

يبقى لدينا تناقض أساسى آخر . ذلك أن الجهود المبذولة فى تحقيق قيم الأيديولوجية الماركسية لا يمكن أن نرى ناجمة (بسبب دعاوى السسيولوجيا الماركسية) إلا إذا كانت مندمجة فى حركة أيديولوجية . ولكن لا بد لأى حركة أيديولوجية أن تؤدى إلى نتائج من نوع تلك التى حاولنا أن نبين أثرها السيئ على نمو السسيولوجيا الماركسية . فهل من الممكن تلافى هذا الخطر ؟ كلا بأية حال فى أغلب الظن . ولكن قد يكون من الممكن أن يتصور المرء سلسلة من مجهودات التسوية التى تتجه بصورة متقاربة إلى تقليل المسافات بين رغبات الجماهير التى تحبوها الأيديولوجية قيمة فائقة وترجمة هذه الرغبات بواسطة تنظيمات وأيديولوجيات الحركة أو الحركات الماركسية وأخيراً القيم العليا للأيديولوجية التى تعمل التنظيمات والأيديولوجيات العملية دائما على تشويهها إن قليلا وإن كثيراً . ومع ذلك فإنه ينبغى لنا — بمقتضى الدعاوى السسيولوجية الماركسية نفسها — أن نعدل عن فكرة

أن عملية التسوية هذه ستتم من تلقاء نفسها لمجرد ضغط الوفاء للقيم أو بدفع رغبات القاعدة . فإن الاستقلال النسبى الحقيقى فى آن واحد الذى تتسم به هذه المنظمات والأيديولوجيات سيجعل دائما هذه العملية صعبة وأليمة وفى أغلب الظن عنيفة .

والماركسية هى الحركة الأيديولوجية العالمية الوحيدة المتجانسة من بين جميع الحركات التى نعرفها وإن كانت تبدو فى أشكال لا تزداد إلا تنوعاً . والحركات الأيديولوجية الدينية تعرف نفس المشاكل (١) . فإن الكنيسة الكاثوليكية قد لاحظت أيضاً الهوة التى نشأت بين القيم الأساسية التى تبغى خدمتها والأسس اللاهوتية التى تقوم على أساس هذه القيم ومتطلبات الوضع المتغير للجماهير التى تخاطبها من جهة وبين الأيديولوجية التى شكلتها جزئياً الدينامية الخاصة بالحركة التى تتقمصها من جهة أخرى . ولذلك اضطرت أن تلجأ متأخراً جداً وتحت ضغط تخلخل كاد أن يصبح كارثة — إلى نوع من التوفيق كان وحده كفيلا بإنقاذ الوفاء لقيمها الأساسية ، وذلك بأن أعادت تشكيل التنظيم والأيديولوجيا فى اتجاه يراعى تغيرات القاعدة البشرية التى تحمله .

وحتى تتم التوفيقات الضرورية للحركة الماركسية فإننا سنرى المثقف الواعى ، عالم الاجتماع الذى يظل مخلصاً للقيم العليا لهذه الحركة ويريد أن يستمر فى استخدام المعطيات العلمية التى تنطوى عليها وأن يطورها أيضاً ، لا يستطيع إلا أن يستهجن التشويهات التى ارتكبت ضدها فى داخل هذه الحركة نفسها أولا وقبل كل شىء . لا يستطيع إلا أن يبقى صامداً تحت عبء الاتهامات بالتشويه التى تثقله هو نفسه . وسيعتنق ويكرر كلمات أبيقور الخالدة التى ذكرها ماركس فى مقدمة رسالته للدكتوراه : ليس الكافر من يرفض عبادة أوثان الحركة ، وإنما الكافر من يعتنق التصور الوثنى الذى صنعته الحركة لآلهتها .

---

(١) عالجت هذا الموضوع ، بمناسبة الكلام على الإسلام ، فى كتابى « محمد » ، باريس النادى الفرنسى للكتاب ، ١٩٦١ ؛ الطبعة الثانية ، باريس ، سبى ، ١٩٦٨ ، وكتاب « الإسلام والرأسمالية » ، باريس ، سبى ، ١٩٦٦ .

إدمون رادار **

عن التربية الخلّاقة *

ترجمة: فؤاد كامل

« هذا العالم الممزق إرباً إرباً . . .

أنّى له بالرجال الأشداء الجدد ،

الصابرين صبراً كافياً لإعادة صنعه حقاً ؟ »

موريس ميرلو — بونتي

لا وجود لغير قيد واحد فحسب: هو ذلك الذى يمنع الإنسان من اغتنام الفرص الإبداعية التى تَعْـرِض له . وعلى العكس ، إذا استطاع الشروع فى ممارستها، أمكنه أن يتعرف فى الطاقات التى يستخدمها على جانب أوّلىّ ، وعلى مصير . وما أن يمتلك فُرَصَـه للإبداع ، حتى يستطيع السيطرة على أية عبودية فى ثقة تفوق انعتاقه من رق الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها . وفضلا عن ذلك ، فإن مجتمع المستقبل اللاطبقى سوف يتطلب — على وجه الاحتمال — ظروفاً أشد قهراً ، وعلى وجه اليقين ، أكثر مكراً من تلك الظروف الناشئة عن الرأسمالية ، وهذا أمر ينبغى

* ترجمها من الفرنسية إلى الانجليزية سيمون بليزانس Simon Pleasance .

** يشغل إدمون رادار منصب أستاذ بمعهد القديس لوقا للعمارة فى بروكسل ، وهو حاصل على الدكتوراه فى القانون ، ويكتب فى كثير من المجلات البلجيكية المتخصصة فى تاريخ الفن . ومن أعماله الرئيسية « الوجه الجديد لنيقولا مكيافللى » وهو مقال ظهر فى « المجلة البلجيكية العامة » Revue Générale belge ، و « اللعب فى أعمال بيير — بول روبنز » فى المجلة الجديدة Revue nouvelle ، و « دراسة التمثيل الصامت بوصفه مظهرا للروح الاجتماعية ، وبوصفه لعبا و تعبيراً فنياً » فى مجلة ديوجين ؛ وغيرها من المقالات .

أن نتوقعه . ونحن، على أية حال، ملزمون بتنمية الموارد اللامتناهية التي يملكها الإنسان. فإذا لم تكن هذه البيِّنة ظاهرة للعيان ، فتكفينا استفزازات المدنية الكوكبية لكي نتطلع إلى تكوين مفتوح للامكانيات جميعا : ذلك أن العالم العاصر يقتضى الإبداع المستمر ؛ ونستطيع أن نلمح ذلك بصورة مصغرة فى التجديدات الجارية، وفى ضروب التكييف اليومية التى تستتبعها .

ومن هذه الزاوية ، يصبح التخصص شيئا عارضا ، ولن يكون له أبداً أكثر من طابع وقتى . بيد أن هذا المفهوم قد يبدو فى سياق المدنية الصناعية — مفهوما نظريا إلى حد ما بالنسبة للوظائف الفنية . فكيف نستطيع التغلب على هـــذا التناقض ؟ الواقع أن الراشدين من الناس الذين يُلقى بهم فى الوظائف المتخصصة ، والذين يعيشون هذا التناقض يوما بعد يوم ، يقبلونه سعداء أو أشقياء به ، كلٌّ وفق شخصيته . أما الشخصيات المتألقة فتظْهِر مرونة باطنية هى فى حقيقة الأمر توليف بين نوع معين من التربية ، ونوع معين من الخبرة . والنجاح فى هذه الحالات ليس ثمرة تكييف متواضع مع البيئة ، بل تعبيراً عن روح ابتكارية خاصة ، هذا إذا اقتصرنا فى إطلاق كلمة ناجح على أولئك الأشخاص الذين نلمس عندهم تأكيداً للشخصية ، وللأسلوب الشخصى ، ونشاطا يرمى إلى الإثراء الإنسانى للآخرين . فإذا أردنا أن نضمن استقلال شخص ما وقدرته على الإنجاز ، كان من المهم إذن أن تُرْسى تربيته دعائم إدراكه لواجبـــاته الابتكارية ، والإرادة التى تقوم وراءها .

إن موضوع التربية هو أن يتخذ الإنسان مهنة حياته ؛ وموضوع التربية الخلاقة هو أن يتخذ الإنسان مهنة حياته الخلاقة . ومما لا شك فيه أن الصفات الإبداعية تُمَارس دائما ولكن المهم أن تُمَارس عن وعى . والواقع ، أنه كلما كان الحافز الإبداعى أشد وعياً ، كان المرء أشد يقينا بأن الغاية سوف تتصف بصفة الإنسانية. فالطفل أثناء لعبه ، والراشد أثناء عمله ، والأم مع طفلها ، والفنان فى تخطيطه ، والكائن الحى . . كل أولئك يبدعون إبداعاً صادقاً ، ولكن حين يكون الطفل

واعياً ، فإن لعبه يصبح سيطرة على نفسه ، ويتحول إنجاب الأطفال إلى تربية ، والعمل إلى معرفة ، والفن إلى تواصل ، ويصبح ما هو حي امتلاء الوجود .

وهكذا حين نعيش مغامرة الإبداع عن وعي ، يتجلى معنى وجود العالم ، وهذه هي غايتها الكاملة ؛ وهي بعينها هدف التربية الخلاقة .

عن التربية المتكاملة :

إن النظم التربوية ومناهج التعليم الشائعة اليوم والتي تحكمها غايات وضعية ، تضلل الهدف الإبداعي ؛ وترى هذه النظم والمناهج في المبادرة الإبداعية فرصة يجب انتهازها ، ولكنها ليست على استعداد لأن تجعل من هذا الانتهاز غايتها الوحيدة ، وينتهي بها الأمر أن تصادرها — في طريقها — لصالح التكيف المطلوب في الظروف المعاصرة .

وشغلها الرئيسي هو في الواقع إقامة ما نسميه «بالتربية المتكاملة» . ويستطيع المرء أن يطالع في برنامج نموذجي من البرامج الحالية هذا التعريف الدال : « الإنسانيات هي زمان المراهقة الذي يكتسب فيه الإنسان قبل تخصصه في مهنة معينة ـ الأفكار والمشاعر والمواقف التي سوف تسمح له « بالتكامل » مع العالم الذي سيعيش فيه »[1] .

وموضوع هذا الهدف التكاملي هو إقامة « تفاعل وثيق » بين الفرد ومجتمعنا الحاضر[2] ، وهذا شيء معترف به عامة، ونادراً ما يكون موضع لوم أو اتهام[3].

---

(1) Henri Van Lier, Les Humanités du XXe siécle, Casterman, Tournai — Paris, 1965.

(2) Lalande , Vocabulaire Techniqne et critique de la philosophie. P.U.F., Paris.

(٣) وقد عثرنا على كل حال — على الصياغة الحاسمة لهذا الاتهام في المقال الذي كتبه م . ج بيرك الأستاذ بالكوليج دي فرانس لمجلة « الروح » Esprit عدد مايو — يونيو سنة ١٩٦٤ — ص ٧٦٦ .

وتقترح التربية المتكاملة على أنها مفهوم سوف ينهى كل تقريب . وباختصار فإن هذا المفهوم يعود بنا مرة أخرى إلى مفهوم « اسبنسر » الذى أقر الاختيار بين الموضوعات على أساس نفعها ، وهو تعبير عن تقدير حَقِّى غاية الحفاوة بالملكات الفائقة على الفرد ، وبغايات المجتمع ، وفقا لما يقدمه لنا علم الاجتماع من افتراضات (١)، (وعلى هذا العلم أن يطور منهجه النقدى) .

ويمارس علم النفس اليوم سلطة عامة على الأخلاق وعلى النظر الفلسفى ، وذلك بسبب اكتشافاته التى توصل إليها فى النصف الأخير من هذا القرن، وهذه الاكتشافات بلغت من الأهمية حداً جعل من الضرورى مراجعة معظم نسق القيم الموجودة ، وهكذا توالت الاكتشافات والمراجعات بعضها فى أعقاب البعض الآخر ، والنتيجة أن كل شىء فى الفلسفة والأخلاق بدا معتمداً على علم النفس ، وهذه النزعة النفسية المتطرفة psychologism هى التى ندد بها « سارتر » . بيد أن علم التربية لا يستطيع فى الوقت الحاضر أن يقاوم اللجوء إلى علم النفس ليستعير منه تعريفه للسلوك السوى . ومثل هذه العارية شىء لاسبيل إلى تبريره ، فالواقع أن فكرة السلوك السوى لاتستمد بحال من الأحوال من أى كشف سيكلوجى ، وإنما من افتراض فعال يُستخدم فى معالجة الحالات المرضية . وحين يجد الطبيب العادى نفسه فى مواجهة « الشاذ » ، فإنه يعارضه بأشد الأنماط الإحصائية شيوعا . وهكذا قامت مدارس علم النفس السلوكى ، وعلم النفس الاجتماعى التى نشأت فى الولايات المتحدة بتعميم « صورة الإنسان الآلى robot — portrait » للسلوك السوى ، وهى دالة « للاختلافات السلوكية » التى تميز الراشد من الناحية الإحصائية .

وقد تناول « بول أو ستريت » حديثا ، ظاهرة انتقال نمط السلوك السوى من علم النفس إلى علم التربية فى كتاب له موجه لرجال التربية تحت عنوان :

(1) Georges Gurvitch, La vocation actuelle de la sociologie, P.U.F., Paris, 1963.

« تكوين الراشدين »(١). ويستمد المؤلف تعريفه لموضوعات التربية من الوصف الذى يقدمه علم النفس النشوئى genetic psychology لسلوك الراشد فيقول :

« قد يكون من الممكن أن يجازف المرء بإعطاء تخطيط عام لسمات الراشد الأساسية كما وضعها علماء النفس ، ولكنها قد تُحدِّدُ – فى الوقت نفسه – من الأعراض الجوهرية للتربية . ومن المسلم به أنه لاينبغى على المرء فى هذه المحاولة أن يضع فى ذهنه صورة حية لراشد مثالى معين ، لا وجود له على أية حال ، وإنما هى مجرد محاولة لتجميع أشد الملامح تميزا للراشد » . وليس من شك هنا أيضا أن المؤلف يدرك أن هذه إشارة « تتعلق بموقف تاريخى واجتماعى وثقافى معين » ، ولكنه لا يرى مواقف أخرى سواه .

فإذا اتبع علم التربية هذه الخطوط . انحرف لسببين : أولا ، لأنه يجعل من علم النفس – وهو علم يعتمد على الملاحظة – علما قادراً على تحديد الغايات الأخلاقية وهى طريقة للعودة إلى الخلط العلمى السائد فى القرن التاسع عشر ؛ وثانيا : لأنه حين يفعل ذلك ، يؤسس نفسه على وصف نمط من السلوك تم الوصول إليه « بالتجميع » ، وهذا شىء محطِّم لمسيرة الإبداع التى تحيد عن مسيرة الجماعة . وقد قال أحد المذيعين للعالم الفرنسى – لكوربوزييه Le Corbusier أثناء حوار تليفزيونى : « سيدى الأستاذ ، أنت متقدم على عصرك بأربعين سنة » – فأجابه بقوله : « أجل ، أجل ، فهل تعلم ما يعنيه قولك من أننى متقدم على عصرى بأربعين سنة ؟ إنه يعنى أربعين سنة من الركلات خلفى ! . »

وهناك أسس أخرى ذات طابع سياسى واقتصادى واجتماعى تدفع إلى التربية المتكاملة ، وهذه الأسس أقوى ما تكون بسبب مالها من تأثير مباشر ، فهى على نحو ما ملازمة لطبيعتنا ؛ فلنفحصها إذن .

لم يعد واجب الدولة الحديثة مجرد السهر على التكامل المدنى للفرد – وهذا شىء

(1) Paul Osterrieth. Faire des adultes. coll. "Psychologies et sciences h.umaines"; Dessart, Brussels, 1964.

قامت به دائماً ، وإنما أصبح عليها بالإضافة إلى ذلك أن تسد احتياجات القـــوة الصناعية التى تعتمد عليها اليوم الاحتياجات الأخرى ، ويقاس التنافس بين الأمم الحديثةالـكبرى أحيانا بعدد الفنيين والمهندسين الذين تـكفل كل أمة منها تـكوينهم. فلنؤكد هنا ــ عابرين ــ أن مثل هذه الاحتياجات يتم عنها التعبير ببساطة وبصورة تـكاد تـكون مباشرة ، على حساب احتياجات أخرى أقل عمقاً ، وبالتالى أقل ظهورا ، ولـكنها ملحة مثلها تماما .

إن مؤسسات « السوق المشتركة » التى تحدد مناشطُها نمواً أوروبا الصناعى ، تدفع إلى الإسراع فى إقامة اقتصاد شبه مخطط semi — planned ، كما تفرض على مستوى السلوك الاقتصادى ــ انخراط الفرد فى وظائف تنأى غاياتها وتعريفها عنه شيئا فشيئا . والواقع أن أهداف النمو الاقتصادى توضع على أساس التقدير الاقتصادى الذى يعتمد أساسا على المعطيات الإحصائية . وفضلا عن ذلك ، فان التـكوين الـكامل سرعان ما يبدو أنه ليس إيجابيا تماما ، ذلك أن اختيار الموظفين الجدد يكون بالامتحانات ، وهذه الامتحانات تعقد فى موضوعات محددة . وهذا التـكوين ــ بمفهومه نفسه ــ لم يوضع لـكى يعطى نتائج مباشرة ، محددة تحديدا وثيقا . ولـكن ، لما كانت النتائج هى الشىء المطلوب ، فإن التـكوين كـكل لايلقى سوى عناية ضئيلة . والبواعث ذات الصبغة الاجتماعية من أجل تربية متـكاملة لاتقل عن ذلك نشاطا ، فهى تنشأ عن نمو القطاع الثلاثى ؛ والواقع أن النمو السريع لمناشط الخدمة فى المجتمع الصناعى قد ولّد طبقة جديدة ، هى الطبقة الوسطى ، وترتبط الأهمية المتزايدة دون انقطاع لهذه الطبقة بارتفاع مستوى المعيشة ، وبالتالى بالتوسع فى القوة الاقتصادية ؛ وسيتعلق هذا الأمر غدا إلى أبعد ما يستطيع المرء أن يرى ــ بثمانين فى المائة من السكان (١). وليست هذه

(1) Jean Fourastié, La grande métamorphose duxxesiècle, Paris, P.U.F., 1962.

الطبقة الوسطى بديلا عن البورجوازية الرأسمالية ، ولكنها حالة يحددها نمط جديد من الظروف الاجتماعية الاقتصادية .

وفى مقال عن علم النفس الجماعى للطبقات الاجتماعية ، ميز هنرى لوفيفر بين العوامل الثابتة بقوله : « تظهر الطبقات الوسطى أشكالا متباينة من الفردية ، غير أن هناك سمة نفسية مشتركة بين هذه الأشكال : هى الطابع الصورى الدقيق للفردية التى تؤكد نفسها على قدر ما تستطيع ، وفى أغلب الأحيان خارج أية حدود ، سواء أكان ذلك فى العمل ، أم فى كيفية المتعة وكميتها ؛ وتصبح الحاجة إلى التأكيد ، حاجة مجردة ، أعنى القابل الأخلاقى والروحى للحاجة إلى المال ، التى تتسم هى أيضا بتلك العمومية الصورية نفسها »(١). وعلى هذا النحو فإنها حالة حساسة بوجه أخص للمؤشرات الخارجية لمستوى المعيشة : كالمكافآت المالية ، ومظاهر الموضة وامتيازاتها ، وهى تستمد تأييدها السلبى من « استمرار » الاتصال الجماعى للنشاط ، غير أن كل فرد يخضع لنفس البرامج السمعية البصرية ، ويغتذى على نفس الإعلانات ، ويشترى نفس السلع ، ويقوى نفسه بنفس النزعة التقدمية الغامضة .

والقوت الذهنى لهذه الطبقة الذى يكمن وراء لغو المراجع الثقافية هو الجدة ، أو الصدمة التى « تشغلها » عن الشعور بخوائها . وكل شىء ، ابتداء من تشويه الماضى ، يفيد فى بلوغ الجديد ؛ ويتيه القارئ خيلاء بالمرجع الثقافى الذى يتملقه ، ويشعر بالاطمئنان نتيجة للتفوق الذى يوفره له الحاضر ــ كما يقال له ــ على ذلك الماضى نفسه . ولعل أكثر السمات تميزاً لهذه النزعة الثقافية المزيفة هو ادعاء كل شىء : حين تكون معلوماتها من الدرجة الثانية على هيئة مقابلات ، وتقارير متعجلة ، وملخصات ، ونسخ آلية ، فإنها تستخدم هذه الأشياء جميعاً لتبرير التزاماتها.

---

(1) Henri Lefébvre, Traité de Sociologie, published under the direction of Georges Gurvitch, P.U.F., 1960, "Psychologie des classes sociales", p. 364.

ولما كانت لا تلجأ إلى أى مصدر ، فإنها تتحاشى النقد المنهجى ، ولما كانت الجماهير فى صفها ، فإنها تستطيع أن تُصدر أحكامها النهائية : ولما كانت سيئة الطوية ، فإنها طاغية ؛ ولأنها تفتقر إلى النزاهة ، لا يشغلها غير هم واحد : هو تبرير ذاتها . وتتآمر البيئة الثقافية مستخدمة ضروب الخداع والتمويه نفسها .

إن التعليم النفعى الفنى أو المتخصص الذى يتلقاه الفرد المتوسط يتركه فى جهل مطبق برسالة الشخص الشاملة ؛ والعادات المهنية الحائلة دون السلوك الإبداعى ، والانخراط فى عملية من الإنتاج الكثيف الذى يمنع النضج، والعاطفية الصبيانية التى يغذيها أى شكل قديم من أشكال الترفيه ، وساعات الفراغ المشروطة ، والطرقات المزدحمة ، ومواقع المخيمات ، وأجهزة الترانزستور الإجبارية ، وأجهزة التصوير المدلاة على الظهور ، وشواطئ البحار الملوثة بالقار ، والأماكن الفنية التى تفسدها الضوضاء ، كل هذه الأشياء قد تواطأت على تعقيم ذلك « القزم الإنسانى » ، الذى لم يعد يستطيع على كل حال أن يتصور افتقاره إلى ما هو جوهرى : أليس متخما أولا وقبل كل شىء ؟ .

واللغة نفسها فريسة لمعجم هزيل ، سهل الاستبدال ، وغير مُعَبِّر على المستوى الشخصى . وفى دراسة أخرى ، يعمد هنرى لوفيفر إلى تقويم هذا الانحطاط ، فيقول : « إن الكلام التافه المبتذل باق فى الحياة اليومية : أعنى اللغو والثرثرة . ونحن نجد هذا الكلام قريباً من عالم الأشياء ، أى عالم التجارة والمال . « والابتذال» الوحيد الذى تحتاج إليه هو هذا القرب . فالكلمة المكتوبة والمطبوعة والصور تلعب دوراً هاماً ، بيد أن الموضوع لا يحتاج إلا إلى قراءة « عالم التجارة » المُعطى بوصفه سلسلة من العلامات : المحلات صغيرها وكبيرها ، والصفقات ، والإعلان الذى يثير الاحتياجات والرغبات . والكليشيهات والأنماط المتجمدة تتعاقب وترتبط بعضها بالبعض الآخر فى تناسب أو غير تناسب . وقد أصبح من العسير أن يعرف الإنسان أين يجد الكلمات الجادة . لقد تحول الكلام إلى معيار اجتماعى ، وهو يتحكم فى الأفعال والمواقف كما يتحكم فى الموضوعات ، لقد أصبح تميمة ؛ وبدلا من أن يشير

بنفســه إلى شيء ما ، كالمضمون أو العمل أو المعطيات المحسوسة ــ أصبح الـكلام إشارياً بالنسبة لجماعات لا تشترك فى شىء سوى اللغو ، لأن شيئاً لا يربطهم بالنشاط الإنتاجى أو الإبداعى ــ والـكلام ــ ذلك الشىء المبتذل الذى يجمع بين تلك الجماعات الشكلية ــ يسوى بين النساء والشباب والشيوخ . ومن خلاله يصل الطفل إلى البلوغ المبكر ، ويعود البالغ طفلا ، وتصير النساء أكثر ذكورة والرجال أكثر أنوثة . . إن كل شىء يتجه إلى ما هو محايد . والمعانى تفيض بغزارة ، وهذا هو اللا معقول ، لأن المعنى قد ولى (١)» .

ويسخر مسرح يونسكو من هذا كله .

وهكذا يؤتى بالفرد تدريجياً إلى النقطة التى لا يستطيع معها أن يخترع سلوكه ، بل يجده مجهزاً له فى التـكييف الاجتماعى والاقتصادى للبيئة التى يعيش فيها . فإذا أذعن الفرد له ، لم تعد ثمة مجازفة يقدم عليها . ولا أقصد المجازفة بأن يعيش فقيراً فحسب ، بل المجازفة الأخلاقية أيضاً ، تلك المجازفة التى تشمل الاختيار الشخصى ، والعزلة الإرادية ، والجهد المنفرد .

والمدارس مؤسسات عامة ، والتعليم الخاص لا يكون إلا بموافقة الدولة . ولهذا فإن التربية تضمن على هذا النحو التكامل الاجتماعى للأجيال الجديدة . ومثل هذا الهدف يقوم على ضمير نزيه ــ ومن يجرؤ على مهاجمته ؟ ، ولـكنه يسعى فى الواقع إلى أهداف نفعية صرف . ومن ثم ، تجد التربية نفسها مقصورة على مهنة أو مهنتين ، لأن الاحتياجات الملحة لعـالم قد أصبح فريسة للتطور الصناعى السريع هى وحدها التى توضع فى الاعتبار ، وفى الوقت نفســه ، ولهذه الأسباب نفسها ، يتم تعديل البرامج باستمرار ، بيد أن هذه التعديلات مدمرة تمام التدمير ، لأنها تعرّض جميع التلاميذ فى المدارس لمناهج تربوية لا برهان عليها ، ولهـا نتائج معروفة ، وهكذا تعانى التربية دائماً من الارتجال ؛ والتكوين العام الذى وصل تدريجياً إلى حالة من

(1) Henri Lefébvre, Le Langage et la société, coll. «Idées.» N.R,F, Paris, 1966.

الابتذال التمس ، والذى أصبح هو نفسه عرضة لعوائق اللحظة الراهنة ، لم يعد قادراً على إعطاء قوام للاعلام الثقافى . وبينما تتغير البرامج ، يخدع أولئك الذين يتشككون فى هذه البرامج ـ أنفسهم باعتقادهم أنهم يخترعون شيئاً ما ، والحقيقة أن الإنسان يستطيع أن يطلق على مايصنعونه اسم «عصاب التكيف» Neurosis of adaptation وهذا العصاب كغيره من ضروب العصاب الأخرى ـ قائم على الخوف ، الخوف من فَقْد منفعة ظهرت إلى الوجود .

أما فيما يتعلق بالطفل أو المراهق الذى يتكون فى هذه الظروف ، فنحن نعلم النتيجة العادية : افتقار المعرفة إلى البناء المحكم ، ومعجم صبيانى ، وريبة مشروعة فى التعلم الذى يتلقاه ، ورغبة فى اكتساب النقود فى أقرب وقت ممكن ، واهتمام مضحك بالترف ، واستعداد محدود تماماً بموضوعات الامتحان ، والترفع عن التفكير النظرى النزيه ، ومحاكاة صبيانية للبدع السائدة ، وانعدام السلوك الفردى ، والعادات القطيعية ، والنزهات الجماعية ، وقضاء أوقات الفراغ مع الجماعات ، وحياة عاطفية تتسم فى أغلب الأحيان بسلوك ارتدادى . وسوف تنتج الأجيال التى تكونت على هذا النحو نمطاً إنسانياً يذعن فى وداعة لتكييف المجتمع شبه المخطط . فإذا افترضنا أن هذه الأجيال تضمن مرتبات عالية ، فإنها سوف تُشبع فى نهم جميع الرغبات التى تثيرها الإعلانات فى نفوسهم ، وسيكفيها أن تخوفهم بالفقر ، لكى تدفعهم إلى العمل ، وأن تخوفهم من العزلة لكى تلقى بهم فى أحضان الجماعة لقضاء أوقات فراغهم ، وأن تخوفهم من الحياة ، لتجعلهم يقبلون أن يكونوا أرقاماً و«عدداً فى الإحصاءات» .

وعلى الرغم من الإغراء الذى تتسم به التربية المتكاملة من حيث مطامحها ، فإنها تكشف عند التحليل عن خطورتها ، ومع ذلك فإن مبادئها مقبولة لدى الجماهير ، كما أنها تفرض نفسها فى كل مكان . والواقع أن هذه المبادئ تختلط بمبادئ النزعة « التقدمية الغامضة » التى أشرنا إليها آنفاً ، تلك المبادئ التى تعد غريبة عن روح الإبداع الحقيقى ، بسبب ما فيها من تجانس .

فالحياة الشخصية ـــ على العكس من ذلك ـــ تقبل التوتر الذى يتزايد أثناء

إبداعها لسلوكها الخاص ، أو بتعبير أدق ، حين تصبح أشد باطنية : توتر الأنا المشدود بين ما هو وضعى وما هو إيجابى ، بين المعقول واللا معقول . وأيا كانت الحدود التى يفرضها ما هو وضعى ، فلابد من أن يشمل غير المتوقع إذا كان لابد من النشاط الخلاق أن يظهر نفسه .

ومهما يكن من أمر ، فالعالم الغربى يبقى على نفسه ، وهو ليس مديناً فى ذلك إلى كمال تقنياته ، وإنما إلى إعانه العنيد بإمكانيات الشخص اللامحدودة . وهناك دائماً أشخاص يشعرون بأن لديهم من القوة مايكفى لتشكيل مصيرهم بدلا من الخضوع له ، وهناك دائماً بيئات لن يتلاشى منها نداء الأفضل ، وهناك دائماً رسالات قائمة على أساس من مطلب لامعقول للتكيف .

عن فرص التربية الخلاقة

وعلى هذا النحو يتم الحفاظ على فرص التربية الخلاقة ، ولكنها مابرحت محصورة فى جو من الاتهام. فأنصار التربية المتكاملة يخشون من الهروب من «الواقع الحالى» إلى هذا « الآخر الأساسى » الذى يمهد للاشتعال الخلاق . وهذا النقد يستمد قوته من الجهل الذى يتصف به أى نوع من أنواع الانتهازية ، أعنى أن الحاضر هو ماينبغى أن يمر بأسرع مايمكن . وعدم الإذعان للحاضر معناه المحافظة على المستقبل ، وتكديس الطاقات اللازمة لتطوير حالة من التركيب الأعلى ، على نحو تتجمع فيه المتناقضات . فلندع التربية الخلاقة تكف إذن عن تحقيق ذاتها على تلك الصورة الفوضوية ، وأن تكف عن إظهار ارتيابها فى نفسها ، ولكن ، فلتكن واعية بحججها السليمة ، ولتضع المنهج الذى يجعلها تمتلك زمام قواها . وبغض النظر عن رفض الانحطاط الذى تستتبعه التربية المتكاملة من تلقاء نفسها ، فإن الدافع الأول الذى ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا يأتى من ضرورة التحكم فى المدنية التكنيكية (الفنية) . وتظهر بواعث أخرى فى الإمكانيات التى تمنحها اليوم الأعمال السياسية والاجتماعية والثقافية للدافع الخلاق .

ولن تنشأ عن المدنية الفنية نزعة إنسانية ، لأنها تضع مقولات جديدة ، ينبغى على النشاط الإبداعى أن يسايرها .

والتقنيات ليست سوى وسيلة فحسب ، فلا أصل لها ولا غاية ؛ والتفكير الذى أنتجها والمجتمع الذى تبناها فى مشروعاته هما أصول وغايات التقنيات التى تستطيع وحدها تبرير انتشارها . تستطيع التقنيات أن تسيطر ، ولكنها لاتستطيع مطلقاً أن تكون أساس صفحة الأرض ؛ وهى بالنسبة للطبيعة بداية ثانية . وفى بداية السلوك التكنيكى ، تكون الحرية التى تخترع قوى جديدة ، ونمطا من التفكير يتحرك بين الممكنات ، وانتباهاً يوجهه حدس الأصول والغايات التى تعنى احترام الحياة ، وإبداع اللامتناهى . أما القوة التى تضعها التقنيات ، فإنها لاتضع هى نفسها أية غاية ، والاعتقاد بعكس ذلك يدخل فى باب الأساطير .وهنا أعلن كارل ماركس احتجاجه بحق فى صالح الدور المحرِّر للتقنية ، وضد مصادرتها بواسطة رأس المال . وهنا تكون الماركسية موضع عناية النزعة الإنسانية .

ومهمة القرن العشرين هى أن يتحدى ضروب الاغتراب الناجمة عن مدنية تكنيكية فقط ، وأن يدرك أن غايات المدنية لا تقوم فى التملك وحده ــ وهذا شىء توصل المفكرون الدينيون إلى معرفته فعلا ــ وإنما تقوم على تحرير الإنسان الإيجابى المفكر.

ويعلن النمو الصناعى المتزايد السرعة عن طراز من الحضارة الفاوستية يمكن أن يتم فيها تجاوز التقريبات وضروب الاغتراب فى المستقبل . فإذا كان عصرنا محكوماً ــ كما يعتقد اشبنجلر ــ بشخصية فاوست ، فإن علينا أن نكتشف على أى نحو أعاد فاوست بصورة رمزية التوازن الكامن فى الإفراط . لقد فعل ذلك بتركيز نظره على الطبيعة ، وانتباهه على يقظة الحياة ، وبالاستماع « للجنى » الداخلى ، وبقبوله إلهامات الإيروس (الحب) ، المنشىء ، وبتوجيه نفسه وفقاً لإيقاعات النظام الكونى الرئيسية ؛ بيد أن معظم هذه الكلمات : الطبيعة والحياة ،والجنى ، والحب والنظام الكونى ــ خالية من المعنى ، لأن تجربتنا الساذجة قد أُخذت منا .

ما الواقع الذى تحدده فكرة الطبيعة ؟ إن هيدجر يستحضره فى تعليق له على الكلمة الأصلية physis (طبيعة) عند اليونان ، فيقول : إن الطبيعة تفتتح دائم ـ

والوجود كله يجد أصله فيها ؛ والإبداع الإنسانى بأسره من نتاجها ، وهى حاضرة - مقدما - فى كل عمل . إنها علامة على نوع خصب من الفكر ،وعلى فن عالمى، وعلى شعور سليم بتأسيس الأشياء على مايتفجر فى داخلها دائماً من طاقات.وتجربة الطبيعة تنفذ بنا إلى سر تولد لايعرف الكلال .

وفضلا عن ذلك ، يجد المرء فى بعض فروع العلم نظريات تدخل مفاهيم النظام والشكل والإيقاع بصورة واضحة ، وهذا ماينطبق على حالة مبدأ « الشكل الجيد » فى نظرية الجشتالت التى تشير إلى أفكار واحدة فى كل من الطبيعة والفسيولوجيا (١) (علم وظائف الأعضاء) ، وبالإضافة إلى ذلك تلقى بعض الملاحظات عن الإيقاعات التى تقوم بتنظيم النمو الحيوى (البيولوجى) ، تطبيقات جمالية(٢) . ويقع سر معقولية العالم فى نظر أينشتاين - داخل مجال البحث العلمى ؛ واعترف بأن هذا هو الدافع وراء مايبذله من جهود ، كما كان هذا الدافع نفسه - فى رأيه - وراء جهود كپلر ونيوتن(٣) .

إن تصور «اللوغوس» Logos الذى يحتضن الواقع وينظمه ليس إذن تصوراً متعسفاً . ويمكن تبريره - إذا اقتضى الأمر - بفضل افتراض بسيط فعال ، مادام الفكر باعتماده على ذلك يستمد بصورة طبيعية أشد قواه ثباتاً . غير أن الإنسان المعاصر مازال محروماً حرماناً كبيراً من حدس سليم عن شىء معقول على وجه شامل . وفى الوقت نفسه مازالت تجربة « الروح » المولدة لوجوده غريبة عليه. وبغض النظر عن واحد أو اثنين من المجددين فى العلوم تجديداً بعيد المدى عن فنان أو اثنين يعملان فى العزلة،وعن أنقى الشعراء نفساً،وعن بعض العقول الدينية التى ملؤها التواضع ، فإن الإنسان لايرتبط بحضور الحياة بوصفه سراً تكتشفه عاطفة خفية لاتكف عن العمل . ومن هذه النقطة ينبغى أن تبدأ التربية الخلاقة .

---

(1) Wolfgang Koehler, Die physischen Gestalten in Ruhe und im stationaren Lustand, Braunschweig, 1920.

(2)Mathila Ghyka. Esthétique des proportions, N.R.F., paris,1927.

(3) Albert Einstein, Comment je vois le monde, Crés, paris.

ومن ناحية أخرى نجد أن الإمكانيات التي يمنحها الفعل السياسي والاقتصادي والثقافي للدافع الإبداعي تتضاعف . فإذا تحدثنا بلغة السياسة ، فإن نمو المجال التنفيذي بالقياس إلى المجال التشريعي ، كما نراه في الدول الحديثة ـ يدعو الشخصيات المنغمسة فيه انغماساً كافياً إلى اتخاذ القرارات والتحركات . ولابد من تكوين مثل هذه الشخصيات. وإذا كان الانتقال من اقتصاد الربح إلى اقتصاد الخدمات الذي نعلق عليه اليوم آمالنا قد ظهر إلى الوجود فإنه سيعود إلى توظيف الناس في دوائر الإنتاج والتوزيع . ومن الممكن أن تكون أنشطة « العلاقات العامة » تعبيراً عملياً عن هذا ، ولكن لاينبغي استعمالها لإعطاء وعي واضح ـ على هيئة سلوك اجتماعي مزيف ـ للاستغلال الرأسمالي الجديد للانسان على يد أخيه الإنسان .

ويثير تطور الدول النامية عددا متزايدا من المشكلات التي لا يستطيع المرء أن يتصدى لها إلا بنوع جديد جدة كافية — من الفكر ، وبشخصية مستقلة استقلالا كافيا ، وبفعل مبادر مبادرة كافية(١) .

إن ظهور المجتمع اللاطبقي الذي لا تلعب فيه الصفوة دورا راجحا (وهذه فكرة بورجوازية) — بل عليها بالأحرى أن تؤدي داخل تركيبات الحوار وظائف تحريرية — ظهور هذا المجتمع يقتضي أن تكون التربية قائمة على النمو المنتظم للصفات الفردية . وكما أن التعليم العالي في مجتمعات أوروبا الصناعية والاشتراكية يسير نحو تعميم أكبر ، فكذلك ينبغي أن تصبح امتيازات الثروة في التحكم في المناصب الرئيسية أقل احتكارا (أو انحصارا) ؛ وأن تكون الحاجة إلى أصحاب المبادرات الفعالة في كل مجال أشد وضوحا ؛ وأن تكون فرص الإعلام المفيد بواسطة تقنيات الاتصال الاجتماعي أكثر عددا . وكل من يظهر تفوقا في مجال ما ، وتولد معه إرادة الإبداع ، يدخل في نظام كوكبة رئيسي ، منفصل تمام

(1) Indra Deva, "The Course of Social Change, A. Hypothesis" Diogenes, No. 56, Winter 1966.

الانفصال ، ويمضى قدما ليشد المجتمع الجديد إلى الأمام ، وليضع طالع الثريا فى سماء التاريخ المعاصر .

ولكن ، ينبغى على المرء ألا يخدع نفسه ، ذلك أن ظهور هذه الصفوة مقيد فى الغرب بالترف المادى الذى يخدّر حب الاستطلاع ، ويثير الاشمئزاز فى نفوس الناس من الاختراع ، ويعمل على تعقيم الطاقات ، ويخمد الإحساس المأساوى بالمصير الذى هو أصل كل بطولة ؛ كما تلجمه أيضا المشاعر المتعددة من الانتماء إلى الطائفة الاجتماعية التى — أيا كان مستواها — تطلق آلية (ميكانيزم) بأكملها من التميزات والأفعال المنعكسة التى تُخفى راحة ذهنية ؛ كما يكبح جماحها تلك العقول الانتهازية الأثرية التى لا تعرف الإخلاص لنفسها أو لأفكارها ، والتى تحكم الرأى العام — بصورة مشينة — عن طريق الصحافة والإذاعة والتليفزيون والمجلات ، وتتملق الطبقة السائدة فى لحظة معينة — سواء كانت طبقة سياسية أو مالية — بأنصاف الحقائق . وهذا التواطؤ يتم بين هذه العوامل بالغريزة ضد ظهور صفوة يمكن أن تكسب الاحترام بفكرها الخاص . وعلى المرء لكى يتخلص من علاقة القوة المستقرة على هذا النحو ، أن يؤمن بتفوق الشخصية ، وبالعقل المستقيم ، وأن يحتقر السلطة المشتركة ، وأن يكون مقتنعا بأن الجماهير تتوقع الإرشاد ، وأن يضع ثقته فى الفرصة أو « الكايرون » Kairon كما يسميها الإغريق ، التى لن تتوانى عن الظهور إن عاجلا أو آجلا ... على المرء أن يؤمن بهذا كله ، وأن يبدعه بحدس نابع من ضرورته العميقة الشاملة .

والمهن التى تؤثر على تقنيات الاتصال الاجتماعى كالتصوير الفوتوغرافى والسينما ، والإعلان ، والتليفزيون ، والصحافة ، والجماليات الصناعية — هذه المهن تمارس الاختراع على مستوى وبائى ، ولكنه تعميمى ؛ ولم يعد ثمة وجود لقطاعات غير مطّلعة فى الحياة الاجتماعية . وتدل الخبرة الأولية على أن بيئة تلقائية سطحية من النشاط الإبداعى يمكن أن تثير الحاجة إلى أسلوب أو طراز . وهذه التقنيات نفسها قد خلصت الفنون الكبرى كالتصوير والشعر والمسرح ، من وظيفتها الترفيهية ،

وساعد التصوير الفوتوغرافى على أن يرد فن التصوير إلى طبيعته الجوهرية ؛ وعلى العكس من ذلك ، أثرت التقنيات الإذاعية بسيلها اللفظى على المجازفات الشعرية ، فمزجت بالإلهام الحياة والوجود ؛ وأحدثت الصورة التليفزيونية إدراكا بالطبيعة الفريدة والصفة الأصيلة لحضور الإنسان فى المسرح المأساوى والتمثيل الصامت والرقص ، هذه الفنون التى يكتشفها العصر والجماهير العريضة ، على ما فى ذلك من مفارقة(١) .

إن تقاليد الغرب الثقافية ، ونمو الجانب التنفيذى فى النظام السياسى المعاصر ، والمركز الذى تعود الفردية الاستثنائية إلى اتخاذه مرة أخرى ، والفرص والمخاطر التى تقدمها البلاد الآخذة بأسباب التنمية ، والاقتصاد البروميثى الذى يجعله شيطان القوة فريسة له ، والحاجة الشاملة إلى نزعة إنسانية جديدة .. هذه الأشياء جميعا تدعو إلى تربية خلاقة ، كما تتعطش الأرض المجدبة إلى المطر ؛ بيد أنها لا تستتبعها على كل حال . فلنفترض أن هذه التربية الخلاقة غير موجودة ، حينئذ تظهر على الفور حتمية يسهل التنبؤ بها ، وستخلى الثقافة الإنسانية مكانها لثقافة زائفة ، وستذعن الممارسة الحرة للملكات الوعى للإشباع الآلى ، وسيقع رجل التنفيذ السياسى فى أيدى التكنوقراطيين الذين يهدفون إلى التكييف الشامل للحياة الجماعية . وسيزداد استغلال الدول النامية استغلالا أكثر علما وتدبيرا ؛ وبقبول وهم المدنية ، سيتم عن وعى عزل الرجال المستقلين فى الرأى وتجاهلهم . وهكذا سينتصر القزم المتخم المنظَّم ، وسيظل أسير حالة من العبودية الذهبية ، وذلك بفضل القيود اليومية اللامتناهية الخفية ؛ وسيبقى معزولا مائة عام أخرى عن أروع إمكانياته .

عن السلوك الابداعى :

والعلاج الوحيد هو تدعيم حرية العقل بقيمة إبداعاته وعددها . ولكن ما معنى الإبداع الواعى ، والناتج عن إرادة الإنسان ؟ . الإبداع بهذه الطريقة معناه

---

(1) Jean Vilar, De la tradition théatrale, l' Arche, Paris, 1955.

استخلاص الفهم الشامل والقـــوى الجديدة من الالتقاء بين الذكاء ومظاهر الحياة الـكلية .

ويـكمن الصعوبة فى أن الذكاء يتحدد عادة بالسلوك الفعال وبالميـكانيزمات المألوفة لديه ، وبالمنفعة التى يحاول استغلالها ، ولـكنه باشتباكه فى أنشطة متـكررة تضمن الإنتاج الضرورى للسلع يرجىء تساؤله عن وسائل الفعل . وهذا هو السبب الذى يجعل التنافس مثيرا للجهد الإبداعى ، وأحياناً تأتى الإثارة من التقييد ، وقد تأتى أخيرا من التهجم العنيف لقوة حية مكبوتة كبتا مهيناً ، بيد أن مراجعة المناهج الشائعة تقتضى الإبداع ، وتقدم العقل يرتبط ارتباطا دياليكتيكيا بما تبديه الطبيعة أو الواقع الذى يريد السيطرة عليه من مقاومات . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الالتقاء المثمر بين العقل الخلاق والحياة الـكلية لن يتم إن لم يكن العقل فى حالة من التركيز ، أو إذا لم يكن مدربا على تلك الحالة من اليقظة المنتبهة التى يتصف بها المبدعون من الزعماء والعلماء ورجال العقل والفلاسفة والفنانين .

وتتحدث نظرية « كلود برنار » فى « الاستدلال التجريبى » عن دور الانتباه فى اختراع القوانين العلمية فتقول : « ينبغى على عقل الرجل التجريبى أن يكون « نشطا » ، أى ينبغى أن « يسأل » الطبيعة فى كل اتجاهاتها ، وأن يتابع الفروض الشبيه المقترحة ، فليست التجربة أساسا سوى « ملاحظة مثارة »(١) .

وما الملاحظة المثارة إن لم تـكن ممارسة الانتباه ملتفتا صوب ما يشعر بالحدس أنه شىء جديد ؟ وهكذا يكون الانتباه هو الذى يحرك الاستدلال التجريبى ، ثم يتجاوزه فيما بعد حين يستقر القانون بوضعه وجها لوجه مع مجموع القوانين الأخرى التى تعرض من خلالها الطبيعة نفسها للتفـكير . وما يميز العقل الخاضع للمألوف من العقل البحاثة فى العلوم هو أن الأول لا يعنى إلا باستغلال النتائج التى تم الوصول إليها فى أى موضوع يخضع لتجربته ؛ أما العقل الثانى فإنه يستريب

(1) Claude Bernard, Introduction a l' étude de la médecine expérimentale, P. U. F., Paris, 1947.

فى الآفاق الجديدة التى تفتحها هذه النتائج نفسها ، تلك النتائج التى اعتبرت حدود مجال تم ارتياده . وهذا هو السبب الذى دفع فوراستييه أن يقول فى تحليله لـ « شروط الروح العلمية » : « الملكة الأساسية فى تكوين عقل باحث جيد هى الدهشة ... فهى أولا وقبل كل شىء العامل الدافع إلى اكتشاف وقائع جديدة تعد جوهر المعرفة العلمية ، أكثر كثيراً من مجرد لعبة التفسيرات » (١) .

ومازالت المواجهة بين الذكاء والحياة الكلية universal life قائمة عند منبع التجديد التكنيكى ، وفيه يتخذ الاختراع — وفقا لتعبير جيلبير سيموندون — على عاتقه « مسئولية ما هو فعلى عن طريق نسق من الممكنات » ؛ وذلك لأن القوانين التى تتحكم فى الاختراع يمكن تطبيقها أيضاً على طرائق سلوكنا جميعا . كما أن « علاقة الفكر بالحياة مماثلة للعلاقة بين الموضوع المُنشأ والبيئة الطبيعية »(٢). وسواء فى الاختراع الفنى أو فى اكتشاف القوانين العلمية ، يتألف سلوك الإبداع — كنقطة بداية — من تلك العلاقة الخاصة القائمة بين موضوع البحث والمجال اللامتناهى الذى ينفتح أمام الباحث .

ولكن ، من أين يصدر هذا الشعور بالجديد الذى يثير دهشة الانتباه ويحوده ؟ . إن الحدس يحل تمكن يرتبط بالشعور الخالص البسيط بالحياة الكلية ، وبذلك الانفعال البدائى الذى لا نكاد نستطيع التعبير عنه بثرائها الذى لا ينفد : « إنه شىء نشعر به أكثر من أن نستطيع التعبير عنه » ؛ وليس من الممكن

---

(1) Jean Fourastié, Les conditions de l'esprit scientifique, coll. « Idées, » N. R. F. 1966, p. 250.

(2) Gilbert Simondon, Du mode d' existence des objets techniques, chapter II, article II, « L'invention technique : fond et forme chez le vivant et dans la pensée inventive, », Aubier, Paris, 1958, pp. 56 - 61 .

اكتسابه ، ولكن من الممكن فقدانه ؛ وهو يقع فى المنطقة المشتركة بين كل ذكاء ، ومع ذلك لابد من تنميته عن وعى . فلندرس هذه النقطة .

إنه يقع فى المنطقة المشتركة من كل ذكاء ، والذكاء الطفلى أولا وقبل كل شىء . وتؤكد دراسات[1] پياچيه الشهيرة فى « علم نفس الطفل » بصيرة بودلير العبقرية[2] ، وإرهاصات مونتانى وبسكال وروسو وجيته وبريتون[3] التى لا تخطىء : فالانتباه الموجه إلى منابع الحياة اللامحدودة الذى سيغذى فيما بعد حدوس العالم والفيلسوف والشاعر نجده على حالته الطبيعية فى دهشة الطفل . إن صورة فوتوغرافية ساذجة للذرة موجودة فى كتاب مدرسى للطبيعة ، قدحت شرارة بحث هيزنبرج Heisenberg[4] . هذه الدهشة الأصيلة تحدد بطريقة مستسرة كثيرا من الرسالات ، وربما لم يكتمل أى نضج اكتمالا يكفى لأن يكون تحققها الصادق ، وإذا رجعنا إلى تجارب الطفولة ، ألا نجد أن التحليل النفسى ليس سوى محاولة للارتباط بقوى الطفولة التى خناها ؟ وألن يكون الشطر الأفضل من فن العلاج فيه سوى استرداد الثبات أكثر من أن يكون تحليلا يهدف إلى تبرير نتائج المرض تبريرا عقليا[5] ؟ وفى الطفولة ، هناك ذلك التصريح بالحدس الأساسى الذى يجتهد فكر الفيلسوف — فى رأى برجسون — فى توضيحه خلال مؤلفاته[6] ؛ وحينئذ الفنان هو الذى يقرب الفيلسوف من « الحقيقة » الخلاقة[7] .

---

(1) J. Piaget, La naissance de l'intelligence chez l'enfant, Delaechaux et Niestlé.

(2) Charles Baudelaire, Curiosités esthétiques, La Pléiade, N. R. F. Paris .

(3) André Breton, Manifeste du Surréalisme, 1924.

(4) Werner Heisenberg, La nature dans la physique contemporaine, coll. « Idées », N. R. F., 1962 .

(5) Mircea Eliade, Le mythe de l'éternel retour, N. R. F., 1949.

(6) Henri Bergson, l'intuition philosophique, Ed. du Centenaire, P. U. F., 1945.

(7) Jean - Paul Weber, Psychologie de l'art, P.U.F., 1965.

ولا يستطيع البالغ إلا نادرا ، أن يحتمل انتباهه إزاء أشكال الدهشة غير المحددة ، فالانتباه يستلزم حالات جديدة دائما ، ولأنها كذلك فلا سبيل إلى استيعابها : فهى حبلى بكل الإمكانيات التى تعرض نفسها على العقل فى التقائه بالواقعى . وهدف التربية الخلاقة هو محاولة جمع الطاقات التى تتدفق على العقل فى تجربة الدهشة المبهمة .

إن أفلاطون ودافنشى وجوته وفاليرى ـ بما لهم من عقليات جديدة غازات كل إمكانية ـ قد حاولوا تفسير ضروب السلوك الإبداعية ؛ وأعلنوا جميعاً أن ثمة شرطاً واحداً أولياً ، هو الانتباه . وهذا الشرط يمكن أن يوجد فى كل أشكال التربية المعروفة ، بيد أن معظم نظم التربية أبعد عن أن تكون إبداعية ، بل إنها تبلغ حداً من « التصلب » دفعا كافكا إلى أن يقول : « على المرء أن يعتبر التربية مؤامرة يحيكها الكبار(١) » ولا توجد بالطبع مؤامرة مدبرة بين الكبار ، ولكن ثمة شعور بالإحباط ينتشر بين الأجيال الجديدة ، وهذا الشعور يأتى من قصور فى توجيه الانتباه ، فلنفحص إذن ما يمكن أن نجده فى توجيه الانتباه ، من حيث المبدأ .

يدخل توجيه الانتباه فى باب النشاط الواعى ، بيد أن هـذا النشاط الأخير ينمو من معطيات حدسية لا يوثق بثرائها إلا نادراً . ويقرر ليفى ـ شتراوس فى سياق دراساته عن « تركيبات الأبوة » أن الطفل يملك عند مولده ـ بالقوة ـ الإمكانيات اللا نهائية التى ستخصصها البيئة الثقافية بأن تنتقى عدداً محدداً منها ، وهو يكتب قائلا : « إن سيكلوجية الطفل تؤلف ماهية كلية أغنى بما لا نهاية من كل ما يستخدمه كل مجتمع فردى على حدة . وكل طفل يجلب معه عند مولده ، وفى صورة تركيبات ذهنية تخطيطية ـ مجموع الوسائل التى يستخدمها الجنس البشرى منذ الأزل

---

(١) فرانز كافكا ، يوميات ، ترجمة روبير ، جراسيه ، ١٩٥٤ ـ ص ٤٧٤ ـ وهذه الصيغة تجمع راديكالية الاحتجاج الطلابى فى فرنسا ، وفى العالم أجمع ، فلنكتف بها كاستشهاد مادام هذا النص قد كتب قبل حوادث باريس التى وقعت فى أبريل ومايو سنة ١٩٦٨ .

لتحديد علاقته بالعالم (١)» . وهكذا تتحقق الأنثروبولوجيا من صدق المبدأ الأساسي في أشهر المذاهب التربوية الشهيرة ، من « فيثاغورس » إلى « جيته » ، ومن جان ـ جاك روسو إلى أنصار المناهج الإيجابية ، أعني المبدأ القائل بأن الطفل يمتلك ماهية ثرية ثراء لامتناهياً ، وأن أول خطأ تقع فيه مناهجنا هو أنها محدودة بتحيزات الكبار التي تحددها هي نفسها معايير المجتمع الذي نعيش فيه . وعلى هذا النحو ، تقرر فيما بعد أن ماهية التطور الكلي ، ومستقبل الإنسان بأسره ، يكمن في الإنسان نفسه ، وأنه يتجاوز إلى مالا نهاية العقل الواضح ، وينتهي الأمر إلى أن كل تحصيل وضعي — أيا كانت فائدته — ما هو إلا هزؤة بما ينبغي أن يكون ، وينتج عن هذا واجب لا مندوحة عنه وهو ألا نحافظ على ميدان الإمكانية بأسره في التعليم ، بل أن نفتحه أيضاً بصورة حاسمة . وربما كان من الغريب حقاً أن نسلم بالتطور للعلوم ، ولا نسلم به للتربية ، وأن نسمح للحياة بأن تتقدم في وثبات وقفزات ، وبالاختراع ، وأن نفرض على التربية تكييفاً استبدادياً لا نفرضه على غيرها من العلوم .

والفكر الخلاق يتبدى بوصفه تجربة المشاركة ، ومولد الوعي في العالم ، وإدراك الممكنات المتناثرة ، وطعم الديمومة ، « والمعطيات المباشرة » للسلوك الإبداعي لا نستطيع إلا الاقتراب منها فحسب ، وعلى المرء أن يصل دائماً وأبداً إلى حدود الدافع الذي نتلقاه منها . وهذا أيضاً هو السبب الذي من أجله يتضمن أي سلوك خلاق ـ في بداياته ـ شيئاً من الشعر .

وأيا كان الأمر ، فمن المألوف جداً أن نشعر بأحاسيس ، وأن تكون لدينا أفكار ، ويبدأ غير المألوف حين يجعل العقل هذه الأحاسيس وهذه الأفكار تعمل في سبيل نفعها المتبادل ، وهو على إدراك لهذا التوسع ، وحين يعمل على تنظيمها وتوحيدها ، ليشيد لنفسه في نهاية الأمر معماراً عقلياً يحتضن مناطق لا تكف عن

---

(1) Claude Lévi — Strauss, Structures élémentaires de la parenté, P. U. F. Paris, 1949 .

الاتساع . وهنا ويظهر إلى النور شيء جديد ، لأن العقل تسانده الإرادة ، قد ربط العناصر التي تجاورت اعتباطاً في التجربة المشتركة . فإذا وُجِّهت قوة الفكر على هذا النحو ، وبالتالي قوة الفعل الذي نشرع فيه ـ فإنها سوف تعتمد على قوة ذلك الترابط ، ذلك أن أي ضرب من ضروب التفكير يربط بين الأفكار بطريقة ضعيفة ، مثلما لا يقوم أي نوع من أنواع الفكر بتغيير مجرى الأحداث إلا نادراً . والأفكار العبقرية تشبه كثيراً من التركيبات الحرة حيث إنها حساسة لكل انحناء ، مفتوحة لكل بصيرة ـ ولكنها مترابطة بكل معنى ، وهي تتجمع معاً بواسطة منطق سريع متنوع . وهكذا يُسَلِّم المرحلة الثانية من السلوك الإبداعي تماماً لعملية التأليف . ومهمة التنظيم هذه ليست إلا التجربة الأولى للانتباه ، ولكنها تنتشر خلال مناشط العقل جميعاً : فهي لم تعد مجرد حلقة منعزلة تعمل على حدة . ولكنها نسيج كامل تتحرك فيه الخيوط المتضافرة جميعاً في آن واحد . وهذا الارتباط بين القوى هو عين البراعة في أجلى مظاهرها .

لقد اقتحم العقل الأخطار جميعاً ، في الأعالي ، وفي الأعماق ، في التشتت والتركيز ، في الضعف والقوة ، وها هو ذا يستطيع الآن أن يحيط في نظرة واحدة ، بكل حنايا اللابرنت (التيه) ، وأن يسلك أقصر طريق ، أو كما يقول پول فاليري في كتابه : « مدخل إلى منهج ليوناردو دافنشي » : « إن سر ليوناردو وبوناپرت وكل من يمتلك أعلى درجات الذكاء لا يمكن إلا أن يكون في العلاقة التي وجدوها ـ وكانوا مرغمين على أن يجدوها ـ بين الأشياء التي لا نستطيع أن نجد بينها قانون استمرار » . ويكون الفعل أكثر فاعلية حين يواجه الفكر مشروعاته مواجهة أشد مباشرة بالشروط الوضعية المتعلقة بإنجازه ، ذلك أن الممكن يسير جنباً إلى جنب مع الضرورة .

والسلوك التكنيكي يقوم من جانبه بربط نتائج العلوم بواقعية الفعل ، وتترجم حينذاك الشروط الوضعية إلى إمكانيات فعّالة . وهكذا لابد للمرء من أن يجتاز ما في الواقع من التنوع ، بل من تناقض ، ليقيم البناء الذي ينظمه ويشكله ،

فلكى يحقق الإبداع نفسه ، لابد من وضع شكل ما . ولقد جعلت السيبرنيتيقا السلوك شيئاً جذرياً : « فمحاكاة » جهاز ما هو حى بالآلة السيبرنيتيقية هو فى الواقع الإسقاط المحكم لنوع من التفكير العضوى الفعال . وعلى هذا النحو تتحقق السيبرنيتيقا من صدق معامل التناسب للفكر الإبداعى . ومازالت الحركة البنائية structuralist movement تتطلع حتى اليوم إلى تحديد منهج هذا الفكر العضوى الفعال تحديداً عن طريق التصورات العقلية ، فإذا بدأنا من فرص للعمل ، ولكنها فى هذه المرة على مستوى التفسير النظرى ، بقيت مسألة إعطاء شكل بنائى للواقع . وعلى ذلك فالمهمة الثانية للتربية الخلاقة ، تلك المهمة التى تأتى بعد امتداد مجال الإمكانية بالحدس الحافظ ، ستكون هى حث الإرادة على إقامة بناء منظم للواقع : ودراسة اللغة اليونانية القديمة والرياضيات والفكر الميتافيزيقى مدخل مباشر للمهمة الخاصة بإعطاء هذا الشكل .

بيد أننا نرى أن إدراك ما فى الواقع من تنوع ، ضرورى أيضا هذه المرة ؛ وهذا التنوع لا مفر من معاناته إلى درجة الإحساس المتصل بما لا سبيل إلى احتماله ، هذا الإحساس الذى بدونه يكون بناء الوحدة عقيما . ففى بداية كل اختراع ، ثمة « إحساس » تشحذه فوضى الواقع ، وقد يصل هذا الإحساس أحياناً إلى درجة التعذيب . ولكن يستطيع المرء أن يقنع نفسه بأن ضرورة عملية إعطاء الشكل هى التى خلقت حالة التحفز فى العقل ، وحشدت الإرادة للقيام بوظائف التنظيم . ومطلب الوحدة الملح هو الذى يجعل الإرادة تصمد فى وجه ما ينكرها ، وتنفذ إلى النسيج الذى تسقط فيه الحادثة رغم ظاهرها الشارد ، وتعود إلى الحدس الأصيل الذى احتقرته فى البداية ، وتكتشف تركيبات الواقع المستترة ، وتحدد القانون الذى يحكمها .

ثم يأتى بعد ذلك دور المفاجأة : حين تكون العلاقة قد اكتُشفت أخيراً ، والوحدة قد اكتُسبت ، وقانون الاستمرار قد فُرض فى نهاية الأمر على الأشياء التى كانت تفلت منه من قبل . وثمة إحساس بأن الواقع شىء واحد . وبتلك

الوحدة المتنوعة المستمرة التى يعرضها علينا التـأمل الميتافيزيقى المعاصر فى صورة رمزية . وقد كان « تيبار دى شاردان » Teilhard de Chardin ولوعا بترديد خاطر بسكال الذى يقول فيه : « كل شىء واحد ، وكل شىء مختلف » ، وكل من أحس بالحياة على هذا النحو فيما فعله وتأمله ، يعلم أن الحياة تتوسع وتتعمق وتتكاثف دون انقطاع : وهى تـكشف عن نفسها بمجازفة تستطيع أن تمنح « الوجود » .
والمبدأ الثالث الذى يلهم السلوك الإبداعى هو ضرورة تعقل الواقع تعقلا تاما : أى طلب المعنى فى تمامه . وبهذا تـكون أى عقبة موضع تساؤل ؛ وعلى هذا النحو نـكون على يقين من أن العقل الذى لا تستوقفه أية منفعة لن يعرف حدا لبحثه . ولا ينبغى أن يخلط الإنسان بين هذا المبدأ وبين المعرفة الوضعية ؛ فلابد للذكاء أن يستهدى بتوجيه ما ، وقد قال أينشتين : « إن أقل الأشياء المفهومة فى العالم ، هى أن يكون العالم مفهوماً . » والحق الذى منحه لنفسه للتأمل بحرية تامة ، بدأ صراحة من هذه النقطة . وعلى المرء فى نهاية الأمر أن يكرس عقله لذلك السر الوحيد الذى هو تعقل العالم . ولابد من الاعتراف بكل شىء ، إذا أراد العقل أن يجد من جديد حركة يستطيع أن يحلق بها .

فإذا سلمنا بهذه المبادىء الثلاثة للسلوك الخلاق : مبدأ الحدس ، وإضفاء الشكل ، والمعقولية — بقى علينا أن ننظر فى بعض الجهات modalities داخل العملية العقلانية ، وما هى الصفة الأخلاقية التى تؤازر هذا النوع من السلوك .

من الممكن تعريف النشاط الواعى ، النابع عن تجارب حدسية — تعريفاً عقلياً ، وأن نصوغه فى نظريات جامدة. وهذا النشاط يتجاوز نفسه — بالطبع — فى الاختراع ، بيد أن هذا الاختراع لا يمكن أن يحيا إلا داخـل البناءات المستقرة عن طريق مواجهة حدسية جديدة مع الواقعى . ولـكن العقل يلقى صعوبة فى بلوغ ذلك بسبب أنماط السلوك المنظمة التى يعتمد عليها ، والتى اعتاد عليها اعتياداً نافعاً . وفى حالة المدنية ، لا تعتمد المناشط الابتـكارية على الترقب اليقظ الذى يواصل فيه الحدس الأصلى ممارسة حقوقه ، وفضلا عن ذلك ، لاينبغى على الذكاء أن ينـكر أية معرفة

مكتسبة ، بل على النقيض ، ينبغى عليه حقا أن يجمع كل معرفة فى نفسه ليضعها فى مواجهة كل ما لا إسم له .

هذه تجربة يستطيع أن يبلغها المبدعون من علماء وفنانين وصوفيين ، وهى مفتوحة لأولئك الذين فى مقدور عقولهم أن تولد من جديد .

وهى فضلا عن ذلك تجربة تستطيع الثورة أن تقتحمها اقتحاما عنيفا ، بأن تدفع ثمن الهزات التى يمكن أن تكون مدمرة إلى الأبد . والثورة تنجز فى عنف التجديد الذى لم يستطع العقل أن يوجهه : فهى تزيل البناءات المكتسبة ، وتواجه واقعا مباشرا أفلت من تنظيم المؤسسات القائمة ، وتحرر ما هو كائن دون فن أو براعة .

وفرصة الاقتراب مما هو كائن متاحة دائما لكل إنسان ، وإنما يكون ذلك فى لحظات قصار من التنوير ، وتكون النتيجة أن يتخلى عنها العقل . وفضلا عن ذلك ، فإن السلوك المعتاد ، والمحافظة المدعمة على التواطؤات الاجتماعية الموزعة على زمان الساعات الذى يلتهم كل شىء ، والسلوك الإجبارى أيضا — يتطلب هو أيضا طرفا أيسر منالا .

ويعتمد إخصاب الفكر على حالة من التقبل قادرة على تنظيم النشاط الخيالى الأصلى فى نفس اللحظة التى تجرى فيها العمليات العقلية للتنظيم ؛ وفرص العقل الإبداعية تتوقف على ذلك ؛ ولم يعد من المسموح به اليوم أن يشك فى هذا بأن يستشهد بما تكشف عنه الوظائف الخالصة التى يقوم بها الخيال دون انقطاع فى توسيع مجال الحياة الواعية(١) ، ومعالجة « جاستون باشلار » لهذه النقطة ، ومقال « جيلبير دوران » عن إضفاء نوع من البناء على ما هو خيالى قد أكدا ما نذهب إليه . بيد أن وظائف الخيال الإبداعية مازالت مرتبطة بالإدراك الحسى(٢)،

---

(1) Gilbert Durand, Structures anthropologiques de l' imaginaire, P. U. F. , Paris, 1963, pp. 466-467 .

(2) Maurice Merleau - Ponty, Phénoménologie de la perception, N. R. F. Paris, 1945 .

وبمعطيات الذاكرة التي طرأ عليها التعديل والتحوير(١) ، وبديالكتيك المحسوس(٢) ، وبمظاهر الروح الاجتماعية(٣) ، وبالإيمائية(٤) ، وبالتخصيص المتعالي للوعي المتخيل(٥) : أو بعبارة أخرى ، إنها تتعلق بكل نظام من نظم البحث المعاصر في العلوم الإنسانية . وفي طريق مواز لهذا ، لا تقل الدراسات التي قام بها الشعراء(٦) والفنانون(٧) أهمية من حيث قيمتها الرائدة ، كما أكد ذلك آندريه بريتون مبكرا في سنة ١٩٢٤ في « بيانه عن السريالية » في بساطة لم تفقد شيئا من ثقلها .

وفي نفس الوقت ، يرد الاعتبار إلى تلك المناشط التي يلتفت بها العقل صوب الحياة ، المناشط « التي منحتها لنا الآلهة » : كالطبيعة ، واللعب ، والحلم ، و « متعة الحب » ، والإلهام ، والحركة الفنية ، والتأمل الفلسفي ، والصمت ، والصلاة . والواقع أن كل واحدة من هذه التجارب تتضمن شيئا من الفرص الإبداعية ، واغتنام هذه الفرص يكفي لتحويل الانتباه إلى منابع الحياة الواعية ، ويجعل هذا التحول موضوعا لحركة من حركات الجسم كله . وحينئذ يولد الانتباه الخلاق الذي هو صمت مفتوح لما يأتي به المستقبل . بيد أن هذه الحركة التي تشمل الكائن بأسره تفترض نسيان الذات ، وهذا شيء عسير . فإذا أذعن العقل لهذا الصمت ، ولم يسدل شيء فيه ستارا ، كانت إعادة مولده مضمونة : وسيستعيد مناشطه المحددة تحديدا واضحا في ثقة ومعرفة لم يعرفهما من قبل .

---

(1) Henri Bergson, Matiére et mémoire, Ed. du Centenaire, P.U.F.

(2) Louis Lavelle, La dialectique du monde sensible, P.U.F. 2nd. Paris, 1954 .

(3) Georges Gurvitch, op. cit .

(4) Edmond Radar « The Study of Mime as a Manifestation of Sociability, as Play and Artistic Expression, » in Diogenes, No. 50, Summer 1965.

(5) Maurice - Jean Lefébvre, L'image fascinante et le Surréel, Plon, Paris, 1965.

(6) Martin Heidegger, Approche d'Hölderlin, N. R. F., Paris, 1962.

(7) M. Merleau-Ponty, « Le doute de Cézanne, » in Sens et non-ssns Nagel, Paris, 1948.

هذا التوسع اللامحدود للفكر لا يستتبع — على أى نحو كان — رفض البناء العقلى الذى تعرض فيه مدنيتنا ، والذى تستمر فيه التقنيات فى العمل . بل إنها على النقيض من ذلك ، مسألة مواجهة مطالبها على نحو يتم فيه التغلب على محدودية تلك المطالب ، كما يفيد تنظيمها بوصفه إلهاما . والجهد المطلوب يحتضن العقلى والحدسى ، البرجماتى والمتخيل فى صعيد واحد ، كما يتطلب نشاطا باحثا يتشوف إلى النتائج ، وابتعادا ضروريا للتأمل ، كل ذلك فى توتر واع . فإذا كان على العقل المشتبك فى تلك الأساليب الفعالة التى تقتضيها العادات الاجتماعية ، والذى يرهبه جهاز النظريات — إذا كان عليه أن يواجه الانطلاقة التى تضمن السيطرة على الحاضر ، وإن كانت القبضة التى تمسك بالواقع مازالت غير متعينة ، فالانفصال المطلق ضرورى فى هذه الحالة . فإذا قبلنا أن يثبت الذكاء على موضوعات ليست نافعة نفعا مباشرا ، بل تبدو فى الظاهر غير مجدية ، وغير ملموسة ، كان معنى هذا أننا نتجه — ولكن دون أن ندرى إلى أين — صوب مواجهة للنزعة الشكية عند الآخرين ، وأحيانا صوب نزعتنا الشكية نفسها ، وقصارى القول أننا ننتهز فرصة « الريح تهب من حيث يسمع هبوبها ، وأنت تسمع صوتها حينذاك ، ولكنك لا تستطيع أن تقول متى تأتى وإلى أين تذهب : وهكذا كل من يولد من الروح » . ومثل هذا الاختيار ينطوى على مخاطرة تامة ، وهو يتطلب قبولا لطاقات نفسية لم يتعرض لها أحد من قبل ، كما أنه يضع شرطا إشكاليا فيما يتعلق بضروب اليقين ، أعنى الفعالية الوضعية التى تلم شعثها مشايعة الجماهير .

وهكذا يرتبط تعلم الشجاعة ارتباطا لا ينفصم بتجربة الانتباه الأولى . ويميز الوعى بالمخاطرة وقبولها الجرىء أولئك الذين يقبلون عواقب اختيارهم . ومن لا يستطيع أن يميز عواقب فعل ما ، لا يستطيع أن يتخذ أى قرار عن المستقبل ، وبالتالى فإنه يستبعد من أية مهمة تقتضى رحابة فى الذكاء ؛ وهذا القول ينطبق أيضا على الشخص الذى يستطيع أن يميز بين الأشياء ، ولكنه يخشى العواقب ، وعلى هذا النحو يمنع نفسه من اختيار الكائنات والأشياء ، واختيار نفسه أيضا .

وضعف الشخصية يولد حكما مهوشا : إذ لا يستطيع أن يرى الإنسان الواقع كما هو ، بل يتوارى عن الحقيقة ، ويغتر بنفسه ، ويخدع نفسه ، ويحدث هذا كله على الأخص إذا كان لابد للانسان من أن ينتهز الفرص ، ويكابد المقاومة ، ويترك العنان لإرادته ليرى ما ينطوى عليه المستقبل . والفعل الذى نقوم به فى سبيل غايات مبعثرة لا يكون فعلا واثقا من نفسه ، بل ينطوى على مجازفة لابد من التسليم بها . ففي الفعل ، تلعب المخاطرة الدور الذى يلعبه الافتراض فى النظر العقلى : فهى نسمح بالاختراع ، بل تدفع إليه دفعا .

والمخاطرة تعيد ما هو جديد إلى العالم الخارجى ، ومصادفاته ، ومتناقضاته وأخطاره ؛ إنها نوع من البذل الذاتى الذى تصاحبه الشفافية والشجاعة . والشخصية تغوص بنفسها فى المخاطرة لكى تألفها ، ولا يتم اقتناص بُعْد الحياة إلا فى المجازفة التامة ، ولهذا فإن الإدراك والجسارة يحددان العبقريات العظيمة . وتأتى صفة رباطة الجأش التى كان يتمتع بها الإسكندر والقيصر ونابوليون من إدراكهم الدعَّم المركَّز بشروط الواقع ، وتتألف جسارتهم فى سعيهم لتنفيذ خطة محكمة . ومع ذلك ، فليس من الممكن أن نكون على يقين أبدا أى صفاتهم أجدر بالإعجاب؛ هل هى حكمهم ، وما يمتازون به من صفاء فى رؤيتهم الأشياء ، أم هى جرأتهم ؟ . بيد أنهم كانوا على ثقة من الطريقة التى يرون بها الأشياء لأنهم كانوا من ذوى العزم والتصميم : وكانت قراراتهم حاسمة ، لأنهم كانوا قد أمعنوا التفكير بعمق فى المخاطر . وتحسين مستويات الانتباه وممارسة الشجاعة تحدد تربية خلاقة لأنماط إنسانية عليا .

وهكذا يستطيع التدريب الشاق على الانتباه والشجاعة أن يحقق غايات فردية . وعادة الانتباه والتجربة المتعلقة للناس والأشياء هى كلمات المرور لفهم الحياة . وحين يُسَجَّل الواقع — بالحدس أحيانا ، وبالتجربة أحيانا ، وبالتأمل أحيانا أخرى — على أطوال متعددة من الموجات — فإنه من الممكن الإحاطة به أوركستراليا : وهنا يرتبط كل شىء بكل شىء . وقد لاحظ هيراقليطس : « أن الحكمة تتألف

من شيء واحد وهو أن نعرف أن الفكر يتحكم في كل شيء عن طريق كل شيء » .
فالعقل يقع في المركز الذي يشع نورا على المشكلات جميعا ، هذا إذا لم يستطع حلها .
وعلى هذا النحو تنتج العبقريات العالمية الأعمال التي تقود الفكر قرونا عديدة .

فإذا حرص الإنسان على البقاء قريبا من المخاطرة ، حتى ولو كان ذلك في الصورة المتواضعة لوعى بالطابع المرتج المزعزع الذي تتسم به الحياة اليومية — فإنه يستطيع أن يمارس صفاء (في الرؤية) وحسماً (في الفعل) يتغلبان على مقاومة العقبات التي تصادف الإنجاز الفردي عادة . وفي خلال هذه للواجهة ، وفي الجهد الذي أخذه الفرد على عاتقه ، تتجمع موارد الناس وتتحد ، وتتدعم ؛ فإذا تم التغلب على العقبة ، كسبت الذات ثقة لمواجهة المستقبل . ويكفي أن يريد المرء شيئا ، حتى لو كان صغيرا جدا — لكي يتكشف تهافت العقبة التي كان يخشاها في بداية الأمر ، وإذا كان المرء يتعامل مع خصم أقوى ، وكانت تنقصه المهارة والموهبة ، فيكفي في كثير من الأحيان أن يبدأ الأمور من جديد لكي يزيل الخصم . وحين يتبع الإنسان طريقه الخاص بعد مرحلة عقيمة من العزلة ، يبلغ مرحلة من امتلاك الذات ، ويتم له التغلب على العقبات التي تعترض طريق تحقيقه لشخصيته بتأثير الصفاء والعزم ؛ وهذا لا يحدث إلا إذا تكبدنا هذا الثمن ، لأن المرء حين يسبر غور نفسه إزاء كل شيء ، وكل شخص آخر ، يجد نفسه وحيدا تمام الوحدة .

والطريق الذي يؤدي من السيطرة على الذات إلى السيطرة على الآخرين طريق قصير ، وذلك لأن ما ينجزه شخص ما يظل هو الرغبة المستترة التي تكمن في نفس كل إنسان ، وعلى حين تستعرض الأغلبية العظمى أنماطا مستعارة من السلوك ، فإن حنينها للحرية الشخصية دائم . وهذا هو السبب الذي يفسر ما تتمتع به الشخصية القوية من جاذبية في أية بيئة من البيئات . واتخاذ القرارات ، والإقدام على المخاطرة التي ينطوي عليها أي فعل ، هما في الواقع ما نتوقعهما ممن هم أفضل منا ،

كما أنهما السبب الذى يجعل هؤلاء الأشخاص يفرضون أنفسهم علينا فى الوقت المناسب(١) .

والمبدع هو أولا ذلك الرجل الذى لديه الشجاعة أن يقول لا ، وعنده الجرأة التى يفتح بها دروبا جديدة . ومن الضرورى أن يكون ما يرفضه لنفسه عقبة كأداء كافية لأن تدفعه إلى الابتكار . ولابد له من أن يدفع الثمن حين يبوء بالفشل ، لأن هذا الخطر يلزمه بأن يتمم مشروعاته ، وأن يرتاد كل وجه من وجوه مشروعه ارتيادا كاملا . وخلاصة القول إن صرامة القيود تدعو إلى الرد القدير . وهذا المبدأ هو الذى يساند مقال « توينبى » الذى حاول فيه تفسير تاريخ الحضارات(٢)

وعلى العكس من ذلك ، نجد أن البيئات التى تخلو من التقاليد ، وبالتالى من القيود « تنتج » على نطاق واسع ، ولكنها لا « تبدع » . والواقع أن المبتكرين ليسوا مرغمين على اللجوء إلى ماهياتهم الخاصة لكى يبتكروا ؛ فالفضول الخالص ، والحاجة إلى التغيير ، وإغراء الربح ، يدفعهم إلى البحث السطحى ، وقد يقعون على مفاجأة أو مفاجأتين فى التفاصيل ، وهذه الظاهرة يمكن مشاهدتها فى البيئات التى أصبحت فريسة لنزعة ثقافية منحلة ، حيث تلغى التقاليد ذات الوفرة اللامتناهية ، لتتخذ شكل البدع العقيمة التى يتكدس بعضها فوق البعض الآخر .

(1) Charles de Gaulle, Le fil de l'épée, Berger - Levrault, Paris, 1944.

(2) Arnold Toynbee, World and The West, Oxford U. P.,1953.

ثيودوسيوس دوبزانسكي

التطور الخلاق

ترجمة : ماهر شفيق فريد

ترددنا فى اختيار هذا العنوان لأنه يطابق العنوان الذى اختاره برجسون لكتابه العظيم . ولعل برجسون أن يكون أبرز فيلسوف بنى آراءه الفلسفية جزئياً على أسس مذهب التطور البيولوجى . ومهما يكن من أمر فإن المعرفة البيولوجية التى كانت متوافرة فى عصر برجسون قد تقادمت الآن . وفهمنا الحالى للتطور أقرب إلى أن يكون مختلفاً عن فهمه . وهذا ماينبغى أن يكون ، فإن العلم معرفة تراكمية . والعالم يعمل لكى يجعل من المعرفة التى انطلق منها شيئاً بالياً . وهو ، بمعنى حقيقى جداً ، يعمل لكى يجعل من عمله هو شيئاً بالياً أيضاً . وبقدر ما يكون العلم أحد مكونات الفلسفة أو دعائمها ، ينبغى أن يعاد النظر فى الفلسفة ، وأن يعاد تركيبها وتعاد صياغتها

(*) ولد عام ١٩٠٠ فى نميروف بروسيا . أستاذ علم الوراثة السكانية فى جامعة روكفلر بنيويورك . أستاذ سابق لعلم الوراثة فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى حيث كان يعاون ت . ﻫ . مورجان . أستاذ علم الحيوان بجامعة كولومبيا بنيويورك . نال الدكتوراه الفخرية من جامعة ساو باولو ، وكلية ووستر ، وجامعة مونستر ، وجامعة مونتريال ، وجامعة شيكاغو ، وجامعة سيدنى ، وجامعة كولومبيا ، وأوكسفورد ، وجامعة لوفين . عضو أكاديمية العلوم فى الولايات المتحدة ، والسويد ، والدانيمرك ، والبرازيل ، وعضو أكاديمية ليوبولدينا بألمانيا ، وأكاديمية لينسى بإيطاليا ، والجمعية الملكية بلندن . تشمل كتبه المنشورة : تأثير المكان ونظرية الوراثة ، علم الوراثة وأصل الأنواع ، التطور والوراثة والإنسان ، أسس علم الوراثة ، الإنسانية تتطور ، الإشعاع والجينات والإنسان ، الوراثة وطبيعة الإنسان ، الأساس البيولوجى للحرية الإنسانية .

من زاوية فائدة كل جيل . ولو كانت كل النتائج القائمة على المعرفة العلمية المتاحة قبل نصف قرن محتفظة بصحتها ، لما كان لهذا من معنى إلا أن دراسة تطور الحياة لم يعد أمراً مجدياً . وليس هذا هو الواقع على أية حال .

إن التطور البيولوجى خلاق لأنه ينتج أشياء جديدة . والفنان يخلق حين ينتج شيئاً جديداً . فتصويره أو قصيدته أو سيمفونيته تختلف عما ينتجه أى إنسان آخر . إن نسخ صورة أو تلاوة قصيدة أو عزف سيمفونية ليس عملا خلاقاً إلا بقدر ما يؤكد نواحى جديدة ، أو يقدم تنويعات جديدة على الخلق الأصلى . والصور المختلفة من حياة الحيوان والنبات مختلفة لأنها تحمل مجموعات مختلفة من الجينات . غير أنه ينبغى علينا هنا أن نحتاط حتى لانسرف فى تبسيط الموقف الفعلى . إن نظرية التطور البيولوجية (الداروينية الجديدة) تبسط أحياناً على أنها مجرد فرز آلى للجينات الجيدة والرديئة. ولكن هذا الرأى أضيق نطاقاً مما ينبغى، ذلك أن التطور، بالإضافة إلى كونه عملية آلية ، مغامرة خلاقة . إنه خلاق بنفس المعنى الذى نقول به إن عمل الفنان خلاق . فهو يحدث أشياء جديدة تماماً ، ومجموعات من الجينات لم تكن موجودة من قبل فى أى مكان ، ولا ترسخ كل مجموعات الجينات الجديدة فى الطبيعة، وإنما يقتصر ذلك على المتوافقة داخلياً فيما بينها، بحيث تمكن مالكيها من البقاء . وأخيراً ، فإن الخلق التطورى كالخلق الفنى يتضمن مغامرة الفشل ، وتشوه الخلق ، وهذا يعنى فى عالم البيولوجيا الموت والانقراض .

إن التكاثر الجنسى طريقة لخلق ماهو جديد . وقد بين مندل أن الزيجوت الفردى المتنافر لجينات مجهولة يستطيع أن ينتج اثنين من أقصى مدى الأمشجة المختلفة. أنظر إلى نوع مضاعف الصبغيات .لو أن كلا الوالدين كانا مختلفى الجينة عن نفس الجينة المجهولة ، لأمكنهما ــ بالقوة ــ أن ينتجا ثلاثة من أقصى قوة مختلف الأنماط الوراثية فى نسلهما . ولو أن الوالدين كانا كليهما مختلفى الجينات فى جينات مختلفة مجهولة ، لأمكن ــ بالقوة ــ أن نحصل على أربعة من أقصى قوة الأنماط الوراثية .

ونحن نجهل مع الأسف عدد الجينات التى تختلف فى الفرد المعطى أو الفرد

العادى بين السكان من بنى الإنسان أو الفئران أو ذبابة الفاكهة، أو أشجار الصنوبر. وبعض علماء الوراثة يقدرون المتوسط بالمئات وحتى الألوف . ورغم أننا نميل إلى الرأى القائل بأن التقديرات العليا هى على الأرجح الأقرب إلى الصحة ، فسنأخذ ـ لأغراض المناقشة ـ عدداً أقرب إلى الانخفاض ، وليكن ٥٠ مثلا . إن اثنين على خمسين ، إن لم نقل ثلاثة أو أربعة على خمسين ، إنما هو رقم ضخم . ومايعنيه حقيقة على الصعيد البيولوجى هو أن العملية الجنسية قادرة بالقوة على أن تنتج مركبات جينات أكبر عدداً بكثير مما يمكن إدراكه . ويرجع هذا إلى أنه لاتوجد أنواع ، بين الكائنات العضوية الأرقى على الأقل، يمثلها عدد من الأفراد كبير إلى حد يجسم كل مركبات الجينات الممكنة بالقوة .

أو فلنضع الأمر فى صيغة أخرى ونقول : إن التنوع الوراثى الممكن بالقوة هو من الضخامة إلى الحد الذى نجد معه أن مصادفات تشكل أى نمط وراثى أكثر من مرة واحدة ، ضئيلة لاتذكر . وإذا وضعنا الأمر فى صورة أخرى ، فسنجد أنه باستثناء التوائم المتطابقة فإن النمط الوراثى لكل شخص ، أو كل ذبابة فاكهة ، أو كل شجرة صنوبر، لم يوجد من قبل قط ، ومن المحتمل ألا يتكون فى المستقبل أبداً . وكثيراً مايقال إن العلم لايستطيع أن يعالج إلا ماهو قابل لأن يتكرر . فالفردية والتفرد هما مجال الفن أكثر مما هما مجال العلم. وهذا حق بمعنى من المعانى ، غير أننا نزعم أن لعلم الوراثة امتيازاً هو أنه العلم الذى يختص جزئياً بفهم إنتاج ماهو فردى وغير قابل لأن يتكرر .

أهناك جدة كبيرة فى الجمع بين نفس الجينات المجهولة بطرق مختلفة لايهم عددها ؟ Plus ça change plus c'est la même chose. إننا نجد هنا نقطة لايوضحها علماء الوراثة دائماً فى كتاباتهم . وربما كان هذا الافتقار إلى الوضوح هو المسئول جزئياً عن معارضة الكثير من علماء الحياة لما يدعى بنظرية التطور الداروينية الجديدة (والداروينية الجديدة هى فى الواقع الاسم الذى أطلق على نظريات وايزمان وأتباعه عند بداية القرن الحالى. والنظرية السائدة اليوم هى النظرية « التركيبية »

أو «البيولوجية». ونحن نفضل اصطلاح «بيولوجى» لأنه يتضمن أن النظرية تقوم على معلومات مستقاة من كل الأنساق البيولوجية ، أكثر مما هى مستقاة من نسق واحد أو بضعة أنساق) .

وعلى مستوى الجزىء ، ربما كانت كل جينة مسئولة عن إنتاج سلسلة بيتيدية واحدة فقط ، هى من مكونات البروتين . غير أن نمو الفرد إنما هو شىء أكبر من هذه السلاسل البيتيدية الكثيرة . إنه نسق معقد جداً من التفاعلات والتغذيات الرجعية والعمليات المنظمة . ولا يمكن فهم هذا التطور على أنه حصيلة أفعال الجينات التى يعمل كل منها مستقلا عن غيره . فعلى العكس من ذلك نجد أن الجينات ، أو آثارها إذا توخينا مزيداً من الدقة ، تتفاعل . هب كل تغير فى الجينة لا يغير إلا إنزيما واحداً أو بروتينا واحدا ، ولكن نتائج مثل هذا التغير الواحد قد تكون مما لا يحيط به حصر ، وقد تؤثر فى الجسم بأكمله . إن آثار الجينة تتشعب فى هذا التطور ، وتكشف عن نفسها فى أكثر أجزاء الجسم ووظائف الجسم تباينا . وفى علم الوراثة التقليدى يدعى هذا بتعدد تأثير عمل الجينة. وتكثر نماذج تعدد التأثير فى علم الوراثة الإنسانى . فالمتغيرات الوراثية تسمى عادة « قران الأعراض syndromes » . وقران الأعراض يعنى أن مجموعة كاملة من الخصائص ، وليس خاصة واحدة ، قد تغيرت .

وهكذا يمنحنا كل نمط وراثى فردى شيئاً جديداً ، شيئاً مختلفاً غير مسبوق ولا متكرر . إن الفرد الحى هو بمثابة تجربة الطبيعة الخلاقة إذ تجرب نمطاً جديدا من الحياة . وبديهى أنه ليست كل تجارب الحياة ناجحة . ونحن نعلم هذا حق العلم فى شئوننا الإنسانية . فإن لكل شخص حياة مختلفة عن كل الحيوات الأخرى . وأياً كانت المعايير التى نؤثر أن نطبقها فى الحكم ، فإن بعض الحيوات تنجح أكثر من غيرها . ونجاح الإنسان أو فشله لا تقرره الجينات وحدها ، على الرغم من أنه لا يمكن إخراج الجينات من الاعتبار . أما على المستوى العضوى الأدنى

من مستوى الإنسان ، فإن دور الجينات أعظم. فالنجاح البيولوجى هو الحياة والبقاء مقابل الموت والانقراض .

إن الجدّة شرط ضرورى — وإن لم يكن كافياً — للخلق . ولو أنك رميت بقبضة من الرمل على صفحة من الورق ، لتوزعت حبات الرمل فى كل مرة توزيعاً جديداً . وبعض الرسامين المحدثين « يرسمون » بقذف الألوان على قماش اللوحة . ونحن باعتبارنا علماء حياة قد نكون جهلة فى الفن ، غير أننا نأمل ألا يعد كل رسم تم بهذه الطريقة آية فنية . فينبغى أن ينتج الخالق الفنى شيئاً لا يكون جديداً فحسب ، وإنما يكون ذا قيمة جمالية أو نحوها . والقيمة البيولوجية ، كما ذكرنا ، هى بقاء الفرد ، وهى فى المحل الأول بقاء النوع .

هب أنه لا يوجد فى العالم إلا ١٠٠٠٠ جينة مختلفة وأن كل جينة لا تستطيع أن تتغير إلا بعشر طرق مختلفة . ولا ريب فى أن هذه التقديرات أدنى من الواقع . وعلى ذلك يكون الحد الأدنى من مركبات الجينات الممكنة هو ١٠ على ١٠٠٠٠ . وعدد الجزيئات الذرية الفرعية فى الكون لا يتجاوز ١٠ من ٨٠ . وعلى ذلك يمكننا أن نقول مطمئنين إن كسراً صغيراً جداً من مركبات الجينات الممكنة بالقوة هو وحده الذى يمكن أن يتحقق فى الأفراد الأحياء .

والسؤال الذى يطرح نفسه منطقياً هو : هل الصدفة المجردة هى التى تحدد أى مركبات الجينات يتحقق وأيها لا يتحقق ؟ . من المحقق أن هذه ليست مسألة صدفة . فالأداة المناهضة للصدفة والتى تعمل فى العالم البيولوجى هى الانتخاب الطبيعى ، ومركبات الجينات الممكن تكونها هى فى أغلب الأحيان ، وإن لم تكن دائماً ، تلك التى تجعل من البقاء والتكاثر أمراً ممكنا . وثمة عدد أكبر على نحو يكاد يكون لامتناهيا من مركبات الجينات الخليقة بأن تتنافر ، لا ينتج على الإطلاق. وهناك قلة بالغة الضآلة نسبياً مما ينتج لا تدوم .

وما يبرهنه هذا هو أن العالم الحى ليس امتدادا من المتغيرات ، وإنما هو نسق من المجموعات . وهذه المجموعات هى الأنواع والأجناس والفصائل والرتب الخ ..،

وكل مجموعة منها نسق من مركبات الجينات تمكن حامليها من اتباع نهج معين فى الحياة . والأنماط الوراثية المتوسطة بين الثدييات مثلا والطيور لا توجد ، وهى لم توجد قط . وبالطبع نشأت الثدييات والطيور من أسلاف مشتركة فى ماض عريق . وربما تكون كل الكائنات العضوية قد نشأت من حياة بدائية واحدة ، ولكن هذا لا يعنى أن كل المركبات الممكنة من جينات الثدييات والطيور التى تعيش الآن قد وجدت إطلاقاً . فمثل هذه المركبات كان لا يمكن إلا أن تتنافر تنافراً غير معقول .

وكثيراً ما يزعم الناس أن النظرية البيولوجية (أو ما يدعى بالداروينية الجديدة) فى التطور تنظر إلى الكائنات العضوية الموجودة على أنها نتاج مركبات موفقة بين الجينات . وهذا سوء فهم خالص . فالانتخاب الطبيعى أداة مناهضة للصدفة . إنه عملية سبرنطيقية تبقى السكان والأنواع على وفاق مع بيئتهم . إن الانتخاب الطبيعى ينقل إلى النمط الوراثى ، ويخزن فى النمط الوراثى ، معلومات عن حالات البيئة . وقد دعيت الكائنات العضوية الحية آلات حافظة للزمن . والأقرب إلى العقل من زاوية التطور أن نقول إنها آلات لتقديم المعلومات . وقد قارن بعض أتباع لا مارك الوراثة بالذاكرة . وهو قياس جائز إذا فهم على أنه يعنى أن الخصائص الوراثية لأحد الأنواع إنما هى مستودع للمعلومات عن بيئاته الحالية والماضية ، وقد جمعها الانتخاب الطبيعى فى تاريخ النوع .

إن التطور يحدث لأن الأنواع الحية تحتفظ بتكيفها مع بيئاتها ، أو تنمى قدرتها على التكيف مع بيئات جديدة . أترى من الصواب أن نقول إن التطور تدفع إليه البيئة ؟ . لكى يكون هذا القول سليما ، ينبغى أن يعدل بحرص . فالتأثير المباشر للبيئة على النمط الوراثى قد يؤدى إلى طفرات . ولكن أغلب الطفرات لا معنى لها من زاوية التطور . فالانتخاب الطبيعى يتدخل بين الكائن العضوى والبيئة . ونحن نفضل أن نصف الصلات بين البيئة والتغيرات النشوئية بعبارات استخدمها المؤرخ

الإنجليزى العظيم توينبى فى وصف الصلات بين التاريخ الإنسانى والبيئات . والمصطلحات التى استخدمها هى « التحدى والاستجابة » .

إن التغيرات النشوئية لا تقع لأن النمط الوراثى يتضمن فى حد ذاته برنامج تغيرات تسير خطوة خطوة ، وتفضى من بداية الحياة على كوكبنا إلى ذروته النهائية أو دماره . فهذه النظرية التى يتقبلها مشايعو نظرية الوراثة الذاتية ، أو نظرية ثبات التطور فى اتجاه معين ، أو نظرية الغائية فى التطور ، لا تجد ما يؤيدها ألبتة فى أى شيء نعرفه عن الوراثة . وهذه الفكرة تخلو أيضاً من الطرافة فلسفياً . ولو صدقت لما أمكن للتطور أن ينتج شيئاً جديداً ، ولما كان عملية خلاقة .

إن التطور استجابة لتحدى البيئة . والتحدى يدعو إلى الاستجابة ولكنه لا يفرضها . فالاستجابة قد تحدث وقد لا تحدث . فإذا حدثت تغير النوع . أما إذا لم تحدث فسيغدو النوع عسنا «Relic» أو ينقرض . ومن المهم أن تكون هناك عدة استجابات لنفس التحدى . ويدخل هذا عنصراً من الحرية على التطور البيولوجى . أنظر ، على سبيل المثال ، إلى الطرق التى تتكيف بها النباتات مع مواطنها الصحراوية . إن التحدى هو الجفاف ، والحاجة إلى الاحتفاظ بالماء ، ومع ذلك ، فما أشد اختلاف الاستجابات . فأوراق بعض النباتات تستحيل إلى فقار ، وأوراق بعضها الآخر تغطيها إفرازات تحميها ، وبعضها لا تنمو أوراقها إلا فى الفصل المطير ، وتظل عارية من الأوراق بقية العام ، وأخيراً فإن بعض النباتات تتجرثم وتنمو وتزدهر وتنضج سريعاً ، حين يأتى فصل ممطر . وليس هناك دليل على أن أياً من هذه الاستجابات أفضل من غيره . ومع ذلك فإن أجناس النباتات المختلفة وفصائلها قد استجابت بطرق مختلفة ، وما لم يستجب منها لا يمكنه العيش فى الصحارى .

وكثيراً ما شبّه الانتخاب الطبيعى بالغربال على سبيل التمثيل للطريقة التى تقع بها الاستجابة ، ولكن هذا القياس بعيد جداً عن التوفيق ، وربما كان مسئولا عن كثير من المعارضة التى تلقاها النظرية البيولوجية فى التطور ، فلننظر إلى المواضع التى يصدق عليها هذا القياس ، والمواضع التى لا يصدق عليها . إنك إذا عرضت أعداداً

كبيرة من البكتريا لمضاد حيوى ، أو أعداداً كبيرة من الحشرات لمبيد حشرى ، لقضى على كل الأفراد الحساسة ، ولما بقى سوى قلة من الطفرات القاومة . إن المضاد الحيوى ، أو مبيد الحشرات ، قد لعب دور الغربال الذى فصل بين الأنماط الوراثية الحساسة والمقاومة . ومع ذلك فإن التطور بعيد عن أن يكون على مثل هـذا القدر من البساطة .

لنتذكر أن لكل فرد نمطاً وراثياً فريداً . ولنتذكر أيضاً أن الصلاحية فى النظرية الداروينية هى من خواص النمط الوراثى ككل . فنحن لا نرث الأنماط الوراثية لوالدينا ، وإنما نرث فقط بعض جيناتهم . وما ينميه الانتخاب الطبيعى أو يقضى عليه ليس عادة هذه الجينة أو تلك ، وإنما هو النمط الوراثى بأكمله . وظواهر التلازم فى التكيف تتجاوز حتى النمط الوراثى الفردى . فما ينتخب هو جينات مجموع السكان ، أكثر من النمط الوراثى ، وأكثر بكثير من الجينة الفردية . وهنا يتصدع قياس الغربال . وعلى المرء أن يتخيل غربالا خارقاً للعادة ، صنع على نحو يجعله يحتفظ بالجزيئات ، أو يدعها تمر ، حسب الجزيئات الأخرى الموجودة فى الغربال .

ولو أردنا استخدام قياس تمثيلى لوجدنا أن التطور عن طريق الانتخاب الطبيعى أقرب إلى كتابة أو عزف الموسيقى السيمفونية . فالجينات أشبه بأعضاء الأوركسترا منها بالعازفين . والسيمفونية الجيدة إنما هى تفاعل ، من لون خاص جداً ، بين كل أجزائها ، أو هى مجهود مشترك لكل العازفين . فإن نوتة توضع فى غير موضعها ، أو موسيقاراً رديئاً ، خليقان بأن يفسدا السيمفونية . غير أنه قلما يمكن لموسيقار ممتاز واحد أن يجعل بمفرده سيمفونية أو حتى كونشرتو جيدين .

إن المقارنة بين الانتخاب الطبيعى — وهى عملية عمياء لا شخصية غير هادفة — والنشاط الإنسانى الذى من نوع أداء الموسيقى أو تأليفها خليقة ، ولا ريب ، أن تلوح عملية مشكوكاً فيها فى نظر كثير من علماء الحياة . ومن

المحقق أننا لانلتوى أن نشخص الانتخاب الطبيعى ، غير أنه فيما عدا هـذا ينبغى أن نصر على أن هـذا القياس صحيح ، بقدر ما يمكن للأقيسة أن تكون . ومن المحقق أنه أدنى إلى الصحة من قياس الغربال . وقد ترتبت أضرار كثيرة على إساءة تصوير الانتخاب الطبيعى ، كما لو كان مجرد عمل من أعمال الصدفة وولد هذا حشداً من المشكلات ، والمشكلات الزائفة ، وضروباً من سوء الفهم ، ما زال على نظرية النشوء الحديثة أن تصارعها .

وربما لم تكن أهم هذه المشاكل بالمشكلة الجديدة ، حيث إن دارون كان قد سبق إلى مناقشتها . وهذا هو الأصل النشوئى للأعضاء المعقدة ، كأعين الفقاريات . من المحقق أنه مما يتجاوز التصديق أن تكون كل أجزاء العين المتعددة والمشتركة فى حسن التكيف قد نشأت عن طريق الطفرة ، وأن تكون قد اجتمعت معا بمحض الصادفة — هب أن ١٠٠ جينة ينبغى أن تكون فى الحالات المتناقضة الملائمة لإنتاج عين ، وهب بالإضافة إلى ذلك أن معدل طفرة هذه الجينات هو فى المتوسط عشرة من ناقص خمسة (١ : ١٠٠٫٠٠٠) . إن احتمال قيام كل هذه الطفرات فى فرد واحد ، فى نفس الوقت ، إنما هو عشرة من ناقص خمسمائة ، أو هو من الناحية العملية صفر . ومع ذلك فإن غياب جزء أساسى واحد من العين يجعلها عديمة الوظيفة ، وبالتالى غير مجدية من زاوية الانتخاب .

وخطأ الاستدلال فى أنه يغفل التاريخ . فمن المؤكد أن عين الإنسان لم تنشأ مرة واحدة ، بكمال تام ، فى المنحدرين من أصلاب حيوانات لم تكن لديها أعضاء للإبصار . إن علم التشريح المقارن يكشف فى عالم الحيوان بل وفى عالم النبات عن تنوع كبير من متلقيات الضوء ، يبدأ بالخلايا الفردية الحساسة للضوء . ومع التسليم بأن هذه الأعضاء لم تصل إلى الفاعلية الوظيفية لعين الإنسان ، فإن مالكى هذه الأعضاء البدائية كانوا يستمدون جزءا من تكيفها من استخدامها لها . وليس من المعروف على وجه اليقين تاريخ تطور العين . غير أنه من المحتمل أن أسلاف الإنسان كان لهم أعين من نوع ما قبل نصف بليون عام على الأقل ، وربما أكثر . لقد كانت لدى

أسلافنا متلقيات للضوء ، ولكنها لم تكن تهدف إلى إمدادنا ، نحن حفدتهم الأبعدين ، بعيون . لقد كانوا يملكونها لأنهم كانوا يستخدمونها . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن ما يحتاج إليه إنتاج العين ليس مجموعة من « جينات العين » الخاصة ، وإنما هو النمط الوراثي الإنساني بأ كمله . إن الأعين تنشأ كجزء لا يتجزأ من تكوين الجنين . ولكن النمط الوراثي الإنساني ، كالنمط الوراثي لأي كائن عضوي آخر ، راقيا أو منحطا ، يرجع إلى مبدأ الحياة ، منذ قرابة بليونين من الأعوام .

إن النمو النشوئي Phylogeny ، أو نشوء النوع ، كثيرا ما يقارن بالنمو الفردي ، أو نشوء الفرد ontogeny . وفي نمو الفرد تحدث سلسلة من المناورات البالغة التعقيد . فأبنية الجسم ووظائفه تنشأ ، وكأنما خططها بصر تنبئي . ويلوح أن هذا البعد التنبئي يرمي إلى إنتاج جسم بوسعه أن يعيش في بيئات معينة .

ويلوح أن النشوء الفردي تجذبه غايته أكثر مما هو مدفوع ببدايته . ومرة أخرى يبدو أن هذا موقف ليس بوسع الانتخاب الطبيعي أن يصل إليه . وعلى العكس من ذلك ، فإن من المغري أن نفترض أن النمو النشوئي يتقدم بنفس الطريقة التي يتقدم بها التطور الفردي . فلم لا نفترض أن الحياة الأولية كان مقدرا لها أن تنتج الإنسان ، وأنها تطلبت بليونين من الأعوام لتحقيق هذه الغاية ؟ .

ومثل هذا الترتيب يبدو غاية في السخف من الناحية الفلسفية . إذ لو كان الله لم يرسم كل تطور إلا بغرض إنتاج الإنسان ، فإن تخطيطه إذن عديم الفاعلية على نحو ملحوظ . فلماذا يضيع بليونين من الأعوام ؟ . وفيم كل المعاناة والعذاب وضروب الانقراض ؟ . أما على المستوى البيولوجي ، فيمكن فهم النشوء الفردي فهما أفضل باعتباره جزءا من النشوء النوعي ، وليس العكس . إن النشوء الفردي يتبع الطريق الذي يسلكه لأنه جزء من التتابع الدائري — أو ربما كان الأفضل أن نقول الحلزوني — للنشوء الفردي لأسلافنا . والأعضاء في الفرد النامي تتكون من أجل استخدامها في المستقبل ، لأنها أثناء التطور قد تكونت من أجل فائدتها

المتزامنة . ويمكننا أن نقول إن نمو الفرد ينتهي بالموت . ولكن الأصوب من الناحية البيولوجية هو أن نقول إن التطور يستمر في نسله .

إن التطور نفعي . ولكن لا يستتبع ذلك أن كل ملمح أو خاصة فردية موجودة في الكائن العضوي يجب أن تكون ، في حد ذاتها نفعية ، أنظر إلى الخصائص التي تميز أنواع الحشرات أو النباتات أو الثدييات . إن كثيرا منها يلوح هين الشأن ، وخاليا تماما من أي دلالة تكيفية . فلماذا ، على سبيل المثال ، تكون لبعض أنواع ذباب الفاكهة شعيرات أمامية سكوتيلية متقاربة ، بينما تكون في أنواع أخرى متباعدة ؟ إن الأنواع ذات الشعر المتقارب والمتباعد تلوح متساوية التوفيق في الطبيعة . ولماذا نجد أن الأنواع المتقاربة من الطيور تختلف في تفاصيل ألوانها وأغانيها ؟ وهل كان حظ هذا الطير أو ذاك من البقاء خليقاً أن يقل لو أنه غنّى على نحو مختلف قليلا ؟ .

هناك ، في المحل الأول ، أمران ينبغي أن يوضحا . إن النفع ينبغي أن يفهم بمعناه العريض . فالألوان والأغاني وأنماط السلوك تكون في عدة حيوانات بمثابة علامات للتعرف على النوع . وأغاني الطيور ترتبط أيضاً بالإقليم الذي توجد فيها . والعندليب يصدح على نحو ما يفعل حتى يتمكن أليفه من أن يتعرف عليه باعتباره عندليباً . ولبعض أنواع الطيور لهجات غنائية في المناطق المختلفة . ولكي يضمن الطائر أليفاً في مكان ، فمن المعقول أن يجد من المفيد أن يغني بلهجة ذلك المكان المعين .

والحجة الثانية ذات طابع أعم . فإن الإنتخاب الطبيعي لا يتناول الملامح وإنما الكائنات العضوية . إن الذي يعيش أو يموت ، يتكاثر أو يظل عقيما ليس ملمحاً وإنما هو فرد حي ، أو سكان «مندليون» . والملمح في الحقيقة تجريد يعزله المراقب الإنساني لكي يصف موضوع دراسته ومواضع الشعر على جسم الذبابة إنما هي مظاهر خارجية لقالب نمو نوع معطى من الذباب . فالذي يتكيف هو قالب النمو بأكمله ، وليس تقارب أو تباعد جزء من الشعر .

أنظر إلى بقايا الأعضاء التى تحفل بها أجسام أنواع عديدة ، وعلى سبيل المثال فلماذا احتفظ بالزائدة الدودية فى الإنسان ؟ إنها لا تسبب غير المتاعب لكثير من الناس . وقد يخيل للمرء ، بالتأكيد ، أنه لو كانت قد وجدت جينة خاصة تشكل الزائدة ، ولاشىء غير ذلك ، لكان من المحتمل أن تضيع هذه الجينة فى النوع الإنسانى . على أن الجينات لا تؤدى عملها على هذا النحو، فليست هناك جينة خاصة بالزائدة الدودية ، وأخرى بالأمعاء الدقاق ، وثالثة بالقولون ، الخ .. إن هذه الأعضاء كلها جزء لا يتجزأ من قالب تطور الجهاز الهضمى . وعلى التغيرات النشوئية أن تغير من القالب بأكمله ، لكى تقضى على الزائدة . وهذا قد يحدث بطبيعة الحال — فإن ثمة ثدييات بلا زائدة دودية . ولكن تغيراً على هذا القدر من الجسامة إنما يكون مفيداً أو ضاراً ككل وأجزاؤه المكونة تسهم فى تكيف الكائن العضوى ككل . وإنه ليكون أحياناً جريئاً ذلك الذى يتخيل أنه يعرف أى التغيرات مفيد ، وأيها ليس كذلك .

هل يرجع التطور إذن إلى المصادفة أم إلى التخطيط ؟ وهل كان أصل الإنسان فى التطور مصادفة سعيدة ، أم أن الإنسان قد أنجز فى الحياة الأولى ؟ . ليس أى من هذين البديلين صحيحاً ، وذلك على قدر ما يمكننا أن نحكم مما هو معروف لدينا فى الوقت الحاضر . إن التطور يتقدم عن طريق التجربة والخطأ . وقد كان تيار دى شاردان ، الذي ابتكر هذه الصيغة الملائمة غاية الملاءمة ، يؤمن فى الوقت ذاته بالتطور الثابت فى اتجاه معين. ولاحاجة بنا إلى أن نناقش هنا ماإذا كان هذا الاعتقاد متسقاً مع فكرة التطور عن طريق التجربة والخطأ أولم يكن. إنما الواضح أن عبارة التجربة والخطأ تصف على نحو كامل ، وإن يكن مجازياً بطبيعة الحال ، التطور عن طريق الانتخاب الطبيعى . ومن الغريب حقاً أن دى شاردان كان يرمق الانتخاب الطبيعى بعين الشك .

إن الانتخاب الطبيعى يجعل النوع يستجيب لتحديات البيئة على نحو تكيفى عادة ـ

ومع ذلك فإن الانتخاب الطبيعي ليس قادراً على النظر إلى المستقبل، وإنما هو انتهازي. إنه انتهازي لأنه يكيف النوع دائماً مع البيئات الموجودة فى زمانها ومكانها وليس بمقدوره أن يكيف النوع مع البيئات التى ستوجد فى المستقبل . إن الانتخاب الطبيعى الذى أثر فى أسلافنا الأولين australopithecines ممن عاشوا فى جنوب أفريقيا قد أفاد هؤلاء الأسلاف ولم يفد الإنسان العاقل homo sapiens. صحيح أن الإنسان العاقل قد صار كذلك لأن تطور أسلافه قد تقدم على النحو الذى تقدم عليه . ونكرر أن التطور عملية سبرنطيقية ، فهو سلسلة من التغذيات الرجعية بين الكائن العضوى والبيئة . وفى التطور يكون كل تغير مشروطاً بالتغير الذى سبقه ، ويحدد التغيرات التى ستليه . وهذا هو معنى الظاهرة التى تسمى بالتكيف السابق . فنحن لا ننتهى إلى أن شيئاً ما قد كان تكيفا سابقاً إلا عند النظر إلى الوراء . وقد كان نمو الوضع المنتصب فى أسلافنا من البشر تكيفاً سابقاً سمح بتطور يدى الإنسان القادرتين على صنع واستخدام الآلات المعقدة فى عصرنا الحديث . ولكن لا بد أن الوضع المنتصب كان مفيداً لأسلافنا الذين لم يكونوا يديرون آلات حديثة. لقد تطور الوضع المنتصب فى عدة مجموعات من الحيوانات ، لم تخترع آلات فيما بعد .

على أن الانتهازية طريق خطر . إنها تفيد الانتهازى على المدى القصير ، ولكنها كثيراً ما تضره على المدى الطويل . والتكيف مع البيئة الحالية قد يجعل من الصعب التكيف مع بيئات المستقبل . وهذا هو الخطر المترتب على التخصص . فإن الكائن العضوى المتخصص على نطاق ضيق فى نمط من أنماط الحياة قد يتصادف أن يكون متكيفاً تكيفا تاماً مع بيئة لا يكتب لها البقاء . ومثل هذا الكائن العضوى يفتقر إلى القابلية للتكيف، ولا يستجيب لتحديات البيئة الجديدة . وكثيراً ما يؤدى هذا إلى انقراضه .

وعلى هذا فإننا نجد هنا خاصة ثالثة للتطور تشبه الخلق الفنى . إن الخلق فى الفن يتضمن دائماً خطر الفشل . وحتى بين مؤلفات بيتهوفن نجد أن بعضها أدنى كثيراً

من بعض . وأغلب الظن أنه ليس هناك فنان ينظر إلى أعماله على أنها ناجحة على نحو متساو ، كذلك ليس كل تطور ناجحاً على نحو متساو . إن علم الحفريات يقدم براهين كثيرة على أن أغلب خطوط التطور تنتهى بالانقراض . والانقراض إخفاق بيولوجى . إن الانقراض أمر مفهوم لأن التطور يتقدم عن طريق التجربة والخطأ . وما كان ليصير مفهوماً ، لو أن التطور تقدم عن طريق التطور الثابت فى اتجاه واحد . ولكى يفسر أتباع مذهب التطور الثابت فى اتجاه واحد الانقراض ، كان عليهم أن يبتكروا نظرية فى الشيخوخة النشوئية تماثل شيخوخة الفرد . ولا حاجة بالنظرية البيولوجية فى التطور إلى افتراض شيخوخة نشوئية . وهذا لأننا — إذا لم نسرف فى تبسيط الأمور لعرضها عرضاً شعبياً — يجب أن نتصور التطور على أنه مغامرة خلاقة . وحين تفهم النظرية البيولوجية على هذا النحو ، يمكن أن يتقبلها علماء الحياة الذين يعارضون صورتها المسرفة فى التبسيط .

وإذا كان منهج التطور هو التجربة والخطأ ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه منطقيا هو : إلى أى مدى يعد التطور جبريا أو لاجبريا ؟ . إن هذه القضية تناقش اليوم أكثر ما تناقش من حيث صلتها بالتخمينات الخاصة بوجود حياة خارج الأرض . فهل توجد كائنات عاقلة شبيهة بالبشر على كواكب غير الأرض فى مجموعتنا الشمسية وفى غيرهـــا من المجموعات ؟ . لقد عقدت حديثاً فى الولايات المتحدة ندوة لمناقشة طرق الاتصال الواعدة مع هؤلاء أشباه البشر . ومن المؤكد أننا لا ندعى أننا نحل هذه المسألة الآن . ولكن من حقنا كعلماء حياة أن نصوغ مقدمة لحلها .

ونحن نعتقد أن التطور جبرى ، ولكن بالمعنى الذى استخدمه لابلاس فقط . أى إنه لو وجد كوكب يشبه الأرض تمام الشبه فى كل التفاصيل الصغيرة ، لتطور كل شىء عليه كما تطور على الأرض . ولكن هذه العبارة لا معنى لها من الناحية العملية . فعلى الرغم من أن بعض الفلكيين يقدرون أنه قد تكون هناك بلايين من الكواكب ذات ظروف تشبه تقريباً تلك الموجودة على الأرض ، فليس هناك

فيما نعلم من ادعى أن هناك توائم متطابقة بين الكواكب . وعلى ذلك فإن السؤال ينبغى أن يطرح بصورة مختلفة . فإذا أعطينا بيئات متشابهة فى جملتها ، فهل يتبع التطور دروبا متشابهة فى جملتها ؟ ، أو لو افترضنا أن الكائنات العضوية الراقية على الأرض قضى عليها ، فهل ينتجها التطور فى نهاية المطاف ، بدءا بالكائنات الدنيا ؟ .

لنفرض جدلا ، أن المادة الحية القائمة على الأحماض والبروتينات النووية موجودة فعلا على كواكب أخرى . هناك ، على الأقل ، بعض بيولوجيى الجزيئات ممن يؤمنون بأن هذا أمر محتمل . ولنفرض أيضاً أن الظروف الطبيعية — درجة الحرارة ، والرطوبة ، وكيمياء الغلاف الجوى والصخور — لا تختلف اختلافاً جذرياً عن الظروف الموجودة على الأرض . وأخيراً ، لنفرض أن الطفرات تحدث فى الجينات الموجودة خارج الأرض ، ومن ثم يفعل الانتخاب الطبيعى فعله . إن جوهر المسألة هو أن ثمة عدداً كبيرا ، وربما كان لا متناهيا ، من الاستجابات التكيفية لنفس التحدى البيئى . وقد ناقشنا فيما سبق تنوع الصور التى تتكيف بها النباتات العليا مع ظروف الصحراء . ويستطيع أى بيولوجى عضوى أن يضرب لنا أمثلة أخرى للحلول المختلفة تماما التى تحل بها الكائنات العضوية المختلفة مشكلة التكيف نفسها . ولا يكاد يكون هناك عالم حياة يجرؤ على القول بأنه ما كان ليمكن أن تبتكر حلول غير هذه التى ذكرناها . من المحتمل جداً أن يكون بعض هذه الحلول أنجح من بعض . ولا يترتب على أى شىء من مكتشفات علم الوراثة أن أنجح الحلول سيعثر عليه بالتأكيد ، إذا أتيح له الوقت الكافى . بل إنه إذا لم يكن فى الإمكان سوى حل واحـــد ، فإن ذلك لا يستتبع أنه سيتوصل إليه .

وقد تأثر علماء الحياة كما ينبغى بظواهر التشابه النشوئى. فبين نباتات الصحراء نجد أن الصبار والعنجد قد طورا أشكالا متشابهة على نحو يلفت النظر فى صحارى أمريكا وأفريقيا على التوالى . ونجد أن النمل والأرضة ، وهما حشرتان ليستا وثيقتى الصلة ألبتة ، قد طورتا صورا من الحياة الاجتماعية ، من المؤكد أنها ليست

متطابقة ، ولكنها تتشابه من عدة وجوه . وقد توصلت عدة طوائف من الفقاريات ، مستقلة إلى الطيران ، هذا فضلا عن اللافقاريات ، على أنه من المفيد أن نتذكر أنه بينما نجد التشابه والتوازى يحدثان كثيراً ، فإنهما لا يحدثان على الدوام . فعلى خلاف الثعابين والعناكب ، لم تتكون للثدييات والطيور أنياب سامة ، رغم أن بوسع المرء أن يتخيل أن الأنياب كانت خليقة بأن ينفع بعضها فى الدفاع أو الهجوم . وأنواع الحشرات أكبر عدداً من كل أنواع الحيوانات الأخرى حين تحصى مجتمعة ، ومع ذلك فإن عدد الحشرات البحرية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ضئيل إلى حد ملحوظ . ولقد ظهرت صور شبيهة بالجواد فى رتب مختلفة من الثدييات فى القارات الشمالية وفى أمريكا الجنوبية ، ولكنها لم تنشأ فى استراليا .

وفى التطور كل تغير تحدده التغيرات التى سبقته ، كما أنه يحدد التغيرات التى تليه . ونظراً لطابعه السبرنطيقى ، كان التطور ــــ شأنه فى ذلك شأن التاريخ الإنسانى ــــ لا يتكرر . وقد كان للتغيرات النشوئية التى تمت قبل غيرها أكبر تأثير على التغيرات التى تلتها . أنظر مثلا إلى التمثيل الضوئى عن طريق الكلوروفيل، ونقل الدوافع عن طريق الألياف العصبية ، والتكاثر الجنسى والانقسام المنصف . إن توصل كل من النحلة والأرضة إلى ابتداع الحياة الاجتماعية أمر ملحوظ حقاً . غير أنهما كانتا ، على أية حال حيوانين أرضيين ، مفصليتين ، حشرتين . وبعبارة أخرى كانتا متشابهتين فى بعض النواحى الجوهرية التى تنبنى عليها ارتقاءات متشابهة تالية . ولكن هل يمكننا أن نكون على يقين من أن الابتكارات الجذرية ، كتلك التى ذكرناهــــا فيما سبق ، لا بد حادثة حيثما كان هناك أحماض DNA وبروتينات ؟ ولسنا نرى من الأسباب ما يكفى لتبرير هذا الحقيقية .

قبل كوبرنيكوس وجاليليو كان الإنسان يعتقد أنه مركز الكون . وقد تلقى هذا الوهم من النكسات ما يجعلنا نشك الآن فى أى نظرية توحى بأن الإنسان مركزى أو فريد فى أى شىء . غير أن لامركزية الإنسان وعدم تفرده لا ينبغى أن يصيرا عقيدة قطعية ، فقد يكون الإنسان ، فى نهاية المطاف ، هو الكائن الوحيد العاقل فى الكون . ولئن كان الكائن الوحيد العاقل ، فقد يكون مركز الكون ، لا بالمعنى الهندسى لهذه الكلمات بطبيعة الحال ، وإنما بمعناها الروحى .

بازيل دافيدسون

علم الضبط الاجتماعى

ترجمة: عبد العزيز عبد الحق

يتحامى الكثيرون منا المناقشة فى شئون الدين لما ينجم عنها من تكدير للصفو وإزعاج للخاطر ، ذلك لأنه منذ تحريق برونو(١) وإرغام جاليليو على القول بأن الأرض مسطحة عرف التفكير العقلى والعلمى خصمه الذى يناصبه العداء ممثلا فى القسس وسائر مايصنعه رجال الكهنوت من أعمال ، وفى السحب القاتمة التى تثيرها جمهرة من الجامدين المنافقين الذين يعملون على اضطهاد المعرفة وتكبيل العقل الإنسانى بالقيود من أجل الملوك أو البابوات أو اللئام الذين ينتحلون لأنفسهم صفة القوامة والسيطرة ، متشبثين بما يحظون به من امتياز وما ينعمون به من رفاهة على حساب غيرهم من الناس .

الأستاذ بازيل دافيدسون صحفى وكاتب بريطانى عنى بشئون السياسة الدولية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وغلب عليه الاهتمام بالشئون الأفريقية ، فنشر فى سنة ١٩٥٥ كتابه « صحوة إفريقية » الذى ترجم إلى العربية فى العام التالى وصدر فى مجموعة الألف كتاب فى القاهرة . وهو يؤيد فيه وجهة النظر الإفريقية فى التحرر والاستقلال ، ثم كتابه « إعادة كشف إفريقية » الذى صدر فى لندن سنة ١٩٥٩م والأم السوداء الذى نشر فى لندن سنة ١٩٦١ . ثم كتاب « الماضى الإفريقى » (لندن سنة ١٩٦٤) .

وسبق للأستاذ دافيدسون أن نشر فى مجلة ديوجين فى العدد رقم ٢٣ لسنة ١٩٥٧ مقالا عنوانه : « مظاهر النمو » الإفريقى قبل عام ١٥٠٠م » .

والمقال الذى ننشره هنا فصل فى دراسة لتاريخ الثقافة عكف عليها الكاتب منذ سبع سنوات . [المترجم]

(١) هو جوردانو برونو ، فيلسوف إيطالى كان فى مبدأ أمره راهباً من الرهبان =

وإذا لم يكن المفكرون الأحرار فى القرن التاسع عشر قد ذهبوا إلى ما أكده ماركس وإنجلز من أن «الشرائع والأخلاق والديانات إنما هى (فى نظر الكادحين) حشد من الأوهام والأهواء البورجوازية التى نسجت بإحكام لتستر وراءها مصالح البورجوازيين » فإنهم ذهبوا إلى آراء لاتفترق عن هذا الرأى لقد لمسوا فى المسيحية إبهاماً يبعث على الرثاء ، ورأوا أنها فى أحسن صورها ليست إلا مَحْض أثر باق من روعة البدائيين إزاء المجهول ، وأنها فى أسوأ حالاتها ليست إلاخداعاً ومخاتلة . وعندما هبّوا للاصطراع معها استمدوا العون مما يسمى « بديانة البدائيين » التى ظنوا أنهم وجدوا فيها « سلاحاً ماضياً يشهرونه فى وجه المسيحية وتمكنهم من القضاء عليها » . ذلك لأنه « إذا كان قد تيسر نقض هذه الديانة البدائية والاعتذار عنها باعتبارها ضرباً من الضلالات والانحرافات العقلية أو أنها سراب خادع أغرى البدائيين بالتعلق به نظراً لما اعتمل فى نفوسهم من الاضطرابات الانفعالية أو أنها من النظم التى استحدثت لما تنهض به من وظيفة اجتماعية فإن فى الوسع أن يقال مثل هذا بالنسبة « للديانة الأسمى منزلة » ، وبهذه الطريقة يخلو الطريق مماتراكم فى أنحائه من الوغث والغثاء عبر عصور التاريخ(١).

هذه الحجج كلها قد يسهل علينا أن نفطن إليها وهى على أى حال تعيننا على تفسير ما ذهب إليه إيفانز بريتشرد من أن دراسة الدين قد ظلت ميداناً فسيحاً لم يكد البحث العلمى ينهض بارتياده بل نرى فيما أجرى من هذه

= الدومينيكان ثم طرد من جماعتهم لاتهامه بالزندقة وذلك حوالى سنة ١٥٧٦م . ثم أخذ فى الرحلة والتعليم وإلقاء المحاضرات والكتابة إلى سنة ١٥٩٢م وأيد كوبرنيق فى آرائه عن المجموعة الشمسية وعارض منطق أرسطو وقال بآراء ريموند لل Lull . ثم قبضت عليه محكمة التحقيق واتهمته بالزيغ والهرطقة وحكمت عليه بالإحراق وأحرق فى ١٧ فبراير سنة ١٦٠٠م وقد تأثر بفلسفته ليبنتز وسبينوزا وشيلنج وهجل (المترجم)

(١) النظريات الخاصة بالديانة البدائية بقلم إيفانز بريتشرد ، لندن سنة ١٩٦٥م ص ١٤ .

الدراسات أنها قامت على الفكرة القائلة بأن موضوعها بالنسبة للدراسات التحليلية الصحيحة الخاصة بالنظم الاجتماعية ليس فى جوهره إلا عبثاً ليس وراءه من طائل . فالعقائد الدينية فى نظر هؤلاء الأنثروبولوجيين [المختصين فى علم البشريات] «ماهى إلا لغو وسخف ، وهكذا يراها الغالبية من علماء الأمس واليوم». وهذا مما يسهل علينا أيضاً فهمه وإدراكه ، فإنه منذ القرن السادس عشر وقع عبء تفسير العالم وشرح غوامضه على عاتق « العلم » الذى اتخذ بالضرورة موقفاً معادياً للدين ، لأن المسيحية شوهت العلم . واليوم بعد أن احتدمت المعركة وأسفرت عن انتصار العلم إلى حد كبير ظل الموقف السابق باقياً ، فقد تضاءلت مكانة المسيحية فى المجتمعات المتقدمة تقدماً علمياً حتى صارت بالنسبة للفرد مَحْض أداة وقائية تنقذه من شعوره بالعزلة والغربة. لقد فقدت المسيحية قدرتها على التفسير، وبالتالى تلاشت مؤثراتها على السلوك فغدت مجرد أداة « للطمأنينة والعزاء » ، وصارت لاتتعدى أن تكون ضرباً من الغرائب الشاذة والآثار الضامرة التى تخلفت عن عهد سحيق باد واندثر . وترتب على ذلك أن التمس المفكرون ــ بل كان حتما عليهم أن يلتمسوا ــ وسائل جديدة للضبط الاجتماعى والطمأنينة الذاتية .

بيد أن هذه المواقف على الرغم مما لها من دلالة برّرت اتخاذها فى أوروبا قد أخفقت إخفاقاً بيناً فى أن تتلاقى مع الفهم التقليدى للحقيقة عند الأفارقة. فالتفسيرات التى وضعت عن الديانة الإفريقية والتى أرجعتها إلى ماقامت عليه من خرافة وإلى مانصبت لأدائه من وظيفة قد تركت كثيراً من معالمها دون تفسير ، واتضح لنا فى الوقت الحاضر أننا فى حاجة إلى أكثر من هذا بكثير للاجابة على هذا السؤال مثلا : لم ينظر الأفارقة إلى أسلافهم باعتبارهم حراسا غيورين على القيم الخلقية السامية أى تلك القيم البديهية التى يصدر عنها كل مايعد ضرباً من ضروب السلوك المثالى؟(١)

(١) أوديب وأيوب فى ديانة غرب إفريقية Oedipus & Job in West African Religion بقلم م . فورتيس M. Fortes — لندن سنة ١٩٥٩ ص ٥٣ .

إن الخرافة والوظيفة ليستا سوى تفسيرات جزئية تشير فى الواقع إلى بقية أكبر من معان لا تزال فى حاجة إلى الكشف عنها واستقصائها فى بحثنا .

حين أقام سادة كارانجا دولتهم فى الأراضى الواقعة بين نهرى الزمبيزى وليمبوبو وشيدوا مساكنهم الحجرية فى زيمبابوى أنشأوا معبداً اتخذوه مزاراً لهونجوى نسر السمك ، ونحتوا أوثاناً من صخر الطلق تمثل القوة التى أطلقوا عليها إسم شربشينا أى الطائر ذا الريش البراق ، أو شيرى ياموارى . ومن سدنة هذا المعبد سادن يمثل أعاظم السلف وأشدهم جبروتاً وعلى رأسهم شامينوكا أو مهوندور المظم وعليه أن يفسر ما تعنيه صيحات هونجوى . وجرت العادة بأن القرارات الهامة لا تصدرها الدولة إلا وفقاً لما يقوله السادن . وكان ملوك كارانجا خلال القرون الثلاثة السابقة على سنة ١٨٣٠م يرجعون إلى روح شامينوكا وإلى عرافها [الذى يفسر صيحات] الطائر ذى الريش البراق ، يلتمسون منه الهداية فيما يعرض لهم من مهام الحكم ومشكلاته العويصة .

إن الأوروبيين فى تفسيراتهم القديمة لهذا المسلك ــ وهى التفسيرات التى ذهبوا إليها فى القرن التاسع عشر ــ لم يروا فيه إلا حماقة عجيبة تولدت عن ضباب الخرافة أو أنها ــ عندما سلموا إلى حد ما بالحقائق الواقعة ــ ليست سوى وضع ثابت تحكمى من أوضاع الضبط الاجتماعى . وقد أدى هذا إلى عديد من أنواع الخطأ وسوء الفهم ، حتى إن كثيراً مما كتب فى الماضى فى شىء من الثقة واليقين ، وما لا يزال يساق حالياً فى الكليات والجامعات عن المذهب الحيوى(١) والطوطمة(٢) والسحر

(١) المذهب الحيوى Animism فى علم البشريات هو اعتقاد البدائيين بأن جميع الكائنات بما فيها الجمادات لها أرواح وكما أسماه تيلور E. Tylor إضفاء الحيوية على الطبيعة a general animation of Nature ، فالبدائى يقرأ نفسه فى جميع مايراه فى الطبيعة من الأشياء والظواهر ويؤمن بأن لها أجساماً تخالف جسمه ولكن لها نفس إحساساته ودوافعه . غير أن مارت R.R. Marett فى كتاب علم البشريات (ص ٢٣٠ — لندن سنة ١٩١٢) رأى أنه سبق الحيوية ما أسماه ما قبل الحيوية Preanimism وأطلق عليها اسم animatism وقصد بها اعتقاد البدائى بأن جميع الأشياء الهامة أو عدداً معيناً منها ينبض بالحياة وأن لديها طاقة حيوية يمكن اتصال الإنسان بها ويسميها البولينيزيون مانا Mana وأنها إذا بلغت حداً كافياً من القوة فإنه يستعين بها فى السحر أو يخصها بالعبادة وتحترم كوسائط لقوة غير شخصية وأن لها قوة كامنة تثير البواعث والدوافع . وعلى ذلك فهى تختلف عن الحيوية فى أن الأخيرة تؤمن بانفصال الروح عن جسم الكائن الحى أو الجماد [المترجم] .

(٢) كلمة طوطم Totem مأخوذة من إحدى لغات الهنود الحمر فى أمريكا ودخلت اللغة

وما إلى ذلك قد أثبت المحدثون من علماء البشريات بطلانه أو أنهم على الأقل تشككوا فى صحته ، ذلك لأنهم صاروا ينظرون إلى هذه الموضوعات من وجهة نظر جديدة ، فضلا عما تجمع لديهم من قدر من الحقائق(١) المتعلقة بها أكبر مما كان ميسوراً لسابقيهم .

والمهم أن علماء البشريات فى دراستهم لهذه المجتمعات كان عليهم أن يعيدوا النظر فيما يعنونه من كلمة « دين » . إذ غدا من الواضح أن الدين كان ـ أو أنه فى وضعه الحالى أكثر من أن يكون ـ محض [عامل من العوامل التى تجلب] « الطمأنينة والعزاء » ، أو أن له وظيفة نافعة فى هذه المجتمعات التى بُنِيَتْ على قواعد رسمها السلف وشكلوها وفق مقتضيات الحياة اليومية ، ثم ربطوها بما يطابقها من النظم الأخلاقية . فالدين فى حدود ما نعنيه منه بصفة عامة مفهوم أضيق من أن يتسع إطلاقه على جميع الأنماط الاجتماعية والثقافية التى تتجمع فى نطاق المدلولات التى لا ترقى إليها الحواس . ونحن فى الواقع نواجه هنا « أنساقاً » من العقائد لا يقتصر الأمر فيها على كونها تحكمية بالمعنى الاجتماعى بل هى أيضاً تفسيرية بالمعنى المادى ، وإذن فهى أساس السلوك المعقول . وبعبارة أخرى نرى أن نسميه

=الانجليزية فى سنة ١٧٩١م ويقصد بها حيوان معين أو نبات أو شىء طبيعى يعتقد أفراد العشيرة أنهم ينتسبون إليه ، ولذلك فهم يقدسونه ، فإذا كان حيواناً لا يقتلونه وإذا كان نباتاً لا يقطعونه ولا يأكلونه ويتخذ نحوه من المواقف ما يخصونه بها . وقد لاحظ علماء البشريات أن انتشار النظم الطوطمية والتوزيع الجغرافى لها لدى البدائيين فى أستراليا وآسيا وإفريقية والأمريكتين يدل على أنها متشابهة ولكنها ليست متطابقة إذ يغلب عليها فى كل منطقة طابع معين تتميز به على غيرها . وذهب روبرتسون سميث إلى وجود الطوطمة عند الساميين القدماء ومنهم عرب الجاهلية نظراً لوجود كثير من أسماء الحيوانات فى أنساب الأخيرين من هؤلاء (أنظر كتابه القرابة والزواج عند العرب القدماء — الطبعة الثانية لندن سنة ١٩٠٣ م) . والمراجع التى تناولت الطوطمة كثيرة وأهمها كتاب فريزر : الطوطمة والزواج الخارجى فى أربعة مجلدات لندن سنة ١٩١٠ والمادة المطولة عنها فى موسوعة الدين والأخلاق بقلم سدنى هارتلاند وفى موسوعة العلوم الاجتماعية بقلم جولد نويزر وقد لخص الأخير ما كتب عن الطوطمة فى كتابه علم البشريات — لندن سنة ١٩٣٧ ص ٣٢١ : ٣٢٩ [المترجم] .

(١) إيفانز بتشرد — المرجع السابق ص ٤

« ديناً » كان « أساساً » واسطة لتفهم الحقيقة واستيعابها . وإذا جاز اصطباغه ـ من حيث المظهر لا من حيث الواقع ـ بصبغة خرافية أو اتفق له عرضاً الطابع الوظيفي ، فهو فى جوهره إسقاط عقلى للوعى بحسب ما نشأ فيه من ظروف الزمان والمكان .

وحين يتصدى كاهن هونجوى لتأويل صيحات شيريتشينا فإن « الرسائل » التى يبعث بها إلى ملك كارانجا ليْسَتْ قياساً على هذا مزيجاً مهوشاً من خيالات الهمج وأوهام البدائيين . إنها لاشك من النصائح التى لها من القيمة مايتوقف على حكمة الكاهن الذى يبعث بها والمستمدة من دراسة معينة للوقائع أو لسلسلة من التفسيرات المنسقة تنسيقاً منطقياً للكيفية التى تسير عليها دنيا الكارنجا. ومهما كان للطرائق التى سلكها هذا الكاهن فى فقهه لهذه النصائح وتصوره لها من طرافة وغرابة ، فإن واجبه الأساسى هو أن يحفظ للمجتمع رفاهيته وبقاءه . وعلى ذلك فإنه يضع هذه النصائح وضعاً يكفل توافق ذلك السلوك مع « التوازن المثالى » الذى قرر نسقه السلف أى « أولئك الذين أبانو للناس كيف يعيشون » فى هذه البلاد . ولذا فإن ما يصوغه من نصائح فى قالب من التأويلات الباطنية المتعلقة بصيحات الطائر لايعنى أنه من الوجهة العملية أقل اهتماماً بالمشكلات الاجتماعية والثقافية التى يواجهها المجتمع . وإذا أردنا أن نعرف مدى الجانب العملى فى مثل هذه النصائح وكيف أنها نتيجة مباشرة لوزن الحقائق وإدراك كنهها فإن فيماحدث فيما بعد مايوضح لنا هذا المعنى بصورة جلية تبعث على الدهشة ، وذلك حين نصح هؤلاء الكهان بالثورة على الغزاة الأوروبيين الذين لم يعد هناك فى رأيهم وزن لمسالمتهم .

فإذا نظرنا إلى « الدين » فى سياق كهذا وجدناه يعنى إدراكاً للحقيقة يشمل مجالات الحياة كلها . وهذا هو الإدراك التفسيرى الذى أقام للدين تلك القوة التى تأمر وتنهى . وقد انبثق عنه بطريقة أو بأخرى مايمكن أن نطلق عليه بحق علم الضبط الاجتماعى .

ولعل منا من يتردد فى استعمال كلمة « علم » فيما يتعلق بهذه المجتمعات ، فلاشك

أنها كانت مجتمعات « ماقبل العلم » وذلك لما ينقص فكرها بصفة عامة من « وعى متقدم ببدائل مجموعة المبادئ المقررة » وأنها تبعاً لذلك فقدت الدافع الذى يحملها على البحث المنظم عن هذه البدائل. ولكن حتى مع التسليم بهذا فإن فكرها أحرز درجة بالغة من التقدم من حيث الوعى بإمكانيات التنبؤ العملية الناجمة عن الملاحظة. فهو فكر يعى بما أسماه ليفى شتراوس « علم المحسوس » فالواقع أن موقفه من الظواهر يغلب عليه الطابع التجريبى ، والتجربة كانت المنقذ لهذه المجتمعات منذ العصور القديمة. وليس هناك من صفة أخرى تفسر لنا اهتمام الأفارقة الزائد بالمعلومات المفصلة الخاصة ببيئاتهم.

ولعل دأبهم على تصنيف الظواهر وتسميتها سواء عرفوها عن طريق الملاحظة أو استخلصوها عن طريق الحدس فى حاجة إلى شيء من التأكيد . فالدوجون مثلا فى السودان الغربى يصنفون النبات أصنافاً يعرفون منها اثنتين وعشرين فصيلة رئيسية يقسمون عدداً منها إلى نحو إحدى عشرة فصيلة فرعية ، ولو أنهم يبنون هذا التصنيف على أسس وقواعد خليقة بأن تثير دهشة ليناوس(١) . وفى وسع الكاريموچنج أن « يميزوا تمييزاً لا يقل دقة عما يقوم به أى باحث إخصائى يفد عليهم من الخارج تلك السمات الطبوغرافية للمواقع التى تنبئ عما يوجد بها من موارد المياه ، ويطلقون عليها من الأسماء ما يتفق مع هذه السمات . فهذه « الشبكة » مطبقة على مساحات معروفة وما بها من مراع مسماة لديهم هى التى تقرر إلى حد ما انتقالات راع من الرعاة مع قطعانه لانتجاع الكلأ خلال أشهر السنة ومن سنة لأخرى(٢) . » وقد لاحظ ليفى شتراوس أن كثيراً من أمثال هذه التصنيفات المعروفة « ليست فحسب تصنيفات منهجية مبنية على قواعد نظرية نسقت فى عناية وإحكام ، بل هى تماثل

(١) هو كارل فون ليناوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨ م) عالم سويدى مختص بدراسة علم النبات ، ويعد المنشئ الحديث لهذا العلم [المترجم] .

(٢) السياسة عند الكاريموچنج بقلم دويسون هدسون N. Dyson-Hudson [بالانجليزية] سنة ١٩٦٦ ص ١٦ و ص ٩٧

أيضاً فى بعض الأحيان ، من الوجهة الشكلية ، التصنيفات التى لا يزال الدارسون يستعينون بها فى علمى الحيوان والنبات »(١) .

فإذا نقلنا هذه الملاحظة نفسها إلى مجال العلاقات الاجتماعية الأوسع مَدَى والذى يشمل العلاقات الطبيعية وجدناها لا تزال صحيحة صادقة ، فما زال الفكر معنياً بالتنبؤ المبنى على الملاحظة ، فالقصد الأساسى عند كثير من الأفارقة هو كما يقول هورتون رسم العلاقات بين الظواهر الزمنية والمكانية الذى يشعر الفكر المسيحى الحديث أنها تخرج عن نطاق دائرته الخاصة . ومع أن هذه الديانات الإفريقية — طبقاً لمستويات العلوم المعاصرة الأكثر تقدماً — قلما تقوى على تزويد معتنقيها بتفسيرات عن القيم أو الوصول إلى تنبؤات موفقة كل التوفيق ، فهى تتضمن ما يدل دلالة قوية على « أنها ليست دون هذه العلوم فى عنايتها بالشرح والتنبؤ » . وعلى ذلك « فإن أهم مطمح للفكر الدينى الإفريقى فى جل محتواه هو الإيضاح ، أى محاولة تفسير أعمال الفرد فى حياته اليومية والتأثير فيها تأثيراً قوياً وذلك عن طريق كشف المبادىء الثابتة الكامنة خلف الفوضى والاضطراب الظاهرين فى التجارب الحسية . وبقدر ما نجعل هذا الطموح نقطة أساسية فى تحليلنا [للفكر الإفريقى] فإنا سنجد أنفسنا باحثين عن وسائل ترجمة هذه المفاهيم فى دنيا العلوم ودلالاتها النظرية أكثر من دنيا الدراسات المسيحة »(٢) .

ومضى هورتون فيما ذهب إليه — وأظن أن كثيراً من علماء البشريات المحدثين يتفقون معه فى رأيه فيقول إن « التفكير التقليدى يمكن أن يعد ثمرة لعملية تركيب النماذج التى نراها فى كل من التفكير العلمى وتفكير ما قبل العلم إذا أخذنا الأخير على أنه يقصد به أشكال البحث التجريبى فى سُنَن العالم ومظاهره ، وهى تلك الأشكال التى سبقت أية معرفة نظرية عن التكوينات المادية وعملياتها . ولذا فإن محاولتنا استكناه السياسة التقليدية عند الأفارقة تحتم علينا أن نبدأ أولا باستكناه دياناتهم التقليدية . وليس فى وسعنا أن ندرك مقولات الوصف من غير هذا السبيل .

(١) المرجع السابق بقلم ليفى شتراوس ص ٦٧

(٢) ممارسو الطقوس فى إفريقية ، مقال بقلم ر. هورتون R. Horton فى مجلة إفريقية [الربع سنوية التى يصدرها المعهد الإفريقى الدولى فى لندن] العدد الثانى من سنة ١٩٦٤م.

وقد ساق هورتون مثالا شبيهاً لهذا . فالكيماوى إذا ما أريد منه أن يورد وصفاً شاملا لمادة من المواد فى معمله ليس فى وسعه أن يتجنب ذكر عدد من خواصها مثل وزنها الجزيئى وصيغتها الجزيئية مما يشير إشارة ضمنية إلى مجموعة ضخمة من النظريات الكيماوية » المسلم بها . وعلى هذا القياس فإن القروى الإفريقى الذى يحاول وصف مجتمعه لا يقوى على إغفال الإشارة ضمنياً إلى مفاهيم ديانته التقليدية .

ولدينا من البيانات عن بعض المجتمعات الإفريقية ما يكفى لإيضاح هذا فى الحياة العملية . ولقد ساق لنا هورتون حالة قوم عاش بين ظهرانيهم فترة من الزمن وهم جماعة الكالابارى الذين يقيمون فى دال النيجر ويشتغلون بصيد السمك والتجارة فى أخوار ساحل الأطلنطى جنوبى نيجيريا، وذلك منذ عصور خوال وتمتد يقيناً طوال قرون كثيرة .

والكالابارى فى فهمهم للحقيقة يفترضون وجود ثلاثة أنواع من الأرواح : أولها أرواح «الأبطال المؤسسين» الذين كانوا أول من استوطن أرض الكالابارى وأنجبوا أسلافهم القدامى . ويعتقدون أن هذه الأرواح هى « الأداة الفعالة التى تحقق الرفاهية الجماعية للقرية » ، لأنها هى التى بدأت تشكيل أسلوب حياة الكالابارى، وإليها يتجهون فى المسائل التى تمس مصالح المجتمع بأسره .

ثانياً . هناك طائفة أخرى من أرواح الأسلاف الذين تنتمى إليها العشائر المختلفة فى أنسابها ، « وهم أداة الرفاهية الخاصة لكل عشيرة » . وهؤلاء قد يعارض أحدهم الآخر دفاعاً عن مصالح العشيرة التى تنتسب إليه بحيث قد يقتضى الأمر إحالة المصالح المتضاربة فى هذا المستوى على أرواح الأبطال المؤسسين .

ثالثاً . (والتقسيم هنا يعده العالم الحديث دالا بطريقة شائقة على الحذق والدهاء والنزعة الواقعية) « الأرواح الطليقة التى تحللت من كل قيد أو ارتباط » وهم قوم الماء Water-people الذين يعتقد أنهم يعيشون فى قيعان الأخوار التى يرتادها الكالابارى (وينهضون بمطالب الأفراد المتنافسين) . وهم على استعداد لأن يغدقوا

من خيراتهم على كل قادم إليهم وذلك بالقدر الذى يتناسب مع مايقدمه إليهم من القرابين، ولكنهم لا يرتبطون بأية طائفة من الطوائف التى ينقسم إليها المجتمع (١).

وقد يلاحظ فى هذا الصدد أن تعدد العبادات فى مجتمع ما يتوقف على درجة التنافس التى يسمح بها هذا المجتمع أو يقوى على احتمال وقوعها . فكلما أفسح النظام المجال للمنافسة الفردية زاد عدد العبادات. وهى وفيرة العدد لدى الكالابارى نظراً لكثرة الفرص المتاحة لهم لإظهار نوازعهم الفردية بفضل ما لبلادهم من موقع تجارى طيب فى دال نهر النيجر، بينا نرى لدى الكاريعيونج الرعاة فى الأراضى [شبه] القاحلة القليل من هذه العبادات. ويصدق هذا على المجتمعات الحديثة كما يتضح لنا من مقارنة النزوات المتكاثرة الخاصة بالسيارات بشكاوى «انعدام الحرية» فى المجتمعات التى تنقصها السلع الاستهلاكية . ويحظى الكالابارى ، طبقاً لهذا المنظور ، بقدر من الحرية أكبر بكثير مما يَحْظَى به الكاريعيونج ، ولو أن الأخيرين قد لا يرون هذا الرأى .

ومع تعدد عبادات الكالابارى واشتداد نزعتهم الفردية فإن نظامهم يخلو من الفوضى والتحكم . فهو يتألف من ثلاث قوى :ـ ١ـ أرواح أسلاف العشائر التى «تدعم الواحدة منها من قوة العشيرة التى تنتسب إليها ، وتلحق النوازل بمن يخل بقيم الأنساب ، كما تفيض من نعمها على من يتوخى الحفاظ عليها » ـ٢ـ أرواح الأبطال المؤسسين التى تنهض بمصالح المجتمع فى مجموعه وتعمل على تثبيت أنظمته ـ٣ـ وأخيراً أرواح «قوم الماء» التى «ترعى النزعة الفردية فى الإنسان» وهى « القوى التى تدعم كل مايقع خارج الحدود المرسومة للنظام الاجتماعى القائم » .

وعلى ذلك فإن إدراك الكالابارى للحقيقة ـ فى عقائدهم الدينية وكل مايتفرع منها ـ ألف أنموذجاً نظرياً لما يَجْرِى فى عالمهم ، صاغوه طبقاً للتجارب المستقاة من ملاحظاتهم وتأملاتهم . أى أن قوماً حلوا فى بيئة ما ـ وهم الأبطال المؤسسون من

---

(١) الفكر التقليدى عند الأفارقة وعلوم الغرب بقلم ر. هورتون R. Horton — مقال فى مجلة إفريقية ، العدد الثانى من سنة ١٩٦٧ م .

الـكالاباري الذين استوطنوا دال نهر النيجر - وهيأوا أنفسهم هنا لك للتلاؤم مع مقتضيات نموهم الاجتماعى . وهذه المقتضيات أو الاحتياجات قننوها فى صور نصفها نحن بأنها دينية . فإذا ماعن لنا أن نتساءل :لم اتخذ الفـكر الـكالاباري صورة دينية فما هذا التساؤل إلا نتيجة التشويش الذى أحدثته صور التقسيم الثنائى الحديثة الذى يفصل بين العلم وماوراء الطبيعة ، وبين الحقيقة والدين .

إن فـكرهم التقليدى يخلو من هذه الثنائية ، لأن إدراكهم كان إدراكا كلياً ، لايقتصرون فيه على ما كان ، ولـكنه يشمل أيضاً ماينبغى أن يكون، ولماذا ينبغىأن يكون . ونعيد القول هنا بأن هذا الفهم يجمع بين كل من الأمر والنهى ، والتفسير والشرح . فإذا كانت الأمور أو الأشياء على نحو ما ، فهناك من الأفعال والمطامح مارخص فيه وغيرها مما ينهى عنه. وإذا كانت الوسائط والغايات مظاهر عضوية لحقيقة لازمة واحدة، فَهُمَا إذا يدركان إدراكا شاملا لايفرق فيه بينهما. ولـكنا فى المجتمعات الحديثة قد شطرناها شطراً ، وكلفنا تقدمنا ثمناً فادحاً هو انفصام وعينا وتصدعه . فالعلم عندنا يدلنا على مايمكن عمله ، ولـكنه لايهدينا إلى مايجب عمله ، أو يعلل لنا وجه اقتضاء أدائه . فالمسائل الخلقية تغفل بالضرورة ، والعلماء الذين يثيرونها ينحى عليهم باللائمة لأنهم يخوضون فى غير اختصاصهم ، وإلا فإن هذه المسائل الخلقية التى تقع فى دائرة الاختيار والتى تحـكم السلوك ، تترك ماعساه قد يوجد من أثر ضعيف واه لايزال باقياً من أخلاقنا التقليدية ، وذلك فى نطاق مستويات يعتد بها ، أو إلى أحكام جزئية تتعلق بما يسمى « بالصالح القومى » ، ولذا فإنه ينتهى بنا المطاف إلى أن نواجه موقفاً يتنبأ فيه العلم بما سوف يحيق بالبشرية من كوارث ماحقة لاتبقى ولاتذر ، إذا ما اطرد انتشار الأسلحة النووية . ولـكن هذه الأسلحة تمضى قدماً فى انتشارها ، على الرغم مما يرتفع من هنا وهنالك من صيحات الويل والثبور ، ذلك لأن الزواجر الخلقية التى تقوى وحدها على إيقافها لم يعد لها وجود بعد .

بينا نلمس فى الفـكر الإفريقى إصراره على نسق نظم فيه ثنائية الأمر والتفسير مما أناله غايته المثلى بفضل ماقطع فيه من أحكام نهائية ، وذلك باقتضاء العمل وفق السلوك

السوى للرسوم باعتباره السبيل الوحيد لأداء ماهو « حق وطبيعى » ، حتى ينتمى الفرد إلى « مجتمع الأخيار » ، ويخرج من وحشة العزلة إلى حظيرة الجماعة .

وإذا نظرنا من هذه الوجهة إلى تلك المذهبيات نراها لاتكشف لنا عن نعيم مقيم . فالحقيقة كانت جافية عسيرة يشوبها الالتواء والتعقيد . وكثير من الأفراد سقطوا صرعى على جنبات الطريق . وهناك جماعات بأسرها حل بها الدمار . وحتى فى الحالات التى أحرزت فيها هذه المذهبيات أكبر قدر من النجاح فى تحقيق التوافق الاجتماعى ، نرى أن السبيل إلى ما بلغته اقتضى ثمناً باهظاً وهو المحافظة والاستمساك بالقديم ، ذلك لأنها بسبب شمولها وإحاطتها كان لزاماً عليها أن تدعم قدرتها على التنبؤ بأساليب تساعد على تفسير سبب الإخفاق أو تجاهله، مادامت النواحى الآمرة فيها تتوقف على دعاواها فى الشرح والتفسير . وهذه الدعاوى ــ طبقاً لنزعة هذه المذهبيات وطبيعتها ــ لن تقع فى الخطأ أو تتورط فيه ، وبعبارة أخرى إن شكل الحياة الاجتماعية هو الذى يصيبه التغيير والتبديل وليس المحتوى .

ليس هناك من مجال إذاً لإفراغ الماضى فى إطار ذهبى براق ، وإنما المجال هو فى استكناهه واستيعاب حقيقته . وهذا المنهج يبدأ على الأقل فى تفهم مافكر فيه الناس فعلا أو صنعوه ، ولم؟ فهو نهج يعيننا على تجنب الخوض فى حمأة اللغو الملىء بالمعميات، وهراء نظام الرعاية الأبوية الممضة ، والاسترسال فى التكهنات والتخيلات. ولو اتبعنا هذه الطريقة فى أناة وصبر، فإنها ستوضح لنا حقيقة هذا الخليط الضخم البالغ التنوع من « الأساطير التأسيسية » التى يحرص الأفارقة على روايتها وتناقلها . مثل اعتقاد اللوزى أنهم من نسل مبويا الذى ولد من ابنة الإله مواميا. إنها ستفسر لنا ما لمراسيم السلف من قوة نافذة ، وتفض لنا ما أسماه لوبيف بالسجلات الاجتماعية التى ألفها شعب الدوجون فى نقش الأقنعة المنحوتة فى مناسبات معينة على فترات زمنية واعية أو الساو والسكوتوكو فى أكوام من الحجر المصقول ترمز للأجيال الماضية ، ويشكلها غيرهم بطرائق أخرى عديدة[1].

---

(١) تاريخ إقليم تشاد بقلم لوبيف J. Vansina فى كتاب : « المؤرخ فى إفريقية الاستوائية » تحرير فانسينا J. P. Ledoeuf وريمون امونى R. Mauny وتوماس L. V. Thomas — لندن سنة ١٩٦٤ .

وآنذاك يتكشف لنا الكثير ، فيتضح لنا مثلا لم لم يقصد من هذه «السجلات» أن تكون مدونات تشبع طلعة المؤرخين ، ولم كانت بالضرورة شركا يتورط فيه ذوو الغفلة من الباحثين المحللين الذين يأخذونها على ظاهرها ؛ كما يتجلى لنا لم حذفت تلك الأثبات المتواترة أسماء الملوك المنكودى الطالع بسبب مالحقهم من هزيمة فى الحرب ، أو لأنهم قلبوا النظم التى وضعها السلف ، ومنها مايتعلق بما يجب أن يكون أو لايجب أن يكون ؟ ولم حرصت أسر حاكمة جديدة اتخذت دستور الملوك السلويين ، على «إعادة كتابة الماضى» أو طمسه، ولم تعرضت التقاليد لكثير من التغيير والتبديل بسبب ماأقحم عليها فى العصر الحديث من دنيا الآراء الجديدة . وقد ساق دير تفيلت أخيراً مثالا من رواندا يلقى الضوء على هذه الظاهرة . فهنا لك نجد أن دستور السلف كان قد أقام منذ عهود طويلة فوارق صارمة فى المراتب، غير أن مبادىء الاستقلال القومى غدت فى العصر الحديث تتحدث بلغة جديدة . ولذا فإن الأساطير التأسيسية أعيد تأويلها خلال الخمسينات من هذا القرن ، وذلك لكى تدعم بكل قوتها فرضاً مستحدثاً يخالف مخالفة بينة أوضاع تلك المملكة المنضودة فى طبقات متفاوتة ويقضى باعتبار «جميع الأفراد فى شعب رواندا سواسية» وإن كانو غير متساوين فالإثم واقع على الحكم الاستعمارى . وعلى ذلك فإن ما كان فى الماضى متفقاً مع ماهو « حق وطبيعى » لم يعد اليوم متفقاً معه ، واقتضى الأمر تبعاً لذلك إعادة التوافق والملاءمة بين الرموز ومدلولاتها[1] .

ومع ذلك فليس هناك تغيير فى مغزى الرموز وجميع البيانات الخاصة بأمثال هذه المذهبيات ، إذ هى تظل تجسيما لنظرة معينة للعالم ، وفهماً شاملا متكاملا لما كانت عليه الأشياء وما يجب أن تكون عليه . وعندما تغيرت الظروف والأحوال عدلت الرموز أو ضيقت أو وسعت ، ولكن لإعادة تأكيد الماضى وتثبيته ولدى ن لجحده والتنكر له .

(١) أساطير ومذهبيات فى رواندا القديمة والمعاصرة ، بقلم دير تفيلت D'Hertefelt [بالفرنسية] .

وفى مجال وثيق الصلة بموضوعنا يتشكل معنى الطوطم والمحرمات «taboos» فى هذا المنظور نفسه، ففى وقت ما كان ينظر إلى الفوارق والنواهى البالغة الكثرة والتنوع على أنها إسقاطات غامضة للعقلية البدائية، أو أشباح خلقتها مخاوف السكان الأصليين وبدوات أخيلتهم ، أو أنها كانت تفسر بوجـــه أو بآخر على أنها عقائد ابتدعتها أهواء هؤلاء الأقوام لحل المشكلات التى كانت تواجههم ، كما يتضح لنـا فى مسألة المشاركة فى الطعام،فنرى عشيرة تتناول لحوم الأيائل وليس الجاموس بينما نرى عشيرة أخرى تتناول لحوم الجاموس وليس لحوم الأيائل .

غير أن الطواطم والمحرمات تتكشف لنا الآن عن معنى جديد يدل على وظيفتها الحقيقية باعتبارها رموزاً اشتقت من إحـدى نظريات الضبط الاجتماعى . وكانت هذه النظرية على درجة بالغة من الجلاء والوضوح لا يشوبها إبهام أو غموض ، إذ تستند عـــلى ملاحظة الظواهر الواقعة ، ولـكنها صيغت فى مدلولات الأوامر والنواهى الخلقية ، فالطواطم والمحرمات تقوم فى نطاقها بدور واضعى العلامات أو ملاحظى الأهداف على طول الحدود الخاصة بما هو حق وطبيعى ، فهى تعرفنـــا بنظرية الضبط وتحدد لنا ما تشتمل عليه من نظام ، بيد أنها تحمى أيضاً النظرية والنظام مما يقع عليها من هجمات تشنها الظواهر المضادة . فعلينا إذاً أن نفهمها كإسقاطات غامضة مُستَغْلَقَة أو كأعمال تقتضيها الفطرة السليمة إذ هى ليست من النوع الأول لأنها أشبه بنظام رموز « لبيانات البرنامج » فى حساب اجتماعى معين وهى منتقاة لأنه تقصد بها استبعاد الأحداث أو الأفعال التى تهـــدد سلامة النظام ، وهى منهجية لأنها تهدف إلى بلوغ مثل أعلى منشود .

وتقربنا الأبحاث الحديثة من إدراك كل هذا ، فالنديمبو فى شمال غربى زامبيا يعدون دون ريب من أولئك الذين قيل عنهم فى الماضى إنهم يسجدون للخشب والحجر ، أو على الأقل يسجدون للخشب . وإنهم يعانون بصفة عامة مما يحيطون به أنفسهم من الألغـــاز والعميات ، فهم ينسبون مركباً رمزياً لثلاثة أنوع من الشجر فى بلادهم وهى المودى والويومبا والوكالا . فشجرة المودى وشجرة الويومبا

اللتان تفرزان عصارة لبنية إذا ما قطع لحاؤهما يعتقدون بأنهما ترتبطان بالأمومة والأنوثة ، وتقترنان بفضائل السلف كالخير والقوة والكرم والخصب وطول العمر كذلك لها صلة بالتوافق الاجتماعى فشجرة المودبى ترمز لوحدة العشيرة أو القرية وشجرة الموبومبا تمثل الوحدة العامة : وحدة النظام الأخلاقى الذى يعترف به شعب النديمبو بأسره ، والذى قررته وقضت به أرواح السلف . أما شجرة الموكالا فتفرز سائلا صمغياً يضرب إلى الحمرة ويقرنها النديمبو بالدم وخواص الدم أى أنها تمثل الرجولة ومسؤلية البالغين فى المجتمع(١) بأسره . وإذا كنا نفتقد مفتاح ذلك النظام الاجتماعى فإن هذه الآراء بدت لنا كخرافات بالغة الشذوذ والغرابة أو كعادات بدائية هى وليدة الاختيار الجزافى . والواقع أن النديمبو يرونها ، كما قال ليفى شتراوس ، نظام رموز بوسعه أن يكفل قابلية الأفكار للتحويل بين المستويات المختلفة للحقيقة الاجتماعية ، لا بل إن لغتهم تفصح عن هذا الزعم ، فحين يقول النديمبو بأن ما تفرزه شجرة الموكالا من صمغ أحمر إنما يمثل الدم ، فهم يطلقون على هذا الرمز اسماً فى لغتهم يعنى إشعال الأثر ، ومعنى هذا أنهم يتصورون الرمز شعلة شجرة أو أثراً على الأرض يربط بين المعلوم والمجهول ، وبهذا يصل ذلك الرمز بين مستوى من الفهم ومستوى آخر (٢) ولكن الحقيقة الاجتماعية هى المقصودة بعملية الربط هذه . فالرموز هى رموز اجتماعية ، وهى جزء يتصل اتصالا وثيقاً بنظام اجتماعى خلقى قررت أصوله وثبتت معالمه .

والأدلة على هذا واضحة . فقد وازن تيرنر الذى درس أحوال النديمبو ، بين

---

(١) رمزية الطقوس والأخلاق والتركيب الاجتماعى عند النديمبو بقلم تيرنر V. W. Turner فى كتاب : مذاهب الفكر الإفريقى تحرير فورتيس M. Fortes وديترلين G. Dieterlen لندن سنة ١٩٦٥ . ومقال عن : ثلاثة رموز للمرور Passage [أى الانتقال من مرحلة إلى أخرى فى حياة الإنسان] فى طقوس النديمبو الخاصة بالختان ، وذلك فى كتاب : مقالات عن طقوس العلاقات الاجتماعية ، تحرير ماكس جلاكمان M. Gluckman — لندن سنة ١٩٦٢ م .

(٢) المصدر السابق .

طقوس التلقين أو غيرها من طقوس هذه الأشجار الرمزية وبين الأسرار الدينية التى لا تدل على التغييرات الداخلية فى الحالة الأخلاقية والاجتماعية فحسب ، بل تحدث هذه التغييرات فى الشخص الذى يمر بهذه . الطقوس زد على ذلك أن هذه الطقوس شأنها شأن الأسرار المسيحية تشير إلى كل من الماضى والحاضر والمستقبل لأنها تُحيِى ذكرى الموكاندا الأولى (فى نسق طقوس الختان أو طقوس التلقين) وتدل على مختلف أنوع القوة التى تمنحها كما تشير إلى مرحلة الرجولة المكتملة القادمة .

ومايقال عما يحدث فعلا فى هذه الطقوس ، أو مايراه منها مراقب خارجى لم يتمرس بها ، لا يزودنا بأى وصف حقيقى لها . والدراسة المتأنية هى وحدها التى تصل بنا إلى هذه الغاية . ولم يتيسر للباحثين مثل هذا الاستقصاء إلا فى السنوات الأخيرة، ومع ماقد يبدو للآخرين من جفاء هذه الطقوس وبساطتها فإن النديمبو يرونها تؤهل كل صبى من صبيانهم بأن يتشرب عن طريق مايلقنه من أسرار خاصة ـ كل نظامهم الأخلاقى ، وهو نظام فطرى كامن ، ولكنه يفوق النظام الاجتماعى قدراً ومنزلة نظراً لما وضعه السلف من صنوف الأحكام والعقوبات ، وذلك عندما يختن الصبى تحت شجرة المودى المتعلقة بأمهاته وينقل إلى شجرة السلف (التى يرمز لها بقطعة من جذع شجرة الميومبا) ويودع أخيراً على شجرة اكتمال النضج (حيث يستريح ليبرأ من جرحه وذلك بوضعه فوق غصن قطع حديثا من شجرة الموكالا).

ومادمنا قد ظفرنا بما يفتح مغاليق النظام الأخلاقى ، فإن « العادات البدائية » الأخرى نراها تتحدث لنا بلغة مماثلة ، إذ تبدو هى أيضاً كوسائط تهيء للالتزامات الخلقية دعائم ملموسة تستند عليها ، كما تعكس لنا اعتقاداً راسخاً لدى أصحابها بأن فى الكون ناموساً أخلاقياً ، وأن خير الإنسان ورفاهيته يتوقفان على طاعة هذا الناموس كما يراه الناس ، وأخيراً تبدو هذه العادات والتقاليد كحلقات فى نسق من العلاقات الاجتماعية المتكافئة .

وقد آمن عدد من الشعوب الإفريقية بأن ملوكهم يجب ألا « يموتوا » وبذلوا

جهوداً كبيرة من حين إلى حين ويتعذر علينا أن ندرى كم من المرات حدث هذا ، للتغلب على تلك الحقيقية التى لاجدال فيها وهى أن ملوكهم ماتوا فعلا . وقد ذكر لينهارت مايصنعه الدنكا فى هذا الصدد ، وهو أنهم يحفرون حفرة يضعون فيها رئيسهم المحتضر ممدداً على عنجريب وهونوع من الأسرة قديم الاستعمال جداً فى السودان ثم يقيمون فوقه منصة يربطونها بشقة من الجلد، ويضعون بجواره قرعة مليئة باللبن، ويغطون هذا كله بروث الماشية .

ومع ذلك فرئيسهم المحتضر ذو حربة الصيد لا يخشى الموت ، فهو يدفن ، وهو يغنى أغانيه وما من أحد بين قومه يبتسم هازئاً أو يبكى مولولا لأن رئيسهم قضى نحبه . إنهم يتهللون فرحاً لأن رئيسهم ذا حربة الصيد سيهبهم الحياة وأنهم سيعيشون بعده ناعمى البال بمأمن من كل مكروه » وما دام رئيسهم قادراً على الكلام فهم لن يقدموا على مواراة قبره ، فلا يهيلون عليه روث الماشية إلا حين يتوقف عن الرد على نداءاتهم . وحينذاك لا يتفجع عليه أحد ويقول : « وا أسفاه ! لقد أدركه الموت » . إنهم سيقولون : « هذا حسن ولا ريب » .

إن ما يَكْمُن فى هذا الطقس من دلالة هى أن الرؤساء ذوى حراب الصيد كانوا مَعْنِيِّين بالمسائل المتعلقة بحالة وحركة الأنهار التى تؤثر فى حياة السكان بأرض الدنكا . ولذلك اعتقد الدنكاويون تمشياً مع إدراكهم للحقيقة أن هؤلاء الرؤساء يحملون الحياة لشعبهم . ومادام الأمر كذلك فإن الموت الطبيعى الذى يدرك رئيسهم يرمز إلى الفناء الذى يلحق بعشيرته بسبب ما قد يحل بهم من مختلف الكوارث . ومايمثله الدنكاويون فى تدبير شكل الموت الذى ينزلونه به ، هو الاحتفاظ «بالحياة» التى يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنهم ينالونها منه ، وليس الإبقاء على حياته الشخصية . والواقع أنهم ينتزعون حياته الشخصية نهائياً وَذلك لكى يبدو أنهم يفصلونها عن الحياة العامة التى يحتفظ بها ، والتى يحتمون ألا تنفصل عنه بسبب موته . وهـــذا الدفن الطقسى الذى يمارسونه يرتبط بمجموعة كبيرة من القرائن بالنصر الاجتماعى على الموت وعلى العوامل التى تلحق الفناء بأرض الدنكا . وبعبارة أخرى يتضح من هذا

أن الدفن الطقسى هو عبارة عن جهد واع يبذل قصداً للضبط والتنظيم ، وينبع من مذهبية معينة انبثقت بدورها من ضرورة إيكولوجية كما انبثقت من الوسائل التى اتبعها الدنكاويون لمواجهة هذه الضرورة[1] .

هذا وقد تعددت الأغراض المتوخاة من هذه الطقوس وتنوعت . فهناك من الطقوس الأخر ماينتمى لمظاهر أخرى لهذا العلم السابق على العصر العلمى مما نسميه علم الضبط الاجتماعى ، وهذه المظاهر يقصد بها تخويل السلطة من ينهض بأعبائها . فحين يموت ملك أويو فى بلاد اليوروبا القديمة كان يقوم عدد من الموظفين باجتزاز رأسه وتنظيف جمجمته وانتزاع قلبه ، وعلى من يخلفه إبان طقوس تنصيبه ملكا أن إلى يقدم ضحية شانجو أحد الآلهة الكبرى ، كما يعطى طبقاً وضع فيه قلب سلفه وعليه حينذاك أن يأكله . وبعد فترة من الزمن عليه أن يتناول من جمجمة سلفه وجبة من مجروش القمح ، وقد نشأت هذه الطقوس المسرحية عن الحاجة الماسة لفتح آذان الملك الجديد كى يقوى على تمييز الحق من الباطل ولإضفاء قوة نافذة على كلماته ، وتخويله وحده سلطة إعدام المجرمين وقتل خصومه فى الداخل وشن الحرب على أعدائه فى الخارج[2].

والمهم هنا ليس بشاعة هذه الطقوس ، بل تعبئة القوة الرسمية وحشدها لتدعيم هذا المنصب المهيب عند تقليده ؛ وبذلك تتكفل له الصفة الشرعية كما يقول فورتيس وتلقى التبعات التى يقتضيها هذا المنصب على من تخول إياه هذه السلطة .

ويتضح لنا من وجهة النظر هذه لم احتاجت هذه المجتمعات إلى قدر من الطقوس يزيد على ما لدينا منها . فأغلب الأفراد فى مجتمعنا يعرفون أمكنتهم نتيجة لعملية

---

(١) الألوهية والتجربة : ديانة الدنكا بقلم لينهارت G. Lienhardt — لندن سنة ١٩٦١ م ص ٢٩٨ .

(٢) مملكة أويو Oyo بقلم مورتون وليمز P. Morton-Williams فى كتاب ممالك غرب إفريقية فى القرن التاسع عشر ، تحرير داريل فورد W. Forde وكابرى P. M. Kaberry — لندن سنة ١٩٦٧ م .

التمييز التى تحدثها الطبقة أو اللهجة أو التربية أو الدخل أو المهنة أو غير ذلك من أنواع التقسيم التى يشكلها النظام الاجتماعى . فالطقوس عندنا قد اختفت ولم تبق منها إيماءات ودية نحو ماض مقطوع الصلة بالحاضر ، كما نرى فيما يلتزم به الناشئون من المحامين فى لندن بأن يتناولوا العشاء فى النُزُل[1] ، وهو تقليد لم تعد له مثل هذه الدلالة فى الوقت الحاضر .

ولكننا فى هذه المجتمعات نرى موقفاً مغايراً لهذا . فقد كان عليها أن تواجه عبء تحديد الأدوار التى تناط بالأفراد وتخصيص الأعمال التى يؤدونها ، وذلك فى مجتمع يتألف من أفراد متساوين لا تفصلهم سوى فوارق يسيرة لا يعتد بها . كما كان عليها بعد ذلك أن تعمل على صيانة هذه المناصب من أى انتهاك أو عبث يخل

---

(١) المقصود هنا هو Inns of Gourts وهى مراكز قديمة للتدريب على ممارسة القانون؛ إذ هى عبارة عن جمعيات المحامين . وقد أنشئت سنة ١٢٩٢ م فى انجلترة حيث كان يعلم بها طلبة الحقوق . وكانت هذه المراكز تمنح الطلبة شكلا من أشكال الاعتراف بهم يشبه أن يكون درجة علمية تؤهلهم للدفاع عن موكليهم فى المحاكم . ولا شك أن كبار المحامين كان يحتفظ الواحد منهم بنزل inn تهيأ فيه الإقامة للنزلاء ويقيم به الطلبة والكتبة تحت إشرافه . وبقيت من هذه الأنزال أربعة هى : نزل لنكون Lincoln's Inn ونزل جرى Gray's Inn ونزل المعبد الداخلى Inner Temple ونزل المعبد المتوسط Middle Temple وترجع هذه الأنزال إلى عهد أسرة تيودور . وكانت مؤسسات مستقلة لها قواعد وتقاليد متشابهة . ولا يوجد حالياً إلزام بالحضور فى هذه الأنزال للدراسة غير أن طلاب الحقوق يجب أن يسجلوا أسماءهم بها ويحافظوا بصورة شكلية على الحضور وذلك عن طريق تناول ست وجبات للعشاء بها فى كل فترة دراسية طوال الاثنى عشرة فترة المقررة أى لمدة نحو ثلاث سنوات ، وهذا هو ما يشير إليه كاتب المقال ، أنظر موجز فى تاريخ القانون الإنجليزى بقلم إدورد جنكس E. Jenks — لندن سنة ١٩١٢ ص ٢٠٢ وما بعدها ، ودليل للتقاليد الإنجليزية والحياة العامة بقلم اجرتون سميث Egerton Smith مطبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩٥٣ م ص ١٦٢ و ١٦٣ [المترجم] .

باختصاصاتها مما عساه أن يصدر عن أشخاص قد يكونون ـ فيما عدا هذا ـ عائشين تقريباً أو تماما معيشة شاغلي هذه المناصب .

وجملة القول أن الديانة في إفريقية تبدو في كل ما اتخذته من صور وأشكال أقرب ما تكون إبرازاً وتوكيداً لمبادئ معينة تتصل بتطور المجتمع . وإذا توخينا إيراد تعريف لهذه الديانة بالغ البساطة ، فإنا نراها لا تخرج عن كونها رموزاً انتقائية لما يجب أن يتبع في تطبيق مبدأ الخير على شئون الحياة اليومية ، ولكل ما يكفل للنظام الاجتماعي صون أوضاعه وتحقيق التوافق والانسجام فيما بينها ، وهي أوضاع بدأت في أول أمرها في صورة تجريبية ولكنها اتخذت منذ وقت طويل قوالب معينة ، لمعالجة ما ينجم عن مبـــدأ الشر من آثار وعواقب ، ومكافحة كل ما يناوئ النظام الاجتماعي ويفضي إلى تقويضه .

ومن هنا هذا التعدد في الديانات ؛ لأن كل مجتمع من هذه كان في حاجة إلى الديانة التي اتخذها . وقــد ترتب على ذلك أيضا زيادة التفصيل فيما أسماه تيرنر بعمليات التحليل الاجتماعي التي يلجأ فيها أتباع هذه الديانة إلى العرافين ويصطنعون من أجلها الوسائل المختلفة لاستكناه الحقيقة واختبار مدى صحتها وذلك بمقابلتها على هذين المبدأين التوأمين : الإله والشيطان ، والتحقق مما لكل منهما من صدق أو قوة بوسائل نسميها نحن سحراً وشعوذة .

جان شنزنو

تقاليد المساواة والأفكار اليوتوبية في الشرق

ترجمة : د . السيد محمد بدوى

ولدت الاشتراكية فى الغرب فى القرن التاسع عشر ، سواء أكان ذلك عن طريق النظرات اليوتوبية « لسان سيمون » ، و « أوين » ، و « فوربيه » ؛ أو عن طريق المناهج ذات الطابع النظرى والثورى التى وضع أسسها كارل ماركس وإنجلز . ويمكن القول إن الاشتراكية لم تكن فقط وريثة الفلاسفة ورجال الاقتصاد فى العصر الحديث من أمثال « ديدرو » ، و « هيجل » و « ريكاردو » ، ولكن جذورها تمتد إلى تقاليد أكثر قدما فى المساواة والأفكار اليوتوبية ، يمكن اعتبارها بمثابة « ما قبل التاريخ » أو « التاريخ الأصيل » للفكر الاشتراكى . ومن هذه الجذور البعيدة الحركات الاجتماعية مثل حركة « التابوريين les Taborites » (نسبة إلى مدينة تابور فى بوهيميا) ، وحركة « اللامعموديين les Anabaptistes » التى نشأت فى مونستر Munster[1] ، وحركة « الديجرز Diggers » فى انجلترا ؛

(*) كاتب هذا البحث Jean Chesneaux مؤرخ لتاريخ آسيا المعاصرة . وقد قام برحلات عديدة إلى مناطق شرق آسيا . وهو الآن مدير للدراسات الشرقية بمدرسة الدراسات العليا بالسوربون ، ويقوم بتدريس التاريخ الحديث للصين . والآراء التى يعرضها فى هذا البحث ستكون مادة لأحد فصول المجلد الأول عن « أصول الاشتراكية » ضمن المؤلف الكبير الذى سيصدر تحت إشراف جاك دروز عن « التاريخ العام للاشتراكية » .

(١) تعتبر دراسة ن. كون N. COHN أحسن دراسة عامة عن هذه الحركات التى تدعو للمساواة فى العصر الوسيط الغربى . وهو بعنوان : The Pursuit of the Millenium.

ومنها النظرات اليوتوبية التى نشرها أمثال « توماس مور » و « كمبانيلا » ، كما أنها تنتسب إلى مصدر أقدم من ذلك وأعمق هو أفلاطون نفسه .

ومن الغرب امتدت الاشتراكية إلى الشرق فى القرن التاسع عشر . وكان ذلك بخطوات خجلة فى بادىء الأمر ، وكصدى لنشاط المؤتمر الدولى الثانى الاشتراكى[1]. ثم أصبح هذا التيار أكثر قوة فى نطاق «الكومنترن» ابتداء من ١٩١٨ — ١٩٢٠ ونعنى بالشرق ، فى هذا المجال ، نفس المعنى الذى نجده مثلا فى « المشروع الكبير للعلاقات بين الشرق والغرب » الذى وضعه اليونسكو . أى أننا نقصد تتبع الفكر الاشتراكى فى عدد من المجتمعات مثل عالم الشرق الأقصى ذى التقاليد الكونفوشيوسية ، والمجتمعات البوذية فى جنوب شرق آسيا ، والهند ؛ وكذلك البلاد الإسلامية . وهذه المجتمعات يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا سواء من حيث التاريخ ، أو العقيدة ، أو النظام السياسى . ولكنها تشترك جميعا فى سمة واحدة ، وهى أنها لم تتطور فى العصر الحديث نحو « المجتمع الصناعى » ، ولم تتبع فى تطورها نفس مراحل النمو التاريخية التى سار فيها الغرب المسيحى فى العصر الوسيط (وهو حتى القرن السادس عشر لم يكن يمثل إلا إحدى الحضارات من بين حضارات العصر القديم الكبرى السابقة على الحضارة الصناعية) . وهذا « الشرق » الذى يتميز على هذا النحو من « الغرب » ، يجب كذلك ألا نخلط بينه وبين المجموعة التى نطلق عليها اسم « العالم الثالث » . فهو يتميز بحضارات مكتوبة ، وبأنظمة سياسية ـ دينية مركبة تضرب بجذورها فى تاريخ واضح المعالم ، كما تتميز بمستوى تكنولوجى واقتصادى أكثر ارتفاعا ، وبمفهوم أوسع لبناء الدولة .

فالاشتراكية ، كغرس جديد فى « الشرق » ، فى القرن العشرين ، تعتبر بمثابة « فرع » تطعم به شجرة قديمة ؛ أو هى نمو لشىء ذى أصل خارجى . والاعتراف

---

(١) أنظر المؤلف الذى اشترك فى تحريره عدد من المفكرين وأشرف على نشره جورج هوبت Haupt ، ومادلين ربريوس Madeleine Rebérious بعنوان :

La Seconde Internationale et L' Orient, Paris 1967.

بطابع الجدة هذا أمر أساسي بكل تأكيد . ولكن من الأمور الجديرة بالاهتمام كذلك هو أن نقرر أن الاشتراكية قد استندت أيضا إلى مجموعة من التقاليد تتسم بطابع المساواة واليوتوبيا الخاصة بالشرق ؛ ويصدق هذا على الخصوص بالنسبة للصين والبلاد الإسلامية .

ومما لاشك فيه، أنه بخلاف ماحدث فى الغرب،فإن هذهالتقاليد المضطربة عن العدالة والمساواة لاتتصل بالاشتراكية الحديثة عن طريق مجموعة من الروابط المتصلة، ولكنها كانت تمثل فى نظر الاشتراكيين الأوائل فى هذه البلاد سوابق أو نوعا من « التبريرات الوطنية » كان شعورهم بالحاجة إليها يزداد بقدر ما كانوا يعيشون فى « شرق » يسيطر عليه « الغرب » ويتوق إلى التحرر منه . وعلى هذا النحو نجد أن المجموعات الأولى من الطلبة الصينيين الذين اعتنقوا الاشتراكية ، قد ناقشوا فى طوكيو عام ١٩٠٥ فكرة وجود « أسلاف » كونفوشيوسيين للمبدأ الاشتراكي ، ومنهم « منشيوس » وزير أسرة « ونج وانج آن - شى » ، وكذلك أصحاب فكرة الصوامع الجماعية من « التاى - بنج Tai-Ping » . أما الاشتراكيون العرب الأوائل فقد جمعوا بإيمان « الأحاديث » النبوية الشريفة التى يمكن تفسيرها فى صالح العدالة الاجتماعية . وكانت خطة الإصلاحات الاشتراكية التى قدمها الوزير السيامى « بريدى Pridi » فى عام ١٩٣٢ موضوعة تحت رعاية مسيح البوذية ، « متيريا Maitreya » الذى يتسم عهده ، حسب التقاليد البوذية ، بسيادة مجتمع العدالة والسعادة .

وعلى ذلك ، فإن الاشتراكية ، حتى ولو كانت قد غرست فى الشرق عن طريق عملية خارجية ، فإنها قد بدت ، مع ذلك ، كما لو كانت قادرة على تنفيذ وتحقيق الأحلام الغامضة التى داعبت خيال الناس منذ أجيال سحيقة . وبهذا المعنى فإن الاشتراكية ليست غريبة على الشرق بالقدر الذى قد نتصوره أحيانا . فمثلا نجد أن « صن يات - سن » قد أشار فى مناسبات عديدة إلى الحلقة المتصلة التى تربط الاشتراكية الحديثة « بالتاوية » و « الكونفوشيوسية » . « فعندما يحقق الشعب

مبدأ الاشتراك فى كل ما يهم الدولة ، نكون قدحققنا فملاهدف« الرفاهية للشعب » (هذا هو المبدأ الثالث من مبادىء صن يات ـ سن) ، ونكون قد حققنا عالم الانسجام الشامل (ta·t'ung) الذى تمناه كونفوشيوس ، كما قال فى ختام درسه الثانى عن رفاهية الشعب .

كما أن « ماوتسى تونج » قد أكد ، هو أيضا ، فى مناسبات عديدة ، فكرته بأن الرسالة التاريخية للشيوعية الصينية هى فى تحقيق اليوتوبيا الكونفوشيوسية القديمة . وقال عن عصر الشيوعية المستقبل إنه « ستختفى فيه بطبيعة الحال سلطة الدولة والأحزاب السياسية ، مما يسمح للإنسانية ، على هذا النحو ، أن تدخل فى عصر « التاتنج ta—t'ung » أو الانسجام الشامل .

وفى مقابل ذلك ، وبخاصة مع تقدم القرن العشرين ، نجد أن هذه التقاليد الشرقية « السابقة على الاشتراكية » قد استخدمت بواسطة الأوساط السياسية المعادية للشيوعية فى آسيا . كما أنها أساس « الاشتراكية الإسلامية » التى تدور على الألسن اليوم فى بعض الأوساط التقليدية فى الجزائر ، وفى سوريا ، وفى مصر ، وكذلك ترجع إليها « الاشتراكية البوذية » التى ترغب بعض الأوساط الحاكمة فى كمبوديا ، وبورما ، وسيلان أن تؤسس عليها أيديولوجية تستطيع منافسة الماركسية . ومثل هذا الاهتمام لم يغب بلا شك ، عن ذهن « صن ـــ يات ـــ سن » عند ما ألح على إبراز المصادر الصينية البحتة للاشتراكية التى اقترحها فى « مبادئه الثلاثة للشعب[1] »

---

(١) يقول صن ـ يات ـ سن أيضاً (فى درســـه الرابع عن الوطنية) « إن الثقافة الأوروبية الحديثة ، والفوضوية والشيوعية التى يتكلمون عنها كثيراً اليوم ، إنما هى أفكار قديمة كانت موجودة فى الصين منذ آلاف السنين . فنظريات هوانج تى ، ولاو تزو هى مبادىء فوضوية . ومملكة « هوا ـ هسو ـ شى » التى يقولى « لبى تزو » إن سكانها لا رئيس لهم ولا قانون ، وإنها دولة الطبيعة الصرف ، أليست هذه هى الفوضوية ؟ . . . وفى الخارج يناقشون فقط الشيوعية ، ولكن النظام الاقتصادى الذى حققه « تايبنج » ، و « هونج هسو ـ شوان » كان يعبر عن حقيقة الشيوعية بدون النظرية .

هذه التقاليد اليوتوبية المؤكدة لفكرة المساواة تحتل ، على وجه الخصوص ، مكانا هاما فى الصين ، وفى المجتمعات البوذية فى جنوب شرق آسيا ، وفى البلاد الإسلامية . وتحظى باهتمام أقل من ذلك بكثير فى الهند وفى اليابان .

ففى الصين ، يتمثل الوضع الكلاسيكى لليوتوبيا الاجتماعية فى نص قديم جداً من « كتاب الشعائر » (لى شى Li Chi) ، وهو يقع فى الفصل السادس ، الفقرة الأولى ؛ وهو نص كان مألوفاً جداً لدى كل أديب صينى فى الماضى ، كما هو مألوف لدى كل مثقف فى الصين اليوم . يقول النص :

« عندما كنا نسير فى طريق الفضيلة ، لم يكن العالم سوى وحدة مشتركة . فكان الرجال ذوو المواهب هم الذين يختارون (ليكونوا قادة) . كان قولهم مخلصا ، وكانوا يمارسون الانسجام . كان الناس يعاملون أقارب الآخرين كما يعاملون أقاربهم ، ويدللون الأطفال كما يدللون أطفالهم . وكانوا يوفرون للمسنين المأوى حتى تحين وفاتهم ، وللقادرين من الرجال العمل ، وللشباب التعليم . وكانوا يظهرون الحنان والشفقة للأرامل ، وللأيتام ، ولمن لا أبناء لهم ، وللمرضى بحيث يهتمون بهم . وكان الناس يكرهون تبذير النعم ، ولكن بدون أن يستحوذوا عليها لأنفسهم . وكانوا يحبون العمل بكل طاقتهم ، ولكن بدون أن يكون فى ذلك البحث عن مغنم خاص . ولذلك لم تستطع المطامح الفردية أن تطغى ، ولم يكن من الممكن ظهور اللصوص وقطاع الطرق ، وظلت الأبواب الخارجية للمنازل مفتوحة . كان هذا هو العصر الذى نسميه بعصر « الوحدة الكبرى » (ta t'ung)[1] .

كذلك فإن نفس هذا المثال الأعلى لمجتمع الأخوة ، حيث تتقدم المصلحة العامة المتبادلة على المصلحة الذاتية ، نجده فى « منشيوس ») فى القرن الرابع قبل الميلاد)، مع التركيز على فكرة أولوية الشعب على الحاكم ، وهى فكرة كثيراً ما ورد ذكرها. وقد وصف « منشيوس » كذلك (فى الكتاب الثالث ، الفصل الأول) حالة من

---

(١) يترجم نيد هام Needham هذه الكلمة ترجمة موفقة بالإنجليزية وهى : Great Togetherness

الشيوعية الزراعية البدائية ، حيث كانت الحقول تقسم إلى تسعة أقسام ، وكانت الحصص الثمانية فى محيط الدائرة توزع على عدد من الأسر ، على حين كانت الحصة التاسعة ، فى المركز ، تزرع بطريقة جماعية لصالح الأمير[1] . وهذا هو نظام «الحقل على هيئة آبار » (يرسم الرسم الصينى الذى يدل على معنى البئر على شكل خطين أفقيين وخطين رأسيين ، وهذا الرسم إذا تكرر فإنه يحدد تسع خانات ، ومن هنا جاءت التسمية) . ويقول منشيوس « إن كل الذين يزرعون خانة واحدة يجب أن يكونوا دائماً معاً فى أى مكان يذهبون إليه ، ويتقاسمون فيما بينهم مهمة الدفاع والحراسة . وفى حالة المرض يقدمون لبعضهم البعض العون المتبادل . وعلى هذا النحو فإن جميع السكان يتبادلون المحبة ويعيشون فى وفاق وتفاهم » . هذه الأسطورة اليوتوبية عن الشيوعية الزراعية قد قدر لها أن تظل فى عنفوان الحياة فى الصين حتى القرن العشرين .

وقد أسس « مو تى Mo ti » وهو حكيم آخر من حكماء الفلسفة الكلاسيكية الصينية ، فلسفته على المساعدة المتبادلة والحب العالمى . والمجتمع المثالى فى فلسفته هو الذى يقوم على مبدأ التماثل . فالناس يحبون كل ما يعود بالنفع على الجميع . وكل الناس يعملون وتقسم الأرباح بين الجميع .

غير أن المدرسة التاوية (من القرن الخامس إلى الرابع قبل الميلاد) هى التى تقدم لنا التقاليد الأكثر ثراء عن اليوتوبيا الاجتماعية ونزعة المساواة . فجميع التاويين مفعمون بالحنين إلى عصر ذهبى «يقوم على التعاون ،وليس على الاستحواذ». (يندهام) . وهم يحكمون بإدانة التفرقة الطبقية ، ويحبذون المساعدة المتبادلة . وهم أعداء لسلطة الدولة ، ولفكرة المنفعة الخاصة[2] .

---

(١) غموض هذا الاصطلاح يأتى من أن الرسم الصينى (كونج) يدل على معنى الصالح العام ، والأمير . -لى أن الأمير ، فى الأصل ، ليس هو السيد أو الحاكم بل يمثل الوحدة الجماعية.

(٢) عندما زار برتراند راسل الصين حوالى ١٩٢٠ ، اجتذبته حساسيته ، بطريقة طبيعية ، نحو التاوية ، حيث شعر أنه سيجد فيها النموذج الصينى للاشتراكية الفوضوية. وقد

ويقول « شوانج تزو » ، أحد آباء النظام التاوى ، « إن حالة الناس فى العصور القديمة كانت متشابهة . فكان الجميع ينسجون ثيابهم الخاصة ، ويزرعون كلهم الأرض لكى يؤمنوا معاشهم . فكانت هذه هى فضيلة الحياة التى يحياها الجميع بطريقة واحدة (تونج — تى t'ung—te) . لقد كانوا متحدين فى مجموعة اجتماعية واحدة ، وهو ما نسميه الحرية الطبيعية التى تمنحها السماء . وفى ذلك العصر الذى كانت تسوده الفضيلة الكاملة كان الناس يعيشون فى حياة مشتركة مع الطيور والحيوانات المتوحشة ، ولم يكن الخلق كله إلا عبارة عن أسرة واحدة . فكيف استطاعوا بعد ذلك أن يعرفوا التميز بين الأمير والرعية ؟ ») شوانج تزو ، الفصل التاسع) .

ويمجد الفيلسوف التاوى « يانج شو Yang Chou » القوة الجسمية للفلاح الذى يحرث الأرض ، وحبه للعمل . وينحصر اهتمامه الرئيسى « فيما يضمن الحياة الهادئة المزارع ، ويجعله يحس بالمتعة » . وهو صاحب الرأى المشهور ذى النتيجة غير المتوقعة عن « الخير » الذى يتحول إلى ضده عن طريق المجد والربح : فتقديم الخيرات وتوزيع المنح تجلب « المجد » . وهذا الأخير يؤدى إلى « الكسب » عن طريق ما يحققه من احترام . والتطلع إلى الكسب يصحبه انتهاك لحقوق الأشخاص الآخرين ، ويؤدى إلى « النزاع » . وهكذا نجد أن « الخير » يتحول إلى « شر » .

ويصف « لى — تزو Lieh_tzu » — وهو أيضا أحد التاويين الكلاسيكيين — كما لو كان فى حلم ، مملكة أسطورية حيث « لا يوجد مطلقاً أى زعيم ، ويسير كل شىء بطريقة ذاتية . والشعب ليس عنده رغبات ، وكل الأمور تسير سيراً طبيعياً » . ويعتبر « صن يات سن » هذا النص ، أحد النصوص المبشرة بالفوضوية الحديثة .

كل هذه التقاليد التاوية تصطبغ بنزعة المساواة اليوتوبية التى أكد عليها بصفة

= عرفها على هذا النحو : « إنتاج بدون تملك ، وعمل بدون محاولة لفرض الذات ، ونمو بدون سيطرة . (problem of China, p. 194) » .

خاصة كل من « نيدهام Needham » و « بالاز Balazs [1] وإلى هذا الأصل التاوى تنتمى مصطلحات مثل « تاى — بنج » (الانسجام الأعظم)، «بنج—تشون» (التسوية) ، « تشون — تيين » (الحقول المتساوية) . كما أن هذا الأصل ، كما سنرى ، هو الذى تستقى منه عن سعة ، خلال تاريخ الصين ، ثورات الصين، وكذلك يرجع إليه المصلحون اليوتوبيون . وكما تقول مدام « بوزدنييڤا Pozdneieva » فلم تكن العقيدة التى انبعثت فى الصين القديم بتأثير مبادئ بعض التاويين فى العصور القديمة ، سوى نوع من المروق استطاع لأول مرة أن يبرز المناداة بالمساواة للجميع ، وبالتالى المساواة فى الخيرات ؛ وقد عارضت بذلك الكونفوشيوسية التى عرفت بأنها ديانة المتميزين[2] .

ونجد بعد ذلك أن حركات المساواة تستمد بعض عناصرها أيضا من التقاليد البوذية التى تطالب بالإحسان ، وبإدانة الثروات . ونذكر من هذه التقاليد ، بصفة خاصة ، أسطور مسيح البوذية « ميترايا Maitraya » (بالصينية مى — لو — فو) الذى يعتبر ظهوره فاتحة لعصر العدالة والرخاء والرفاهية .

وأخيراً ، فإن هذا العرض المختصر للعناصر « السابقة على الاشتراكية » التى تستمد أصولها من التقاليد الصينية ، يجب أن يتسع لكلمة عن مدرسة أخرى فلسفية فى الصين القديمة ، وهى مدرسة « المزارعين » (نونج — شيا) التى يقربها « نيدهام » من « الديجرز Diggers » الإنجليز فى القرن السابع عشر . وينادى « المزارعون » ، وهم فى ذلك يشبهون التاويين ، بأن أمنيتهم هى فى تحقيق مجتمع

---

(١) أنظر :

T. Needham, Science and Civilisation in China, 1956.

E. Balazs, Chinese Civilisation and Bureaucracy, Yale, 1964.

(٢) عرضت بوزدنييڤا نصوصاً مختارة من يانج شو ، ليى — تزو ، وشوانج تزو فى كتابها الذى نشرته بالروسية فى عام ١٩٦٧ بعنوان : « الملحدون ، والماديون ، والديالكتيكيون فى الصين القديمة . »

يعمل فيه جميع الناس في الحقول سواء أكانوا من الرعايا أم من طبقة الحاكمين . ولذلك فقد هاجموا آراء كونفوشيوس ، التي أعرب فيها عن ضرورة العمل على توجيه الدولة بواسطة الحكام ، وإعفائهم من أعباء العمل اليدوى . وهم يصفون المجتمع المثالى بأن حكامه يزرعون الأرض مع عامة الناس ،ويعدون وجباتهم بأنفسهم صباحا ومساء ، ويقومون فى الوقت نفسه بواجباتهم فى توجيه شئون الدولة . غير أن الوثائق الأصلية لمفكري المدرسة الزراعية الكلاسيكيين مفقودة ، ولا نعرف عنها إلاماوصلنا من خلال إشارات المفكرين الآخرين وعلى الأخص «منشيوس» .

هذه التقاليد الذاخرة بنزعة المساواة والميول اليوتوبية قد استمرت طوال التاريخ الكلاسيكى الصينى حتى وصلت إلى قلب القرن التاسع عشر من خلال نزعتين متميزتين تمثلان تيارين للاحتجاج الاجتماعى ضد النظام القائم : الأول هو احتجاج المثقفين ذوى النزعة الإصلاحية اليوتوبية ، والثانى هو احتجاج الحركات الريفية المطالبة بالمساواة .

والواقع، أنه قد وجد فى شتى المناسبات، وفى خلال عصور التاريخ الصينى، أناس مثقفون ذوو تكوين كونفشيوسى ، وأعضاء من الطبقة الحاكمة ممن دخلوا فى نزاع مع النظام القائم . واكتفى البعض بأن يعبروا بالكتابة عن نقدهم وعن أحلامهم لإيجاد مجتمع أكثر عدالة . أما الآخرون فقد حاولوا ، بالإفادة من الفرص الملائمة ، أن يضعوا مشروعاتهم عن الإصلاح الاجتماعى موضع التنفيذ ، وأن يحيلوا اليوتوبيا إلى حقائق واقعة . ولكن هؤلاء وأولئك كانوا دائما يستقون آراءهم من المصدر التقليدى الذى عرضنا باختصار لمضمونه ، وكانوا يصرحون بانتمائهم إلى العصر الذهبى أو (التاتونج) ، كما دعوا إلى التقسيم العادل للثروات ، وعلى الأخص للأرض ، وهاجموا المصالح الخاصة والمنتفعين .

وعلى هذا النحو ، تكونت إبان حكم أسرة « هان » الثانية (فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد) مدرسة للنقد الاجتماعى ذات نزعة تاوية واضحة ، مليئة بالحيوية . فعبر « وانج فو » (٩٠ — ١٦٥) عن حنينه إلى عصر (التايبنج)

أو الانسجام العظيم وأدان تركيز الثروات . وفضل حياة الانزواء التي يحياها راهب على مظاهر المجد والتشريف . كما أن تونج شونج — شأنج « (الذى ولد فى عام ١٨٠) كان يأمل فى عودة حالة (التايبنج) ، وذلك بإرجاع النظام القديم للزراعة الجماعية للحقول « على شكل آبار » (شينج — تين) . وترجع شرور المجتمع كلها ، فى نظره إلى أن الحقول أصبحت توزع بدون تحديد بين الخاصة من الناس » .

ويعتبر « باو شنج — ين » (القرن الثالث) وهو تلميذ « شوانج تزو » أول فوضوى سياسى فى الصين ، كما أنه مفكر ذو جرأة عظيمة تحظى بتفكيره فى نطاق اليوتوبية المضطربة التى تمثلت فى « التاوية الشعبية » (بالاز) . وقد عارض نظام الضغط والظلم الذى عرفته الصين فى عصره بكتابته عن العصر الذهبى « الذى لم يكن فيه فرق بين أمراء ورعايا » .

ونرى تعبيرا مماثلا لأحلام العصر الذهبى فى اليوتوبيا المشهورة التى كتبها « تاو يوان — منج » (٣٦٥ — ٤٢٧) بعنوان « ينبوع حديقة أشجار الخوخ » . ففى هذا العرض لرحلته الخيالية يصف المؤلف بلداً خارج حدود المكان والزمان حيث يحتفظ سكانه بالأخلاق البدائية للصين القديمة ، ويمارسون نشاطهم اليومى ، وأعمالهم ، كما يقضون أوقات فراغهم فى جو جمــاعى ، وليست هناك حكومة ، ولا موظفون ، ولا ضرائب ، ولا أعمال سخرة عامة ولا حروب .

على أن الأمر لم يقتصر على المحاولات والمبادىء الفكرية وحدها ؛ إذ أنه منذ نهاية حكم أسرة « هان » الأولى ، وذلك فى السنوات الأولى من العصر المسيحى ، حاول مغتصب الحكم « وانج مانج » (الذى حكم من عام ٩ إلى ٢٣) أن يقوم بتوزيع عام للأراضى وفقاً لنظام الآبار (Ching—t'ien) . وأضاف إلى ذلك مجموعة من الإصلاحات التى اتخذت شكل العودة إلى القديم . واستند فى تبريرها إلى نصوص من الكتب اليوتوبية القديمة وعلى الأخص « كتاب الشعائر » . ومن أمثلة ذلك نظام « الاحتكارات الستة » (الملح ، والمعادن ، والمناجم إلخ .) ونظام « مناطق التسوية الخمسة » (حيث توجد مكاتب للحكومة تحدد الأسعار ، وتشترى الفائض عن الحاجة ، وتبيعه عند

غلاء الأسعار) . غير أن هذه الإصلاحات لم تستمر بعد سقوطه .

وفى إبان حكم أسرة « سونج » ظهر مصلح آخر كبير هو « وانج آن ـ شيه » (١٠٢١ – ١٠٨٦) . وقد دعا أيضا إلى العودة إلى التقاليد الجماعية التى تنتمى إلى أقدم العصور الصينية . وكان غرضه أن يفرض أساليب زراعية تنزع إلى التسوية فى الضريبة العقارية تبعاً لإنتاج الأرض . ويعتبر هذا المصلح ، إلى جانب « وانج مانج » أبا للاشتراكية الصينية ، فى نظر المفكرين الاشتراكيين الأوائل فى مطلع القرن العشرين . ولكن « وانج آن ـ شيه) لم يكن الصورة البارزة الوحيدة . إذ كان هناك مفكر آخر من أسرة « سونج » هو (لى كو) (Li K'ou) ، الذى سبقه فى طريق اليوتوبيا القائمة على إحياء القديم (١٠٠٩ – ١٠٥٩) . وقد كتب مؤلفاً يدعو فيه إلى إحياء نظام الانسجام الاجتماعى (t'ai-p'ing) ، وذلك بإعادة النظام الأسطورى لأسرة « شو » ، وبتطبيق إصلاح زراعى جذرى .

ويعتبر القرن السابع عشر أيضا فترة مرت فيها الصين بأزمة عميقة فى المجالات السياسية والعقلية والاجتماعية ، وذلك بسقوط أسرة (منج) وقيام أسرة (مندشو). وفى ذلك القرن نجد أن مؤلفا مثل (هوانج تسونج ـ هسى) (١٦٠١ – ١٦٩٥) الذى أسهم مساهمة فعالة فى مقاومة الغزاة من الشمال، يؤلف كتابا مشهوراً بعنوان (خطة للأمير) (Ming - I T'ai fang lü) ، وفيه مقترحات لعصر أكثر ملاءمة ، وقد كتبه فى عام ١٦٦٢ . وينتقد فيه بطريقة منظمة وظيفة الإمارة، ويشير إلى الأمير بأنه (أكبر عدو للإنسانية) ويعبر عن أسفه على الماضى ، وعن حنينه إلى العصور التى كانت تتميز بقلة الاضطرابات بقدر ما كانت القوانين أكثر تسامحاً . « وإذا لم يكن هناك حكام لاستطاع كل إنسان أن يعيش لنفسه » .. وكان هذا المفكر هو الآخر من أنصار العودة إلى نظام الحقول على شكل آبار (ching - t'ien) .

وفى القرن الثامن عشر ، يمثل هذه التقاليد اليوتوبية « لى جو ـ شن » (١٧٦٣ — ١٨٣٠) ، وهو مؤلف لرواية مشهورة من مائة فصل استمر يكتب فيها لمدة عشر سنوات ، وعنوانها « مرآة الأزهار » (Ching - hua - yüan .

وتدور أحداث هذه الرواية فى القرن السابع ، تحت حكم أسرة « تانج » . وتقوم على وصف مغامرات مائة امرأة من الموهوبات ، فى ممالك خيالية ، وينتهز المؤلف فرصة وصف هذه الممالك ليقوم بنقد لاذع للصين فى عهد أسرة « مندشو » . ففى هذه الممالك الخيالية ، يعطى للنساء الحق فى التقدم للامتحانات العامة ؛ وهن يدرسن ، ويتزوجن بحرية ، ولا يخضعن لعبودية الأقدام المقيدة باللفائف[1] ، ولا لعبودية التسرى وقد حظت هذه الأفكار اليوتوبية المدافعة عن المرأة بشهرة عظيمة فى الصين .

وقد اقترح « هو واى ــ لو » ، الإخصائى الكبير فى الفلسفات الصينية القديمة ، تصنيف هذه اليوتوبيات العقلية فى فئتين رئيسيتين[2] :

الأولى تتمشى مع تقاليد الآباء التاويين ، وهى التى تصف عالما خياليا مثاليا يعطى تصوره الفرصة المناسبة لإدانة أنواع الظلم التى يعانى منها المجتمع الواقعى ، دون أن يكون هناك تفكير لوضع هذه الآراء الخيالية موضع التنفيذ . ويدخل ضمن هذه الفئة كتابات « لى ــ تزو » و « باوتشنج ــ ين » و « تاو يوان ــ منج » و « لى جو ــ شن » .

أما الفئة الأخرى فهى التى تتخذ بعض النصوص القديمة ، مثل نص « منشيوس » عن « المزارع الجماعية » ، لتجعل منها نقطة انطلاق لإعادة بناء النظام الاجتماعى عن طريق إحياء تقاليد الماضى . ويدخل ضمن هذه الفئة « وانج مانج » و « وانج آن ــ شيه » وأمثالهما .

وقد سارت جنباً إلى جنب مع هذه القائمة الطويلة من اليوتوبيات العقلية ، ثورات الفلاحين قرناً بعد قرن ، وكانت تستمد هى الأخرى حوافز نشاطهـا من

---

(١) من عادات الصين القديمة تقييد الأقدام وعدم فكها طوال فترة نمو الأنثى ، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون القدم الصغيرة من علامات الجمال . (المترجم) .

(٢) Hou Wai-Lu, Zhong-guo Da-tong si-Liao (Matériaux sur l' Idée de Communauté utopique en Chine), Pékin 1959.

ذلك المصدر التقليدى القديم الذاخر بالأفكار الخيالية، فكانت تستند أحياناً إلى روح المساواة المنبعثة من العقيدة التاوية ، وأحياناً أخرى إلى الأساطير البوذية التى تبشر برسول العدالة . وكان زعماء هؤلاء الفلاحين ، إمعاناً فى التأثير ، يقبلون عن طيب خاطر تجسيد فكرة ال « ميترايا » (مسيح البوذية) ، ويتخذون من المعانى المثالية القديمة مثل « التايبنج » (t' ai — ping) (الانسجام الأعظم) ، و « البنج شون » (P' ing — chün) « نزعة المساواة » أساساً لصياغة أقوالهم وشعاراتهم .

وعلى هذا النحو ، نجد فى القرن الثالث للميلاد أن ثورة « ذوى العمائم الصفراء » ، وكذلك ثورة « طائفة المكاييل الخمسة للأرز » اللتين عجلتا بسقوط أسرة « هان » الثانية ، قد نادينا بإحياء العصر الذهبى الذى لا يسمح بوجود سعرين متعاونين فى الأسواق ، ولا يسمح بوجود قطاع الطرق . وقد حاولت هذه الحركات أن تنشىء « تنظيما جماعياً فى إطار نوع من التدرج قائماً على الاستحقاق ، وعلى الرغبة فى تحقيق حالة الكمال » . وقد أنشأ الثوار فى مقاطعة « سسشوان » التى احتفظوا بها فى أيديهم لعدة سنوات ، نظام « فنادق المساواة » ، حيث كانت تعلق قطع اللحم وزجاجات النبيذ لتكون تحت التصرف الحر للمسافرين ، على شريطة ألا يتعدوا فى استهلاكهم نطاق إشباع الحاجة الضرورية . وإذا خالفوا هذا الشرط فإنهم يكونون فى حالة معصية ، ويجب أن يكفروا عنها بالعمل فى إصلاح الطرق . وهكذا نجد فى هذه « التعاونيات » التى سبقت بقرون تعاونيات « فورييه » (Les Phalanstéres) ، أن الاشتراك فى الحياة الاقتصادية يسير جنباً إلى جنب مع قانون أخلاقى صارم . وقد انتسب أصحاب العمائم الصفراء إلى عصر ذهبى تتحقق فيه الرفاهية والمساواة ، وبشروا بقرب حلوله .

وتناول هذه الأفكار نفسها ، بعد ذلك ، فرق أخرى : ففى أواخر عصر أسرة « تانج » مثلا ، فى القرن التاسع ، نصب الزعيم الريفى « هسين — شيه » نفسه قائداً أعظم مفوضاً من السماء لإعادة نصاب العدالة » . وإبان حكم أسرة « سونج »

(من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر) ، أعلن فلاح آخر هو «وانج هسياو - بو» زعيم طائفة من « سسشوان » أنه قد ضاق ذرعاً بعدم المساواة القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وأنه يريد أن يحقق المساواة لمصلحة الشعب » . ومنذ بداية حركته ، صادر جميع الأموال الفائضة عن الأغنياء ووزعها على الفقراء . وأعلن فلاح ثائر آخر من أسرة « سونج » هو « يانج كو - شيه » أن « كل ما نملكه فيما بيننا من ملابس ، وغذاء ، وماشية ، ومنسوجات ، وحبوب ، لا نسمح بأن يكون موضوعاً للاستحواذ الخاص ، بل نقسمه بطريقة عادلة بين الجميع ، ولذلك فنحن نكون جماعة اشتراكية حقيقية » .

هذه الآمال التى تهدف إلى المساواة ، والتى تبشر بعصر العدالة بين حين وآخر ، قد انطبع بها أيضاً نشاط « الجمعيات السرية » ، وهى جماعات تمثل خلافات مذهبية دينية ، وتدعو لثورات اجتماعية وتتزعم المعارضة السياسية ، وكان لها نشاط كبير خلال تاريخ الصين الإمبريالى (وبخاصة تحت حكم الأسرة المنغولية وأسرة مندشو). فكانت جمعية اللوتس البيضاء مثلا (Pai – lien – chiao) تتميز تميزاً واضحاً بانتظار مسيح البوذية (Mi – lo – fu) المرتقب منذ ألف عام . وكانت جمعيات مثل جمعية «السماء والأرض» أو « جمعية الكبار القدماء» لها تنظيم يقوم على المساواة (ويدخل ضمنها تنظيمات لصالح المرأة) ، وكان نظامها يقوم على نوع من التدرج الخيالى (الغول الأعظم الخ . . .) ليكون فى ذلك تعويض عن التفاوت الموجود فى المجتمع الحقيقى . وكان نشاط الجمعيات السرية مرتبطا ارتباطا وثيقاً بعمليات الشغب التى كان يقوم بها الفلاحون من أجل تحقيق الأهداف العدالية (١) .

وقد أدت هذه العمليات إلى قيام ثورات الفلاحين التى انتهت بسقوط الأسرة المنغولية فى القرن الرابع عشر ، وسقوط أسرة « منج » فى القرن السابع عشر .

---

(١) أنظر فى هذا الموضوع :

J. Chesneaux, les Sociétés Secrètes en Chine, XIXè XXè Siècle, Paris 1965.

وتعتبر هذه الثورات العامل المباشر فى قيام الحركة الشيوعية فى القرن التاسع عشر، وهى الحركة التى اعتمدت على تقاليد المساواة القديمة (التايبنج) . وأطلقت ثورة الفلاحين الكبرى هذه على نفسها ذلك الاسم لإثارة التقاليد التاوية التى طالما ترددت على الألسن . وقد أنشأت حركة « التايبنج » من ١٨٥١ إلى ١٨٦٤ فى الصين الوسطى دولة منشقة هى « مملكة السماء ذات الانسجام الأعظم » (T' ai — ping T' ien — kuo) ، وأعلنت قانونا زراعيا يقوم على أسس جماعية جذرية :

« كل أرض تحت السماء يجب أن تزرع بطريقة جماعية بواسطة الشعب الذى يعيش تحت السماء ... سوف يقوم الجميع بزراعة الأرض ، وسوف يأكل الجميع الأرز ، وسوف يلبس الجميع الملابس ، وسوف ينفق الجميع النقود . سوف تنتهى كل أشكال التفاوت ، ولا يكون هناك إنسان واحد بدون غذاء أو دفء » .

وفى نظام « التايبنج » هذا يجب أن تخزن المحاصيل فى الصوامع الجماعية (الصوامع السماوية) ، وكان الإنتاج الصناعى تقوم به تشكيلات (سماوية) من صناع الدولة .

هذا الاتجاه نحو تحقيق المساواة الذى اتسمت به حركات الفلاحين فى الصين ، يمكن اعتباره نسخة آسيوية من « عندما كان آدم يحرث الأرض ، وحواء تنسج الغزل ، أين كان إذن السيد » وهى الأنشودة التى كان ينشدها الفلاحون الإنجليز فى القرن الرابع عشر ، والفلاحون فى غرب ألمانيا فى القرن السادس عشر . وهو اتجاه ظهر أثره واضحاً خلال جميع مراحل التاريخ الاجتماعى الصينى . وهو الذى يفسر لنا كيف أن كل أسرة جديدة تأتى إلى الحكم عن طريق موجة ثورية يقوم بها الفلاحون ، وتؤدى إلى قلب الأسرة السابقة ـ كيف كانت هذه الأسرة الجديدة تعتبر نفسها كما لو كانت ملزمة بتحقيق ما يبدو أمام الناس على الأقل أنه إصلاح زراعى . وقد كان النظام الشيوعى الصينى وبخاصة فى أعوام ١٩٣٠ ، ومن جديد حوالى ١٩٥٥ — ١٩٦٠ بما أنشأه من مزارع جماعية شعبية يقوم على أساس النزعة

إلى المساواة التى نبعت من أوساط الفلاحين .

والآن يحق لنا أن نتساءل : كيف استطاع هذان التياران ـ ونعنى بهما تيار المثقفين وتيار الفلاحين ـــ كيف استطاعا باحتجاجهما ونزعهما للمساواة واليوتوبيا أن يحققا التساند والتعاون المشترك بينهما ، وأن يؤثر كل منهما فى الآخر ؟

إن مصادرنا ، بغير شك ، لا تشير إلا بصفة استثنائية إلى اشتراك المثقفين فى حركات الفلاحين ، وعلى سبيل المثال تبرز أمامنا شخصية تحت اسم « لى ـــ ين» ، وهى شخصية إنسان مثقف كان يكتب نداءات المساواة للفلاحين الثائرين ضد أسرة « منج » فى منتصف القرن السابع عشر . ولكن يجب أن نتذكر أن الوثائق التاريخية الصينية كلها صادرة عن الهيئات الحاكمة ، ولذلك كانت تميل بطبيعة الحال إلى السكوت عن ذكر المثقفين الذين كانوا يثورون ضد النظام القائم ، ويؤيدون الحركات الثورية .

ولا يمثل هذان الاتجاهان ، مع ذلك ، إلا مجموعة من الحلقات المنفصلة ، ومن الشخصيات الفردية . ولم يكن هناك ما يدل على أن النظام القديم بالإجمال قد تأثر بحركات الاحتجاج هذه . ولكن هذا أثار سؤالا آخر وهو : إلى أى حد لم يتأثر المجتمع الصينى ، التقليدى ـــ فى مجموعه هذه المرة وليس من خلال حالات هامشية واستثنائية ـــ ببعض الاتجاهات الجماعية التى استطاعت ، هى الأخرى ، أن تمهد الأرض الملائمة لنمو الاشتراكية الحديثة ؟ فالنظرة إلى « الشرق » على أنه أقل تأثراً بالمذهب الفردى من « الغرب » ، هذه النظرة قد اهتم بتفصيلها عدد من المشتغلين بالبحوث الصينية من أمثال «جرنيه Gernet» ، و«فاندرميرش Vendermeerch» و « فتزجيرالد Fitzgerald » ، كما اهتم بها « نيدهام Needham » بصفة خاصة فى مقال تردد صداه فى الأوساط العلمية ، إذ أراد أن يثبت أن الصين الشيوعية « ليست إلا التحقيق النهائى لمجموعة طويلة من التقاليد الجماعية التى ترجع أصولها إلى الصين القديمة » .

الحقيقة الواقعة إذن هى أن المناخ العام للمجتمع الصينى الكلاسيكى ينزع إلى

إدماج الفـــرد فى المجموع أكثر مما ينزع إلى تعارضه معه كما هو الحال فى الغرب . فالفرد يكون جزءاً من أسرته ، ومن طائفته المهنية ، ومن عشيرته ، ومن قريته . وكلمة (كونج Kung) بمعنى « جماعى » تتعارض مع ما هو « خاص » (سسو ssu) بالمعنى الاقتصادى لهذا الصطلح . ولـكن كلمة « سسو » — وهذه ظاهرة لها دلالتها لها أيضاً معنى أخلاقى مهين فهى تعنى التملك «الخاص» أى المختلس بقصد المنفعة ؛ وبصفة أعم تعنى ما يدور فى الخفاء ، بطريقة غير شريفة ، وذلك بالتعارض مع ما يتم بطريقة جماعية وعامة ، أى فى وضح النهار وبقصد تحقيق الصالح العام (كونج) .

ولم يكن المجتمع الصينى الـكلاسيكى يفسح المجال أمام الإثراء الخاص ، ولا أمام أنواع النشاط التى تهدف إلى تحقيق الأرباح . وهذه الظاهرة يعبر عنها تدرج القيم الاجتماعية ، كما تتضح من الأخلاق السياسية للـكونفوشيوسية : فالطائفة الأولى هى طائفة المفكرين (شيه Shih) ، الذين يمسكون بزمام المعـــرفة والسلطة فى آن واحد ؛ ويأتى بعدهم الفلاحون (نونج Nung) الذين يؤلف عملهم قاعدة المجتمع بأكمله ؛ ويأتى بعدهم الصناع (كونج Kung) ، وفى أسفل السلم الاجتماعى «التجار الخبثاء » (شانج Shang) .

وهناك مظهر آخر لهذا المناخ الجماعى السائد فى الصين القديمة ، وهو الذى يتمثل فى أهمية التقاليد التى تقيم الاقتصاد على أسلوب الإدارة الجماعية. ولم يكن هذا الأسلوب يطبق فقط على السدود والقنوات ، ولـكن أيضاً على الحديد والملح التى كانت تمثل احتكارات للدولة منذ عهد أسرة « هان » . ويقول « نيدهام » « إن تقاليد الإنتاج المؤمم هذه يمكن ربطها ، بلا شك ، بطريقة الإنتاج الآسيوى » كما كانت توجد أيضاً سيطرة عليا من الدولة على الأرض . أما ملـكية الأرض الخاصة ، فهى إذا كانت موجودة ، لم تتخذ قط الصفة المطلقة واللامحدودة التى عرفت فى القانون الرومانى ، وفى العالم الغربى . وكانت هذه الملـكية الخاصة تخفف من وطأتها ، كما وضح « شورمان » ، عادات متأصلة مثل الحقوق المصاحبة لأعضاء

الأسرة الآخرين ، وحق الحكومة فى خفض السعر ، وحقوق المصادرة للصالح العـــام (١) .

ويلاحظ أحد المفكرين الفيتناميين(٢) أن « الماركسية لم تحير قط عقول المثقفين الكونفوشيوسيين حين ركزت تفكير الإنسان على المسائل السياسية والاجتماعية ... إذ أن المدرسة الكونفوشيوسية لم تفعل غير ذلك . وحين عرّفت الماركسية الإنسان عن طريق مجموع علاقاته الاجتماعية ، فإنها لم تصدم أبداً أفكار المثقفين الذين اعتبروا أن الهدف الأسمى للإنسان هو أن يقوم بالتزاماته الاجتماعية على أكمل وجه . والإنسان الكونفوشيوسى ، حين ينتقل من المجتمع التقليدى إلى المجتمع الاشتراكى فإنه يقتبس نظاماً اجتماعياً جديداً ، ولكنه فى قرارة نفسه لم يشعر قط شعوراً معادياً ، مثل شعور المثقف البورجوازى فى الغرب ، تجاه النظام الجماعى ، بل كان يعتبره ضرورياً لنمو شخصيته » .

غير أن ما نعترض به على هذه التحليلات « المؤكدة لظاهرة الاتصال التام » فى العلاقة التاريخية بين الصين القديمة والاشتراكية الصينية ، أنها جميعاً تستند إلى وقائع من شأنها أن تسهم ، فى الحقيقة ، فى الدفاع عن النظام القديم الصينى ، وما تميز به من أنواع التفاوت والظلم الاجتماعى . ومن أمثلة هذا التفاوت ما يعنيه التدرج الطبقى الذى يؤكد التفوق السياسى والأخلاقى للمثقفين على التجار . كما أن الرابطة الاجتماعية التى تنطوى عليها فكرة المقابلة بين (كونج) أى « الجماعى » و (سسو) أى « الخاص » ، هذه الفكرة تعمل لصالح الحكم القائم ، ولصالح السلطة الطبيعية للإمبراطور ولمجموعة حكام الأقاليم الذين يحكمون باسمه (وقد أشرنا

---

(١) أنظر :

H, F. SCHRUMAN, (Traditional Property Concepts in China) (Far Eastern Quarterly, Août, 1956) .

(٢) NGUYEN KHAC VIEN, « Confucianisme et Marxisme au Vietnam » (La Pensée, No 105. octobre 1962) .

من قبل إلى الغموض الأساسى بين « كونج » بمعنى « عام » و « كونج » بمعنى « أمير) . وينطبق نفس الأمر على التقاليد الخاصة بالإدارة العامة للاقتصاد ، وهى تقاليد تدعم هى الأخرى ، سلطة الإمبراطور والحكام . كذلك فإن المجتمع الكونفوشيوسى الكلاسيكى يقوم على التعارض بين السلطة وبين الشعب ، وعلى خضوع الواحد للآخر ، وعلى التفاوت فى الثروة ، والحالة الاجتماعية التى يولدها هذا الخضوع . وهى، بهذا المعنى ، فى تضاد مطلق مع التقاليد التى تنزع إلى المساواة وتقوم على الأفكار اليوتوبية ، وهى التى قمنا بتحليلها فيما سبق ، وقد انتشرت هذه التقاليد لتقف فى وجه ذلك التعارض .

لم يقتصر تأثير فكرة « مسيح البوذية » المنتظر على حركات الفلاحين فى الصين ، بل يمكن القول ، بوجه عام ، إن البوذية فى شكلها الجنوبى (تيرافادا Theravada) أو كما عرفت باسم « المحرك الصغير » (هينا يانا Hinayana) كانت مصدراً لتقاليد غنية بروح المساواة ، والنزعة اليوثوبية ، تأصلت فى بلاد جنوب شرق آسيا . فى بورما بصفة خاصة ، وسيلان ، ولاوس ، وتايلاند ، وكمبودج . بل إنه منذ عهد قريب ، أى فى عام ١٩٥٧ تأسس فى « بنكوك » حزب ذو نزعة عمالية يحمل اسم « سرى أريا متايا Sri Ariya Mettaya » وهو اسم يعيد للأذهان فكرة العصر الذهبى الذى يأتى فى أعقاب بعث مسيح البوذية (متيريا) . وفى عام ١٩٣٢ ، وضعت ، تحت شعار نفس هذه النزعة اليوتوبية ، الخطة الكبرى لإعادة تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية فى سيام على أسس حديثة ، وهى الخطة التى اقترحها بريدى Pridy .

ويؤكد القانون الأخلاقى والاجتماعى للبوذية المسمى « دهاما Dhamma » تأكيداً كبيراً على الأخوة التى يجب أن تسود بين الكائنات الإنسانية .

وفى هذا المثال الأعلى لمجتمع الانسجام ليس هناك مكان للمنفعة الخاصة ولا للبحث عن الربح اللهم إلا إذا كان ذلك بغرض تمويل مؤسسات دينية . ولطالما ضج المستعمرون الإنجليز بالشكوى من هذا الاحتقار البوذى عند سكان بورما للأعمال

التجارية وللربح ، ومن موقفهم المتباعد كل البعد عن عقد الصفقات (وقد وصف التقرير السكانى لعام ١٩٠١،هذا الموقف بالتعبير الإنجليزى unbusiness – like)

ويقول المتخصصون فى دراسة البوذية من الإنجليز إن المهام الملكية ، حسب المفهوم البوذى الكلاسيكى ، تقوم على التقاليد الراسخة التى تهدف إلى تحقيق الصالح العام Welfare state . فتشير الأقوال المتواترة ، مثلا ، إلى أن « دهاما راجا » ، أحد ملوك سيام فى القرن الرابع عشر ، كان يتصف « بالتقوى والإحسان اللذين لا حدود لهما مثل ماء المحيط ، وكان يحب الشعب كأبنائه . وقد اعتاد أن يصفح عن المجرمين ، وكان يعطيهم الفرصة لإصلاح أخطائهم ويعيدهم إلى بيوتهم . وفى ذلك العصر ، لم يكن هناك رقيق فى البلاد ، بل كان كل الناس أحراراً وسعداء . وذاعت شهرته بين جميع الأمم ، وتسارع الناس من كل صوب ليعيشوا فى سلام تحت حكمه السمح » .

ويقال إن « بوذا » نفسه فى واحد من أحاديثه قد شرح أنه ليست فى جباية الأموال ، ولا فى اللجوء إلى العنف تكمن الوسائل الكفيلة بالقضاء على السطو وعلى الاضطرابات فى المجتمع، بل « إن الفقر وعدم وجود العمل هما الأساس لجميع أنواع الشرور الاجتماعية » . فيجب تقديم التقاوى للفلاحين ، ورؤوس الأموال للتجار ، والمرتب المناسب للموظفين . « وفى هذا الجو من النشاط الخلاق الذى يفيض بالرضى ، يستطيع المواطنون أن يربوا أولادهم فى إطار من الرفاهية والسعادة ، وأن يجعلوا منهم رجالا متحررين من الحاجة ومن الخوف » .

ويمكن القول إن الأصالة فى هذه النظرة البوذية لمجتمع العدل والرخاء ، هى اعتبار وجود هذا المجتمع شرطاً مسبقاً لتحقيق التقدم الأخلاقى والروحى ، أو للدخول فى حالة « النيرفانا »(١) . فهذا المجتمع ضرورى طالما أنه ضمان لتحقيق

---

(١) أنظر فى تعريف هذا المصطلح كتابنا : « الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع » . دار المعارف ١٩٦٦ . الفصل الأول بعنوان « الأخلاق فى العقيدة البوذية » (المترجم) .

الفراغ اللازم للتأمل . وقد يكون هذا أيضاً السبب فى أنه يتعين ، كخطوة أولى ، أن يقوم الملك والشعب بكفالة الحاجات المادية للرهبان . وتظهر فى العصر الحديث، نفس هذه الفكرة عن العدالة الاجتماعية كشرط مسبق لتحقيق التقدم الروحى ، فى نشيد حزب « الثا كن Thakin » الثورى ، وهو النواة الأولى لمثقفى بورما الذين انضموا للحركة الاشتراكية حوالى عام ١٩٣٥ . أضف إلى ذلك أنه فى عام ١٩٤٨ ، شرح « أونو UN U » فى مقدمة قانونه عن تأميم الأراضى أن الملكية ليست لها إلا قيمة نسبية ، وأنها عقبة فى سبيل السعى وراء الكمال الأخلاق . وسنجد أن الماركسيين الأوائل فى بورما يطلقون اسم (لوكا نيبا lokka Nibba) أى « النيرفانا التى تتحقق فى هذا العالم الأرضى » على مجتمع العدالة ، أى المجتمع بدون طبقات[1] .

هذا المثال الأعلى البوذى عن العدالة الاجتماعية ، يجد ما يغذيه كذلك فى تقاليد الماضى الأسطورية ، وفى الفكرة الراسخة فى النفوس عن عصر ذهبى بدائى ، حيث توضع جميع الخيرات بدون حدود تحت تصرف أبناء الإنسانية الذين يعفون من العمل ، ويعيشون فى رحاب المساواة . إذ أن حالة الوفرة الطبيعية هذه ، ينمو فيها الأرز من تلقاء نفسه .

« قبل هذا الزمن ، كنا نتقن كل شىء ، وذلك بفضل حالتنا النفسية . وكنا نفيض بالمرح قبل أن تختفى هذه الأشياء . كانت الأجسام الإنسانية تلمع مثل قبة السماء ... وكانت الأرض الرقيقة ذات الطعم اللذيذ تقدم نفسها كغذاء . وكانت النباتات المتسلقة تستهلك حتى تنتهى . هذه الأغذية كلها قد اختفت عندما أصبح الإنسان لا يستحقها » .

ولا زالت حالة الديموقراطية البدائية هذه ، والحياة الجماعية ، وعدم الشعور بالحاجة ـ لا زالت هذه الحالة باقية ومستمرة فى المجتمع البوذى فى صورة جماعات

---

(١) فى أحد النصوص البورمانية فى عام ١٩٣٠ ، يشيد الكاتب بستالين الزعيم السوفييتى على أنه منشئ « اللوكا رنيبا » .

الرهبان . فهذه الجماعات تعيد ذكرى الماضى ، وتبشر بالمستقبل . وهذه الظاهرة لها أهميتها ، إذ أنها تفسر كيف أن الحركات اليسارية ، فى البلاد البوذية لم تعرف قط مرحلة الثورة ضد الكنيسة . بل إن الأمر على العكس ، إذ أنها كانت تستمد بعض أفكارها من تقاليد الرهبنة . وعلى هذا النحو نجد أن المصطلح الحديث فى اللغة البورمانية الذى يدل على « الإضراب » ليس إلا نفس التعبير القديم الذى يدل على حركة الرهبان حين يقلبون وعاء الأرز (ثابيت هماوك Thabeit hmauk) رافضين الصدقة كعلامة احتجاج ضد أى فعل لاخلقى من جانب المتصدق (وهو بذلك يحرم من إمكان التكفير عن أخطائه) .

ولا تتركز الآمال نحو مجتمع الرخاء والوفرة ، الذى يشيع فى جوانب العقيدة البوذية ، فى الماضى وحده ، بل فى المستقبل كذلك . فهناك انتظار ظهور مسيح البوذية (الميتريا) أو (المتايا) ، وهو إعادة تجسيد لبوذا نفسه الذى سيأتى ليحقق نظاماً عالمياً من العدالة والمحبة ، ويوفر حالة من الرخاء المطلق .

« ستمتلىء الارض بالجوهرات ، وستكون فى وفرتها مثل الحصى . وسيقول الناس إن بنى البشر كانوا فى الأزمنة القديمة يسيئون بعضهم إلى بعض ، ويدفعون بعضهم بعضاً إلى غيابات السجون . وكان بعضهم يكذب على بعض ، ويسرق بعضهم من بعض ... أما الآن ، فلا أحد يراقب مجوهراته ، ولا يشعر الناس برغبة فى اقتنائها ، بل يحتقرونها » . هذه الرفاهية اليوتوبية ، وهذه الوفرة ، هى إذن ترياق ضد الشهوات المادية للناس . فبظهور الميتريا (أو مسيح البوذية المنتظر) سيتخطى الناس مرحلة التعلق الإنسانى بالثراء ، إلى حالة من الشبع والاكتفاء .

ولكن « المتيريا » نفسه سيكون مسبوقاً بحاكم يحقق العدالة يسمونه (كاكافاتى Cakkavatti) ، وفى لغة بورما (ستكيامين Setkya Min) ، وهو امبراطور عالمى سيفتح العالم بدون عنف . وسوف يتنازل عن وضعه المتميز ، وعن ثروته ، ويطعم الفقراء والمعوزين . وسوف يجوب هو نفسه أنحاء البلاد بلا مأوى . وسوف تذوب الدولة والمجتمع السياسى حينئذ فى وحدة « فوق ـ دولية » من طراز

الرهبنة ، ويسود فيها الاشتراك فى الخيرات .

وفى هذا المجتمع المثالى العالمى سوف لا يتكلم الناس إلا لغة واحدة . ويصبح العالم صورة مطابقة لجزيرة اليوتوبيا (أوتارا كورو Uttarakuru) «التى يتساوى سكانها فى كل شىء » وحينئذ سيكون من الممكن تخطى الانقسامات التى فصلت بين أبناء البشرية من خلال الطموح نحو تحقيق الملكية الخاصة ، إذ أن الأرز سينمو للجميع بدون عمل لصلحة الإنسانية الموحدة تحت السلطة المثالية « للكا كافاتى » . وسوف تلبى جميع الحاجات المادية للناس بواسطة « أشجار الأمنيات » (Padeytha Pin) التى تتدلى من فروعها الملابس ، والمجوهرات لكل سكان الجزيرة . إذ تمد الشجرة فروعها عندما يكون الشعب فى حاجة لأى شىء ، وبهذا لا يكون لأى فرد حاجة إلى العمل .

هذه الأحلام اليوتوبية التى تنزع إلى تحقيق المساواة كانت متغلغلة بقوة فى أذهان الفلاحين البورمانيين . فباسم ظهور « ستكيامين » (وهو المقابل فى بورما للكا كافاتى) ، قاموا بثوراتهم المتعددة ضد السيطرة الإنجليزية فى أعوام ١٨٣٩ ، ١٨٥٥ ، ١٨٦٠ ، ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ بصفة خاصة . فنى هذا التاريخ قاد قديس القرية « سايا سان » حملة على غاية عظيمة من الأهمية فى المناطق المنخفضة من بورما ، حيث أصيبت زراعة الأرز بأضرار بالغة نتيجة للأزمة الاقتصادية العالمية . وأدخل هذا الراهب فى روع الناس أنه « ستكيامين » نفسه .

وقد اهتم المثقفون البورماتيون الأوائل ــ دوو النزعة الاشتراكية ــ من جانبهم اهتماماً كبيراً ، بمشكلة « الاستمرار ذى الحلقات المتصلة » بين الاشتراكية والبوذية وحاولوا ، كما فعل المثقفون الصينيون قبلهم بثلث قرن ، أن يجدوا تبريراً للاشتراكية عن طريق تقاليد المساواة ، والنزعة اليوتوبية فى الشرق . وقد حاولت جماعة الوطنيين المسماة « ثا كين Tha Kin » حوالى عام ١٩٣٥ ، وعلى الأخص الشاعر « ثا كين كوداوهمين » (المولود حوالى عام ١٨٧٥) ، أن تدمج هذه التقاليد البوذية فى نظرة

اشتراكية للتاريخ : فقالوا إنه بسبب نمو الجشع والكراهية ، ابتعدت الإنسانية أكثر فأكثر عن الحالة البدائية للطبيعة والرخاء ؛ ويتمثل الشكل المجسم لهذا الجشع ولحالة الكراهية هذه فى الرأسمالية التى يتفق القضاء عليها مع الآمال الدينية البوذية . وكتب كل من « ثاكين تو » و « ثاكين باسوى » أيضاً فى هذا المعنى . وعندما صعد « نو » و « باسوى » إلى الحكم فى بورما فى أعوام ١٩٥٠ ومابعدها لم تكن اشتراكيتهم المعتدلة قائمة تحت شعار « دولة الرفاهية العمالية » Welfare state التى اقتربت منها كثيراً ، بل تحت شعار أل « بييداوثا » (Piyidawtha) البوذية ، أى « دولة الوفرة » .

* * *

واتسم الإسلام فى عهده الأول ، أكثر مما اتسمت المسيحية الأولى ، بطابع خاص من المساواة والنزعة الجماعية ، التى كانت تعبيراً عن الأخوة المثالية التى وحدت بين أتباع الرسول الأوائل . وهذه التقاليد شىء مختلف ، بلاشك ، عما عرف من التقاليد الجماعية للبدو فى الصحراء ، على عكس ما كان يظن لمدة طويلة ، إذ أن الإيمان بهذه التقاليد سرعان ماتأصل فى نفوس الناس فى المدن . وقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقف ضد الأغنياء وضد تراكم الثروات. وألح بعض المفكرين على هذا المظهر إلى حد أنهم نظروا إلى الإسلام فى عصوره الأولى على أنه حركة اجتماعية فى جوهرها لاتبغى بالوسائل الدينية غير تأكيد الضغط الأخلاقى على الأغنياء عن طريق عقيدة الحساب فى الحياة الآخرة[1] فنجد أن هـ « جريم » ، مثلا الذى نشر كتاباً بعنوان « حياة محمد » فى عام ١٨٩٢ ، فى الوقت الذى ازدهرت فيه الحركة الديمقراطية الاجتماعية فى ألمانيا ـ يقترح اعتبار الإسلام « حركة ذات طابع اشتراكى تقف فى وجه أنواع المساوىء الأرضية التى زادت عن الحد ، ونظرت إلى الأغنياء على أنهم الفئة الضالة » وردد نفس الفكرة أحد الماركسيين

---

(١) انظر : M. Rodinson, «La vie de Mahomet et le problème Sociologique des origines de l' Islam » (Diogéne No 20 , Octobre 1957) .

المشتغلين بالدراسات العربية فى «باكو» فى السنوات الأولى من النظام السوفييتى ، ويدعى « بندلى جاوزى » . فهو أيضاً كان يرى فى الرسول صلى الله عليه وسلم المصلح الاجتماعى بصورة جوهرية .

وقد كانت هذه الأفكار، على هذه الصورة الفجة ،موضع نقد العلماء المتخصصين فالإسلام منذ ظهوره يعتبر ظاهرة على درجة كبيرة من التركيب ، وإن يكن هذا لايمنع أنه ينطوى حقيقة على مظهر يتسم بالمساواة ، ترمز إليه مثلا شخصية مثل شخصية «أبى ذر الغفارى» أحد الصحابة . وقد مال البعض إلى اعتباره «اشتراكياً قبل ظهور الاشتراكية»(١) فهو يتخذ موقف الزهد تجاه الثروة ، ويهاجم المنتفعين ممن أحاطوا بالخليفة معاوية . وتعزى إليه أقوال مأثورة ينادى فيها مثلا بأن كل إنسان يجب أن ينفق فى سبيل الله أو فى وجوه الخير كل مازيد من دخله على حاجاته الضرورية . وقد ذكر أن « أحد الثلاثة الذين يحبهم الله » هو يتصدق فى الخفاء على سائل ضل السبيل ؛ وأن « أحد الذين يبغضهم الله » هو الثرى الجائر . ويقال إنه قد نفى بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم(٢) .

ويعتبر أبو ذر الغفارى ، المتوفى عام ٦٥٢ ميلادية أبا للصوفية ، وهى نظام الزهد الإسلامى الذى كان «لوى ماسينيون» يكن له قدراً كبيراً من مشاعر الحب. واحتقار الثروة أحد عناصر التصوف . ويعتبر من المتصوفة الكبار فى القرن الخامس عشر الفقيه العثمانى الكبير « بدر الدين » (١٣٥٨ – ١٤١٦) الذى تخلى عن المناصب السامية لكى يدعو إلى اشتراك الناس فى الاستمتاع بخيرات الله ، ويجمع حوله جماهير الفقراء. وقد وصل به الأمر إلى التعاون مع زعيمين من زعماء حركة

---

(١) انظر : L. Gardet, La Cité Musulmane, Paris 1953 .

(٢) أعلن عدد من المثقفين الماركسيين والشيوعيين فى العالم العربى أن أبا ذر الغفارى هو رائدهم . وفى عام ١٩٤٨ ، أثيرت فى الأزهر ، وهو المركز الدينى للعالم الإسلامى مناقشة حول الطابع الاشتراكى للاسلام منذ ظهوره ، وتحمس بعض الشبان المثقفين لهذه الفكرة محاولين التقريب بين الإسلام والماركسية . ولكن الفكرة رفضت من أساسها .

للفلاحين هما «مصطفى» و « تورلاك » ، وأصبح هو « الزعيم الروحى » للحركة (دائرة المعارف الإسلامية) . وحكم عليه بالشنق بعد فشل هذه الحركة ، ولكن بقيت ذكراه فى نفوس الشعب فى تركيا . ويرى « ناظم حكمت » أحد مؤسسى الشيوعية فى تركيا ، أن « بدر الدين » هو أبو الاشتراكية التركية ، وكرس له قصيدة يقول فيها :

فتح الرجال الأرض
وجعلوها بدون حواجز أو حدود
كمائدة للإخوة
وأعطى العشرة آلاف ثمانية آلاف
لكى يستطيعوا ــ وهم يغنون فى نشيد موحد ــ
أن يسحبوا معاً الشباك من البحر
وأن يصنعوا الحديد كالدنتلا
وأن يحرثوا الأرض معاً
وأن يأكلوا سوياً ووجوههم مليئة بالعسل
وأن يكونوا معاً فى كل شىء ، وفى كل ما كان
إلا على خد الحبيبة(١)

وتاريخ العصر الوسيط ملىء بالحركات الثورية التى كان يقوم بها الفلاحون ، ولم تكن حركة « بوركلودج مصطفى » وتورلاك هو كمال » إلا مثلا من أمثلة عديدة . وجميع هذه الحركات ذات اتجاه واضح نحو نزعة المساواة . وقد اتهمتها العناصر المناهضة بأنها كانت تنادى ، لا بشيوعية الأرض وحدها ، بل بشيوعية النساء كذلك . ولكن الحقيقة أن هذه الحركات جميعا كانت ضد تعدد الزوجات وضد استحواذ الأغنياء وذوى النفوذ على النساء . وقد تعددت حركات المساواة هذه

---

(١) تكذب الفقرة الأخيرة الرأى الذى ساد بين بعض مؤرخى الإسلام من أن الحركات الاشتراكية فى العصر الوسيط قد اتصفت بالدعوة إلى شيوعية النساء .

بصفة خاصة فى إيران ، ونذكر على سبيل المثال حركة « الحارث بن سريدج » فى خراسان فى القرن الثامن الميلادى . كما قامت فى نفس المنطقة ثورة « أبى مسلم الخراسانى » الذى رفع ضد الأمويين العلم الأسود للعباسيين ، ومهد لحكم دولة بنى العباس فى عام ٧٥٠ ميلادية . وقد أيد الفلاحون تأييدا كبيراً حركة العباسيين التى اشترك فيها أيضاً عدد من الأشراف . وفى القرن التاسع اشتعلت إيران مرة أخرى بثورة للفلاحين قام بها « بابك » (وهو من فرقة الخوراميين) و «مزيار» الذى قسم أراضى ملاك الأرض الأغنياء وشتت حريمهم . وهكذا يلحظ استمراراً فى الحركات الثورية منذ الثورة « المزركية »[1] فى القرن الخامس حتى ثورة أبى مسلم وبابك ومزيار ، وهذا الاستمرار يعبر بوضوح عن آمال الفلاحين الإيرانيين فى تحقيق مجتمع عادل .

ومن الحركات الأكثر شهرة الحركة الجماعية المعروفة بحركة « القرامطة » التى يصفها ماسينيون بأنها « ذات مدخل شيوعى »[2]. وقد بدأ زعيمهم « حمدان

---

(١) تحت حكم الملك الساسانى « قواد الأول » (٤٤٨ ـ ٥٣١) اشتعلت إيران بالثورة الهادفة للمساواة التى قام بها « مزدك » ، وقد نادى بتقسيم الأراضى والأموال والنساء ، ونجح حينا من الزمن فى ضم الملك إلى حركته . انظر :

Christensen, Le Règne du roi Kawadh Ier et le Communisme mazdakiste . 1924 .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « قرمط » . وقد جاءت حركة القرامطة بعد وقت قصير من حركة اجتماعية أخرى تدعو للمساواة هى « ثورة الزنج » التى قام بها سكان الفرات الأدنى من ٨٦٩ — ٨٨٣ . ويبدو أنهم قد أسسوا دولة لم تستمر طويلا كانت تدعو للمساواة فى منطقة البصرة . والوثائق عن هذه الدولة قليلة وغامضة. وقد أشاد الماركسيون العرب بالقرامطة كرواد . والحقيقة أن هذه الحركة كانت محدودة جداً وذات طابع خاص . إذ أن زراعة المزارع الكبيرة بواسطة العبيد لم تكن مألوفة فى الإسلام فى العصر الوسيط . ولم تستمر فى هذه المنطقة بعد وقوع ثورة الزنج (وهم من العبيد الذين جلبوا من أفريقيا) .

قرمط » فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، دعوته فى البلاد العربية منادياً بالثورة من أجل تحقيق المساواة ، وانتشرت هذه الدعوة فى أول القرن العاشر فى اليمن وفى خراسان ، وفى سوريا والبحرين . وفى هذه المنطقة الأخيرة نجح القرامطة ، لمدة من الزمن ، فى الاحتفاظ بدولة صغيرة ذات نظام جماعى ، وكانت هذه المنطقة فى الأصل يغلب عليها طابع البداوة . فوضعت الخيرات مشاعاً بين الجميع عن طريق التوسع فى مبدأ الزكاة ، وهى الضريبة المفروضة لصالح الجماعة الإسلامية . ويقول أحد الرواة « إن كل فرد فى هذه الجماعة كان يعمل بمثابرة وحماس ، حتى يستحق مرتبة متميزة بفضل الخدمات التى يؤديها للجماعة » .

وهناك حركات أخرى قام بها الفلاحون فى العالم الإسلامى ، وغلب عليها مظهر التبشير بظهور مصلح دينى . وجميع هذه الحركات ترتبط بفكرة «المهدى» المنتظر ، « محرر البشرية » أو على الأصح الباعث من جديد لنظام العدالة ، الذى سيحقق بقدومه الروح الحقيقية للإسلام ، ويطرد الزعماء الفاسدين الذين أثروا على حساب الشعب . ففكرة المهدى ، إذن ، ذات قيمة مزدوجة بين الماضى والمستقبل ، إذ أنه سيحقق بظهوره عالم العدالة والمساواة ، ويضمن لجميع المسلمين رغدا من العيش لم يعرفوه من قبل . « ستعطى الأرض (فى زمنه) جميع ثمارها ، وتهطل السماء بالأمطار مدراراً . أما النقود ، فى ذلك اليوم الموعود ، فستكون بحيث يدوسها الناس بالأقدام، ولا يلتفتون إلى عدها . »[1] وقد استمرت هذه التقاليد الإصلاحية المهدوية طوال التاريخ الإسلامى منذ طائفة الاسماعيلية فى سوريا (جماعة الحشاشين)، حتى الحركات الحديثة فى السودان وبرقة . وانطبعت بها حركات الدراويش مثل « البكتاشية » متخذة شكل تمجيد الفقر (سيدوس الناس النقود بالأقدام ، ولا يهتمون بعدها) .

وكان لحركة القرامطة بعض المظاهر الفلسفية الدينية ، ولم تقتصر على الناحية الاجتماعية . ويربطها « ماسينيون » بفكرة «الغنوصية » فى الأفلاطونية المحدثة.

---

(١) ورد هذا النص فى دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « المهدى » .

ولكن العناصر السياسية النابعة من التقاليد الأفلاطونية لم تحتل إلا مكاناً ضئيلا من التفكير الإسلامى فى العصر الوسيط . والفيلسوف الوحيد المعروف الذى يمثل الفكر السياسى الأفلاطونى هو « الفارابى » ، وهو من أبناء تركستان وتوفى فى دمشق حوالى ٩٥٠ ميلادية[١] . ومن مؤلفاته الأساسية « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، وفيه ينقد بأسلوب أفلاطونى خالص ، مجموعة من الأنظمة السياسية : الأوليجاركية (حكومة الأغنياء) ، ومدن اللذة ، والديمقراطية الخ . . . وفى مواجهة المدن المنحلة بسبب الجهل ، يضع « المدينة الكاملة » . وتكمن أصالته فى أنه وسع نظرة أفلاطون من مدينة محصورة (هى المدينة اليونانية) إلى مجتمع إنسانى بلا حدود يعبر عنه بمفهوم « الأمة » التى يدير شئونها حاكم — فيلسوف .

وفى العالم الإسلامى الكلاسيكى ، تبدو نزعات المساواة والحياة المشتركة كذلك فى شكل جماعات وتجمعات خاصة أو شبه خاصة ، ظل بعضها قائماً حتى مطلع العصر الحديث . ومن ذلك ، الجماعات الريفية التى يعبر عنها بمصطلح « جماعة » ، و « الطوائف المهنية » (ويعبر عنها فى شمال أفريقيا بكلمة « صنف ») ، وهناك جماعات يجمعها قسم الفروسية على التضامن ، وهى جماعات « الفتوة » ، وجمعيات المحبة الأخوية (التآخى) .

« والجماعة » كما درسها « جاك بيرك » فى مراكش ، فى صورتها القائمة فى القرن العشرين ، تعبر فى آن واحد عن مجموعة من الريفيين ، وعن « السلطة الجماعية » التى تقوم على إدارة شئونها (وهى عبارة عن مجلس من كبار السن) . وتقاليد هذه الجماعة تمتد إلى جذور بعيدة ، وقد احتفظت خلال العصور بنزعة قوية نحو التضامن ، حتى فى الأوقات التى كانت فيها الأراضى الزراعية خاضعة لنظام التمليك الخاص ، وفى هذا ما يوضح من جديد الصفة النسبية ، أو المحدودة ، للملكية الخاصة فى المجتمع الإسلامى .

---

(١) عن الفارابى إقرأ الكتاب الآتى :
Rosenthal, Political Thought of Medieval Islam, Cambridge 1965.

وتظهر أهمية التقاليد الجماعية فى المدن فى شكل الطوائف المهنية (صنف) . ويثير بعض العلماء ، ومنهم « ماسينيون » فكرة أن هذه الطوائف ربما تكون قد نمت فى غضون ثورة القرامطة ، وعلى الأخص فى مصر الفاطمية ؛ فقد كان الصناع يعيشون عيشة مشتركة ، ويتعاونون معاً فى الوفاء بالطلبات المقدمة إليهم . الخ . . . وكانوا يرتبطون فيما بينهم بنوع من العهد أو القسم الذى يدخل به العضو ضمن الطائفة ، وعرفت هذه الشمائر باسم « الفتوة » وهى تدل على التضامن بين هؤلاء القوم الفقراء الذين نبذهم مجتمع الأشراف فرسموا لأنفسهم « لائحة شرف(١) .

وكانت جماعات (التآخى) التى عرفت فى آسيا الصغرى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، والتى استرعت انتباه الرحالة العربى الكبير (ابن بطوطة) كانت هذه الجماعات تجمع أيضاً رقيقى الحال من أرباب الحرف فى المدن . وكان أعضاء هذه الجماعات يجتمعون عند رئيسهم كل ليلة ، ويحضرون معهم ربحهم اليومى ويضمونه تحت تصرف الجماعة للوفاء بحاجاتها ؛ بما فى ذلك تكاليف الواجبات المشتركة . ولكن هذه الجمعيات لعبت أيضا دوراً سياسياً ، وأسهمت فى الحركات التى قامت ضد الأسر الحاكمة المكروهة من الشعب .

---

(١) إن مصطلح « الفتوة » كما وضح « كاور كاهن » فى مقاله القيم فى الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية — يمتد إلى مفاهيم أكثر تركيبا . فهو أيضا « قسم أخوة » بين الشباب الذين يجتمعون ليعيشوا معاً حياة جماعية تضمن لهم أكبر قسط من الرفاهية ، فى جو يسوده التضامن ، والإخلاص المتبادل ، والزمالة (وتقوم هذه الحياة المشتركة على الاشتراك فى الملكية) ولكن « الفتوة » يمكن أيضا أن تدعم وتوثق الوحدة بين جماعات الثوار الذين يغذون حركات التمرد والعصيان فى المدن فى العصور التى تضعف فيها سلطة الحكم . وهذه الجماعات المكونة من الصعاليك تصب نقمتها على الأغنياء وقد حدث ذلك فى بغداد فى القرنين الحادى عشر ، والثانى عشر . ولم يتطور هذا المفهوم إلا فى وقت متأخر ، إلى معنى التضامن داخل جماعة مهنية .

نحن لم نتعرض حتى الآن إلا للنزعات المتطرفة التى كانت تبرز بين حين وآخر كحركة القرامطة ، وبدر الدين ، وأبى ذر الغفارى، والفارابى ؛ والمهدية . ولكن بعض المفكرين من المشتغلين بالدراسات الإسلامية يرون أن التقاليد اليوتوبية ؛ والنزعة إلى المساوة والحياة الجماعية المشتركة قد صبغت ، بشكل عام ، جميع جوانب المجتمع الإسلامى الكلاسيكلا . ومن هؤلاء المفكرين نذكر بصفة خاصة (ماسينيون) (ولاوست) « وجادريه »[1] .

ويؤكد هؤلاء المفكرون على الطابع الجماعىونزعة المساواة فى مفهوم(الأمة) وهى تعنى مجموع المسلمين « فالمدينة » الإسلامية ، بالمعنى المثالى لهذا المصطلح ، هى المجتمع القائم على (الإجماع) بين جميع المؤمنين . ومفهوم (الأمة) يبدو كما لو كان عاملا أساسيا للتوحيد بين (المدائن الأرضية) . وهذا الطابع الجماعى يبدو أيضاً فى المفهوم الإسلامى (للملكية) ـــ وذلك طبعاً على الصعيد النظرى . وتقول السنة الشريفة ، وهى التوضيح الرسمى لمعانى القرآن الكريم إن الله يأمر(ألا يمتلك الأرض إلا من يبذل فيها جهده الخاص ، أى من يزرعها بنفسه) . ومعنى ذاك أن الملكية ليست حقا بغير حدود ، ولكنها مشروطة بشرط الاستثمار . ومن حيث المبدأ (ليس للمسلم حق الاستخدام الحر لما يملك ، بل يجب أن يراعى فى ذلك حقوق الجماعة) « جارديه » . وفى هذا تقرير لمبدأ اقتصادى أخلاقى يقوم على (الجماعية والنزعة الى المساواة (لاوست) . وهذا الطابع الجماعى يعبر عنه نظام « الزكاة » ، وهى عبارة عن صـــدقة قانونية ، يقدمها الجميع بهدف تحقيق التضامن . ووظيفتها ، على الأقل من الناحية النظرية ، هى محو الفروق فى الثروة

---

(١) كان اتجاه « روجيه جارودى » مماثلا فى محاضراته بالجزائر عام ١٩٦٥ (وقدنشرت هذه المحاضرات فى مجموعة أعداد مجلة الثورة الأفريقية La Révolution Africaine. فهو يؤكد على الطابع التقدمى فى داخل المجتمع الإسلامى الكلاسيكى فى مجموعه ، ويشبه هذا الطابع بالاشتراكية اليوتوبية فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر ، مع إضافة فضل السبق بالنسبة للمجتمع الإسلامى .

ولو جزئياً . وقد كانت الدعوة إلى المساواة التى قام بها « حمدان قرمط » تستند إلى مبدأ « الزكاة » ، وكانت تبغى التوسع فى تطبيقه حتى يصبح اشترا كا تاماً فى الملكية .

وهذ الطابع الاجتماعى الذى يضع حدوداً للملكية يعبر عنه أيضاً نظام « الأوقاف » ، وهو نظام يستخدم أملاك المتوفين للإنفاق على المؤسسات ذات النفع العام : كالمستشفيات ، وتوصيلات المياه ، والحمامات والمقابر ، والمدارس ، وأعمال البر والإحسان المختلفة . وعلى هذا النحو ، فإن نظام الوقف تعبير عن « روح التعاون المتبادل ، ونقل الملكية الشخصية تحت سلطة المشرع الأسمى وهو الله » . (جارديه) .

وقد أثير أيضاً مبدأ آخر إسلامى يتصل « بالربا » ، وذلك لتأييد الفكرة القائلة بالطابع الجماعى للأخلاق الإسلامية ، إن لم يكن للمجتمع الإسلامى الحقيقى . « فالربا » ، ومعناه تكديس الأموال — كما ينسب إلى الرسول نفسه — يعتبر إثماً كبيراً . ولكن هل يمتد هذا المفهوم إلى كل نشاط تجارى أو مالى كما ظن بعضهم ؟ فى الحقيقة أن مفهوم الربا ينحصر فى حدود أضيق من هـــذا بكثير . فالربا ينصب (دائرة المعارف الإسلامية) على « كل ربح مالى غير مشروع دون أن يقابله خدمات يقدمها المرء » ، أو على كل ربح مغالى فيه يأتى مثلا من فوائد القروض .

وفى نفس المعنى كثيراً ما ذكر من الأحاديث الشريفة (وهى الأقوال المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودونت بعد وفاته) حديث مثل : « الهواء ، والماء ، والكلأ مشاع للجميع » . وآخر يقول : « من أحيا أرضاً مواتاً فهى ملك حلال له » ؛ وثالث « الناس بطبيعتهم سواسية فيما بينهم كأسنان المشط » .

وبعد ، فما هو الوضع الحقيقى للمسألة ؟ مما لاشك فيه أن المجتمع الإسلامى الكلاسيكى ، كان مجتمعاً يتسم حقاً بالمساواة من الناحية القانونية . ولكن هل هو مجتمع تحقق فيه « العدل » بالفعل ؟ فى الواقع نجد أن أوامره فيها تحديدات صارمة : تحديد القرض بالفائدة ، والمساواة بين الجميع أمام القانون ، والمساعدة

من جانب المتيسرين لصالح الفقراء . ويعتبر هـــذا المجتمع من الأمور الطبيعية التفاوت فى الثروات ، وممارسة أنواع النشاط المربح . أما عن « الممارسة الفعلية للحياة الاقتصادية فى العالم الإسلامى فى العصر الوسيط » ، فقـد كانت بالذات كما بين « مكسيم ردنسون » دون المستوى المثالى الغامض للعدالة الاجتماعية . فقد ازدهر نظام القـــروض بفوائد ، وقامت رفاهية العالم الإسلامى على التجارة فى البحار ، وتجارة القوافل ، وعلى الجرى وراء تحقيق الأرباح .

يبدو إذن أن الـكلام يجب أن ينصب على وجود نزعات للمساواة ، واتجاهات يوتوبية وجماعية ظهرت « فى داخل » المجتمع الإسلامى ، أكثر مما ينصب على نزعات يتصف بها هذا المجتمع فى مجموعه .

والآن ، هل تقوم تقاليد المساواة والنزعات اليوتوبية فى الشرق على صفات عامة للمجتمعات الشرقية كما اعتقد بعض المهتمين بالدراسات الصينية والدراسات الإسلامية ؟ أم هل تقوم على العكس على حركات احتجاج ، للمطالبة بالمساواة ، ضد النظام القائم ؛ وعلى آمال غامضة تتطلع إلى مجتمعات أكثر عدالة ؟ لقد كان الجدل أكثر عمقاً وتشعباً فى حالة الإسلام ، وفى حالة الصين ، وذلك لأن المشكلة ، فى هذين المجتمعين ، تفرض نفسها فى صورة أكثر قوة . ويبدو لنا ، فى الوضع الراهن للمسألة ، أنه يجب أن نقف عند النتيجة الثانية . يجب أن نبحث فى « الجانب الآخر » من تاريخ الشرق عن السوابق البعيدة المحتملة للاشتراكية الحديثة فى الشرق . فهذه الأحلام التى داعبت خيـال المثقفين ، وهذه الثورات التى قام بها جماعات الفلاحين ، قد نمت وانتشرت «ضد» النظام القائم لا فى «ظله» ولـكن يجب أن نؤكد بصفة خاصة ، على السمات العامة لجميع هذه الحركات ، وجميع هذه التيارات الفـكرية ، وجميع هذه المحاولات المتحررة ، وجميع هذه الأساطير التى قدمنا فيما سبق قائمة إجمالية لها :

والسمة الأولى هى الطابع المتقطع لهذه الحركات وظهورها بين حين وآخر . فهى ليست — كما لاحظ البعض — جزءاً متضمناً فى النظرة للعالم ولا فى البناء

الاجتماعى الإسلامى أو السكونفوشيوسى . بل على العكس نجد أن هذه الحركات تحدث فى بعض المناطق ، وفى بعض المناسبات ، كما لو كانت تطلعات تظهر فى صورة احتجاجات قوية من جماهير الشعب أو من المثقفين ، وتعبر عن نفسها فى وضح النهار من خلال مسام النظام الاجتماعى والأيديولوجى الرسمى .

ومما لا شك فيه أن هذه التطلعات المحتجة كانت تعبر عن نفسها فى صورة دينية ، ومعنى ذلك أنها كانت تعبر عن نفسها فى عبارات من نوع خاص تتصل بالأساس الدينى لكل مجتمع من المجتمعات المشار إليها . ففى الصين كانت تستند إلى أفكار مستمدة من النصوص الدينية القديمة . مثل فكرة « التاتنج » و « التايبنج» وفى إيران كانت تعتمد على تذكر لأسس الدعوة المانوية ؛ وفى الإسلام على مبادئ الأخوة الجماعية التى وضع أسسها محمد عليه السلام . وفى بعض الأحيان تقوم الحركة على انتظار ظهور « المهدى » ، وأحياناً أخرى على انتظار « مسيح البوذية » « مى — لو — فو » أو « متيرايا » . ولكن هذه التفرقة الدينية تبدو ثانوية بالقياس إلى الطابع العام لهذه الحركات القائمة على الخيال اليوتوبى والاحتجاج المطالب بالمساواة ، وهذا الطابع الجوهرى هو صدور هذه الحركات عن الفلاحين . ففى القرية ، دون أى مكان آخر ، ظل الاحتفاظ بأحلام المساواة ، وبالتقاليد الجماعية . وكانت ثورات الفلاحين تستمد زادها من هذه التقاليد سواء أكان ذلك فى إيران العصر الوسيط ، أم فى الصين الإمبريالية ، أم بين فلاحى بورما فى العصر الحديث . ويمكن القول إن اليوتوبيا التى تحلم بالرفاهية ، وبالمساواة والوفرة ، فى الشرق ، ذات ترابط وثيق بالصور الريفية وبأسلوب للحياة ظل قريباً جداً من الاقتصاد القائم على ما تمنحه الطبيعة بفضل العمل فى الحقول . وهذا الطابع الريفى يظهر أيضاً فى الحنين إلى حالة من الانسجام بين الإنسان والطبيعة . فالطبيعة لا تبدو ككيان معارض أو معاد ، بل كإطار كونى يمكن للإنسان فى داخله أن ينمو ويحقق لنفسه الازدهار بطريقة منسجمة .

وفى الحقيقة يبدو أن هناك تناقضا — ولو ظاهرياً — بين هذه الأحلام

اليوتوبية الغامضة ، وهذا الحنين إلى حالة من السعادة للإنسانية ، وإلى عصر ذهبي ، وبين ارتباط كل ذلك ، فى مناسبات عدة ، بحركات اجتماعية ضد النظام القائم ، وبحملات وثورات لتحقيق المساواة . فالمحرك الأيديولوجي للثورة يقوم هنا ، لا على النظرة إلى مجتمع جديد أكثر « تقدماً » تاريخياً من المجتمع القديم ، كما هو الحال فى عالمنا الحديث ، بل على تذكر عصور قديمة جداً . وهـذا الوضع لا يقتصر على تقاليد المساواة واليوتوبيا فى الشرق . ولعلنا نذكر الجذور الاجتماعية للحركات الشرعية فى أوروبا الحديثة كحركة « أنصار كارل النافاريين » ، و « حركة اليعقوبيين الاسكتلنديين » ، وحركة أنصار « ديمتريوس المزيف » فى روسيا فى القرن السابع عشر . فهذه الحركات جميعاً كانت تعتمد على الملاحين فى أقاليم تتميز بالفقر الشديد وبالتخلف الشديد .

ولا يعنى ما قدمنا أن هذه اليوتوبيات الشرقية ، والحركات الشعبية التى تغذت عليها كانت « سـلفية » تماماً ، أى متمسكة بالقديم لا غير . فهى تتصف فى الحقيقة بطابع مزدوج هو التأرجح بين الماضى والمستقبل . وقد بدا ذلك واضحاً فى حالات « المهدية » الإسلامية ، والعصر الذهبى البوذى ، و « التاتنج » أو الانسجام الصينى . فهذه اليوتوبيات ، فى الواقع ، تقع خارج الزمن ، وتعبر عن تصور للعالم يضيق بحدود الزمان ولا يعرف تقريباً فكرة التقدم . ويمكن بلا شك ربط هذا الطابع ، بالأساس العقلى الريفى الذى انطبع بالعودة الثابتة للفصول ، وبتقويم الأعمال الزراعية . وهذه العودة الثابتة تفرض « الهوية » بين الماضى والمستقبل .

وإذا كان هذا الطابع الريفي يبدو أساسياً إلا أنه لا يستبعد انتشار هذه التقاليد الخاصة بالمساواة واليوتوبيا بين رقيق الحال فى المدن وعلى الأخص بين الصناع . وقد لاحظ هذه الظاهرة المتخصصون فى الدراسات الإسلامية (مجتمعات التآخى الخ . .) ، كما لوحظت أيضاً فى الصين ، حيث تبين أن الصلات بين طوائف الحرفيين والتيارات « التاوية » كانت معروفة . وقد كان مخترعو الأساليب الفنية الصناعية يحتلون مكاناً هاماً فى « البانثيون » التاوى .

ولا يمكن بأى حال أن تكون هذه التقاليد الخاصة بالمساواة والنزعة اليوتوبية فى الشرق أساساً حقيقياً للاشتراكية الحديثة فى جميع هذه البلاد . إذ أن طابع الاشتراكية العميق هو « التجديد » . وهى تتضمن تحويراً أساسياً فى الجوانب التكنولوجية والاجتماعية ، بالإضافة إلى قلبٍ شامل للقيم وللأنساق السياسية والأيديولوجية .

أما تلك الحركات ذات الطابع القديم التى كانت تقوم للاحتجاج ، وتلك الأحلام اليوتوبية فلم تكن تستطيع أن تمهد لمثل هذا التحوير . ولكن إذا كانت تلك الحركات قد استغلت ، حتى فى القرن العشرين فى اتجاهات سياسية جد متعارضة ، فقد لعبت بالرغم من ذلك دوراً هاماً فى الأوقات اللازمة لتأصيل الأفكار الاشتراكية . وكانت بمثابة الضمان الوطنى فى بلاد تميزت بالحساسية الشديدة لنتائج السيطرة الغربية وأخطار التشيع للغرب . وعلى هذا الأساس أعيد ربط تلك التقاليد بالاشتراكية الحديثة فى بلاد الشرق عن طريق رباط تاريخى حقيقى ، وبذلك أسهمت فى إعطاء الاشتراكية الشرقية طابعها الخاص ، وديناميتها الخاصة ؛ كما أسهمت ، فى الوقت نفسه ، فى تنوع النظرة التى ظلت عند الكثيرين غير دقيقة بالنسبة للطغيان الشرقى .

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عمارالدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

ديوجين

مصباح الفكر

(مقـــالات مختـــارة)



مجلة دولية لعلوم الإنسان

يصـدرها المجلس الـدولى للفلسفة والعـلوم الإنسـانية

بمعاونة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة

وتصدر النسخة العربية

بإشراف وزارة التعليم العالى - الشعبة القومية لليونسكو

مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة

المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الإنسانية

الهيئات العلمية المنضمة إليه :

* الاتحاد الدولى للمجامع العلمية .
* » » للجمعيات الفلسفية .
* اللجنة الدولية للعلوم التاريخية .
* » » الدائمة لعلماء اللغة .
* الاتحاد الدولى لجمعيات الدراسات الكلاسيكية .
* » » لعلوم النوع الإنسانى والسلالات البشرية .
* اللجنة الدولية لتاريخ الفن .
* الجمعيــة الدولية لدراسة تاريخ الأديان .
* الاتحاد الدولى للآداب واللغات الحديثة .
* » » للمستشرقين
* الجمعيــة الدولية لعلم الموسيقى .
* الاتحاد الدولى لعلوم ماقبل التاريخ والتاريخ القديم .
* المؤتمر الدولى للمشتغلين بالدراسات الأفريقية .

تصدر مجلة ديوجين فى أربعة أعداد فى السنة بخمس لغات

ثمن العدد من النسخة العربية ١٠ قروش

الناشر

سجل العرب

محتـــــويات العـــــدد

صفحة

بـ ريموند مليكا

الدقة فى التوقيت
دراسة لسيكولوجية الرجل العصرى

ترجمة: الدكتور السيد محمد بدوى

يخشى الرجل العصرى فى الغرب ، بصورة دائمة ، من ضياع الوقت . ولذلك فإنه يقيسه ، ويستخدمه بمقادير دقيقة ، ويمارس أوجه نشاطه حريصاً كل الحرص على ألا يضيع منه إلا أقل القليل : فالمواعيد تحدد بدقة متناهية ، والمكاتب تحرص على الضبط الصارم للتوقيت ، وكلمة «عاجل» تستخدم بكثرة فى أيامنا هذه ، ويحرص الرياضيون على انتزاع الرقم القياسى لسباق الكيلومتر ، بفارق بضعة أعشار من الثانية كما أن انتشار آلات قياس الزمن فى كل مكان — كالساعات والكرنومترات ، وساعات الحائط والميادين ، والأجندات ، والتقاويم — كل ذلك يؤكد طبيعة الاهتمامات التى يهتم بها الرجل العصرى . فمن مظاهر الحضارة المعاصرة هذا الضمير المرهف لقيمة الزمن ، كما أن هذه الحضارة تعتبر من علامات الترشيد الاقتصادى ، الاهتمام الذى يبديه كل إنسان لتوزيع وقته بطريقة اقتصادية فى جميع الأعمال والواجبات التى تتضمنها حياته . ويقول المثل الشعبى : إن « الوقت من ذهب » ، وفى محاولتهم لتطبيق هذا المثل نجد أن كثيراً من الأفراد يعبرون عن اهتمامهم البالغ « بعدم تضييع وقتهم » فى نشاطات ثانوية يمكن أن تنتظر ولا تستحق أن نكرس لها كثيراً من الوقت . وعلى هذا النحو فإن قيمة الأعمال وأهميتها تقاس عملياً بالوقت الذى نقبل أن نكرسه للقيام بها . وفى الوقت نفسه ، فإن الزمن ذاته يكتسب مزيداً من الدقة والتحديد الصارم ، فنحاول أن نضع مجموعة من النشاطات فى فترة محددة غير قابلة لمزيد من الضغط ، وكان من الممكن فى الماضى أن نوزع هذه النشاطات على فترة أكثر طولا . فحضارتنا تتميز بالتعجل وعدم الصبر . ووسائل ترشيد الحياة عن

طريق الاقتصاد فى الزمن متنوعة ومنتشرة فى كل مكان : منها جداول توزيع الوقت وللمواعيد المحسوبة بالدقيقة ، والتقاويم التى تعد مقدماً ، «والأجندات» التى تتسلسل فيها المواعيد اليومية ، وبرامج العمل المحددة بحسب الفصول ... وكلها تدل على أننا فى كل لحظة من لحظات حياتنا نواجه ضرورة حساب الزمن ، وهى ضرورة متصلة بحاجة على جانب كبير من الأهمية . ويمكن وصف التقدم التكنولوجى ، فى أحد مظاهره ، بأنه مصدر من مصادر كسب الزمن : ويتضح ذلك فى وسائل النقل السريعة ، والأدوات المنزلية التى تخفف من الأعباء اليومية للمرأة ، والتليفون الذى يختصر وسائل الاتصال ، ما دامت الرسائل تعتبر بطيئة نسبياً ، والأجهزة المنظمة التى تقوم بعدة عمليات فى لحظة .

ويبدو أن الإنسان قد أصبح اليوم بطيئاً جداً أمام « تزايد سرعة » العالم : فاستجاباته ينقصها السرعة ، ويتضح هذا من حوادث السيارات ؛ ومداولاته الطويلة قبل أن يتخذ قراراً تكاد تصبح عقبة أمام المسار المتعجل لكل شىء . فيجب إذن ، وبدون توقف ، العمل على زيادة سرعة الحركات والاستجابات ، ويجب أن يستجيب الإنسان تواً لهذا الموقف أو تلك المشكلة . ويرمي إلى هذا الغرض مبدأ الاختبارات الذى يرمى إلى معرفة « الكائن التلقائى » .

ونحن نعرف أن عصرنا هو عصر السرعة : سرعة العامل أمام آلته ، وسرعة البديهـــة فى صالون أدبى ، وسرعة الرياضى فى الملعب ، وسرعة القمر الصناعى ، وسرعة فرق الإنقاذ على الطرق ... فالإنسان « يجب أن يعيش بسرعة زمنه » : ومن الضرورى أن يكون دوما على عجل؛ وقد أصبح ذلك سمة مميزة لحالته المعاصرة ولنلاحظ التطور فى الأدب : نجد أن « الدايجست الأمريكى » أو (التلخيصات المبسطة) قد قلدها الجميع فى كل مكان ؛ وهى تقدم لنا أهم ما فى أدب « بلزاك » فى عشرين صفحة وأحياناً أقل . والقصة البوليسية لا تهتم بالتحليل السيكولوجى ولا برسم صورة للمجتمع بل تقص علينا فقط حادثاً يتم فى صخب ، ومثل هذه القصص

تصادف من النجاح أكثر مما تصادف الروايات ذات الثلاثمائة صفحة . وفى الصحافة نجـد أن العناوين الـكبيرة تحل محل التحليلات ، والصور التى يمـكن فهم مغزاها مباشرة تحتل مكان الدراسات حول المشكلات السياسية . وفى مجال الثقافة العامة نجد أن الأحاجى أو الألغاز حول مسائل التاريخ أو العلم تصادف من النجاح أكثر مما تصادف المقالات الأدبية أو العلمية التى تتطلب كثيراً من الوقت. وفىالموسيقى نجد أن الاسطوانات المصرية تتميز بـميزة أساسية هى الاختصار ، وذلك بالقيـاس إلى المؤلفات الـكلاسيكية .

وهناك فـكرة واحدة تربط بين جميـع هذه الملاحظات : ونعنىبها الحرص على عدم تضييـع الوقت ، وهى فـكرة أصبحت تحاصر نفوس الناس ، وأصبحت تتحكم فى الحيـاة المهنية ، وفى طريقة الاستمتاع بالأعمال الفنية ، وفى طريقة التفـكير ، والشعور ، وإلى درجة ما فى الحياة الخاصة .

ويجب أن نلاحظ أن هذا الحرص ليس وقفاً على جماعة معينة ، أو أمة بذاتها : إذ أنه يرتبط باتساع ما يمكن أن نطلق عليه اسم « الوسط التـكنولوجى » (أنظر أعمال ج. فريدمان حول اجتماعيات العمل) ، ويمكن اعتباره أحد شروطه المحددة . وأمام الأهمية الحاضرة لهذه الظاهرة ، التى تؤثر فى جميـع عناصر حياتنا ، وتمارس تأثيراً كبيراً على سيكلوجية الإنسان المعاصر ، نحب أولا أن نبحث عن أصول هـذه الظاهرة ، ثم ندرس بعد ذلك أهم نتائجها ذات التأثير المباشر فى حياتنا . ولا يخطر ببالنا أن نحيط بجميـع عناصر هذا الموضوع ، ولـكننا نحاول فقط الربط بين بعض الظواهر التى ظلت حتى اليوم تعتـبر منفصلة بعضها عن بعض ، وتوضح الدور الذى تلعبه الدقة فى المواعيد كمبدأ عام فى ترشيد حياتنا (حسب تعبير ماكس فيبر) .

أولا — أصول الميـل نحو الدقة عنـد الإنسان المعاصر

إن الميل نحو الدقة هو نتيجة التقاء رغبتين : الأولى هى الرغبة فى عدم تضييع الوقت باعتباره عنصراً له قيمته الثمينة فى أيامنا هذه ؛ والثانية هى الرغبة فى تنسيقه وتنظيمه ، وإنفاقه بطريقة عقلية . فمن ناحية نستطيع أن نقرر الاعتقاد بأن كل

دقيقة لها قيمتها ، والولع الشديد بالسرعة « فى ذاتها » ؛ ومن ناحية أخرى نواجه العقل المنظم الذى يكره الأحداث غير المتوقعة ، والصدف التى تفسد المشروعات . فيجب إذن تنظيم الحياة نحو هدف معروف ، بدون أن ندع مجالا لتدخل غير المتوقع ، وغير العقلى . وقد يكون هناك نوع من التعارض بين الرغبة فى المتعة المباشرة ، ورومانسية الزمن الذى يمر بسرعة ، وهذا ما يفسر التقويم العالى لكل لحظة ، وبين التعطش إلى الحساب البارد ، البعيد عن العاطفة ، والتوقع العقلى للمستقبل ، والتنظيم المنهجى للواجبات . ولكن التجربة أثبتت أن الحرص على التصرف بسرعة ، هو الذى يدفع إلى الترشيد وإخضاع الأمور للعقل : فكلا النزوعين ينمو فى وقت واحد . وعلى حين أن الدقة تولد الرتابة والضجر ، نجد أن الرغبة فى كسب الوقت تجعل الإنسان دائماً فى حالة توتر خصب مع إخضاعه أيضاً إلى ذلك الحرص على السرعة الذى يحاصره من كل مكان . فكيف وصلنا إلى هذا الموقف الذى ينطوى على التناقض ؟.

ا — الحياة العصرية تضاعف الأوقات الضائعة ، وتدفع إلى البحث عن الدقة

إن الحياة العصرية فى جوهرها حضرية . ونلاحظ فى التجمعات الحضرية الكبرى بعثرة فى الوقت لا يكاد يشعر بها الأفراد . فيجب أن نحسب أولا الوقت الضائع فى المواصلات وهو أمر يتطلبه اتساع المدينة ، وبعد المسافة بين محل السكن ومكان العمل ؛ وهذا الوقت مفروض علينا ولكنه يعتبر إسرافاً اجتماعياً فى الوقت لا يمكن تعويضه . ويجب أن نحسب بعد ذلك الأنظمة الاجتماعية التى يفرضها عدد السكان الكبير ، وتحتمها ضرورة الحرص على سير الحياة العامة عن طريق عدد من التنظيمات الصارمة : ابتداء من تحديد أماكن الوقوف للسيارات حتى تحديد ساعات العمل بالمكاتب الإدارية . فما يسمح به فى مدينة صغيرة بشىء من البساطة لا يمكن أن يسمح به فى مدينة كبيرة تعرف مشكلات الزحام فى حركة المرور ، وامتلاء المطاعم والمقاصف العامة فى ساعة الغذاء ، واقتحام المحلات الكبرى فى أيام العطلة عند ربات البيوت . وإذا أردنا ألا تصاب المدينة بالشلل ، فإن الدقة المتناهية يجب أن تسود

جميع أوجه نشاطاتها اليومية . إذ أن المدينة الكبرى تتميز بطابع خاص وهو أن جميع سكانها يشعرون فى نفس اللحظة بحاجات متشابهة . ففى الصباح الحاجة إلى المواصلات ؛ وفى عطلة نهاية الأسبوع الحاجة إلى الخروج إلى الريف ؛ وعند الظهر الحاجة إلى مكان لتناول الغذاء ؛ وفى المساء الحاجة إلى مكان فى السينما . وما دمنا لا نستطيع أن نعدل فى هذه الحاجات ، فيتعين علينا أن نعمل على إرضائها جميعاً ، ولا يكون ذلك إلا بطريقة واحدة : وهى الاقتصاد الصارم فى الوقت ، ومضاعفة السرعة فى أداء الخدمات . وحين تجد الحياة الخاصة نفسها محصورة بين عدد من النشاطات الموقوتة ، فلا مناص لها من أن تحتمل ضغوط الدقة . وإذا لم نوفق فى مقابلة شخص ما بعد ساعة معينة ، فقد لا نستطيع مقابلته مطلقاً . ولذلك فإن المواعيد التى تضرب فى حاجة لأن تحترم بدقة ، إذا أردنا حقيقة أن نرى الأشخاص الذين نرغب فى رؤيتهم . وكذلك فإن الوعود والعقود يجب أن تنفذ فى التاريخ المتفق عليه ، وإلا فإن كل الخطط تتعرض للهدم ، كما ينفرط عقد العلاقات الاجتماعية تماماً . وليست الحياة الخاصة ممكنة اليوم إلا بشرط ألا ندوس على متطلبات التحديد الزمنى ، سواء أكانت مهنية أو اجتماعية ، وهى متطلبات أصبحت معروفة ومقبولة عند الجميع .

وقد أصبحت « عقدة » التأخير ذات خطر فى المجتمع المعاصر . فالوصول متأخراً عن الموعد يعتبر خطأ وعيباً ومنافياً للأدب . ويجب أن نلاحظ أن الدقة فى المواعيد توجد فى كل مكان ، حتى ولو بدا فى الظاهر أنها غير موجودة أحياناً . فالموظف الكبير إذا وصل إلى مكتبه فى الساعة العاشرة فهو ليس متأخراً ، وكل ما فى الأمر أن مستواه اقتضى تأخير ساعة العمل بالنسبة إليه ، ولا يدل ذلك على نقض مبدأ الدقة وقد اقتضت كثافة السكان وجود نظام طوابير الانتظار وهى الضريبة التى يدفعها المستمتعون بالحياة الحضرية . ووجود هذه الطوابير راجع دائماً إلى نفس السبب ، وهو تركيز الحاجات العديدة فى ساعات معينة ، حيث لا يمكن مادياً الوفاء بجميع هذه الحاجات فى آن واحد . ومن هنا كان الانتظار الذى يقبله الناس أحياناً فى

استسلام وأحياناً على مضض . فأمام المكاتب الإدارية حيث تكون ساعة الإغلاق حتمية ، يكون الانتظار فى عصبية ، خوفاً من الاضطرار إلى العودة مرة أخرى . وطابور الانتظار يحتمل على مضض لأنه يمثل ضياعاً للوقت ، على حين أننا نعتبر هذا الوقت ثروة لا تقدر بقيمة . والذين لا ينتظرون هم أصحاب الامتياز، ونحن ندرك على التو أنهم حاملو بطاقة « سحرية » . وقد يكون الانتظار على الطريق ، خلف شريط السيارات ، مثيراً للأعصاب بحيث يفقد المرء سيطرته على نفسه . وهذا دليل على الأهمية التى نعطيها للزمن . وكلما طال الانتظار تعرضنا لأن نضيع موعداً حدد فى وقت لاحق . ولكى لا ننتظر ، فإننا نصل قبل الموعد حتى نخرج فى الوقت الذى نريده . وهنا أيضاً نجد أن أسطورة الدقة تتحكم فى التصرفات وفى الأفكار العامة .

وباختصار فإن الرجل العصرى، الذى تتجاذبه الأحداث من كل صوب ، ينتابه شعور بأنه لا يعرف أين يوجه اهتمامه . ولحظات راحته يسممها ذلك الخوف من التأخير ، كما يبدو عليه نوع من الرعب من أن تجرفه الأحداث . ومهما حاولنا نصحه بالاعتدال فى نشاطه ، وبالتعقل فى حاجاته ، وبألا يكرس نفسه إلا للمسائل التى تستحق ذلك ؛ ومهما حاولنا أيضاً أن نبين له مدى الوقت الذى يفقده لأسباب مشكوك فى وجاهتها : فإن مثل هذه المرافعة لاجدوى منها ، لأن الإنسان العصرى يشعر دائماً بأنه مدفوع بحركة متزايدة فى السرعة ولا يستطيع أن يرفض الاشتراك فى هذه النشاطات التى تطرحها الحياة العصرية متعددة من حوله ، ويظل فى توتر بسبب النشاط ، وفى حصار نفسى بسبب الخوف من ألا يستطيع عمل كل شىء . وهذه الحالة الانفعالية لا بد أن تكون لها جذور عميقة كل العمق .

ب — مسئولية التقدم التكنولوجى

إن التقدم التكنولوجى فى أبسط تعريف له ، هو إحلال الآلات محل المجهود البشرى أو الحيوانى نظراً لما ينتج عن ذلك من سرعة أكبر ، ودقة أكثر ، واستمرار أطول فى العمل ، وتكاليف مادية أقل ، ويعبر عن كل ذلك إجمالا بتحسن الكفاءة فى العمل . وينطوى التقدم التكنولوجى على ثلاث سمات جديرة

بالاهتمام : فالآلات يجب أن تتحدد من حين لآخر ، وهذا ما يستوجب دورة متزايدة السرعة للتجهيزات ؛ والآلات تتطلب رقابة الإنسان ، مما يستوجب قدرته على متابعة سرعتها ؛ وأخيراً فإن الآلات تطرد الإنسان ، كما تبين ، فى مجال المنافسة بينها وبينه أنه أقل منها كفاءة . ونتيجة كل ذلك أن الآلات تطور خالقها نفسه (أنظر مؤلفات فريدمان) . ونريد هنا أن نوضح نتائج هذه السمات على الميل نحو الدقة . فكما نعرف ، فإن إنتاج الآلات ينطوى دائماً على القيام بعدد غير معقول من العمليات فى زمن محدود : ابتداء من الآلات المنظمة ، التى تدهش المتخصصين بما تقوم به من عمليات ذهنية ، حتى آلات العمليات الدقيقة التى تستطيع إنتاج المسامير المحوية وغيرها بسرعة كبيرة . ومن الواضح أن هذه الانتصارات التقنية تعكس آثارها على الإنسان : فالرياضة ، وهى فى الحقيقة تمثل فى مجال اللعب ذلك التنافس القائم على السرعة ، تحظى باهتمام كبير عند الرأى العام ، وتثير حماس الجماهير من اليابان إلى الولايات المتحدة ماراً بأوروبا . والقرار السياسى يعتبر رد فعل مثالى على مجموعة من الظروف تدعو إلى إجابات مباشرة : إذ أن الاعتقاد فى المبادرة السياسية له قيمة خاصة من حيث إنه نشاط يعبر عن الوجه الآخر لعقدة « التأخير » . ولكى نعوض أضرار التعجل ، نقوم بتحضير الملفات ، وبترتيب البيانات والمعلومات ، وبتحديد التواريخ وتنظيم الوقت . ولكى نكسب هذا الوقت الحر ، الذى لا يمكن لأى مبادرة أن تتحقق بدونه ، يجب أن نضغط إلى أقصى درجة أنواع النشاط الأخرى ، ومن هنا نرى كيف يدفع هذا الحرص إلى الدقة المتناهية . فالإنسان يخضع لضغوط الساعة حتى يستطيع أن يقوم بجميع واجباته ، ويحدث هذا جزئياً بسبب منافسة الآلات التى تستطيع أن تجيب فى التو على أى طلب ، ولا تتعب مطلقاً ، كما أنها تخضع لتخطيط دقيق فى استخدامها .

ولا تستطيع الآلات أن تشتغل بنفسها : بل تحتاج إلى إنسان لكى يجعلها تعمل ، وإلى ذكاء لكى يراقبها ، ويصلح العطل فيها ، ويقدم لها الأوامر الجديدة . فالأفراد إذن يتعين عليهم أن يتبعوا النظام الآلى . ومن ناحية أخرى فإن الآلات باهظة الثمن :

وتغطية نفقاتها يستوجب استخداماً متواصلا ، عن طريق فريق من العمال يأتى بعد فريق ليلا ونهاراً . وهكذا نرى أن عالم الآلة هو بالضبط عالم تنظيم الفرق ، وعالم التوزيع الأمثل لزمن استخدام الأجهزة ، وفي هذا ما يؤدى بطريق آخر إلى مراعاة الدقة . فالآلة تستدعي تلك « البرمجة » التى تؤثر على الحياة المهنية للعمال والفنيين ، وتؤثر بالتالى على أفعالهم المنعكسة ، وعلى طريقة تفكيرهم ، وعلى استجاباتهم النفسية . ويجب أن نلاحظ أيضاً أن التقدم التكنولوجى يتخذ شكلا كليا ، وذلك إذا نظرنا إلى التفاعلات وإلى العلاقات بين مختلف أشكال التكنولوجيا : كوسائل النقل والتنظيم والإعلام الخ ... وبمقتضى هذا الشكل الكلى تتدخل العقلية الاقتصادية : مثال ذلك الحرص على النشاط الأكثر فعالية بوسائل محدودة فى نطاق الحياة اليومية . وهذا الحرص يولد بالتالى الحاجة إلى الدقة ما دامت فكرة « الزمن الذى ينفق » واحدة من التغيرات الجوهرية فى العمل .

وأخيراً فإن التقدم التكنولوجى يؤثر أيضاً على أجهزة قياس الزمن ، وبالتالى على الإدراك الحسى العام للزمن : وهذا القياس يرهف ويزداد دقة ، كما ترتفع قيمته العلمية . وإذا كان الزمن جامداً إذا أدركناه عن طريق الضمير المنعكس نحو الداخل (وهذا المفهوم اشترك فيه برجسن مع بعض الفلاسفة) فإن الزمن فى المفهوم الحديث يعتبر شيئاً يمكن قياسه ، ويمكن اقتصاده ، ويمكن توزيعه ، ويمكن فقدانه . وهذا المفهوم الحديث لفكرة الزمن ، الذى برز بفضل تحسين أجهزة القياس ، هو أحد الظواهر الكبرى لعصرنا . وهذه الظاهرة تقتضى إعادة النظر فى المقولات القديمة للفلسفة . (إرجع فى هذا الموضوع إلى ل ممفورد : التكنولوجيا والحضارة) .

ج — إنتاجية المكاتب وعبادة الدقة

تتألف الثورة البيروقراطية من النظر بعين الاعتبار إلى فكرة الإنتاج ، أو كما يقول ج. أردان إلى « إنتاجية الدولة » . فالبيروقراطية القديمة التى كانت مرادفاً للبطء الباعث على اليأس ، وللشكلية القانونية ، ولأسلوب حياة البرجوازية الصغيرة ، قد حل محلها أسلوب يهتم بالفعالية والإنتاج ، ويضع فى المكان الأول مقتضيات النمو

الاقتصادى . وقد ساعد ذلك على تكوين الميل نحو الدقة ، وذلك بالإضافة إلى ولع المكاتب بالتنظيم العقلى ، والحساب ، والتصنيف . ولم تعد الرقابة على الجهات الإدارية تهدف بصفة أساسية إلى اكتشاف الأخطاء القانونية ، بل إلى بث الاهتمام بالعمل الفعال ، وإلى الحيلولة بين المستخدمين وبين التقاعس عن العمل . وقد أدى انتشار البطاقات التى تملأ ، و « الدوسيهات » إلى زيادة تأثير المكاتب على الحياة اليومية ، ولذلك فإن هذه الحياة قد خضعت للاتجاهات الجديدة للظاهرة البيروقراطية . وحين ساعد التليفون على وجود الزبون أو صاحب المصلحة فى داخل المكتب (بصوته دون شخصه ، وساعد على الإسراع بالإجراءات، وعلى تقصير انتقال الدوسيهات ، وتقريب اللحظة التى يتخذ فيها القرار — حين يسر كل ذلك ، فإنه أحدث تحولاً أساسياً فى السيكولوجية التقليدية للإدارة . فلم تكن الإدارة تهتم قديماً بحساب التسويف والانتظار اللذين كان يبدو أنهما ضروريان ، وكان هذا الوقت الزائد يعتبر جزءاً من اختصاصها ، ويضيف إلى هيبتها . أما اليوم فالأوقات الضرورية لإنهاء العمل محددة فى ملصقات تحت نظر الجمهور ؛ والقانون يعين مدى معيناً ، وتواريخ كحد أقصى يمكن فى خلالها قبول الدعاوى والشكاوى . وغالباً مايبدو التنظيم البيروقراطى كنوع من التبرير لأى تأخير إضافى : ومعنى ذلك افتراض أن أصحاب الحاجات هم أيضاً فى عجلة من أمرهم . وقد بدأت الإدارة تشارك فى هذه العقلية على مستويين : مستوى الموظفين ومستوى الجمهور .

١ — فأصبح المكتب هو المكان الذى يحسب فيه للتوقيت أكبر حساب . فتوضع ساعة كبيرة فى مكان بارز لتدل كل واحد عن حالة انصرام يوم العمل . وبما أن ارتفاع الملفات أمام كل موظف يتعرض لتغيرات خلال اليوم ، فينخفض عندما يتقدم العمل ، ويعود للارتفاع عندما تأتى مجموعة أخرى من الملفات للفحص ، فإن رؤساء الإدارة يستطيعون بمراقبة هذه الحركة تكوين فكرة عن الإنتاجية التقريبية لكل موظف . ويمكن القول إن نمو العمل بنظام الفريق ، وتعيين توقيت محدد عاملان أساسيان فى زيادة سرعة العمل . ونلاحظ أيضاً أن تقدم الوسائل التقنية فى

إدارة ما — كاستخدامها البطاقات المثقوبة فى تحليل البيانات — قد ساعد وجعل من الضرورى المعالجة السريعة للعدد المتزايد من الدوسيهات . ولكى لا تكون هذه المعالجة سطحية ، يجب أن يتم الحساب بدقة متناهية ، مع ضغط فى الوقت . وتهتم مكاتب التنظيم والوسائل المنهجية بطبيعة الحال ، بحفز الإدارات المتقاعسة التى تؤدى إلى بطء الوزارة فى مجموعها ، وهو أمر لا يمكن احتماله . فالبيروقراطى الحديث يؤمن إذن بقيمة التوقيت الدقيق ، والبرامج ، وتحديد ساعات العمل . وهو يتبع فى ذلك التيار الطبيعى لحركة عقله الذى أصبح يميل إلى قياس الزمن فى كل مناسبة ، وسواء أكان ذلك فى البحث أم أثناء العطلة . وبدون أن يشعر يجعل من نفسه الناشر المتحمس لهذه الحركة .

٢ — أما من حيث صاحب المصلحة ، فإن المكتب يبدو فى نظره ، سخيف فى بطئه ، إذا ما قورن بالمصنع . والواقع أن الدوسيهات تستدعى الاتصال بين إدارات مختلفة ، كما تستدعى استبيانات ، وخبرات ، ومراجعات ، واجتماعات للجان . وكل خطوة من هذه الخطوات تأخذ جزءاً من الوقت . ومن ناحية أخرى ، فإن المكتب يحرص على نظام المواعيد (من حيث ساعة الفتح والغلق) ، كما يحرص على احترام الفترة التى يجب فى خلالها تقديم الطلبات (وهذه الفترة غالباً ما تكون غير قابلة للتحديد) . وهذه القواعد ، من مظاهر نفوذ المكتب التى يضن بفقدانها . فلا يقبل مطلقاً أن يتجاوز عن هذه القواعد وعن هذه التقاليد التى هى مصدر سلطته . واليوم يخضع المكتب لضغط مزدوج من ناحية الجمهور الذى يثور لأنواع التأخير والانتظار ، كما يتلقى بتفاؤل كبير كل وعود الإصلاح المتصلة بالإجراءات ، وتقصير الدورات التى تدور فيها الدوسيهات ، كما أن الرؤساء يحاولون حساب توزيع الميزانية بطريقة عادلة ، ولذلك فإنهم يتطلبون من إداراتهم قدراً أكبر من الكفاية الإنتاجية وإزاء هذا النسق المزدوج من المطالب ، تستجيب المكاتب لاتباع الدقة ، وقياس الزمن بوسائل أكثر إتقاناً ، وتسهم بذلك فى تغيير سلوك الجمهور الذى يتعامل معها فالحركة إذن ذات اتجاهين : إذ أن المكاتب توسع الميل نحو الدقة ، وتزوده ، فى

الوقت نفسه ، بالوسائل المادية ليصبح عنصراً مكوناً من عناصر الوجود الإنسانى .

ى — العقلية الاقتصادية وتقويم الزمن

العقلية الاقتصادية ، كما درسها « و . زمبارت » ترتكز على عدد صغير من المبادىء البسيطة التى تبرز قيمة الدور الذى يلعبه الزمن فى تحصيل الثروات : وهذه العبارة التى تقول « يجب أن نعرف كيف نختار الفرصة » تجعلنا نفهم أن الثروة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاختيار الحكيم للحظة المناسبة . ويقول المثل الدارج : « شيئاً فشيئاً يبنى الطير عشه » ، وهذا يعنى أن الاستمرار فى جمع الثروة ، مهما كانت بمقادير متواضعة ، يؤدى فى النهاية إلى الثراء (وفى هذا تبرير للادخار) . فالزمن إذن مصدر من مصادر الثراء (مثال ذلك الفوائد التى يحصل عليها رأس المال) . وتتميز العقلية الاقتصادية بالرغبة فى حساب كل شىء بالنقود ، وهى قيمة عالمية ، ويدخل فى ذلك الزمن الذى يمر ، كما تتميز بالخوف من الإنفاق بلا نفع لأحد الثروات التى تملكها ، والزمن بطبيعة الحال أحد هذه الثروات ويستخلص من التحليل الرائع الذى قدمه « زمبارت » أن رجل الاقتصاد المصرى (البورجوازى) قد حرص دائماً على استخدام الزمن بمهارة ، لأنه الوسيلة للحصول على أرباح أكبر والميل إلى الدقة ينبع مباشرة من هذه العقلية الاقتصادية .

فالزمن أولا مفهوم يستحيل ادخاره ، كما تدخر النقود والأشياء ، ومع ذلك فهو مصدر للثروة ، بما يسمح به من تراكم (ويمكن تشبيه ذلك بالشجرة التى تكبر وتحمل الثمار عاماً بعد عام) . وفقدان الزمن يجب أن يكون متناسباً مع أهمية النشاط الذى نزمع الشروع فيه : أى يجب أن تكون هناك معادلة بين ذلك الجزء من الزمن الذى نقيسه بالساعات ، وبين الربح المقدر الذى يعطينا ، فى الواقع ، مقياساً لأهمية النشاط . وتقلل التغيرات التقنية باستمرار الوقت اللازم لهذه العملية أو ذلك العمل الميكانيكى أو شبه الميكانيكى ؛ ومن ناحية أخرى نلاحظ تعدداً فى أوجه النشاط يسمح به هذا التحرر من ضغط الوقت ، وهذا يعنى بالتالى زيادة فى فرص الإثراء . وعلى هذا النحو أصبح الزمن ثروة اقتصادية ، كالثروات الأخرى ، يمرف

التقلبات في القيمة وفقا لطبيعة النشاط الذى نستخدمه فيه . والعلاقة مع الميل إلى الدقة تكون هنا علاقة مباشرة جداً . ومع ذلك فإن الزمن لا يمكن ادخاره بعكس ما يحدث مع الثروات الاقتصادية الأخرى . ولهذا فإن زمن الانتظار ، الخالى من النشاط ، يعتبر غرماً . ومن الطبيعى أن يكون الاختصار العام لأنواع الغرم ، وهو مرادف للتقدم الاقتصادى ، مصاحباً للحساب الدقيق للزمن ، وهذا معناه التوزيع الأمثل لأوجه النشاط بغية إلغاء الأزمنة الميتة التى تعتبر خسارة لا يمكن تعويضها . وحياة الأعمال أصبحت الدقة فيها ضرورة أكثر إلحاحاً من ضرورة قواعد التأدب بين الملوك . والزمن قيمته أكبر من قيمة المال ، فهو إذا لم يصرف فى فائدة أصبح مضيعاً ، ولا يمكن قط استعادته . فيجب إذن استنباط ألف فرصة لاستخدامه ويجب أن نثور أمام أنواع الانتظار غير المتوقعة : فالمالى الكبير غالباً مايصبح مزاجه عدوانياً إذا تأخر عليه خبر ينتظره . والاقتصاديون يجدون عنتا فى التفكير لأمد طويل ، عندما يفقد معنى التوقيت المحدد أهميته ، وذلك لأن النشاط الاقتصادى العملى بالنسبة إليهم ، إنما هو سباق ضد عقارب الساعة ، وإذا لم تكن هناك ساعة ، فليس هناك معالم للطريق ، وليس هناك تنظيم عقلى .

ومع ذلك فإن فكرة التنبؤ بالأحداث الاقتصادية من الأفكار الرئيسية التى تحتل مكاناً بارزاً فى النظرية الاقتصادية الحديثة : مثال ذلك : كيف يتصور رجال الأعمال تطور السوق فى المستقبل ، وحركة الصفقات ، والأجور ، وحساب الأرباح فى القروض المصرفية ، وإقفال الأسواق المؤجل وأثره على البورصات وما يترتب على ذلك من توقعات زمنية .

ويعرف الاقتصاد الحديث كذلك فكرة « التأخير » فى رد الفعل ، وتطور السلع المخزونة ، وهذا يصور ببساطة إدخال عامل الزمن فى التحليل الاقتصادى ، كما يتضمن الحرص على الدقة .

وقد أصبحت الفكرة الآن مفهومة : فهذا الميل إلى الدقة له نتائج يتعين علينا تحليلها فى شىء من التفصيل . فنلاحظ أولاً أن التفكير والتأمل الناضج ، ومناقشة

المسائل تتطلب وقتاً كثيراً ؛ وليس من المؤكد أن الرجل المصرى يعطى لهذه النشاطات الذهنية أهمية تبرر تكريس وقته لهذه الغاية . ومن ناحية أخرى ، فإن التفكير العميق لا ينهض به إلا عقل هادئ مسترخ . والولع بالدقة وتحديد الزمن مناقض لهذه الرغبة . فلا بد حينئذ أن تكون النتيجة حدوث تغيرات هامة فى العادات ، سوف نهتم بدراستها فى الجزء الثانى من هذا البحث .

وعلى كل حال فإن رجل الاقتصاد يحاول أن يوفق بين الدقة فى المواعيد ، والتفكير العقلى الذى يحتاج إلى وقت طويل . وهو أيضاً يدخل هذا الميل فى كل وسائل معيشته ، ويجعل من نفسه تجسيداً حياً لتطبيق هذه المبادئ : المواعيد تحدد لإنجاز أعمال ؛ والمحادثة تحسب بالدقيقة ، والتمييز واضح بين وقت العمل ، وهو جاد وهام ، وبين وقت الترويح ، وهو ثانوى يستغل فقط حتى لا يكون هناك فراغ تام فى اللحظات الضائعة ؛ والميل إلى الصحافة ذات العناوين السريعة ، كل ذلك يتحكم فيه المبدأ المزدوج ، مبدأ الدقة والسرعة . وهو فخور بأن يكون هذا المبدأ أساس « ديناميته » . ونلاحظ هنا الترابط بين الدقة والمقدرة الشخصية ، ويبدو ذلك ، منذ اللحظة التى يصبح فيها توزيع الزمن ، بحكمة ، نوعاً من المران ، ويصبح الزمن نفسه قيمة مسيطرة . أضف إلى ذلك أن الرجل الاقتصادى مرهق بالعمل ، ومحمل بأعباء المسئوليات ، من أوراق للإمضاء ، إلى مقابلات مع الزبائن ، إلى قرارات تتخذ ، إلى مراجعات للدوسيهات ، إلى مراقبة الموظفين إلخ... ومثل هذه الأعمال الكثيرة فوق طاقة الرجل العادى . ولا يمكن للإنسان الذى يدير أعمالا هامة أن يقاوم هذا المد من المطالب إلا إذا فرض على نفسه دقة صارمة فى المواعيد إلخ ... ومعنى ذلك أن الدقة تصبح أكثر فأكثر حاجة ملحة كلما صعدنا فى سلم المسئوليات والسلطة ، ولا تلبث عن طريق ظاهرة التقليد أن تنتشر بالعدوى إلى بقية الكائن الاجتماعى . وإذا كان الرجل الهام متعجلا ، فإن الرجل المتعجل يمكن أن يعطى تأثيراً بأنه هام . وقد يكون ذلك أحياناً الطريقة الوحيدة ليصبغ نشاطه بصبغة الجد. وعلى هذا النحو غالبا ما يكون الإرهاق تعلة ، أو كذبا اجتماعيا : ويلاحظ أيضاً

أننا كثيراً ما نعزو إلى الإرهاق أشيـاء كثيرة ، وذلك لما نشعر به من أن زحمـة العمل تبـدو عذراً مقبولا : وهذه سمة تلقى الضوء على الحياة الواقعية للمجتمع المصرى .

هـ — الحياة الاجتماعية الحاضرة : تعدد فى المعارف ، ودقة

فى المدن الكبرى نلاحظ تعدداً فى الأوساط التى يشترك فيها كل واحد كما نجد فيها أيضاً نزوعاً قوياً نحو تقبل الضغوط الجماعية التى ترجع إلى تلاقى الحاجات فى آن واحـد : ففى خلال فترة واحدة نجد الجميـع يشاهدون التلفزيون ، أو يشعرون بالحاجة إلى الذهاب للريف ، أو لمشاهدة فيلم معين إلخ ... ومنذ اللحظة التى يحاول الإنسان فيها أن ينظم حول نفسه حياة اجتماعية معينـة (كأن يخلق مناسبات للقاء بين أفراد يسير كل منهم فى طريقه الخاص فيما عدا لحظات اللقاء هذه) ، فإنه يؤكد الاعتراف بقواعد الدقة ، وذلك لسببين أوليين : فـكل واحد عنده قائمة بمواعيـد التزاماته التى يرغب فى الوفاء بها ، وهو إذن لا يستطيع أن ينتظر طويلا حتى يجتمع الآخرون . ويكفى أن يكون لدى البعض ميـل إلى الدقة حتى تقتبس الجماعة كلها هذا الميل إذا كانت ترغب فى إيجاد التفاهم . ولما كان كل واحد يشترك فى عديد من الجمعيات والنوادى إلخ ... ويحرك الجميـع حرص واحد على الدقة ، فمن المؤكد أن الفرد لا يستطيـع أن يهرب بنفسه من هذا الانفعال العام الذى يسيطر على الجميع ومن الأمور الهامة أن نلاحظ كيف يزعم الأفراد لأنفسهم أنهم « مشغولون جداً » بسبب التزاماتهم المتعددة الأنواع . فالذهاب إلى النادى ، ثم مقابلة هذه الجماعة غير الرسمية ، ثم حضور تلك الجمعية ، كل ذلك يؤدى إلى ضرورة تحديد جدول للمواعيد حتى يتسنى الاشـتراك فى كل هذه الاجتماعات ونـكرس لها فقط الوقت الذى يتفق مع أوجه النشاط الأخرى الاجتماعية . ولا شك أن الجماعة تقدر جيداً أن أعضاءها مشغولون . ولذلك فهى تحدد مواعيـد لآجال بعيدة بالقدر الكافى حتى تضمن اشتراك متوسط عدد أعضائها ، وبقدر ما نحدد قاعدة ثابتة للاجتماعات : أى كل شهر أو كل نصف شهر إلخ ... نجد أن الجماعة قد وضعت لنفسها نظاماً بحيث يعرف

كل واحد سلفاً كيف يتحرر من التزاماته الأخرى لكي يشترك في اجتماعاتها . وبذلك تصبح الدقة شرطاً للحضور الواقعي . ومن وجهة معينة ، نجد أن الانتظام في حركات جماعية أفضل من الفوضى التي تنتج عن اختيارات متناقضة . فإذا شاهد الجميع التلفزيون في المساء ، فإن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تنظيم لاتقاء المتاعب التي يمكن أن تحدث من ذلك « الحشد » . أما إذا خرقت الأنظمة الجماعية ، فإن المجتمع يفقد كيانه .

فالدقة إذن هي المناخ الاجتماعي لأنها الانفعال العام بين الجميع ، وهي تسمح للجميع بتنظيم حياتهم وفقاً لمتطلبات الحياة الجماعية الطاغية ، وكذلك وفقاً للالتزامات الاجتماعية المبرمة . ومعنى أن يكون الإنسان دقيقاً ، هو اعتقاده بأن أصدقاءه لا يحبون الانتظار ، فهو إذن صورة للاحترام الحاضر للغير . وليس هناك ما هو أكثر إزعاجاً من أن نظهر بمظهر اللامبالاة أمام لهفة الآخرين ، إذ أن ذلك يعني أننا نضع موضع الشك حساباتهم الدقيقة ، ونسخر من مبدأ حياتهم .

وعلى هذا النحو نرى أن الدقة هي حاجة وفضيلة في آن واحد . ونحن نحكم على الأشخاص تبعاً لدقتهم في كل مكان وفي جميع الأوساط . والذين لا تعني الرغبة في تحقيق الدقة لديهم أي معنى ، هم في الحقيقة نادرون . وهؤلاء يعيشون ، بلا شك خارج نطاق المجتمع الحاضر ، بعيداً عن انفعالاته وحركاته ، وخارج حركته التقنية التي تحمله نحو مصير لا يعرفه أحد على وجه اليقين .

و : خاتمة هذا القسم : عقبة الزمن

ينظر إلى الزمن في الحقيقة على أنه عقبة أمام تحقيق آمال الإنسان ، وهو أحد العوائق التي تمنع التنوع ، وتحول دون إشباع الاتساع العظيم لرغباته وآماله . فبينما هو يتطلع إلى الثقافة ، ويحب ممارسة الرياضة ، ويخطط لرحلات ، ويحلم بأعمال تجلب له النفوذ ، ويفخر بكل هذه الأوساط التي يتردد عليها ، وعدد أصدقائه ، تقوم عقبة تعترض التحقيق الكامل لمطامحه ، وأحلامه ، ورغباته : هي عقبة الزمن .

ولم يعد هناك مجال للكلام عن العقبات المادية : فوسائل النقل قد ألغت المسافات ،

التى غدت حقيقة مجردة ؛ كما أن التكنولوجيا قد تحكمت فى الظواهر الطبيعية ؛ فقهرت الليل بواسطة الإضاءة الكهربية ، وتغلبت على الجاذبية بواسطة الطائرة. وقد اختفت الحدود السيكولوجية منذ أن استطاع الإخصائيون تحريك الخيال ، واستثارة غريزتنا التى تتستر وراء الإعلاء ، واستدعاء الرغبات الخفية فى كياننا ، واستنبطوا عديداً من الدوافع لدفعنا نحو النشاط . وقد أصبحت كلمات مثل : الثروة، الثقافة، النفوذ، السعادة، الحب، ترمز إلى عالم دعائى يغزى بمتطلباته العالم الحقيقى. (أنظر: هنرى لوفيفر).

ولكن الزمن وحده يظل العقبة ، والحائط ، والحد : فكل نشاط يحتاج إلى زمن ، ولا نستطيع أن نفعل شيئين فى آن واحد . وفى نطاق الزمن يتحول المشروع ، وتتعدل الفكرة الأولى ، وتصبح البداية غير مشابهة للنهاية . وتحاول «الدقة» أن تضع الزمن فى جانبها ، وتعالجه كما لو كان الوسط اللازم لنشاطها ، وتكسبه موضوعية تيسر استخدامه لأغراضها ، وضمه نهائياً لمصلحتها . ويحاول الإنسان أن يدخل النظام فى حياته بترتيب سرعة وتعاقب أوجه نشاطه : وقد يكون فى ذلك خداع لنفسه . ولكن الذى يهمنا الآن هو أن نوضح مدى الآثار التى تحدثها هذه العاطفة فى المظاهر المختلفة لحياته .

٢ — بعض نتائج الدقة على الحياة اليومية

نعبر عن الميل إلى الدقة ، بطريقة عمليه ، بالاستخدام المتواصل للساعة الذى يمكن اعتباره أحد الشعائر ؛ وكذلك عن طريق الحساسية المغالى فيها بالنسبة لكل انتظار ليس له ما يبرره ، وعن طريق الشعور بأن كل نشاط له نهاية مدونة فى التوقيت الذى لا نستطيع أن نتخطاه إلا لسبب خطير . وما يميز عصرنا هو هذا المبدأ الذى اتسع نطاقه إلى خارج المجالات التى كان فيها ضرورياً بصفة موضوعية — وهى مجالات الحياة المهنية — حتى شمل قطاعات للحياة كانت قديماً تتحكم فيها الصدفة، والأهواء ، وحرية العمل : من ذلك مثلا وقت الفراغ الذى أصبح له مفهوم « سيولوجى » بقدر ما فقد من حقيقته الفردية .

ونحن نقترح إذن أن تقوم ، بالنسبة لكل مجال من مجالات النشاط الكبرى ،

بتحليل النتائج التى يمكن إدراكها بسبب الميل إلى الدقة . ولا نستطيع أن نذهب فى تحليلنا إلى درجة بعيدة من العمق بسبب رغبتنا فى الإحاطة بعدد كبير من المجالات .

(ا) فى الحياة المهنية : تضاعف هندسى فى الواجبات

إن البحث عن الدقة هدفه الجوهرى الذى لا جدال فيه هو تحرير الزمن ، وذلك بإلغاء الأوقات الميتة التى تحدث بسبب أنواع الانتظار عديمة الفائدة ، ولكن تحرير الزمن هذا يجعل فى الإمكان تحقيق عمليات أكثر من ذى قبل ، فى وقت مماثل ، ومعنى ذلك زيادة حجم العمل خلال اليوم . وهذه الزيادة فى المهام تضطرنا إلى أن نحسب بصرامة أكبر طريقة إنفاق هذا الوقت حتى نستطيع أن نواجه أى زيادة جديدة ، وهذا يحرر من جديد قدراً من الزمن يمكن استخدامه فى مهام جديدة . وهكذا نرى أن العملية عبارة عن حركة دائرية ، وأنها تغذى نفسها بنفسها ، وبكل تأكيد نستطيع أن نتصور أن الزمن الذى نحرره يمكن استخدامه فى المتعة أو التأمل أو الراحة ، ولكن هذا سيكون متناقضاً مع النزوع المزدوج « للمجتمع الصناعى » ؛ فعلى المستوى الفردى ، نجد أن الرغبة فى أجر أعلى تدفع الأفراد لزيادة الإسراع فى عملية تحرير الزمن واستخدامه لأن هذه العملية هى التى تعدهم بدخول أكثر ارتفاعاً على الدوام . وعلى المستوى الاجتماعى أو الجماعى ، لا يكون النمو الاقتصادى ممكناً إلا عن طريق مستوى أعلى فى العمل ، وعن طريق تحسين الكفاية الإنتاجية الكلية بدون تغيير فى مواعيد العمل . ومعنى ذلك أن الزمن لا يتحرر بالتوقيت العقلى إلا ليستخدم فى أعمال جديدة تتطلب مزيداً من الانتباه العصبى ، ومن التفكير ، ومن الذكاء ومن الآلات . ويجب أن نلاحظ أيضاً أن واجب الإنتاج يعتبر واجباً قومياً . ويراعى ذلك سواء فى روسيا السوفييتية (كما وضحه ستخانوف) ، أو فى الولايات المتحدة (كما وضحه تايلور وغيره) ، بمعنى أنه يعتبر ضد الروح القومية أى ميل للاستمتاع الشخصى بالوقت المتحرر مع نسيان مصلحة الوطن . ومن ناحية أخرى يجب أن نلاحظ أن يوم العمل عند « المسئولين » له

قيمة أعلى بكثير من الوقت القانونى للموظف فى المكتب أو العامل فى المصنع . إذ يجب إعداد العمل الذى سيوزع على العمال ، أو يقع تحت مراقبة الملاحظين ؛ ويتعين على المهندسين أن يفكروا فى أنواع التقدم الممكنة بالنسبة لثنائى « الإنسان والآلة » والذى قد يؤدى إلى كسب دقيقة عن كل ساعة ، وهو أمر لا يصح إغفاله . أما رجال الإدارة فإنهم يحاولون تبسيط الاستمارات التى تملأ ، وفى ذلك ما يؤدى إلى زيادة عددها فى كل « دوسيه » مع تلافى إزعاج الجمهور .

والاتجاه العام فى العالم يدفع إلى إنقاص ساعات العمل اليومي ، وعلى ذلك فلكى تحتفظ بالإنتاج فى مستواه ، أو نعمل على زيادته عن طريق سياسة واعية ، يصبح من الضرورى أن يكون وقت العمل أكثر إنتاجية ، أى زاخراً بالنشاط الفعال ، وأن يخضع لتوقيت مضبوط ، وأن يمتلئ بالعمل المثمر عن طريق إلغاء الأعمال الثانوية أو غير المجدية ، وهنا نجد أنفسنا أمام عامل جديد يشجع على تعميم الدقة ، بحيث تصبح صفة مهنية بارزة . كما أن السرعة فى العمل — سواء أكانت سرعة عاملة الآلة الكاتبة ، أم سرعة العامل المتخصص ، أم سرعة المهندس ـ أصبحت فضيلة لها تقديرها الخاص فى المجتمع الحديث ، وسبب ذلك واضح . إذ أنها تعنى كماً أكبر فى العمل فى وقت متساوٍ .

وهناك مسألة رئيسية فى هذا الموضوع : وهى أن الدقة يمكن أن تصبح وسيلة لإثراء الشخصية ، مادامت تمكننا من الاهتمام بأعمال متنوعة ، وترك محيط التخصص الضيق ، وتسمح لنا باكتشاف مظاهر متنوعة للعالم ، والانتقال من نشاط إلى آخر . فمن الناحية النظرية ، حين تتعدد الإمكانات — بفضل الدقة الصارمة التى تسمح بتحديد الموقف من الواجبات الحتمية المتضمنة فى ظروف حياتنا الاقتصادية — يمكن أن نعتبر ذلك أمراً مرغوباً فيه . ولكن من الناحية الواقعية ، ندرك أن هذه الإمكانات قد لا تتحقق أبداً ، وأن مقدار الوقت الذى تحرر عن طريق التقنية والحساب لا يستخدم إلا لتنمية جديدة لتلك التقنية وهذا الحساب . بل إن وقت « الفراغ من العمل » نفسه لايعتبر وقتاً حراً ؛ إذ يجب أن نطرح منه الوقت اللازم

«للاستجمام» وهو يستخدم فقط لصيانة الآلة الإنسانية حتى نجنبها الانهيار ؛ ويجب أن نطرح منه أيضاً الوقت اللازم « للتكوين المهنى » ، « واستعادة المهارة » ، وهى عمليات تتجه مباشرة نحو النشاط المهنى فى المستقبل ؛ ويجب أن نطرح من هذا الوقت الحر أيضاً ، الوقت اللازم للمقابلات والمواعيد وهى أحياناً من ضرورات المهنة (فى بعض الأوساط مثل الكتاب) ، وسنرى بعد ذلك أن هامش الزمن الذى يتبقى للتصرف الشخصى قد أصبح أضيق ما يكون . وفى هذا ما يفسر كيف يجب أن نستخدم هذا الهامش الضيق بمزيد من الحرص واللباقة والاقتصاد . وهنا نجد مرة أخرى أن مبدأ الدقة يفرض نفسه . ومن ناحية أخرى فإن هذا المبدأ الذى أصبح جوهرياً قد حال دون الاهتمام بنقد المحتوى أو الغاية من النشاط نفسه . فليس المهم هو الغاية من نشاطى ، أو الطريقة التى أؤديه بها ، أو الجهود التى أبذلها فيه ، أو النتائج التى أحصل عليها ؛ ولكن المهم هو اختصار الزمن إلى الحد الأدنى ، وهذا الحد الأدنى يجب أن ينخفض دائماً مع التقدم التكنولوجي . وعلم العمل — وهو ليس إلا تقنين هـذا النزوع — يهتم بصفة جوهرية بالمواقيت ، وبتحديد الفترات ، ويقل اهتمامه عادة بالمظاهر التى لا يمكن قياسها فى النشاط الإنسانى . فهناك إذن تركيز الاهتمام على عامل الزمن بصفة أساسية باعتباره معطية جديدة وغريبة ومثيرة . وقد تكون أنواع النشاط الجديدة غير ذات أهمية ، كما قد يكون الاهتمام بحساب الزمن عملا صبيانياً فى حقيقته (إذا اتفقنا مع وجهة نظر «زمبارت» فى حاشية بحثه عن البورجوازى) . ولكن كل ذلك لا يقلل من دهشتنا ، إذ نرى هذه النزعة تتحكم فى حياتنا ، ليس فقط فى مجال الواجبات المهنية ، بل وفى أنواع الترويح ، والحياة العاطفية ، وإدراك الوقائع اليومية ، وظواهر السياسة ، بل إنها تتحكم أيضاً فى نظام معتقداتنا الذى لم يوضع قط موضع الاختبار .

(ب) تنظيم الترويح

إن أبسط تعريف للترويح هو توحيده مع اللعب . فتقول إنه نشاط اتفاقى يجمع بين عدد من الأفراد ، وفقاً لأشكال « شعائرية » ، وذلك بغرض الحصول على

متعة معينة (حسب مصطلحات « هويزنجا » Huizinga في كتابه : الإنسان اللاعب Homo Ludens) .

وفى الحقيقة فإن هواية التصوير مثلها مثل فترات الأجازة من العمل ، يمكن أن تدخل تحت هذا التعريف ، وقد نستطرد طويلا إذا حاولنا إثبات ذلك بالتوضيحات فى كل هواية . ومن المؤكد أن مبدأ الدقة يرتبط منذ البداية بفكرة « اللعب » ، إذ أن اللعب يفترض بداية ونهاية وتمييز لدائرة اللعب عن الحياة اليومية . غير أن هذا المبدأ ما يلبث بالتدريج أن يدين حب اللعب نفسه ، لأنه يتعارض مع أغراضه ، ويغير من محتواه . فاللعب نشاط لا قيمة له ، وهو لا يتحدد بموضوع معين أو بهدف معين ، بل نقوم به فقط من أجل المتعة التى نحصل عليها منه ، بغض النظر عن أى نتيجة حسية . ولكن الميل إلى الدقة يوزع أجزاء الزمن حسب أهمية النشاطات التى ننفقه فيها ؛ ومعنى ذلك أن اللعب تنكره العقلية الحديثة ، ويتحتم على الدوام أن يبرر نفسه لأن العقلية الحديثة تتصف بنزعة قوية نحو « النفعية » التى يجب أن يخضع لها كل نشاط .

وأول نموذج من نماذج تبرير الترويح هو أنه « تثقيف للشخصية » ، و « إثراء للكيان الإنسانى » عن طريق القراءة ، والرحلات ، ومعرفة ما يدور فى صالات العرض الخ ... ومن هنا يتعين التمييز بين الترويح المفيد ، والإيجابى ، والخصب ، وبين الترويح السلبى الذى لا يعنى أكثر من تبديد الوقت دون جدوى ، وإفقار الشخصية (أنظر : ج دومازديه Dumazdier) . غير أن هذا الترويح الجدى ، الذى يتناسب مع ما ينتظره المجتمع ، والذى قد يبعث على الضجر بطبيعته ، وقد يكون غير محتمل لتملقه للغرور — هذا الترويح ليس بالضرورة مما يتفق مع جوهر الحرية وهو الاختيار الشخصى ، والهروب من دائرة النفعية ، والاشتراك فى نشاطات تختار اختياراً حراً ، لا من أجل قيمتها الاقتصادية ، بل من أجل أسباب ذاتية ترسم خطوط الأذواق الشخصية .

وهكذا نرى أن الدقة ، فى محاولتها اطرد ما لا قيمة له ، وغير النافع ، تتعارض

مع جوهر الترويح ذاته ؛ وتتعارض معه أيضاً من حيث طبيعتها الاجتماعية مادامت الدقة فى المواعيد أو التأخير تكون دائماً بالنسبة لمواعيد مع الآخرين ، أو مواقيت جماعية .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك حب الاستطلاع القوى الذى يميز الرجل المصرى فهو حين يحل فى مدينة غربية ، يرغب فى أن يرى كل شىء ، ويعرف كل شىء ، ويزور جميع الأماكن الطريفة التى يجدها فى الدليل ، ويكون مجموعة من الصور ، والتذكارات الخ ... وقد أصبحت السياحة اليوم عملية منظمة ، تخضع لتوقيت دقيق، وتحدد سلفاً خطوط سيرها ، ومواعيد الزيارات ، ومدد التوقف أمام الدير أو الكنيسة الخ... ويشمل التحديد زمن الرحلة ، وتشغل الأمسيات بملاهى باريس أو بمشاهدة أمستردام فى الليل . ولا يفكر أحد فى أن حساب الزمن على هذا النحو يحول دون المعرفة الحقة للبلاد موضع الزيارة : إذ أن هذه المعرفة تتطلب تكريس ساعات طويلة للمشى فى أحياء المدينة القديمة لكى يستعيد الزائر الإحساس بحياة القرون الوسطى ، كما تتطلب الفحص الدقيق للتماثيل التى تزين الكاتدرائية ، واستشعار تعبيرها عن العقيدة القوية ورموزها المختلفة للعواطف الدينية . فجميع هذه الأمور ليست موضع اهتمام السائح اليوم . وبمقدار ما يتحدالترويح مع المتعة — سواء بعمل فنى ، أو برواية أو بقصيدة ، أو بقطعة موسيقية ، أو بفيلم — فإنه يغدو مجرد استقبال واستسلام للسكاكن ، ونسيان للمشاغل المادية التى يتكون منها الواقع اليومى ، وتزكية للروح عن طريق الفن . وإقحام مبدأ الدقة فى موقف يتطلب الخشوع ، والانتظار ، واسترخاء النفس ، يلغى شرط المتعة نفسه ، ولا يحتفظ منها إلا بالقشور الخارجية والمظهر ، والفكرة العامة . ويجب أن نلاحظ ما تسهم به الخطابة ، واللغو ذو القيمة الثانوية فى موضوع الفن ، أو العمارة أو الموسيقى ، حين تحاول بالشرح أن تحل محل التجربة الحسية . وهذا أمر مفهوم؛ إذ أن الخطابة يمكن أن تسير وفقاً لقواعد الدقة ، على حين أن التجربة الجمالية تقع خارج الزمن وتنسى حركته .

وليست المتعة الجمالية قاصرة على الطبقات المثقفة كما تدعى البورجوازية ، بل إنها اتخذت أشكالا شعبية : كالأعياد ، والتمثيليات الدينيـــة فى العصر الوسيط فى ساحة الـكاتدرائية ، والحفلات التنـكرية . وقد كانت الانفعالات الجماعية تحت شعار الدين عملة رائجة فى أوروبا العصر الوسيط ، أو عصر الباروك أو عصر التنوير . ونستطيع اليوم أن نجد بديلا سريعاً لهذه المتعة فى الرياضة : وهى بكل تأكيد لعبــة للتنافس ولـكن ينظر إليها على أنها وسـيلة لاكتساب الأمجاد ، والتفاخر ، وتزكى أكثر فأكثر أنواع الصراع العنصرية والقوميــة . وبذلك أصبحت أداة للدعاية فى أيدى الدول ، وللإعلان عن المشروعات الـكبرى، ولم تعـد قط متعة يبحث عنها الإنسان لذاتها . ولاشك أن المكان البارز الذى تحتله الرياضة فى مجال الترويح الحديث يرمز إلى الدور الذى تلعبه « الدقة » فى أنواع المتعة والمسرات بالنسبة لإنسان عصرنا . ويعلق الناس عادة أهمية كبيرة على نتائج المباريات ، تفوق اهتمامهم باللقاء بين الفرق ، كما أن اهتمامهم بتسجيل الأرقام يفوق اهتمامهم بمتعة القفز أو الجرى . وتستخدم أبحاث البيولوجيا والطب والصـيدلة للحصول على مغامرات « مصطنعة » . وبذلك أصبحت الرياضة اليوم صناعة جادة تدر الربح ، وتغيرت طبيعة الترويح . وإذا كانت هذه المتعة هى التى تستأثر بأكبر درجة من الشعبية على النطاق العالمى ، فإن ذلك له دلالته الواضحة : فنى ممارسة الرياضة تـكتسب « الدقة » أنواعاً جديدة من السحر والاستحواذ على العقول والقلوب ، وتختفى طبيعة اللعب فى جوهرها .

فهل هذا اتجاه لا رجعة فيه ؟ يجب ، بلا شك ، أن نربط بين هذه الظاهرة وبين تطور العلاقات الاجتماعية تحت تأثير مبدأ الدقة .

ح ـــ دراما عدم الاتصـال : عوائق التعاطف بين الأفراد

يستلزم التلاقى بين الأفراد أن يكون هنـــاك « مضمون » لهذا النوع من العلاقات : فمن خلال الحديث يجب أن تمر الأفـكار ، والنوايا ، وأنواع الشعور ، والتساؤلات ، والتطلعات ؛ والتجارب التى يتم تبادلها . وباختصار فإن العلاقة بين كائنين لا يمـكن فهمها بدون مادة تستخدم كقاعدة للمشاعر التى تتولد ، وتنمو ، وتتحول الخ ... ولا يمـكن أن نتخيل علاقة شكلية صرفة .

ولـكن لـكي يمر هذا المضمون من خلال الـكلمات ، والنظرات الخ .. يجب أن يصحب ذلك التروى ، والاهتمام بالغــير ، وصحوة الانتباه ، ووضع النفس تحت الطلب ؛ ومعنى ذلك كله الحاجة إلى مزيد من الوقت .

ومن ناحية أخرى ، فإن العلاقات الشخصية تعرف بالارتفاع والانخفاض ، وتمر بأزمات ثقة وعدم تفاهم ، وبفترات تتصادم فيها الإرادات الخ .. وإذن فما من علاقة عاطفية إلا وتحس إحساساً عميقاً بآثار الزمن . فقد تـكون هـــذه الآثار ملائمة لنمو تلك العلاقة وازدهارها ، أو تـكون على العـكس قاتلة لها منذ البداية .

« والدقة » التى تبدو لنا كضرورة حتمية ، ليست دائماً من الظواهر المرغوب فيها فى هذا النوع من العلاقات . فلا شيء يتعارض مع تلقائية الاستجابات ، ولذة الالتقاء مع الناس « بمحض الصدفة » ، وجمال الفعل المرتجل وغير المتوقع — أكثر من الموعد الدورى ، الذى ينظم الرتابة والضجر المتبادل . إذ يكفى أن نعرف أنه يجب علينا أن نرى فلاناً من الناس ، حتى ولو كان صديقاً محبوباً ، كل يوم أحد ، حتى يقضى ذلك النظام على كل لذة فى لقائه . فعند هذا المستوى يكون لمبدأ « الدقة » كل المقدرة على إطفاء نزوعنا الطبيعى نحو التلقائية ، والصراحة ، مادام يتعين علينا أن نخفى عن الذين نقابلهم ما نحس به من الضجر الناجم عن العادة .

ونحن نعرف أن الانفعال ، أياً كان شكله ، يقضى على التفـكير فى المسـائل المادية ، وينسى لفترة من الزمن كل الضرورات ، والشروط الحسية ، والمشـكلات الخ ... ما دامت هناك عن قرب إشراقة الشخص المحبوب . ولـكن لا تلبث مراعاة « الدقة فى المواعيد » أن تدخل ، فى قلب هذا اللقاء ، فـكرة الهم ، وتعيد التذكير بالضرورات الخ . . . فمن ينظر إلى سـاعته بين حين وآخر ، لا يستطيع فى نفس الوقت أن يهتم بمحبوبته ، والاهتمام بكلا الأمرين ينشأ عنه صراع داخلى .

وتبرر الدقة نفسها بالاهتمام برؤية عدة أشخاص فى نفس اليوم ، حتى يواجـه الإنسان التزاماته المتعددة . ويخلق هذا نوعاً من الحرج عنـد التفـكير فى شخص

معين بشيء من الإمعان ؛ وما دامت الذاكرة تقوم مقام الإحساس ، فإن هذا الأخير لا يجد مكاناً له في حياة معبأة .

ونتيجة ذلك ، في غالب الأحيان ، الاختفاء الملحوظ للانفعالات في العلاقات المصرية : وتتضح لنا هـذه الفـكرة بمقارنتها ، على سبيل المثال ، بالانفعالات في قصص بلزاك : ففي القرن التاسع عشر ، كانت فتيات المجتمع الراقي يجدن فسحة من الوقت للتفـكير في دق أحلامهن ، وهـذا ما يفسر شعورهن الأكثر عمقاً ، وخيالهن الأكثر رومانسـية ، بل وحيلهن الأكثر حذقاً والأشد تعقيداً . لقد كان الغزل هو « لعبة المجتمع » ، ويجب أن يكون عند المرء استعداد عقلي لمثل هذه اللعبة ، وأن يكون عنده أيضاً كثير من الوقت .

وهكذا نرى أن هناك تطوراً في العلاقات العاطفية : فحيناً جعلنا من الضرورة والتحكم فضيلة ، اكتفينا بهذا التبادل السطحي والوقتي للعواطف ، الذي يشير إليه الشباب تحت اسم « الرفقة » ، والصداقة ، وهي في معناها السلبي تعني : فقدان الحب بأبسط معاني هذه الكلمة .

ولسنا نشك في أن التعاطف يتم ، وبسرعة كبيرة : فوقت المقابلة قصـير مما يتعين معه إظهار ميل تلقائي نحو المحادثات الودية ، والتآخي دون انتظار ،والتودد. وتعتبر قصص « فرانسواز ساجان » خير مثال على هـذا التطور في السلوك الذي حدث إما نتيجة للشعور بضيق الوقت ، والاهتمام بعدم تضييعه، وإما للحرص الشديد على الدقة . فهـذه الدقة قد أصبحت مستحوذة على قلب الإنسان ، بل إنها شغله الشاغل .

وما دام الوقت يعوزنا ، كما أن الاتصال يتطلب رقة في القلب ، وإرهاقاً في الشعور ، ورقة في المعاملة ، فإننا نـكتفي بنوع من الاتحاد الوحشي على أنغـام الأوركسترا الحديثة . وهذا الاتحاد يعني النشوة الجماعية ، وإلغاء الضمير تحت تأثير الموسيقي ، واختلاط الـكائنات في نوع من الحركات السريعة المصحوبة بالصرخات أحياناً . هذه الظواهر كلها معروفة ،وقد تعرّض لها الـكثيرون بالتحليل وفلسفة

عدم الاتصال بين الضمائر ، التى تعتبر عرضاً مقنعاً فى شكل نظام ، أكثر مما تعتبر فلسفة حقيقية ، أصبحت تمثل أكثر فأكثر هذه التحولات فى السلوك والأخلاق . ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة أن تصبح هذه الفكرة جزءاً من الميتافيزيقا اليومية ، كما لو كان الناس قد أحسوا بحقيقتها العميقة . ومن المحتمل جدا أن يكون هذا الانعطاف نحو الدقة هو أساس عدم الاتصال هذا ، بالرغم من أن الدقة ذاتها قد تكون منبعثة عن طائفة من العوامل ، وهى إذن ليست عاملا مستقلا .

(د) إدراك الحاضر وتأثير الدقة

من الناحية النظرية يسمح مبدأ الدقة بأن نتصور تطور حدث أو مجموعة من الأحداث كما لو كانت تتابعاً لمراحل ندرك مداها النسبى وقانون تتابعها . وقد بدأ فى وقت مبكر ، تطبيق هذا الإدراك الهندسى للزمن على الحركات الجماعية للمجتمع. وفى الحقيقة ، فإن تغيرات الظواهر الإنسانية خلال التاريخ — كحركة المواليد فى قطر معين ، أو التغيرات فى السلوك الأخلاقى الخ . . . — تخضع ، فيما يبدو ، لنوع من الانتظام ، الذى يختلف شكله بحسب الظواهر المدروسة ، ويطلق على هذا الشكل المركب اسم « حركة التاريخ » . (أنظر أبحاث جاستون بوتول عن الديناميكا الاجتماعية) .

ومن الأمور المغرية أن نجد أشكال هذا الانتظام ، فى عودة ظواهر بعينها فى تواريخ معينة ، أو فى التتابع المنتظم خلال الزمن لبعض مراحل التطور ، وفى ذلك ما يؤكد بطريقة امبيريقية ميتافيزيقا الزمن الهندسى وقد خضعت لتقنين العقل ، وعلى هذا النحو نجد التقاويم مثلا تخبرنا عن عودة الأعياد الموسمية ، أو عن مواعيد الاحتفالات أو إحياء ذكرى بعض العظماء ؛ وكل ذلك يعنى أن الزمن قد أتم دوره ، ويبدأ من جديد حركته . وهذا يرتبط ، بطبيعة الحال بمبدأ الدقة والتحديد العلمى للتواريخ والساعات . ومن ناحية أخرى ، نلاحظ نوعا من الاعتقاد فى تزايد سرعة التاريخ . فالفترات التى تمر فيها الظواهر تبدو أقصر ، كما أن عدد الظواهر فى فترة

معينة يتزايد ؟ ويكفى أن نقرأ الصحف لنجدها زاخرة بالكوارث ، والأنباء النابضة بالحركة ، والأحداث العظام . فحركة التقدم عموماً تسير بسرعة أكبر ، ولذلك فإننا نشعر بأننا نسرع نحو الشيخوخة . والفرق بين عالم ١٩٥٠ ، وعالم ١٩٦٠ ، إذا نظر إليه فى صورته العامة ، أكبر من الفرق بين عالم ١٨٨٠ ، وعالم ١٩١٠ حسب ما يرى معظم الناس .

وكل ذلك من شأنه أن يقنعنا بأن القانون الحالى للتاريخ يتسم بالسرعة المتزايدة بالنسبة لجميع الظواهر الملاحظة : فالتغير يحدث فى كل لحظة ، ولذا لا نكاد نجد مرجعاً ثابتاً يوجهنا ، ولا مقاييس طويلة الأمد نحكم بها على الأحداث الزائلة ، بل لا نكاد نجد وسيلة لمعرفة الحاضر نفسه ما دام هذا الحاضر سريع الازدهار والذبول . وإدراك الحاضر يصبح حينئذ ، وفقاً للأمزجة المختلفة ، إما دراميا وإما شاعرياً : فالبعض يرى أن المجتمع نفسه ، بوصفه هيكلا مستقراً نسبياً ، وبوصفه إطاراً للعلاقات الإنسانية الدائمة ، التى تتخذ شكل السنن والعادات ، والعلاقات المهنية ، والروابط الأسرية الخ . . . — هذا المجتمع لم يعد له وجود ، بحيث أصبح الحرص على الدقة هو المرجع الوحيد الممكن ، واللامتغير الوحيد . غير أنه لا متغير شكلى لا يستطيع أن ينظم الحركات الموضوعية للمجتمع . أما بالنسبة للبعض الآخر ، فإن عصرنا عصر مدهش حقاً ، إذ استطاع أن يحطم جميع الروابط ، ويولد حركة شاملة بالنسبة لجميع الكائنات ، والأشياء ، والأذواق ، والأفكار ؟ وما يعد بتحقيقه المستقبل ، فيه من عناصر الإثارة ما يكفى لترك هذا التشاؤم الغبى عند المتشككين .

وفى الواقع ، فإن كلا المعسكرين أو المبدأين يوافق على مفهوم واحد للحاضر ولكن كلا منهما يقترح أحكاماً وتنبؤات مناقضة للآخر ، هذا التعارض الذى نجده هنا ، هو فى نفس الوقت ، نوع من الاتصال الذى سبق تحليله بين عقيدة «السرعة» التى تنتهى إلى نفى كل انتظام وكل رتابة ، واسترقاق للزمن — وبين مبدأ «الدقة» الذى هو بالضبط هذا الاسترقاق للزمن. وقد رأينا أن كلا المفهومين يرتبط بالآخر ارتباطاً ديالكتيكيا ، إذ أننا نجرى بسرعة لنصل فى الوقت المحدد ، ولكيلا نقع

فى التأخير . وما نقرره كحقيقة أيضا ، هو أنه لـكل يظل الإنسان « فى الوعدالمحدد مع زمنه » ، أى لـكى يتابع تطوراته ، ويسير فى تيار حركته ، دون أن يقع فى التأخير — والويل لمن لا يستطيع المتابعة — يجب أن يتبنى سرعة العصر . ولا يهم أن تتزايد سرعة التاريخ فى الواقع بطريقة موضوعية : ففى التطبيق العملى ، يعتقد الضمير الجمعى فى حقيقة التغيرات السريعة ؛ ويجب عليك — إذا كنت لا تريد أن ينبذك هذا المجتمع — أن تشارك فى معتقداته ولو فى المظهر الخارجى .

واليوم ، قد أصبح مبدأ « الدقة » هو القاعدة العامة للجميع ، أو قانون العصر وهو حسب هذا التعريف يجب أن ينظم جميع أوجه النشاط ، ما دامت سلامتنا فى المجتمع تتوقف على الخضوع له . ومن ناحية أخرى ، فإن الظواهر الحاضرة بأ كملها يمـكن تصورها على أنها تـكرار ، أو تنوعات « ميلودية » على نغمات ثابتة : فالثورات تنتشر بطريق المحا كاة ، وبسبب الرغبة فى القيام بنفس الأحداث . كما أن الدول يقلد بعضها بعضاً ، فى العادات ، والتـكنولوجيا ، وأشكال الحـكومة . ومن وجهة النظر هذه ، لا يكون التاريخ إلا سرداً للمحا كاة المطردة للمخترع الأول. وهذا يعنى أن هناك أشكالا من الانتظام مؤكدة ، وأن جميع اللحظات ليست إلا نسخا لا تتغير كثيراً عن الصورة الأصلية . وإذا كان ما كس فيبر يعارض هذه النظرة لفلسفة التاريخ ، فإن الرأى العام يتلقاها بحرارة : وفى هذا ما يؤكد أن مبدأ الدقة عدو للصدفة التاريخية ، وللتفرد فى الأحداث ، وللأصالة الصرف فى كل مرحلة .

(هـ) عالم السياسة : السرعة ، والمـكرر ، واستراتيجيات الزمن

إن السياسة ، بصفة أساسية ، هى مجال أنواع المواجهة ، والتلاحم ، والسيطرة ، والعلاقات ، بين قوات متباينة ، إما متعادية أو حليفة ، بحسب مقتضيات الموقف ، وتبحث كل منها عن فرصة مواتية لتحقيق بعض الأهداف المحددة . وتحليل العلاقات بين القوى داخل « حقل » معين ، دولى أو قومى ، والاهتمام بصعود أو تدهور بعض القوى ، هو فى الحقيقة جوهر موضوعات الدراسة فى علم السياسة . وفى داخل هذا الحقل ، أو هذا النسيج من العلاقات ، (أو هذا « النسق » ، كما يجب تسميته

بعض مقلدى علم الاجتماع الوظيفى عند تالكوت بارسونز) — يضع محركو السياسة استراتيجيتهم ، ويقـومون بحساب الهجمات والردود ، ويوجهون التهديدات ، والتهديدات المضادة ، حيث يقوم الزمن بدور لا يمكن إغفاله .

ونحن نعرف أولا أن السياسة الحكومية ليست إلا نوعاً من التدرج الزمنى فى سرعة الإنجاز ، فكل المسائل تستحق أن تفحص بعناية ، ولكن بعضها لا يحتمل الانتظار ، إما لأن الرأى العام يمارس ضغطاً ؛ من هذه الناحية ، على الجهاز التنفيذى ؛ وإما لأن الأخطار أو المخاطر التى يتضمنها تأجيل هذه المسائل تصبح وشيكة الوقوع ؛ وإما لأن تأخير فحصها يجعلها فى كل يوم أكثر استعصاء على الحل . والحقيقة الهامة ، هو أن تكون الأجهزة التى فى الحكم مقتنعة بوجوب معالجة مسألة معينة فى الحال ، وإعطائها كل الاهتمام الذى تستحقه . وقد يعتنق حزبان نفس المبدأ ، بصفة إجمالية ، ولكنهما يختلفان على بعض المسائل التى تستوجب سرعة البت أو على ترتيب أهميتها . والعكس أيضاً صحيح . ولكن المهم ، بصفة حاسمة ، فى فهم أوجه النشاط الحكومية ، هو نظام الأولويات الذى يتقرر فى الواقع ، لأنه يفسر لنا الاستجابات ، وأشكال المبادأة .

غير أن المشتغلين بالسياسة لا يعملون فى عزلة عن بعضهم البعض ؛ بل إنهم يدخلون فى علاقات — غالباً ما تكون فى شكل نزاع — ويقدم كل فريق سُلّماً لسرعة الإنجاز مختلفاً عن الآخر ، مما يؤدى إلى سوء التفاهم ، والمناورات الخبيثة . ولكن ذلك قد يؤدى أيضاً إلى بعض التصحيحات والتعديلات فى السياسة . وفى الحقيقة ، فإن سلم الأمور العاجلة متحرك للغاية ، ويتنوع مع المواقف والظروف ، كما يعبر عن حكم ذاتى على الموقف العام وهو بطبيعته غير مستقر وغير مؤكد . والمجال العادى للتصحيحات ، والتقريبات ، والمناقشات ، والاحتجاجات ، والتعليقات ، وتصحيح الاختبارات ، هو الذى يغذى الساجلات السياسية ، وحياة الحكومات . وفى مثل هذه الأحوال ، يجب مواجهة الأزمات ، ومحاولات الانقلاب ، والأحداث الدرامية ؛ وقد تكون المواجهة عن طريق خفض قيمة بعض المشروعات ، أو التعديل التحكمى

لأحد التشريعات .... الخ . حيث تصبح سرعة البت هى العامل الحاسم لإحراز النجاح .

فالتحكم فى الزمن شرط من شروط النجاح السياسى ، ولا يصدق ذلك على اللحظة الراهنة فحسب — حيث نعرف كيف ننتظر رد فعل الخصم ، وكيف نعد له العدة فى اللحظة المثلى ، وكيف نرتب ، مثلا ، قرارتنا المختلفة التى تتألف منها سياستنا الإجمالية ، وكيف نستفيد من أثر المفاجأة (بإحداث الترابط بين العوامل المختلفة التى يسهم كل منها من جانبه فى إحراز النتيجة النهائية) — بل يصدق أيضاً على المستقبل ، إذ يتيح لنا السيطرة على النتائج ، واستمرار الجهد بالرغم من الجمود المبدئى الذى غالباً ما يكون سبب الفشل ، كما يتيح لنا تخطى مظاهر النجاح الجزئية والنظر إلى الهدف الأصلى الذى يتعين الوصول إليه ، وهو الهدف الذى يندمج فى سياسة أعم على الأمد الطويل . ومن الدروس الهامة فى « فن السياسة » التى يتعلمها رجال الدولة بالحدس ، معرفة توقيت الربط بين العمليات المختلفة ، وتكييف الأغراض الفنية بالظروف ، حتى ولو كانت غير متوقعة ، وسرعة هذا التكييف . وهنا تكون الدقة الصارمة جداً مصدراً للخطر ، إذ أنها تعنى احتقار الظروف العملية ، والجمود الضار بالنشاط ، والتعلق الزائد بالمظهر الشكلى أو الزمنى للعمليات السياسية . ومن هنا يمكن أن نستخلص أن إدخال مبدأ الدقة فى عالم السياسة يحدث فيه تغيرات عميقة ، وينجم عنه أخطار مؤكدة بالنسبة لنشاط رجل الدولة . ومن المؤكد أن هناك جزءاً كبيراً من الشئون العامة يمكن تسجيله فى تقويم (أو أجندة) : مثال ذلك « الشئون الجارية » و « المشكلات الفنية » التى يبت فيها الخبير ، ومثل هذه الشئون تفسر وجود بعض التنظيمات : كخطة السنوات الخمس ، وتقويم الميزانية وتحديد موعد أقصى للسوق العامة الزراعية ، وإلى حد كبير ، يمكن القول إن سياسة تصريف الأمور ، حيث يكون التحدى أقل قيمة من التنفيذ الجيد بواسطة جهاز متمكن — مثل هذه السياسة يمكن أن تقبل الدقة الصارمة التى تتفق تماماً مع طبيعة الشئون التى تعالجها وهى غالباً ما تكون اقتصادية .

ولكن يتبقى أمامنا المجال الهام للسياسة الاستراتيجية ، فسواء أكانت برلمانية أو نووية ، أو دبلوماسية ، فإن هذه السياسة محاولة لاستخدام الزمن فى صالحها .
وهناك ثلاث استراتيجيات يمكن تمييزها : الأولى سياسة الانتظار المتبادل (وتتمثل فى الحرب الباردة) ، التى تنهك الخصم ، وتضيع ثقته فى الزمن ، وتتركه يتوقع عدم الانتقال من التهديد إلى التنفيذ ، ومع ذلك تظل دائماً على حافة الخطر . واستراتيجية إنهاك الخصم هذه ، واستنفاد صبره تقف بين حدين : رفض اتخاذ المبادأة أو الهجوم لأن ذلك يكون غير مقبول أخلاقياً ؛ والخوف من الهجوم المفاجىء دون استخدام وسائل الردع . وهى ترتكز على مبادىء تعتبر مفاتيح لها ، مبدأ تصور السيناريو السياسى بحسب المواقف المختلفة والمحتملة (هـ - كان Kahn) ؛ ونظرية إبعاد اهتمام العدو الوقائية (الجنرال بوفر Beaufre) ؛ ونظرية الاتصال فىأوقات الأزمة (ر . أرون Aron) ، والتدرج فىوسائلالردع (ر . ماكنمارا) . وهذه المبادىء التى تعتمد كثيراً على سرعة ردود الأفعال المحتملة أو المطلوبة ، أمام الاعتداء ، كما تعتمد على تنوع الهجمات المضادة سواء أكانت آنية أم متلاحقة - تقوم فى النهاية على فلسفة للنشاط خلال الزمن ، حيث يأمل كل فريق أن الزمن يعمل لصالحه إذا كان أكثر حذقاً فى استخدامه .

أما الاستراتيجية الثانية الممكنة ، فتقوم على التخطيط الصارم لنظام دفاعى - إذا وضعنا فى الاعتبار هذا المجال - بحيث يدخل فى حيز التنفيذ فوراً بمجرد إشارة الخطر ، دون اهتمام بنيات الخصم وأنعاله ، وحينئذ فإن الدقة فى التنفيذ تكون ضرورة حتمية . ويمكن أن نتساءل عن قيمة هذا الإجراء ، إذ أنه يصدم ضمائرنا المعتادة على العلاقة المستمرة بين الخصوم ، تلك العلاقة التى تترك مجالا للاتفاق حتى ولو كان مؤقتاً . وفى هذه الاستراتيجية لا يلعب إدراك الزمن إلا دوراً ثانوياً . وفى النهاية ، فإن الأكثر صموداً ، والأكبر قوة ، والأكثر قدرة على مقاومة الهجمات ، هو الذى ينتصر .

أما الاستراتيجية الثالثة فهى منافية لكل منطق فى تتابع الأحداث ، وذلك

بقصد إحباط توقعات العدو ، وإخفاء النوايا الحقيقية ، وإذا لم يكن من الممكن هنا إيجاد علاقة بين هـذا الفعل وذلك الموقف المالى ، فإننا نستنفد جهدنا فى تخمين الأغراض الحقيقية للعـدو . والمفاجأة وحدها هى التى تحدث أكبر الأثر بشرط أن تتابع منحنيات السياسة بسرعة فائقة بدون أن يـكون لذلك سبب واضح ، وبدون أى نظام داخلى أو انتظام . وفى مثل هـــذه الحالة يـكون تطبيق مبدأ الدقة مصيبة كبرى .

وما قـــدمناه من التحليل يجب أن يقنعنا بأن مجال السياسة الذى ينطوى على الصعود والهبوط ، وعلى الأشياء غير المؤكدة ، وعلى حركات الاستقطاب والتباعد فى آن واحد ؛ والذى يسود فيه الالتواء ، والحـكم الذاتى ، — هذا المجال تتغير طبيعته تماماً إذا خضع لمبدأ الدقة . فهذا المبدأ يجب أن يظل دائماً بعيداً عن ديناميات السياسة ، وإذا تدخل فيها فإنه يحدث من الفشل أكثر ممـا يحدث من النجاح . فالزمن فى السياسة غير متساو ، وهو أحياناً فى سرعة متزايدة ، وأحياناً فى بطء ، أحياناً فى توتر ومواقف درامية ، وأحياناً يسير فى خمول ويأس . فإذا أدخلنا فيه عنصر الانتظام المصطنع فإننا ننـكر جوهره المتميز .

(و) أسطورة الدقة : من الضرورة إلى طريقة لتصور العالم

يبدو أن الأفعال الإنسانية تضيق ذرعاً بمبدأ الدقة ، ولا تقبله إلا كضرورة راهنة . ولما كانت هذه الضرورة موضع الاتفاق العام ، فإن أنواع العلاقات الاجتماعية فى أشكالها العامة تحـكمها الدقة . أليست هذه محاولة تضم « كرونوس » إله الزمن إلى جانب الإنسان ؟ . هناك كثير من الأساطير عن الزمن الذى يتوقف ليخـدم أغراض أحد الأبطال ، وعن الزمن الذى يأكل أبناءه (عن طريق الشيخوخة التى لا تعود إلى الوراء ، والموت) ؛ وكثير من القصائد الشعرية عن هروب الزمن ، وكثير من الفلسفات عن الزمن الذى لا يمـكن إرجاعه أو تعويضه . وفى مواجهة ذلك ، هناك كثير من الأساطير عن العودة الأبدية ، وعن « حمـــام جوفنس

« Jouvence »(١) الذى يصعد عائداً بتيار الزمن . وقد انتهت هذه التصورات إلى فكرة أن الله هو رمز الخلود ، وأنه خارج عن الزمن الذى يغير الكائنات ويحول العالم (على حد تعبير هرقليطس) . و هل لنا أن نرى فى هذا الاهتمام نموذجاً لفكرة قديمة مؤداها : أن الإنسان ، منذ عصوره الأولى ، مريض بالزمن ، ولا يتوق إلا إلى التخلص منه ؟ فهو يخاف أن يفاجئه الزمن ، ويعرف أن كل ساعة تمر تقربه من نهايته . وليس العالم إلا مشهداً لهذه المسيرة العامة نحو الشيخوخة ؛ فالأشجار تنمو ثم تموت ، والحيوانات أيضاً لها نهـــاية ، بل إن الجبال نفسها تتآكل تحت وطأة المطر .

وقد كانت دورات الطبيعة التى تعود بانتظام ، مثل دورات الفصول الأربعة ، ودورات أوجه القمر ، حافزاً للإنسان على تصور أنواع من التنظيم ، وعلى تأريخ حياته ، وعلى إنشاء التقاويم لمعرفة هذه القوة التى تبدو ككتلة خفية تسيطر على كل شىء ، وهى قوة الزمن .

فالتمسك بالدقة ، معناه التحكم فى الزمن ، وربطه بأفعالنا ، واستخدامه فى أوجه نشاطنا ، والقضاء على سره . ولا زال المستقبل ، على وجه الخصوص ، يثير تساؤلات ميتافيزيقية عند الإنسان ؛ فى الغد ، هل سأكون بعد على قيد الحياة ؟ من يستطيع أن يتنبأ لى عن مركزى بعد ثلاثة شهور ، وبعد سنة ، إن عرافة معبد دلفى لم تكن أكثر تعثراً فى تنبؤاتها من مخططى اليوم ، ولما كنا لا نستطيع أن نكشف سر هذا المستقبل الذى يثير الحيرة والقلق ، ويتحدى عقلنا المولع بالحقائق المؤكدة ، فإننا نستطيع ، على الأقل ، إنشاء البرامج التى تحيط بهذا المستقبل ، وتستخدمه من أجل العمل الإنسانى ، وتملؤه بأوجه النشاط ، وتجعله أكثر ألفة . فكل نشاط ، وكل مشروع يتخذ شكل رهان على المستقبل ، فمن ذا الذى يعرف ، بطريقة مؤكدة ، النتائج ، أو الآثار ، أو التوابع ؟ لكى يدفع الإنسان عن نفسه هـذا الضيق الذى

---

(١) جوفنس اسم لحورية حولها جوبيتر إلى نافورة ، وجعـل مياهها تعيد الشباب لمن يستحم فيها ، حسب ما ورد فى الأساطير اليونانية . (المترجم) .

يمسك بخناقه ، فإنه يحتمى وراء التقاويم ، والخطط ، والبرامج ، التى تبدو وكأنها ترسم معالم المستقبل . ويعتقد عصرنا الحديث أنه قد توصل إلى إدماج المستقبل فى مجالات نشاطه ، كما يعتقد أنه يتحكم فى الزمن الذى لم ينصرم بعد . وهو بذلك يريد أن يهرب من واقعه الحاضر ، والموقف المناقض أن هذا المستقبل الذى نهتم بحسابه لا يخرج عن كونه شبيهاً بالحاضر الذى نبتعد عنه .

ولكن هل بدأ فعلا زمن المستقبل الذى يعرف قبل أوانه ، ويماط اللثام عن أسراره ؟ وذلك مالا يخاطر المؤلف فى الإجابة عليه .

دوم جاك فرجييه

الآلة الإلكترونية فى خدمة الدراسات الإنسانية

ترجمة الدكتور أنور محمود عبد الواحد

أدى تضاعف المصادر الوثائقية (الكتب أو الأشياء) التى تستمد منها مختلف العلوم بياناتها إلى جعل الآلة أداة لاغنى عنها للعلم فى الوقت الحاضر .

وتتسع آفاق البحث اتساعاً متواصلا . فلقد وسعت العلوم التقليدية من مجال استقصاءاتها . مثال ذلك أن الدراسات اللغوية ، لم تعد مقصورة على بضع لغات ، بل أصبحت تشمل جميع اللهجات التى سبق التحدث بها أو يجرى التحدث بها اليوم فى جميع أنحاء العالم . وعلم الآثار مزود بطرق وأساليب للتنقيب لم تكن تخطر ببال أحد بالأمس وتستخدم فيه الطائرات والتصوير الجوى لتحديد المواقع . وبرز فرع بحوث الآثار البحرية ، الذى يستكشف قيعان البحار ، جنباً إلى جنب مع علم الآثار البرية . وظهرت علوم حديثة منذ وقت قريب نسبياً ، مثل علم الديموجرافيا (الدراسات الإحصائية للسكان) ، بل وهناك علوم حديثة جداً ، مثل علم النفس التجريبى . وكل هذه العلوم تدين بشىء أو آخر للدراسات الإنسانية ، ولا تقتصر على العلوم التطبيقية والصناعة ، بل والعلوم البحتة مثل علم الرياضيات ، وعلم المنهج ، وطرق التربية التى تدرب الطالب على الوصول إلى الحقيقة بنفسه heuristies ، لأن الباحثين بشر ، يتكاملون فى مجموعات ، ويقع نشاطهم الذهنى فى مجال علم النفس الاجتماعى .

وعلاوة على ذلك ، فإن نمو التوثيق ليس تطوراً تلقائياً أو عفوياً ، بل هو

نتيجة مجهودات تبذل عن قصد فى حماس بالغ . ولقد أصبح الإنسان واعياً لحقيقة مقلقة ، وهى أن المعطيات التى تشتغل بها العلوم ليست عرضة للضياع فحسب ، بل إنها تتلاشى تدريجياً مع مرور الأيام . ففى مجال اللغويات ، مثلا ، نجد أن لهجات الدول المتحضرة ولغات الشعوب « المتوحشة » فى طريقها إلى الاختفاء . ونفس الشىء حقيق بالنسبة لكل « ألوان الفولكلور » : كالعادات ، والموسيقى ، والفنون التشكيلية ، والملابس ، الخ . كما أن الحضارات « البدائية » فى طريقها إلى الزوال ، ويجد علماء الأجناس البشرية أن موضوع دراساتهم يتفتت أمام أعينهم . وفى علم الاجتماع ، نجد أن الملاحظات التى تجرى يوما ما ، فى عالم غير مستقر كعالمنا هذا ، تصبح مجرد معلومات تاريخية فى سنوات قليلة . ويشكو علماء الآثار من أن كثيراً من المواقع قد نهب بأيد غير خبيرة . ومع أن الاحتياطات تتخذ للاحتفاظ بالحفائر للمختصين فإن المختصين أنفسهم لا يأملون فى أن يستخلصوا من موقع ما كل المعلومات التى يتضمنها مثل هذا الموقع . وفى مجال الآثار القديمة ، نجد أن الاكتشاف يعنى ، على نحو ما ، الإتلاف والتدمير . ولقد فقد كثير من المخطوطات عن طريق إهمال البشر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، إذ كانت تستبعد بوصفها عديمة القيمة بمجرد نشرها فى كتاب مطبوع ، أو كانت تتبعثر عند موت أصحابها . وحتى فى وقتنا الحاضر ، نجد أن العناية التى تبذل للاحتفاظ بمخطوطات البردى والبرشمان القديمة لاتكفى لوقايتها من الحوادث التى تمحو محتوياتها باستمرار . والمبانى الأثرية تتساقط بالقدم ، وتؤثر حموضة الهواء فى التماثيل تأثيراً بالغ الضرر بها . وغنى عن البيان أنواع الدمار التى تحدثها الحروب . وحتى إذا استثنينا النكبات والكوارث ، نجد أن حادثاً عارضا ، مثل حريق أو عاصفة ، يكفى لإحداث تخريب لا يمكن علاجه .

وباختصار ، فإن الأشياء من جميع الأنواع تتعرض باستمرار لفعل الزمن المدمر ، وعلى ذلك تدعونا كل الدواعى لتجميع وفهرسة آثار الماضى قبل أن تتلاشى وتختفى . بل يمكن القول بأننا لا نعمل بالسرعة الكافية ، وأن القرون القادمة ستتهمنا بالإهمال والغفلة .

وإذا عرفنا مدى تقدم العلوم التقليدية وتطور العلوم الجديدة ، فإن عدد الوثائق يتزايد بخطى هائلة . إذ ينشر في كل عام حوالى مليونى مقال ، وعدة مئات الآلاف من الكتب ، ومن المرجح أن يزيد هذا الإنتاج إلى عشرة أضعافه فى بضع سنين . وعلى ذلك فإن الوثائق تتزايد فى متوالية هندسية ، وتتكاثر بمعدل أسى ، أى أن ازديادها فى كل لحظة يتناسب مع الحالة التى وصلت إليها ، أو مع دالة متزايدة لتلك الحالة . فهى تتبع منحنى يكاد يكون أفقياً فى أول الأمر ، ثم يرتفع تدريجياً حتى يكاد يتخذ فى النهاية اتجاهاً رأسياً [1] .

ويتناظر منحنى ازدياد الوثائق تناظراً جيداً مع الاكتشافات العلمية مع عدد الدارسين وهذا أمر طبيعى . ولقد أشار روبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer إلى ذلك بقوله ، « إن تسعة أعشار الدارسين الذين وهبتهم لنا الإنسانية منذ مولدها يعيشون بيننا اليوم . ولقد حققنا فى أربعين عاما من التقدم أكثر مما تحقق فى أربعين قرناً . ويرجع ٩٩ فى المائة من معلوماتنا ومعارفنا إلى رجال لا يزالون

---

(١) توجد معلومات طريفة للغاية تتعلق بتزايد الوثائق بقلم كود ومول R. Caude and A. Moles (مع عدة زملاء آخرين) فى

Methodologie vers une science de l'action (Paris, Gauthiers- Villars, 1964),

وبخاصة فى الفصل « Sociologie de l'action » بقلم ميجون ومول H. Migeon and A. Moles ورسومات بيانية لزيادة الباحثين فى معظم بقاع العالم (ص ١٩٢) ، فضلا عن صدى الاختراعات الهامة منذ القرن العاشر (ص ١٩٥) . وفى الفصل « Mise en ordre de connaissance » وهو بقلم دوباس J. Dubas الفقرة عن « Dèveloppement de la production documentaire » وهو أيضا مزود برسم بيانى (ص ٢٧٦). وفى مجالات كتلك التى نعالجها هنا ، فإن مصطلح « exponential » « أسى » يجب ألا يستخدم استخداما حرفيا . وفى شرح خصائص المتوالية نوه مول A. Moles (ص ٣٥) بأنه « عندما يفتقد المنحنى نسبيا إلى الدقة ، فإنه يصبح من الصعب غالبا الحكم عما إذا كان قطعا مكافئا $y = AX$ أو أسيا $y = e$

أحياء (١) . كذلك يتزايد عدد سكان العالم بسرعة ، بحيث تكاد تسير « الديموجرافيا الوثائقية » ، و « ديموجرفيا الاكتشافات » ، و « ديموجرافيا الدارسين » ، بل و « الديموجرافيا » البسيطة والسهلة ، بنفس الخطى تقريباً .

وفى مجال الوثائق ، كما هى الحال فى المجالات الأخرى ، يجب ألا يفزعنا هذا النمو الأسى ، ومن الخطر مع منحنيات من هذا النوع أن نكتفى بالتقدير الاستقرائى فإن الأحداث غير المتوقعة قد تتدخل وتعدل خطى التطور (٢) . فمن القرن (السابع — السادس) قبل الميلاد إلى بداية العصر المسيحى ، يبدو أن العلم الإغريقى قد تابع منحنى أسيا يشبه المنحنى الذى يواجهنا اليوم . ثم أدى وصـــول الرومان « البرابرة » إلى هبوط للمستوى الثقافى وإبطاء التقدم . وفى النهاية استفاد « البرابرة » الآخرون من ضعف الرومان فغزوا الإمبراطورية وتسببوا فى نوع من الانهيار ، ثم عاد منحنى الاكتشافات العلمية الهامة فى أوروبا الغربيه مبتدئا من الصفر تقريباً ، ولم ينتظم

---

(١) وهذا صحيح فقط فى مجال العلم بالمعنى الدقيق للكلمة حيث يعتمد التقدم وحده على الملاحظة والحساب والمشكلة مختلفة اختلافا كليا فى المجالات الكيفية البحت مثل مجالات الفنون ومن الواضح هنا أن عدد الروائع الفنيـة التى ابتدعها كبار الفنانين فى غضون الأربعين السنة الماضية لا يعدو أن يكون جزءاً ضئيلا جدا إذا قورن بكل ما تم إنجازه فى الماضى .

(٢) وفى العمل المشار إليه فيما سبق (هامش ١) يعرض كل من ميجون ومول فى صفحة ١٩٣ « مخاطر التنبؤ » بعرض منحن لعـدد العاملين فى صناعة الإنشاءات الكهربائية فى انجلترا . مع ذكر هذه الملاحظة : « من الواضح هنا أن من الخطر الذهاب بعيداً فى استكمال منحن أسى ، ذلك بأن النتيجة غير المنطقية تتمثل فى أنه فى عام ١٩٩٠ سوف تعمل كل قوة العمل الإنجليزية فى الإنشاءات الكهربائية ، بينما من الواضح الآن أن تأثير الأوتوماتية سوف يوقف هذا المنحنى بالوصول إلى حالة تشبع فى العمالة » . ومن الجلى أن المنحنيات التى قـدمها المؤلفان لتمثل نمو السكان الباحثين فى العالم (ص١٩٢) بدأت جميعا تميل نحو الأحداثى الأفقى (ماعدا المنحنى الخاص بالصين ، وهـو منحن حديث جدا) « فالاتجاه نحـو التشبع أصبح بالفعل واضحا » .

إلا فى القرن العاشر . ثم وصل فى القرن (١٧ — ١٨) إلى المستوى الذى بلغه الإغريق القدماء . ويصعد هذا المنحى حالياً فى اتجاه رأسى تقريباً ، وقد ينحنى تجاه الخط الأفقى إذا حدث نوع من التشبع ، وقد يؤدى نشوب حرب عالمية ذرية إلى هبوطه السريع ، تماما كما حدث نتيجة لتتابع الغزوات البربرية خلال الألف العام الأولى من العصر المسيحى . وحتى لو لم تتدخل نكبات أو كوارث ، فإن التزايد المذهل الحالى فى عدد الكتب ، والعلوم ، والاكتشافات ، والدارسين ، وآثار الماضى التى لم تستكشف بعد ، قد لا يحتفظ بخطوته الأسية إلى ما لا نهاية .

* * *

وأيا كان ما يضمره المستقبل البعيد ، فإن التوسع الهائل الذى نشهده اليوم ، والذى لا شك اننا سنشهده خلال الفترة القادمة ، قد دفع بمشكلة الوثائق إلى وضع بالغ الأهمية . والكمية الكبيرة فعلا والتى تتزايد باستمرار من المواد التى تخرجها لنا العلوم المختلفة يجب أن تنظم أولا وقبل كل شىء ، طبقاً لتصنيف تقريبى على الأقل[4] .

والكتب تجمع فى المكتبات . وإذا كان عدد الكتب قليلا نسبياً ، يمكن ترتيبها على الأرفف طبقاً للموضوعات . بيد أن هذا الأسلوب ، رغم أنه مريح جداً ، إلا أنه غير مرض تماماً ، حيث إن كثيراً من الكتب تتناول العديد من فروع المعرفة فى الوقت نفسه . وعلاوة على ذلك ، فهذا الأسلوب غير عملى فى المكتبات الكبيرة حيث تحدد الظروف تراكم الكتب بكيفية يصبح ترتيبها أمراً جزافياً إلى حد كبير . وعلى أية حال ، فإن أية مكتبة لا يمكن استعمالها استعمالا مباشراً ، بل يجب أن تسايرها مكتبة « خيالية » أو كتالوج ،

ومكونات الكتالوج ليست الكتب ، بل هى عرض وصفى يعطى خصائص

---

(١) قارن :

J.-C. Gardin, "Problems of documentation", in Diogenes, No. 11, Fall 1955, pp. 107-124.

الـكتاب : المؤلف ، العنوان ، الناشر ، التاريخ ، الخ . والذى يحدث فعلا ولسوء الحظ هو أن الـكتالوج لا يمثل بتاتاً محتويات المـكتبة بأكلها . فهو يغفل مقالات المجلات والدراسات المنشورة كجزء من أعمال أكثر شمولا واتساعا . والـكتالوج قد يشير إلى وجود أعمال منشورة على هيئة مجموعات ولـكنه لا يعدد محتوياتها ، لأن التحليل عملية تستنفد الـكثير من الوقت والجهد .

وقد يكون الـكتالوج على هيئة قائمة أو فهرس بطاقات . أما القائمة ، التى يضعها مجلد فمحكمة وسهلة النشر ، ولـكن يعيبها أنهـا كتالوج « مغلق » ، يتوقف عند تاريخ الطبعة ، ولـكى يكون وافيا يجب أن يستكمل بملحق ، وهذا الملحق لا بد أن يزود بملحق آخر فيما بعد ، وهكذا إلى مالا نهاية . وأما كتالوج البطاقات فهو «مفتوح » ويمكن استكماله باستمرار بإضافة بطاقات جديدة فى الموضع المناسب .

وأيا كان شكل الـكتالوج ، فإنه يبرز مشكلة أخرى : ما هو النظام الذى ترتب عليه العناصر التى تـكونه ؟ وأبسط طريقة هى النظام الألف بائى لأسماء المؤلفين (أو لعناوين الـكتب التى لا تعرف أسماء مؤلفيها) ولـكن هذا الحل يشكل موقفاً صعباً أمام الباحث الذى يرغب فى عمل دراسة ببليوجرافية . إذ يفترض فيه أنه يعرف مقدماً أى المؤلفين تناولوا المشكلة التى تهمه ، وفى هذه الحالة لن تعوزه المادة التى يبدأ بهـا . والطريقة الوحيدة لتجنب هذه الحلقة المفرغة هى تهيئة تصنيف نظامى حسب الموضوعات ، ولـكنهـا مهمة تتطلب من العناء ما يجعلها تترك غالباً فى حالة بدائية ، حتى فى المـكتبات الـكبيرة .

وترتب الأشياء القابلة للنقل فى متاحف أو مجموعات وهى أسهل ترتيباً « على الأرفف » طبقا لطبيعتها ، ومصدرها ، وتاريخها . الخ . ولـكن مشكلة إعــداد كتالوج تبرز هنا كما تبرز فى حالة الـكتب، رغم اختلاف الظروف. فالبطاقة الوصفية تسجل الخصائص الرئيسية للأشياء طبقا لشفرة Code سبق تقريرها . والأشياء التى لا يمـكن نقلها ، مثل المبانى الأثرية ، تترك بالطبع حيث توجد ، مع الاكتفاء بتجميع تقليدات لها فى مجموعات .

وحيث إن الأشياء التى تركها لنا الماضى قليلة العدد ، فمن الممكن إعداد قائمة كاملة لها وإنشاء مركز يجمع فيه كل ما هو مبعثر فى أنحاء العالم . مثال ذلك ، أن المخطوطات القديمة ومخطوطات العصور الوسطى محدودة العدد ، وإذا لم تكن قد فحصت بعد ، فإننا متأكدون على الأقل أنه لن تظهر مخطوطات جديدة منها . وعلى ذلك يمكن عمل حصر كامل لها . فلقد نشر لو Lowe ، فى الولايات المتحدة ، فى مرجعه Codices Latini Antiquiores حصر لجميع المخطوطات اللاتينية حتى القرن التاسع . وفى فرنسا نشر ساماران Samaran ومارشال Marichal حصراً للمخطوطات المؤرخة بعد القرن التاسع فى مرجعهما :

Catalogue des manuscrits portant une indication de copiste, de lieu ou de date.

ومما شك فيه أنه سينشر يوما ما حصر لكل المخطوطات اللاتينية بلا استثناء. أما المخطوطات الإغريقية فهى أقل بكثير من المخطوطات اللاتينية، لذلك فإن نشر حصر كامل لها أسهل وأيسر ، وهو عمل يقوم به حاليا الأب ريشارد Richard فى «معهد بحوث وتاريخ النصوص بباريس » .

Institut de Recherche et d'Histoire des Textes

ويطبق هذا الضرب من الحصر الإحصائى على كل أنواع الأشياء . فلقد نشر الأستاذان السويسريان بروكنر Bruckner وماريشال حصراً لجميع البرديات اللاتينية السابقة للقرن التاسع ، وتقوم السيدة جوتييه Gauthier فى ليموج لحصر أعمال المينا enamel الفنية فى جنوب أوروبا . ويشتمل « فهرس الفن المسيحى » Index of Christian Art الذى أعدته جامعة برنستون فى الولايات المتحدة على كل ما يتعلق بالفن المسيحى والأيقونات . وقد وضع هاير بألمانيا حصراً لأقدم المطبوعات. وحيث إن عدد المنشورات التى ظهرت منذ القرن السادس عشر محدود دائما ، فسيكون من المتيسر وضع فهرس بطاقات « عالمى » يشتمل على محتويات كل المكتبات الموجودة فى أنحاء العالم ، وإذا استكمل باستمرار أولا فأولا ، فإنه سيعطينا دائماً

فكرة واضحة عن موقف الإنسان من معارف الكتب . ولقد أصبح إنشاء مراكز الوثائق من خصائص عصرنا الحالى . ولن تكون المجموعات التى تشتمل عليها هذه المراكز وافية تماماً ، ولكن ذلك يعنى — على الأقل — أن هناك مجهودات تبذل لجعلها كاملة بقدر الإمكان .

وإذا تم تجميع المعلومات ، فإن الخطوة التالية هى استعمالها . والمرحلة الأولى فى أية دراسة هى إعداد حصر ببليوجرافى عن الموضوع ، وذلك للتعرف على المدى الذى وصلت إليه البحوث فعلا ، وعلى النقاط التى لم يتم استقصاؤها . ومشكلة الحصر الببليوجرافى ليست واحدة فى جميع العلوم . فتلك ذات الطبيعة « العلمية » ، والتى تستهدف حل مشاكل جديدة عن طريق صياغة القوانين، لاتهتم إلا بالأعمال الحديثة ، وبآخر الاكتشافات ، وبالكتب التى تصفها . وأى منشور يفقد كل اهتمام به بمجرد ظهور منشور آخر جديد يعيد تناول المشكلة . فالببليوجرافيات فى هذه الميادين تتلخص من المادة المتقادمة كلما تقدم العلم . فهى تتجدد ذاتياً بوساطة أسلوب من الإحلال والتجديد المتواصلين . وتتفاوت فى المضمون أكثر من تفاوتها فى المقدار . ولكن الوضع يختلف بالنسبة للدراسات « التاريخية » ، حيث يبذل جهد لإعادة صياغة الماضى عن طريق اقتفاء أثر تطور الأحداث وتتابعها. ولا يمكن للدراسة الببليوجرافية هنا أن تهمل أى شيء . فكل شيء سبقت كتابته له قيمته الوثائقية ، ولا يمكن استبعاد أى كتاب وبالرغم من أن صعوبات استكمال الوثائق ليست واحدة دائما ، بيد أنها كبيرة فى جميع الدراسات على السواء .

وتصنيف الوثائق فى المكتبات، والمتاحف ، ومراكز المعلومات تقريبى لا أكثر . وعلى ذلك فإن المخطوطات ترتب فى مراكز الوثائق حسب نظام المكتبات التى توجد فيها هذه المخطوطات . ولكى يتوافر لدينا فهرس حسب التواريخ ، والمصادر ، وأنواع الخط اليدوى ، الخ ، يلزم فصل الصفحات وتحويل النشرة إلى فهرس بطاقات. ولقد حقق ساماران وماريشال هذا بنشر « المخطوطات المؤرخة » على هيئة صفحات منفصلة مطبوعة من جانب واحد منها فقط . وتتيح المجلات النقدية — مثل مجلة

أو مجلة Scriptorium أو مجلة Revue d'Histoire Ecclésiastique اللتين تصدران في بلجيكا — البيليوجرافيات للباحثين ، غير أن هذه المجلات كذلك لا يمكن استخدامها بالشكل المناسب إلا إذا نزعت صفحاتها على هيئة فهارس بطاقات . ما الذي يلزمنا على الاستمرار في استخدام نظام القوائم الذي كان متبعا في القرون الوسطى ؟ أو ليس من الأفضل أن نقرر مرة واحدة ، وإلى الأبد ، نشر البيليوجرافيات على هيئة بطاقات فهرسية ، ومن عدة نسخ ، حتى يتمكن الباحث من ترتيبها بالشكل الذي يوافقه ؟ .

ويمكن القول بإيجاز بأن الوثائق المتاحة لنا اليوم وافرة إلى أبعد مدى ، ورديئة التنظيم ، وتتزايد بمعدل مذهل . وإننا لننوء تحت ضخامة المادة التي هي من الوفرة بحيث لم تعد قابلة « للعلاج » باليد ، ومن ثم فإنه يجب الاستعانة في ذلك بالآلات .

* * *

ولكن أية آلات ؟ يوجد منها ثلاثة أنواع . أولها بطاقات الفهارس التقليدية ، وثانيها الآلة الميكانيكية ، وثالثها الآلة الإلكترونية (١) .

فبطاقات الفهارس التقليدية — سواء أعدت بنظام تسلسلي للألفاظ الدليلية أو بالألفاظ التي تشير إلى الموضوعات والتي تتيح تصنيفات متعددة — هذه البطاقات هي فعلا نوع من الآلات ، وإن كانت طريقة تكوينها والإفادة بها تتم بالأسلوب اليدوي البسيط .

---

(١) وتعتمد الملاحظات التالية ، وعدد لا بأس من تلك التي تضمنتها هذه المقالة ، بصفة خاصة على محاضرة ألقاها جاردان .

Mr. J.-C. Gardin on March 18,1965 at the center of the Société d'Encouragement pour l'Industrie Nationale (44, rue de Rennes, Paris).

وعلى حديث تفضل به معي بعد ذلك ببضعة أيام . وإنني إذ أقدم شكري له ، آمل ألا أكون قد شوهت آراءه هنا .

أما الأجهزة الميكانيكية فمهمتها أساساً فرز البطاقات . ويمكن تشغيلها بأى مصدر من مصادر الطاقة ، كما يمكن إدارتها بذراع مرفقى . وهى عمليا تدار بمحرك كهربائى ، وهى لذلك « جهاز كهربائى » أو جهاز تزوده الكهرباء بقوة الدفع ، بينما تؤدى عملياته آليا (بوساطة حزوز ، أو تروس ، أو روافع الخ) . ولتمكين هذا الجهاز من مباشرة عملية فرز البطاقات فلابد من أن تمثل المعلومات المكتوبة على البطاقات ، وفقا لطرق مصطلح عليها ، بثقوب داخل البطاقات نفسها أو بعلامات على جوانبها ، الخ .

وتختلف الآلات الإلكترونية عن الآلات الكهربائية فى أن دور الكهرباء لا يقتصر — ببساطة — على أنه دور عرضى يتمثل فى إدارة ميكانيكية الجهاز التى تؤدى العمل ، بل إنها تنفذ العمليات بنفسها ، وعامل التشغيل فى الآلات الإلكترونية يتمثل فى تدفق الإلكترونات الذى يكون التيار الكهربائى ، كما أن أداة العمل هى قوة الدفع المغناطيسية التى تنتجها الإلكترونات ، والجزء الميكانيكى فى مثل هذه الآلة إنما يؤدى دوراً ثانوياً مساعداً . وتدخل المعلومات (سواء أكانت حروفا أم أرقاماً . أم علامات مصطلح عليها .. الخ) إلى الآلة فى شكل خروم — وفقا لشفرة تعد مسبقا — إما على بطاقات أو على أشرطة من الورق . وتنزلق هذه الأوراق المثقبة بين أسطح موجهة ومجموعة من « الفرش » مصنوعة من رقائق الصلب . فالأجزاء غير المثقبة من البطاقة أو الأشرطة لا توصل التيار الكهربائى بينما الأجزاء المثقبة تسمح له بالمرور . ومن ثم فإن الآلة تعمل بلغة ثنائية على أساس « الكل أو لا شىء » تبعاً لوجود العلامات أو انعدامها .

وهنا السبب فى أن حسابات هذه الآلات تؤدى إما على طريقة ثنائية بحتة (الترقيم القائم على الرقم ٢) أو على الطريقة العشرية الرموز لها ثنائيا (الترقيم القائم على الرقم ١٠ ويكون الرمز فيه لكل عدد بشكل ثنائى) . وتسجل المعلومات على أشرطة تدخل إلى « ذاكرة » الآلة التى يمكنها أن تتخذ أشكالا مختلفة — كالأسطوانة أو الأقراص ، الخ . والعمليات التى يجب أن تنفذها هذه الآلة تؤدى بنفس

طريقة التثقيب التي زودت بها الآلة بالمعلومات — ويتكون من الاثنين معا « برنامج » وتطبع النتائج في نهاية العملية بالحروف والأرقام العادية، أو حتى في صورة رسم بياني أو خطي .

وإلى جانب الآلات الرقمية التي تعمل بالأعداد أو بطريقة الكميات غير المتواصلة توجد آلات « تشابهية » تعمل بطريقة الكميات المطردة أشبه بعض الشيء بطريقة المساطر الحاسبة . ويطرد التقدم اطراداً سريعاً في هذا المجال من التكنولوجيا . فالآلة الحاسبة تتقادم بعد سنوات قليلة ، ولا بد أن يتكشف المستقبل عن إنجازات مذهلة في هذا الميدان [1] .

---

(١) الآلة الإلكترونية ثمرة نوع من التعاون بين انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا . وليس سلفها الحقيقي الآلة الحاسبة التي أوصى بها شيكارد (١٦٢٤) أو بسكال (١٦٤٥) أو ليبنتز (حوالي ١٧٠٠) التي هي أقرب ما تكون في اتجاهها إلى آلات الكاتب منها إلى الآلة التحليلية التي صممها الإنجليزي Charles Babbage حوالي سنة ١٨٣٠ . ولما كانت هذه الآلة سابقة لأوانها ، فإنها لم تشيد أبداً نظرا لأن الفكرة المبنية عليها كانت متقدمة جداً بالنسبة إلى الوسائل الفنية المتاحة وقتئذ في الصناعة . وأحيا فكرة باباج في الولايات المتحدة في سنة ١٩٣٧ أيكن Howard H. Aiken الذي بنى آلة الكترونية لمؤسسة
International Business Machine Corporation (I.B.M.)
وسميت (Mark 1) . ولقد قدمت في سنة ١٩٣٨ فكرة آلة تعمل بمصادر الكترونية بوساطة الأستاذ الفرنسي كوفينال Louis Couffignal . وكانت (Mark 2) آلة أيكن الثانية آلة كهرومغنطيسية وكانت أول آلة إلكترونية بحق من صنع إكيرت وموشلي y. P. Eckert and y. W. Mauchly في جامعة بنسلفانيا حوالي سنة ١٩٤٤ . وتبعت انجلترا الولايات المتحدة عن كثب ، حيث كان هناك مشروع تحت الدراسة في سنة ١٩٤٦، وشيدت الآلة في سنة ١٩٥١ . وفي فرنسا شيدت شركة Compagnie Bull آلات تعتمد على أفكار الأستاذ كوفينال . أنظر بصفة خاصة في تاريخ الآلات الإلكترونية في الولايات المتحدة .

El. Berkeley, Giant Brains, or Machines that thienk.

وانظر — على سبيل المثال — في مبادئ الآلات الإلكترونية وتشغيلها .

وتنتج الآلات الإلكترونيـة الآن من جميع الأحجام ، من الآلات الصغيرة المنظمة للجداول إلى الآلات الحاسبة القوية جـداً . ومن الخطأ الظن بأن الأجهزة الأكثر تعقيداً هي الأكثر فائدة في جميع الأحوال . وعند اختيار طراز الآلة لمهمة معينة ، يجب أن يوضع في الاعتبار أمران : السرعة ، والثمن ، أي النفقة في الوقت والمال ، والطراز الذي نختاره يجب أن يكون الأوفر في جميع النواحي .

ويمكن تداول البطاقات بواسطة جهاز ميكانيكي بسرعة أكبر من سرعة تداولها باليد . والجهـاز الإلـكتروني يعمل بسرعة أكبر ، ولعل عنصر السرعة هذا هو يبدو لنا بعيد التصديق .

ومن المبالغة بالطبع أن يقال إن الآلات الإلـكترونية تعمل « بسرعة الضوء » والتحضيرات اليدوية تستغرق أحياناً وقتاً طويلا قد يجاوز الوقت الذي يستغرقه

N. Chapin, An Introduction to Automatic Computers (New York, Van Nostrand, 1958),

وفي مجموعة

(Que sais-je ?) Paris Presses Univeristaires de France:

J. and J. Poyen, Le langage électronique (1960);

P. Demarne and M. Rouquerol, Les ordinateurs électroniques (1959);

B. Renard, Le calcul électronique (1960).

وأفضل وصف للأشكال المختلفة للآلة الإلـكترونية نجده في كتاب

François Gauchet, Roger Lambert and Jacques Violet, Le calcul automatique en psychologie (Paris, Presses Universitaires de France, 1965

ضمن مجموعة (Le Psychologue No. 22

والنص مزود بحوالي ٣٠ رسما بيانيا ، و ١٥ صورة ، و ١٠ جداول . ويعرض الجزء الأخير مثلا ملموسا لاستخدام الحسابات الأتوماتية في علم النفس . ولقـــد نجح المؤلفون في إعطاء شروح تفصيلية ومفهومة لغير المتخصص .

إجراء الحسابات نفسها . وهناك قدر معين من الوقت المفقود فى بعض العمليات التى تتم ميكانيكيا مثل فك الأشرطة ، وإدارة اسطوانات الذاكرة أو أقراصها ، وطبع النتائج . . . الخ ولكن الآلة ـ رغم هذه المعوقات ـ تؤدى عملية الحساب فى سرعة تفوق كل النسب إذا قورنت بالعمل اليدوى . وعلى سبيل المثال فإن الآلة الحاسبة IBM 7090 (التى صنعت فى ١٩٦١) — تستطيع إنجاز ٢٢٩٠٠٠ عملية جمع أو طرح فى ثانية واحدة . ولكى نحسب الفرق بين القيم النظرية والقيم المقاسة التى يستغرقها حساب الجاذبية الأرضية : فإن هذا الحساب يدويا باستعمال القلم والورقة يستغرق ١٠٠٠ سنة — بينما يستغرق هذا الحساب باستعمال آلة مكتب حاسبة ٥٠٠٠ أسبوع فى حين أن الآلة الحاسبة الكهرومغنطيسية (طراز ١٩٤٤) تستغرق ٣٧٥٠ يوما . وباستعمال حاسبة إلكترونية IBM (١٩٤٨) نجد أنها تستغرق ٥٠ ساعة ، بينما تستغرق الحاسبة IBM 704 (١٩٥٧) ٧٥ دقيقة .

ولكن العمل الذى تؤديه الآلة الإلكترونية مرتفع التكاليف . ويختلف مدى التكلفة باختلاف أنواع العمليات . وتكاد تكاليف تخريم البطاقات أو الأشرطة فى البداية وطبع النتائج فى النهاية أن تتساوى فى جميع الآلات . وتتناسب تكلفة دراسة البرنامج وإعداده تناسباً طرديا مع قوة الآلة . أما التكاليف التى تتطلبها معالجة العمليات نفسها فتتناسب تناسباً عكسياً مع حجم الآلة ، بمعنى أنه كلما زادت قوة الآلة قلت تكلفة أدائها للعمليات الأولية ، ولذلك فإن حصيلة الآلات الكبيرة تفوق بكثير حصيلة الآلات الصغيرة. وبدهى أنه كلما كبرت الآلة ارتفع ثمنها ، ويصدق هذا أيضا على تكاليف استئجارها . ولإعطاء فكرة عن التكاليف نذكر أن ساعة عمل واحدة تتكلف ٤ دولارات لجهاز جدولة صغيرة IBM ، و٢٠ دولاراً لجهاز أقوى ، و١٠٠ دولار لجهاز Gamma 50 Bull ، و١٠٠٠ دولار لأكبر جهاز موجود حاليا. ولكن لما كان ارتفاع تكلفة ساعة العمل للأجهزة يعوضه الوفر فى الوقت وازدياد الحصيلة ، فإن المسألة تنحصر فى اختيار الجهاز المناسب الذى يحقق الموازنة بين هذه العوامل المختلفة . فالحسابات المطولة تكون تكلفتها على الآلات الكبيرة أقل مما تتكلفه على الآلات الصغيرة .

ومن ناحية أخرى ليس من الصواب تشغيل الآلات لمدة طويلة فوق أقصى قدرتها . وعلى ذلك ، فعند اختيار الآلة تتمثل المشكلة فى العثور على الطراز الذى يتلاءم كلية مع المهمة المطلوبة .

ومما تجدر إضافته أن الآلة الإلكترونية غالبا ليست أكثر تكلفة فحسب، بل إنها أقل سرعة من الآلة الميكانيكية [1] وهذه بدورها قد لا تمتاز عن العمل اليدوى . وقد أظهرت التجارب التى أجريت ، مع أخذ هذه النقطة فى الاعتبار ، أن تحضر عدد من البطاقات يبلغ عدة آلاف يمكن أن يؤدى يدويا بكفاءة أكثر على سطح منضدة — بمضاهاة البطاقات بواسطة الشفافية أو ببعض الأساليب البسيطة . ويمكن إنجاز العمل بهـذا الشكل فى بضع ساعات وبأقل التكاليف ، بينما يستلزم إنجازه بوساطة الآلة وقتاً أطول وتكاليف أكثر .

---

(١) وفى ميدان فقة اللغة التاريخى المقارن ، نفذت عدة مشروعات لابأس بها تستحق الذكر لدقتها واتساعها بمساعدة الآلة الميكانيكية والعقل الإلكترونى . ونذكر بصفة خاصة ما تم تحت أشراف ديلات وايفرار .

Mr. Delatte and Mr. Evrard فى معمل :

Laboratoire d'Analyse statistique des Langues anciennes (University of Liege),

وقد وصفا عملهما فى مقال فى :—

Antiquité Classique, vol. XXX (1961), fasc. 2, pp. 427—442.

ولقد طبقت حديثا أساليب استخدام الآلات الميكانيكية حيث استخدمها تومبير Mr. Paul Tombeur لدراسة لغة وأسلوب مؤرخ العصور الوسطى Raoul de Saint-Trond وهو يشرح طرقه فى مقال بعنوان :

Application des méthodes mécanographiques à un auteur médieval in Archivum Latinitatis Modii Aevi. vol. 34. 1964. pp. 125—160.

وسوف ينشر مقاله فى المستقبل القريب برعاية

the Commission Royale d'Histoire de la Belgique.

وباختصار فإن من المنطق السليم أن نجرى جزءاً من « البحث التشغيلى » قبل تنفيذ العمل ، وأن نختار الوسيلة التى تلائم الظروف المحيطة أفضل ملاءمة دون خجل من العمل اليدوى حيثما يثبت أنه أبسط الحلول .

* * *

ولنفترض أن ضخامة المعلومات تبرر استخدام آلة إلكترونية — مع العلم أن ملاحظاتنا — مع بعض التعديلات الضرورية — يناسبها استخدام الآلة الميكانيكية أيضا . فالاختلافات من الفهرس الذى يعد بالتسجيل الأتوماتى[1] وبين التصنيف التقليدى المعد يدوياً — إنما هى اختلافات كمية أكثر منها كيفية . فالفهرس الأول يحوى معلومات أكثر ، وهو بالتالى يقـــدم إمكانيات أكبر فى التجميع والتصنيف لعدد أكبر من العناصر ولكنه هو انقضاء — فى التحليل النهائى — يتكون من كلمات دليلية مرتبة بنظام تسلسلى[2] .

---

(١) وننوه فيما يتعلق بالتوثيق الأتوماتى بمقال جاردان

J.-C Gardin, Etat et tendances actuels de la documentation automatique, الذى نشر فى مجلة

La Traduction automatique (Paris, 5th year. No. 1. March. 1964).

ويقدم المؤلف فى مذكراته بيانا بالكتب التى تتعلق بالعمل الذى أنجز فى الولايات المتحدة وفرنسا .

(٢) وانقد عالج فيكرى B. C. Vickerey استمرار ما يعرف بمشكلات « التصنيف » من الوثائق التقليدية إلى الوثائق الحديثة فى :

Classification and Indexing in Science (London. 1959)

وكذلك دى جروليه de Grolier فى :

Etude sur les catégories générales applicable aux classifications et codifications (Paris. 1962).

وفى التوثيق الأتوماتى يجب استخدام وسائل مختلفة للمادة الحرفية Literal والمادة غير الحرفية non—literal . فالمادة غير الحرفية عبارة عن أشياء تصبح أكثر شبها بعمليات الحساب بمجرد تحويل خصائصها إلى شفرة . أما فى حالة المعلومات « النصية »، أو النصوص المكتوبة بـ « لغـــة طبيعية » (اللغة كما يفهمها اللغويون : كالفرنسية والألمانية والعربية ... الخ) فإن البحث المستند إلى الوثائق أو جمع الوثائق تليها عملية أكثر دقة — هى عملية « تحليل الوثائق » ، التى تركز النص المكتوب فى « لغة وثائقية » أو « لغة المعلومات » . وهذه العملية تتم بالفهرسة التى تجمع بين عنصرين وتربط بينهما ، أولهما إعداد بيان بالكلمات الدليلية ، وهـذا البيان يمثل عندما يكتمل « كشافا للوثائق » ، ويحوى جميع الألفاظ الفنية المستخدمة فى علم معين ، وثانيهما إعداد مجموعة من الرموز تمثل العلاقات السيمانتيكية والبنائية للكلمات الدليلية ، ومن الواضح أن ملخصاً أو بياناً للكلمات الدليلية لا يمـكن أن يستوعب كل محتويات كتاب أو موضوع ما وإنما يتركز فى الهام منها . وعلى ذلك فإن قدراً من المعلومات سيفقد فى هذه المرحلة ، ولكن هذا عيب يجب قبوله كأمر لا يمـكن تفاديه. وبمجرد الانتهاء من فهرسة الموضوع فى لغة تسجيلية فإن الآلة تسجل النتائج فى شكلها الرمزى الخاص وبلغتها الخاصة .

وقوائم الكلمات الدليلية التى تلخص محتويات الكتب أو المقالات تمـكن من وضع البيليوجرافات بتصنيف كل الكلمات التى تعالج موضوعاً معيناً تحت عنوان واحد. غير أن الجزء الصعب فى العملية يتمثل فى إعداد مثل هذه القوائم . وقد جربت عدة وسائل للفهرسة الأتوماتية السريعة، ولكن العنوان وحده غير كاف، لأنه غالباً ما يكون مبهما جداً ولا يكشف عن حقيقة الموضوع ، كما لا يمكن للفهرس أن يقوم على أساس الكلمات الأكثر استخداماً ، ذلك بأن التجربة أظهرت أن هذه الكلمات لا صلة لها عموماً بموضوع العمل . وقـــد جربت وسيلة أخرى هى « التنويه أو الإشارة » : فإذا افترضنا أن المؤلف عادة مايشير إلى الكتب أو المقالات التى عالجت نفس الموضوع قبله ، فإن قائمة بالأعمال يشير كل منها إلى الآخر يمـكن أن تؤلف مجموعة بيليوجرافية

متكاملة الأجزاء تتعلق بموضوع معين، غير أن هـــذه الطريقة يبدو أنها لاتسفر عن نتائج مرضية . ويمـكن القول بصفة عامة إن جميع هذه الطرق السريعة التي تهدف إلى « قصر دائرة » عملية الفهرسة إنما يتجنب كل منها المشكلة دون حلها ، ولا يعطى أى منها نتيجة مرضية تماماً . وبعد عديد من التجارب غير النهائية وغير المثمرة ، فإنه ما زال على الباحثين اليوم أن يقنعوا بالملخصات والفهارس التي يعدها يدوياً قارئ ذكى . وربما نصل يوماً ما إلى « التسجيل الأوتوماتى » الـكامل ، ولـكن ليس من المتوقع تحقيق هذا الأمل فى المستقبل القريب .

* * *

تظهر مشكلة الترجمة الأتوماتية بمجرد تغذية الآلة بمجموعة الـكلمات الدليلية . وزيادة على ذلك فإن أكمل تسجيل آلى للوثائق لن يسد احتياجات الباحثين إلا إذا توج بالترجمة الأوتوماتية . فإذا ما انتهى إعداد ببليوجرافية موضوع ما، بقى الرجوع إلى الأعمال الواردة فيها . ولـكن الأعمال المـكتوبة بلغة لا يعرفها القارئ تمتنع عليه كما لو كانت غير موجودة أصـــلا . ويتعين على القارئ أن ينتظر ترجمتها . ولـكن من العسير الحصول على المترجمين الأكفاء ، كما أنهم يعملون ببطء وخدماتهم غالية التـكاليف .

لذلك فإن آلة الترجمة وحدها هى التي يمـكنها التغلب على هـــذه المعوقات الشديدة المضايقة ، وضمان وضع جميع الأعمال الهامة على الفور بين أيدى الباحثين مهما كانت جنسياتهم . وفى ظل هذه الظروف ستتقدم مختلف فروع المعرفة بسرعة أكبر ويسر أكثر[1] .

---

(١) وهناك مثال ، إن لم يكن حديثاً جـداً ، فهو رغم ذلك ذو دلالة عن صعوبات وعقبات تقدم العلم التي تخلقها ندرة المترجين . فى كتاب

Histoire générale des Sciences. vol. 2. (Presses Universitaires de France

الذى نشر تحت إشراف تاتون R. Taton ، فى الفصل الذى يعالج « الحاجة إلى الـكيمياء الحديثة » يضيف دوماس Mr. Daumas عند مناقشته لأعمال لافوازييه فى حوالى ١٧٧٠ =

والطريقة الأولى للترجمة الأتومانية ابتكرها العالم الروسي سميرنوف تروجانسكي في سنة ١٩٣٣ ، ولكن لا روسيا ولا غيرها من الدول أخذت بها ، وفي سنة ١٩٤٦ نفذ البريطاني أ . د . بوث A.D.Booth فكرة الترجمة الأوتوماتية ، ولعله قام بذلك دون أن يكون لديه سابق معرفة بما قام به سلفه الروسي ، ولقد اقترح على وارين ويفر من مؤسسة روكفلر صنع آلة للترجمة فقبل اقتراحه بحماس . وفي البداية فكر ويوث في الترجمة الأتوماتية كعملية مماثلة لحل رسالة مكتوبة بالشفرة ، ولكن سرعان ما تبين له أن المشكلة كانت أكثر تعقيداً أو أنها متصلة قبل كل شيء بميدان اللغويات. وكان هذا العلم في ذلك الوقت قد حقق تقدماً كبيراً أفادت به بحوث بوث وويفر . وقد عمل خبراء الإلكترونيات وعلماء اللغويات جنباً إلى جنب . وعقدوا في سنة ١٩٥٢ في الولايات المتحدة أول مؤتمر لهم ليتدارسوا مماً مشاكل الترجمة بالآلات.

وفي ١٩٥٤ أجريت في جامعة جورج تاون أول تجربة للترجمة من اللغة الإنجليزية. وقد حصلت هاتان اللغتان على الأولوية القصوى نظراً لأنه يمكن اعتبارهما بحق الممثلين للشرق والغرب ولأن أول عمل وأشقه قد أتمه باحثون ناطقون بالإنجليزية في أناة . ولم يدخل الروس الميدان ليلحقوا بالأمريكيين إلا عام ١٩٥٥ ، وهو العام الذي أصدر فيه وليم لوك و أ . د . بوث كتابهما الأول في هذا الشأن . ومنذ ذلك الوقت بدأت البحوث تجرى لا في أمريكا وانجلترا وروسيا فحسب — وهي البلاد الرائدة في هذا الميدان — بل وفي فرنسا وإيطاليا والدول الاسكندنافية واليابان ، وباختصار في جميع البلاد ذات المستوى الثقافي الراقي[1] .

= الحاشية الآتية : « وقبل هذه الفترة بوقت طويل ، نشر العالم الروسي لومونوسوف M.A. Lomonossov كتاباً ضمنة تركيب الأجسام والطاقة الحركية التي تغري الإثارة الجزئية وللأسف الشديد ، فإن كتاباته التي نشرت في روسيا ، لم تلق أي انتباه من الكيميائين في البلاد الأخرى . فلم يرد لها أي ذكر في النصوص الإنجليزية والفرنسية والألمانية لتلك الفترة . ولا شك في أن انتشاراً واسعاً لأفكاره كان من شأنه أن يدفع قدماً مستقبل الكيمياء الحديثة . »

(١) يوجد في الولايات المتحدة على الأقل عشرة مراكز للترجمة الأوتومانية ، وبخاصة في هارفارد ، وجورج تاون ، وبركلي ، ولوس أنجلوس ، وجمعية للترجمة الآلية . وفي =

ورغم مابذل من جهود كبيرة فى مختلف الدول ، فإن الترجمة الأوتوماتية لم تصبح بعد حقيقة قائمة ، ويشعر عامة الناس بإحساس المخدوع عندما يتبين لهم أن آلة الترجمة ، التى ظنوا أنها صنعت فعلا ، أو أنها ستصبح قريباً فى مجال التشغيل الحقيق ، لم تتم بعد وأن ذلك لن يتحقق غالباً فى المستقبل القريب . أما الاخصائيون

= انجلترا يمكن التنويه إلى كلية بيركبك(Department of Numerical Automation)
وكمبردج (Cambridge Language Research Unit)

ويبدو أن أكثر الأجهزة أهمية فى روسيا هو المعمل التجريبى للترجمة الأوتوماتية بجامعة لينتجراد . ويوجد فى فرنسا مركز Centre d'Etudes de la Traduction بباريس ، وآخر فى جرينوبل

The Association pour l'Etude et le developpement de la Traduction Automatique (ATALA).

وينشر هذا المركز مجلة La Traduction Automatique

أما فيما يتعلق بتاريخ وتقنية الترجمة بوساطة الآلة ، فإن أفضل مناقشة شاملة نجدها فى :

Emile Delavenay, La Machine à traduire, (Collection "Que sais-je ?" Presses Universitaires de France, 1959) and A.G. Œttinger, Automatic language Translation: Lexical and Technical Aspects (Harvard University Press, Cambridge, Mass., 1960

وفيما يتعلق بتفصيلات البحوث الحديثة فى الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وإيطاليا واليابان ، تراجع البحوث التى قدمت فى المؤتمر الدولى الأول لترجمة اللغة أوتوماتياً والإعراب اللغوى ، المنعقد فى الفترة مابين ٥ و ٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ فى .

National Physical Laboratory, Teddington (Middlesex).

ولقد نشرت التقارير والمناقشات باللغة الإنجليزية بوساطة

Her Majesty's Stationary Office (London, 1962).

وترجم منها إلى اللغة الفرنسية ١٤ بحثاً ونشرت تحت عنوان

Traduction automatique et Linguistique appliquée (Paris, Presses Universitaires de France, 1964).

وسيكون هذا الجزء أول مجموعة تصدر تحت رعاية ATALA

فإنهم — برغم مغالاتهم فى التفاؤل حيناً — قد حرصوا دائماً على التحفظ فى تنبؤاتهم . وقد ازداد تحفظهم هذا الآن بما يظهر لهم من صعوبات متزايدة مع تقدم العمل . على أن موقفهم الحذر ليس علامة على الفشل ، حقيقة إن التجارب التى سجلت فى المجلات الفنية ومجموعات المقالات تترك انطباعا من الاضطراب والتشويش، ولكن هذا لا يعدو أن يكون مظهراً خارجياً . ويختلف الأخصائيون على عدد من النقاط ولكنهم يتفقون فعلا على الاتجاه العام الذى يسيرون فيه ، فالترجمة الأتوماتية لا تسير فى الحقيقة فى طريق مسدود كما يدعى أحيانا ، ولكنها على الأكثر فى حالة ركود ، ثم إن بطء التقدم لا يثير الدهشة إذا أخذنا فى الاعتبار الصعوبات التى يجب التغلب عليها .

فلترجمة نص ما بوساطة آلة ، فإنها تغذى به كالمعتاد أولا فى شكل خروم ، وفى نفس الوقت تغذى الآلة بالقواميس وبقواعد اللغة ، وهى يجب أن تميز ، باللغة الأصلية ، معانى الكلمات وعلاقاتها البنائية — ثم عليها أن تجد فى اللغة الثانية الكلمات التى تحمل نفس المعانى وترتبها فى بناء سليم . وثانى هاتين المرحلتين ليست أدقهما . فبمجرد أن تستوعب الآلة مجموعة الكلمات فى اللغة ، ثم قواعد بناء الجمل ، فإن فى مقدورها أن تكون الجمل دون صعوبة كبيرة . أما العملية الأكثر دقة التى تقابلها الآلة فهى « فهم » اللغة الأصلية ، وذلك لسبب بسيط هو أننا لم ننجح بعد فى أن نفرغ العمليات العقلية — التى غالبا نؤديها بالحدس عندما نقرأ — فى صيغة منطقية لتستخدم فى الآلة . وفى ضوء القواعد اللغوية الدقيقة لا تظهر دائما بوضوح الوظيفة النحوية للألفاظ فى جملة ما ، ونحن نستنتجها من السياق العام . وفى اللغات التى تخلو من تصريف الأسماء كالفرنسية ، والإنجليزية والإسبانية . . الخ ، يعرف الفاعل والمفعول بصفة عامة من وضعهما بالنسبة للفعل . وقد يكون هناك أحياناً تغيير فى وضع الكلمة ، ولكن هذا لا يضايقنا ما دام دليلنا هو المعنى المقصود من الجملة . وعلى سبيل المثال ، إذا نحن وجدنا الألفاظ « يقرض » و « العظم » و « الكلب » ، فإننا ، مهما كان ترتيب الكلمات ، نفهم أن الكلب

هو الذى يقرض العظم ، وليس العظم هو الذى يقرض الكلب . ولكن كيف تفسر هذا للآلة ، ولعل الصعوبات السمانتية أى المتصلة بمدلول الألفاظ أكثر خطراً ، وترجع هذه الصعوبات إلى الكلمات المتعددة المعانى أى التى لها أكثر من معنى . وأكثر الكلمات شيوعاً ، لسوء الحظ ، هى الكلمات التى تتباين معانيها كثيراً . كما أن الألفاظ المجانسة ، أى الكلمات المختلفة التى تكتب بنفس الشكل تساعد على ارتباك الآلة ، وهو ما تفعله أيضاً مجموعات الألفاظ التى تؤلف كلا ، كعبارة « بالإشارة إلى » ، ولكن يمكن الفصل بين ألفاظها بكلمات أخرى للتعديل ، كما يمكن الإضافة إليها ، مثل « بالإشارة الخاصة إلى » أو « بالإشارة إلى . . . وإلى . . . » .

ولكل لغة مشكلاتها الخاصة . فالألمانية ، مثلا ، فيها ألفاظ مركبة يجب على الآلة فصل تركيباتها ، وهذه مهمة دقيقة وبخاصة إذا اختلف معنى الكلمة تبعاً لوضع الحرف الذى يسبب اختلاف المعنى ، عند إجراء عملية التقطيع ، فأضيف هذا الحرف إلى القسم الأول أو القسم الثانى من اللفظ المركب . فكلمة « Wachtraum » تعنى حلم اليقظة، إذا هى قطعت إلى Wach/traum . كما تعنى غرفة الحراسة إذا هى قطعت إلى Wacht/raum . وفى اللغة الإسبانية ينبغى إيجاد وسيلة لتمييز الضمير الذى يقع مفعولا من الفعل المتصل به ، فمثلا عبارة « dale » بمعنى (يعطيه) يجب فصلها على الآلة إلى da/le .

ولكى نحل الغموض الذى يكتنف دلالات الألفاظ ، يطلب إلى الآلة أن تفحص السياق . فكلمة Pièce الفرنسية تترجم « Gun » أى « بندقية » أو « مدفع » باللغة الإنجليزية ـ كما تترجم canon بالإسبانية ـ إذا كان الحديث عن الأسلحة . كما أن الكلمة نفسها تترجم coin أو عملة باللغة الإنجليزية ، كما تترجم moneda بالإسبانية إذا كان الحديث عن المال ، وكذلك فإنها تترجم room أى الحجرة بالإنجليزية و habitacion بالإسبانية إذا كان الحديث عن السكن . . . ألخ . وبرغم ذلك فإن الصعوبات بالغة حتى إن الآلات لا تزال تخطىء حوالى ثلثى الوقت . ولا يزال اللبس غالب الحدوث ، وليس هو الاستثناء كما يدعى المؤلفون المتفائلون .

وفى مواجهة هذه الصعوبات الكبيرة ، وأملا فى الحصول على نتائج أسرع بحث الباحثون عن طرق يوفرون بها على الآلة جزءاً من العمل ، وذلك بأن يؤدوه يدوياً . وتضمنت هذه الطرق إما حل الغموض فى دلالة ألفاظ اللغة الأصلية سلفاً وذلك من خلال إعداد « نسخة سابقة » أو « فهرسة تمهيدية » ، أو حلها فى اللغة النهائية عن طريق « نسخة لاحقة » تختار الحل من بين الحلول المختلفة التى تقترحها الآلة . على أن هذه الإجراءات قد استبعدت الآن ، وكما يقول مستر جاردن فإن محاولة الاختصار فى الترجمة الأوتوماتية ، كما فى التسجيل مضيعة للوقت ، وتحويل الانتباه عن المشكلة الحقيقية . ومن الأفضل كثيراً الالتزام بالطريق الرئيسية ومواجهة الصعوبات لإيجاد الحلول الصحيحة نظرياً . وليس هناك سبب يدعونا للتشاؤم أو التخاذل . « فإذا كان العقل البشرى يستطيع أداء عمليات معينة ، فليس ثمة مانع من جعل الآلات تؤديها » . وكل ما يجب عمله هو أن نحلل بعناية الخطوات التى يتبعها العقل البشرى فى قراءة وفهم نص ما ، وأن ندفع الدراسات اللغوية قدماً ، وذلك سيستغرق بعض الوقت ، والترجمة الأوتوماتية ، وفقاً للتكهنات الجارية ، لن تتحقق قبل مضى خمسة عشر عاماً . فلنتذرع بالصبر إذن . قال مستر جاردن مبتسما « لقد انتظرنا عدة قرون ، ويمكننا الانتظار خمسة عشر أو عشرين عاماً أخرى » .

ويجب أن نلاحظ أن مصممى آلات الترجمة قد خففوا من طموحهم . فقد عدلوا عن فكرة بناء آلة تستطيع ترجمة أى شىء ، وهم الآن يفكرون فى تصميم آلات متخصصة فى موضوعات معينة مزودة بقاموس مناسب . وهم يأملون فى أن يكون هذا القيد موقوتاً ــ إذ أن بعض الكتب تضم موضوعات مشتركة ، وكثير من الدراسات الإنسانية بطبيعته متداخل بعضها فى بعض ، فعلى سبيل المثال نجد أن العلوم الاجتماعية أو الدراسات الإحصائية للسكان تعتمد على التاريخ ، والقانون ، وعلم النفس والطب ، والرياضيات (الإحصاءات) . . . الخ . وعلى أية حال ما من شك فى أن الترجمة الأوتوماتية لن تحل أبداً محل الترجمة الأدبية لأنها لن تستطيع

أن تنقل دقائق الأسلوب ، وكل ما يطلب منها هو ترجمة للمعنى بدقة .

* * *

وأشد ما تفخر به الآلة من ميزات هى « السرعة » و « الأمان » . ولقد تكلمنا عن السرعة ، ولننتقل الآن إلى الأمان . فهم يقولون إن الآلة الإلكترونية « معصومة من الخطأ » ، وهذا صحيح تماماً ، إلا أنه لا يتحقق إلا إذا اتخذت احتياطات معينة .

ولم يعد هناك خوف من وقوع الأخطاء التى يمكن أن تعزى إلى الآلة ، ذلك بأن الطرق المستعملة لتفاديها أصبحت من الفعالية بحيث أمكن عملياً تلافى أخطاء الآلة . وإذا حدثت أخطاء فإن ذلك يرجع فى معظم الأحوال إلى الشخص الذى يستخدم الآلة ، ولا يرجع إلى الآلة نفسها .

فالإنسان عرضة للوقوع فى أخطاء منطقية عند طرحه للمشكلات أو وضعه للطرق أو استنباطه للنتائج . وواضح أن الآلة ليست هى المخططة ، فهى تنفذ العمل ولكنها لا تقوّم الطريقة التى تفرض عليها ، وهى تجيب عن الأسئلة ، ولكنها لا تحكم على مدى صلتها بالموضوع ، وهى تقدم الحقائق ، ولكنها لا تستخلص النتائج . وسنعود إلى هذا الموضوع عند ما نتحدث عن الخدمات التى يمكن للآلة أن تؤديها فى مختلف المجالات ، إذ أنه لا يمكن الحصول منها على أفضل النتائج إلا باستخدامها استخداماً حكيماً .

والأخطاء المادية يمكن حدوثها فى كل مرة تستوجب تدخل الإنسان. وللإقلال من فرص الوقوع فى الخطأ ، تطبق « الأوتوماتية » على أكبر عدد ممكن من العمليات ، حتى إذا شغلت العمليات أخذت مجراها دون تدخل . ولكن تدخل الإنسان لا يمكن الاستغناء عنه فى تحضير المواد والخطوات التمهيدية للعمليات . وفى هذه المرحلة يجب التأكد من عدم الوقوع فى الأخطاء . والواقع أن النقطة الحساسة ليست هى البرنامج ما دامت الآلة تراجع كل شىء عند ما تقوم بالتنفيذ ، وتوضح التنافر أو السهو إذا حدث أى منهما . وخطر الأخطاء يتمثل بصفة رئيسية

فى المعلومات ، والمرحلة الخطرة هى مرحلة التخريم .

ويتم تخريم البطاقات أو الأشرطة على آلة كاتبة كهربائية كبيرة . وهذه الآلة مركبة كالآلات الكاتبة العادية وتعمل مثلها ، ولكن مفاتيحها متصلة بجهاز آخر يقوم بثقب الحروم وفقاً لشفرة سبق إعدادها .

وما دامت السكرتيرة تقرأ النص مكتوباً على الآلة الكاتبة فى أثناء قيامها بالتثقيب فهى لا تعمل « فى الظلام » . ولكنها مثل كل العاملين على الآلة الكاتبة ، وبصفة عامة مثل كل الناسخين ، قد تخطىء ، وهى فعلا تخطىء . لذلك ينبغى مراجعة العمل وتقوم بهذه المراجعة آلة مصممة خصيصاً لذلك تسمى « المحقق » (Verifier) وهى تعمل على الوجه الآتى : يوضع الشريط أو سلسلة البطاقات فى الآلة ، ويجرى تثقيب آخر فوق الأول ، فإذا لم يتفقا رفض « المحقق » الاستمرار فى العمل . وعند نقطة التوقف سنجد أن خطأ قد حدث إما فى عملية التثقيب الأولى أو الثانية . وبذلك تتم مراجعة الخطأ فإذا كان قد وقع فى التثقيب الأول أجرى تصحيحه ، وعملية التصحيح تكون أسهل فى حالة استعمال البطاقات إذ يعاد إعداد البطاقة المعيبة ، وتضاف بطاقة أخرى تحمل نفس رقم البطاقة الأولى إذا اقتضى الأمر ، ولكن مع علامة خاصة لتمييزها . ويعتقد بصفة عامة ، أن نسبة احتمال الخطأ فى التثقيب الأول أقل من ١٪ وكذلك فى التثقيب الثانى . على أنه إذا مر النص خلال «المحقق» فإن احتمال الوقوع فى الخطأ تنخفض نسبته إلى واحد من عشرة آلاف ، وهى نسبة يمكن التغاضى عنها .

ومع ذلك فإن التجارب تظهر أن هذه التقديرات تحمل أحياناً مبالغة فى التفاؤل ففى سنة ١٩٦٠ حاولنا استخدام آلة إلكترونية « فى شركة بول » (Bull) لعمليات تتعلق بنقد النصوص ، وهى عمليات يؤديها يدوياً علماء فقه اللغة . وكانت الخطوة الأولى هى مضاهاة عدة مخطوطات لموضوع واحد ، حتى يمكن أن تعزل بالمقارنة « الأوتومانية » ما قد يكون فيها من اختلافات . (١)

---

(١) ولقد نشر الوصف التفصيلى لهذه التجربة فى مجلة Bulletin d'information de l'Institut de Recherche de d'Histoire des Textes, vol. 13 (1965).

ولم تنخفض نسبة الخطأ فى التثقيب الثانى الذى أعده « المحقق » أقل انخفاض ، بل على العكس ارتفع عدد الأخطاء إلى ١٠٨ خطأ (علامات خاطئة) بعد المراجعة ، بينما كان حوالى ٧٤ خطأ فقط بعد التثقيب الأول . وقد تكرر فى التثقيب الثانى نحو ٣٠ خطأ وقعت فى التثقيب الأول (وهى نتيجة غريبة تهم علماء فقه اللغة) ، تسعة منها تشكل عقبات هامة ، لأنها تضمنت حذف كلمتين كاملتين ، هما Fecit, Casu وقد أعيد تثقيب بطاقة صحيحة بطريق الخطأ ، وبذلك بلغ الإجمالى ٤٨ علامة خاطئة بضربة واحدة . وبإدخال بطاقات إضافية إلى الآلة ثقبت الكلمات بغير انتظام (أى بمسافات خاطئة) وتكرر هذا فى كل مرة . وأخيراً ، فإن عدداً من البطاقات التى أعيد تثقيبها لتصحيح خطأ واحد بها أدخلت خطأ آخر فى موضع مختلف كما يحدث غالباً فى دور الطباعة التى تستخدم طريقة اللينوتيب . وكانت البطاقات المعادة بمثابة تجربة أولى يلزم مراجعتها بإمرار النص كله من خلال «المحقق» مرة أخرى .

ومع أن نسبة الأخطاء التى تركتها الآلة كانت منخفضة ، فقد كان هناك عدد منها يكفى لعدم الاعتماد على النتائج كلية . وإن فكرة « وجود حد مسموح للخطأ » قد تكون مقبولة فى الأحوال التى يتأكد فيها أن الأخطاء تافهة ولا يتأثر بها العمل . ولكن كمبدأ أساسى يجب أن تكون المعلومات التى تغذى بها الآلة دقيقة للغاية . ومن بين مزايا المعالجة الأوتوماتيــة ، نجد أن عامل « الأمان » يفوق عامل « السرعة » ، لأن السرعة قد تصبح بلا قيمة إذا كانت النتائج غير صحيحة تماماً .

ولتلافى أخطاء الآلة ، كان على أن أعود إلى الطريقة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها ، وهى المتبعة فى قسم تسجيل الوثائق الأوتوماتى بمرسيليا الذى يديره جاردن وتتلخص فى المقارنة اليدوية بين النص الذى أعدته الآلة والأصول ، ثم مواصلة طلب تجارب جديدة ، كما يحدث فى دور الطباعة ، حتى يصبح النص خالياً تماماً من

التى يرأسها جلينيسون Mr. Glénisson، والمقال بقلم فروجيه Dom Jacques Froger وعنوانه "La collation des manuscrits à la machine électronique."

أما البرنامج المقارن فقد قامت به السيدة رينو Mme. Renault

الأخطاء وقد ، نفذت التصحيحات التى طلبت إجراءها تنفيذاً دقيقاً فى الواقع على التجربة الأولى .

وإنى لأتساءل إذن : ألم يكن من الأسهل أن أراجع التجربة الأولى للحصول على أخطاء أقل ؟ وهل « المحقق » بما يعطيه من إحساس كاذب بالأمان ، جهاز ضرره أكثر من نفعه ؟ إن الأخصائيين وحدهم هم القادرون على هذا الحكم ، فإنهم يعرفون على الأقل أن عملية « التحقيق » لا يمكن الاعتماد عليها إلا مرتين على الأقل .

* * *

إن الناس عموماً لا يشيدون إشادة كافية بإحدى المزايا الهامة للآلة ، وهى افتقارها كلية للذكاء . فالآلة لعجزها عن وضع منهج للعمل إنما تعمل بما تؤمر به فحسب بطريقة مادية بحتة . وهى لعدم مقدرتها على التفكير تضطر الإنسان الذى يستخدمها أن يبذل جهدا عقليا أكبر وأدق فى تحليل العمليات التى سيطالب منها إنجازها . ومن واجب رجل العلم ، من حيث المبدأ إذا هو عمل بيده ، أن يلزم دائما منهجا صارماً ،ولكنه — فى الحقيقة — أحيانا ما يدور حول الصعوبات التى تواجهه مكتفيا بالتقريب . ولكن الآلة ترفض فى عناد اجتناب الصعوبات كما ترفض إجازة عدم الدقة . وهى تتطلب تحديدا دقيقا لمعطيات للشكلة مع تنبؤ بكل ما يتوقع من احتمالات أو صعوبات مهما كانت تافهة . وهذه ميزة غالية ، وحتى لو كانت هى الميزة الوحيدة للآلة ، فهى تؤدى لمن يستخدمونها خدمة جليلة .

ففى مجال علم الآثار ، مثلا ، احتاج جاردن إلى استعمال الآلة لتصنيف عدد وفير من الأشياء التى وجدت فى الحفائر . وقد اضطر فى بادىء الأمر إلى إعداد قائمة دقيقة التفاصيل بكل خصائصها المميزة (١) . وبإتمامه هذا العمل استطاع أن يعالج عملية

---

(١) ويصف جاردان Mr. Gardin عمله فى مقال بعنوان .
"Cartes perforées et ordinateurs au service de l'archéologie." (Review La Nature, Nov., 1962. pp. 449 — 457.

التصنيف نفسها ، وهى مهمة ليست بالبساطة التى تلوح لأول وهلة ، إذ ينبغى « غربلة » جميع الخصائص المميزة الواردة بالقائمة لاختيار أكثرها أهمية ، وسينجح جاردن بالتأكيد ، فقد اجتاز عمله الآن مرحلة الدراسة التمهيدية ودخل مرحلة التجربة العلمية . ولكن حتى لو تبين أن صعوبات التصنيف عقبة لا تذلل وأصبح لزاما عليه أن يتخلى عن هذا الجزء من مشروعه ، فإن مجرد اضطراره إلى إعداد قائمة منطقية بالقطع الأثرية يمثل إنجازا بالغ الأهمية . وحتى إذا توقف عن العمل عند هذا الحد ، فإن محاولة استخدام الآلة قد أثبت فائدته .

والآلة تقدم نفس الميزات فى مجالات أخرى كثيرة . فالمجموعة الكاملة للفن المسيحى « Corpus of Christian Art » التى تضطلع بجمعها جامعة برنستون قد بلغت الآن أبعاداً تجعل من الضرورى الاستعانة بالآلة لمعالجة المعلومات المتضمنة . ولكن وضح عند هذه النقطة أن القائمة التى أعدت يدويا لم تكن بالدقة الكافية ، وسيكون من الضرورى أن يعاد إعدادها بأكملها ، وهو ما ينوى مديرو المشروع إجراءه ، محددين فى موضوعية أكثر كثيرا ، باللغة الوثائقية ، العناصر التى ستصنفها الآلة . ولتكون لدينا فكرة واضحة عن الالتباسات التى قد تظهر عند البحث فى فن الأيقونات ، فلنستعرض مثالا بسيطا : لوحة أو تمثالا يمثل امرأة تمسك بين يديها رأسا آدميا منفصولا . البعض يراها تمثل جوديث وهولوفيرن بينما يراها آخرون تمثل هيروديا ويوحنا المعمدان . فأى التفسيرين هو الأرجح ؟ . . ومثال آخر ، كيف يقرر المرء ما إذا كان مبنى إحدى الكنائس يمثل الطراز القوطى ، أو الطراز الرومانيسكى ؟ إن الذى يعد قائمة يدوية يجد حلا لهذا الغموض بفضل الحدس والتخمين ، والإحساس السليم ، والخبرة . ولكن هذا كله ليس كافيا ، إذ يجب أن توجد قواعد موضوعية ثابتة تستند عليها الآلة وليس مجرد معلومات تقريبية .

وقد حاولنا ، فى سنة ١٩٦٠ ، فى شركة « بول » للآلات ، أن نستخدم الآلة الإلكترونية فى مهمة تتعلق بفقه اللغة ، وتتمثل فى تصنيف بعض المخطوطات تبعا لمغايراتها (التى حصرت بفضل المقارنة الأتوماتيكية السابق وصفها) ، وذلك بغية

تتبع الصلات بين أصولها[1] . ويبدو أن هذا النقد الآلي سيؤدى خدمات جليلة لفقهاء اللغة لأنه سيوفر عليهم مشقة القيام بالحسابات . ولكن حتى إذا كانت هذه الطريقة لم تبرح بعد مرحلة التجربة للعملية إلى مرحلة التطبيق العملى ، فإنى لم أكن أضيع الوقت وأنا أضعها ، وذلك لأن استخدام الآلة ألزمنى بتوضيح عدد من الأفكار كانت غامضة من قبل ، كما ألزمنى بأن أعد فى شكل منطقى نقاطا منهجية كان يبدو أنها تدخل فى نطاق الحدس البحت .

* * *

ومادامت الآلة آلة حاسبة فإنها تعمل فى نطاق اختصاصها كلما كان العمل المطلوب هو تناول الأرقام والإحصاءات . وهذا معناه أنها معينة فى جميع المجالات ، لأنه يصعب الآن وجود مجالات لا تتضمن عمليات حسابية . والآلة تتيح لنا هنا الميزات التى سبق ذكرها ، وهى السرعة ، والأمانة ، وضرورة تغذيتها بالمعلومات والطرق بعناية ودقة .

---

(١) وصفت هذه التجربة فى مؤتمر Colloque International de Lexicographie المنعقد فى بزانسون Besançon فى شهر يونيه سنة ١٩٦١ ، مع شرح على آلة Bull فى كلية الآداب فى ستراسبورج .

وبخصوص الطريقة المتبوعة بعمل يدوى ، أنظر :

Dom Jacques Froger, "La critique textuelle et la méthode des groupes fautifs", (وهو تقرير قدم فى بزانسون) ومنشور فى Cahiers de Lexicologie, No. 3, 1962 ضمن منشورات كلية الآداب والدراسات الإنسانية فى بزانسون (Dr. M. Quemada) . والبرنامج المصمم من عمل بورويه Mr. Philippe Poré . وقد شرحه كل من بوريه والسيدة بوير Mme Poyen فى الاجتماع الثانى لهيئة AFCALTI المنعقد فى شهر أكتوبر سنة ١٩٦١ . ولأخذ فكرة شاملة عن المشكلة يمكن أن نوصى بالكتاب التالى :

La critique des textes et son automatisation (Paris, Dunod)

الذى ظهر فى سنة ١٩٦٦ ضمن مجموعة " Initiation " وهو من تأليف :

Dom Jacques Froger and Philippe Poré.

ولنأخذ كمثال علم الدراسات الإحصائية للسكان والعمليات البادية البساطة المتعلقة بإحصاء السكان : فالإحصاء السكاني يشمل قبل كل شيء معرفة العدد الإجمالي لسكان دولة ما . ولكن يطالب أيضا في العمليات الإحصائية تسجيل البيانات التي تكون دعامة الإحصاء ، وهي : الجنس ، السن ، المهنة ، الحالة الاجتماعية (متزوج / أعزب) . . الخ . والعملية ثقيلة بطيئة للغاية ، إذ أنها تشتمل على بيانات عن عشرات أو مئات الملايين من الأفراد (نحو ٢٠٠ في الولايات المتحدة و ٥٥ في بريطانيا و ٥٠ في فرنسا و ٣٢ في أسبانيا ... الخ) . والوصول إلى نتائج الإحصاء كاملة يستغرق عدة سنوات من العمل إذا استخدمت الوسائل الميكانيكية . وواضح في مثل هذه الحالة أن الآلة الإلكترونية هي السبيل الوحيد لحصول الإخصائيين الاجتماعيين على البيانات قبل أن يصبح بعضها على الأقل قديما لا يمثل الواقع .

والموقف لا يتغير بالنسبة لعلم النفس التجريبي وعلم النفس الاجتماعي وذلك من حيث صعوبة الجهد الذي يبذل في فحص البيانات التي جمعت من خلال الاستفتاءات . والعدد الكبير من الآلات الإلكترونية الموضوعة في خدمة الإخصائيين الاجتماعيين الأمريكيين يرجع إليها ولاريب فضل إنجاز العمل العظيم الذي أتمه هؤلاء الإخصائيون والسبق في مجال الحصول على نتائج استفتاء الرأي العام(١) . وقد حذا حذوهم علماء النفس الاجتماعيون في البلاد الأخرى فتوسعوا في استخدام العقول الإلكترونية ، ونذكر على سبيل المثال المعامل السيكولوجية الاجتماعية في كلية الآداب والدراسات الإنسانية بباريس(٢) .

---

(١) وفيما يتعلق بطرق ونتائج الإحصاءات الرسمية واستفتاءات الرأي العام ، انظر : (ثلاثة كتيبات) The handbook of Population Census Methods
وقد نشرها مكتب الإحصاءات بالأمم المتحدة The Bureau of statistics of the U.N.

(٢) يضم هذا المعمل الذي يديره باجيه Mr. Robert Pagés دليل مطبوعات أعضائه تحت تصرف الباحثين (آخر طبعة : ١٩٦٥) ، وهو يضم عدداً لا بأس به من الأعمال التي تتعلق بالطرق الرياضية واستخدام الآلات الحاسبة .

فى هذه الميادين يجب الالتزام التام بالاحتياطات المنهجية السابق وصفها .
فالأرقام تستخدم واستخدامها حتمى ، لأن العمل لا يمكن أن يكون علميا ما لم يقرن جانبه النوعى بعنزى كمى . ولكن إلى أى حد يمكن التعبير الصحيح بالأرقام عن ظواهر معقدة تشتمل على عوامل عاطفية ووجدانية . ألا يهدد التجريد — الذى يضطر الباحث إلى تكوينه — بتشويه الحقيقة الملموسة موضع الدراسة ؟ إن هذه أسئلة دقيقة ومثيرة للجدل(١) . على أنه قد يبدو معقولا أن نفترض أن عيوب منهجية رياضية فعالية فى الدقة ان يصححها العدول عن استعمال الآلة الإلكترونية ، بل جعلها تعمل بمزيد من الجهد . فمادامت الآلة تعالج الأرقام بسهولة ، فإنه يمكن استعمال عدد أكبر من المغايرات حتى تغطى حساباتها الأوجه العديدة لمسألة ما ، وبذلك تقترب من الحقيقة .

وينبغى أيضا ألا نجعل الآلة تغالى فى تبسيط صعوبات التأويل التى تنطوى عليها الإحصاءات دائماً ، مهما كان موضوعها . فإذا نحن أجرينا الإحصاءات يدويا ، فإن النتائج التى نحصل عليها تكون أرقاما ونسبا مئوية تعبر عن العلاقة بين نوعين من الحقائق أحدها يوقع على «الإحداثى السينى» وثانيهما على «الإحداثى الصادى» ، أو بين أنواع مختلفة من الحقائق توقع على خط بيانى . ولكن الإجابة التى نحصل

---

(١) ويتخذ الول Mr. Jacques Ellul فى كتابه Propagandes (Paris, A. Colin, 1962) موقفاً متشككا للغاية بالنسبة إلى صلاحية الطرق الرياضية فى علم النفس الاجتماعى ، ويذهب إلى أبعد من هذا حيث يستبعدها أيضاً فى فقرة خصصت للطرق غير المفيدة الموضوعة لقياس نجاح حملة دعاية (الملحق ١ ، ص ٢٩٤ و ٢٩٥ بصفة خاصة) . ولقد لاحظ (ص ٢٨٦ ، ملاحظة رقم ١) أن بعض المؤلفين الأمريكيين يفندون مقدمات استفتاءات الرأى العام . ومثال ذلك :

Blumer, " Public Opinion and Public Opinion Polling", in the American Sociological Review, 1948.

وانظر فى المشكلة ككل :

Sorokin, Fads and Foibles in Modern Sociology and Related Sciences, Henry Regnery and Co., Chicago, 1956.

عليها من هذه الحسابات لا تكون ذات دلالة إلا إذا أحسن وضع السؤال ، وإذا أمكن وضع الحقائق الإحصائية جنبا إلى جنب بكيفية معقولة . وقد تدل الأرقام على علاقة ما ، ولكنها لا تبين ما إذا كانت علاقة مباشرة أو غير مباشرة ، ولا تفيد فى الوصول إلى تأويل « سببى » . وعلى سبيل المثال إذا أجريت دراسة إحصائية عن الجذام وعلاقته بالأنهار والبحار ، أظهرت نتيجة الدراسة أن هذا المرض أكثر انتشارا عند الشواطئ . إلا أنه من الخطأ أن نقرر أن المياه هى سبب حدوث الجذام . فهذا المرض ينتشر فى المناطق التى تتاخم البحار والأنهار لسبب بسيط هو أن التكتل البشرى يكون أكثر كثافة فى تلك المناطق . والسبب المباشر للإصابة هو الاختلاط الجنسى غير الشرعى مع الافتقار إلى الوسائل الصحية ، وليس للمياه أى صلة بذلك : وبالمثل(١) أوضحت الإحصاءات أن عدد طلبة كلية الحقوق فى باريس يتفق وعدد الأفراد المشتركين فى التليفونات فى منطقة باريس بنسبة ٩ر٠ تقريبا ، لكن ينبغى ألا نستخلص من ذلك أن المشتركين فى التليفونات ملتحقون كلهم بكلية الحقوق أو أن طلبة الحقوق لديهم جميعا تليفونات . فإن الازدياد فى عددى الطلبة والتليفونات ينشط بسبب عامل ثالث هو ارتفاع مستوى دخل الباريسيين . ولذلك ، فالربط بين الإحصاءات يجب أن يتم تأويله بحذر بالغ ، مع اجتناب المطابقة السريعة بين العلاقات السببية ، وتشتمل الإحصاءات على نفس صعوبات التأويل إذا هى أجريت بالآلة. ومن الخطأ الظن بأن النسبة المئوية التى نحصل عليها باستخدام حاسبة إلكترونية تكون أكثر دلالة من تلك التى نحصل عليها يدويا .

والآلة ذات نفع كبير فى مجال الإحصاءات لأنها تستطيع معالجة قدر كبير من المعلومات بسرعة وسهولة ، وهى تيسر تناول عدد كبير من العينات ، وبالتالى إجراء عمليات المسح التى تتيح صورة أقرب إلى الحقيقة . وباستخدام التسهيلات التى تتيحها

---

(١) هذا المثال مقتبس من :

Philippe Mouchez, Démographie (Collection " Thémis ", Paris, Presses Universitaires de France, 1964), P. 134, note 1.

الآلة ، يستطيع الباحث أن يجرى دراسة إحصائية لمختلف أوجه ظاهرة معينة وأن يختار بذكاء من بين جميع الروابط التى تقترحها الآلة الرابطة الأكثر تعبيراً عن العلاقة المباشرة والسببية .

* * *

إن العرض المنتظم لأنواع المعرفة التى يمكن أن تسهم بها الآلة الإلكترونية فى معاونة الباحثين قد يطول سرده . ولذلك فسنكتفى على سبيل المثال بفحص مجال فقه اللغة بشىء من التفصيل . ففى هذا المجال الذى كانت جميع الأعمال تتم فيه حتى وقت قريب يدوياً وتبدو مستعصية على الآلة ، تلعب الحسابات الإلكترونية دوراً فعالا متزايد النجاح . والواقع أن الدراسات الأدبية تتجه باطراد إلى الاستناد على المسح الشامل ، والإحصاءات الدقيقة (١).

فإذا أعطيت لآلة إلكترونية اختباراً فى شكل تثقيبات ، استطاعت بسهولة تامة إعداد معجم للمؤلف بتجهيز قائمة بكل الكلمات التى استخدمها مع إحالاتها وأشكالها المختلفة . وهكذا استطاع «معمل التحاليل الإحصائية للغات القديمة بجامعة ليبيج» بإشراف ديلات وإيفرارد أن يعد معجماً للكلمات الصعبة الواردة فى أعمال سينيكا ، وفى جامعة « توبنجن » يعد الدكتور هوبنر قاموساً لجوته، وفى جالارات بالقرب من ميلانو يوجه الأب بوسا اهتمامه الخاص لجمع المفردات الشائعة فى مؤلفات القديس توما الأكوينى .... الخ .

على أن القاموس lexicon الذى يعد عن مؤلف ما ــ رغم فائدته ــ لا يعطى إلا معلومات جزئية فقط . وفهرس الإسناد الأبجدى concordance وسيلة أصلح

---

(١) والتفصيلات المتعلقة بالخدمات التى يمكن للآلة الإلكترونية أن تقدمها فى فقه اللغة وتاريخه واردة فى :

Dom Jacques Froger, " Emploi de la machine électronique dans les études mediévales,"in the Bulletin dela Société Internationale pour l'étude de la philosophie mediévale (Louvain), vol. 3 (1961, pp. 177—188.)

انظر أيضاً الأعمال المشار إليها سابقاً فى الهامش رقم ٦ .

كثيراً إذ أنه لا يقتصر على إيراد الكلمة (فى شكل معين) وإسنادها فقط، بل يورد أيضاً الجملة أو العبارة كلها التى استخدمت فيها الكلمة . وبهذه الكيفية يمكن فحص معنى المصطلحات من سياق النص المباشر ، ومقارنة الفقرات المتماثلة، كما يمكن دراسة أفكار المؤلف فضلا عن أسلوبه . والفهرسة الإسنادية للكلمات استنبطها الدومنيكان الفرنسيون فى القرن الثالث عشر لاستخدامها مع النسخة اللاتينية للكتاب المقدس . والمرء أن يتخيل ضخامة الجهد الذى استغرقه ترتيب الكلمات والعبارات المستخدمة فيها ، لا بحسب ورودها فى النص كما كان متبعاً ، بل فى ترتيب أبجدى وفقاً لأوضاعها المختلفة . ويقتضى هذا العمل بالنسبة للكتاب المقدس إعداد وتصنيف ٣٠٠,٠٠٠ بطاقة على الأقل ، ومثل هذا العمل مجهد للغاية إذا كان أداؤه يدوياً ، ولكنه ليس بالغ الصعوبة إذا تولته الآلة . ولذلك أخذ استخدام تكنيك « الفهرسة الأبجدية » يشيع ويطبق فعلا على مختلف المؤلفين ، مثل تيبولوس فى الأدب الكلاسيكى اللاتينى والقديس توما الأكوينى فى اللاهوت ، الخ .

وفضلا عن ذلك فهناك علاقة وثيقة بين الفهرسة الإسنادية وبين قاموس شامل ، فالقاموس الفرنسى Littré مثلا لا يختلف عن فهرس الإسناد الأبجدى إلا فى أنه يختار فقط استعمالات خاصة للكلمات بدلا من قائمة مطولة شاملة ، فهو إذن نوع مختصر من الفهارس الأبجدية للغة الفرنسية . كذلك لا مناص من أن يكون المعجم الذى يعد عن مؤلف معين له طابع الدراسة عن موضوع واحد . ولعل العمل الأكثر طموحا هو جمع مجموعة كاملة لمفردات الكلمات فى لغة ما بأسرها . وذخيرة اللغة الفرنسية Trésor de la Langue Française التى يجرى إعدادها فى مدينة نانسى يستهدف هذا الغرض . وقد خصص عقل إلكترونى كبير (Bull) Gamma 60 لجمع الأمثلة المأخوذ من الأعمال الأدبية فى شكل فهرس إسناد أبجدى . وستكون هذه الأمثلة بمثابة شواهد للقاموس التاريخى القومى Dictionnaire historique national.

والآلة قادرة على ما شئت من أعمال بهلوانية فى مجال تصنيف القواميس ، فمثلا

فى قاموس Tréor de La Langue Française تنتظم الكلمات بترتيب أبجدى وفقاً لحرف نهاية الكلمة لا بدايتها ، وهذه حيلة يسهل دراسة نهاية الكلمات والاشتقاقات . ولا شيء يحول دون ترتيب الكلمات وفقاً لطولها مثلا ، أو على أى أساس آخر . فبمجرد أن تسجل الآلة الكلمات فهى تؤدى بعدأى عمل تؤمر به .

والدراسات المعجمية التى أشرنا إليها تصاحبها وتكملها دراسات أسلوبية . فإذا وضعت المفردات الشائعة عند مؤلف ما جنباً إلى جنب مع أساليبه الكتابية ، أمكن الحصول على تصور لصفاته المميزة وهو ما يعبرعنه اصطلاحا بـ « اللازمات » habits، على أنه يمكن أن يطلق عليها أيضا « الطيف » Spectrum بلغة الفيزيائيين والكيميائيين . فمثل هذه اللازمات تكشف عن شخصية الكاتب كما يظهر تحليل المنشور البلورى لأشعة الضوء طبيعة الجسم وتكوينه الكيماوى ، عندما تصل حرارته إلى درجة التوهج .

والآلة الإلكترونية ، بمقدرتها على تقديم معلومات وإحصاءات دقيقة ، تسهل تحديد « لازمات » أو « طيف » المؤلف تحديداً أكثر دقة . فهى تكشف عن سمات متوارية فى نسيج النص ينقلها ولا شك الفحص بالعين المجردة ، وهى على أية حال تضفى على الملاحظات طابعاً أكثر موضوعية .

واستخدام الآلة الإلكترونية فى الدراسات الأسلوبية تثير اعتراضا واحداً فقط ، من السهل الإجابة عليه . فدراسة الأسلوب وقواعد اللغة لمؤلف ما، تستوجب أولا فهرسة النص ، بمعنى وجوب إضافة علامات اصطلاحية تتضمن طبيعة ووظيفة الكلمات بالإضافة إلى كل النقاط الأخرى التى سيطلب إلى الآلة اختبارها . وهذه عملية دقيقة تستغرق وقتا طويلا ، ولا يمكن أن يتناولها سوى الإخصائيين . فهل هى تستحق هذا الجهد ؟ عند محاولة الإجابة عن هذا السؤال يجب التمييز بين نوعين من الحالات ، إذا كان موضع الدراسة عنصرا أسلوبيا واحدا ، أى إذا أريد مثلا بحث موقع « الفاعل » و « المفعول » بالنسبة بالفعل لدراسة تغيروضع الكلمة فقط . فمن الأسرع ولاشك أن تختار باليد المعلومات التى ستكون أساسا للإحصاءات

على أن استخدام الآلة يصبح مفيدا جداً إذا تطلب الأمر إعداد فهرس كامل يشمل تفصيلات عديدة مما يسهل على الآلة الإجابة عن عدد كبير من الأسئلة المتنوعة ، سواء ما يهم الباحث الأصلي أو يهم غيره من علماء فقه اللغة في المستقبل .

ونوع العمل المعجمي والتحليلي الذي تستطيع الآلة أداءه يعاون فقهاء اللغة في نواح متعددة وعلى سبيل المثال، فإنه يتيح للعلماء متابعة تطور كاتب ما من خلال حياته الأدبية ، والوصول إلى تحديد التواريخ الدقيقة لأعماله الأدبية ، إذا لم تكن مؤكدة ، ويمكن ترتيبها وفقا لوقت كتابتها ، وبذلك نصل إلى تأريخ نسبي إذا لم تكن هناك نقط ثابتة لتحديد التاريخ ، بل يمكن الوصول إلى تاريخ مطلق إذا ثبت عدد كاف من نقط الاستشهاد ، فمثلا بين فحص محاورات أفلاطون أن هذا الكاتب العظيم كان يتفادى باطراد التقاء حرفين صوتيين إذ أنه بلغ الكمال بأسلوبه حين تقدم في العمر . والدراسات التي أتمها يدويا لوتوسلافسكي Lutoslawsky وأعيد إجراؤها بوساطة الآلة الإلكترونية أظهرت أن هذه هي الحقيقة فعلا . والنتيجة ، أن « المحاورات» يمكن تنسيقها بترتيب زمني، وذلك بترتيبها وفقا لانخفاض نسبة استخدام حرفين صوتيين ملتقيين . وعلى هذا النسق يمكن ترتيب المحاورات التي لا يعرف تاريخ محدد لها — وفقاً لنسبتها إلى المحاورات المعروف تاريخ لها . ولقد أجرى جيرو P. Guiraud دراسات قائمة على أسس مماثلة عن الترتيب الزمني لبعض كتابات ريمبو Rimbaud .

والطيف الخاص بالمؤلف يفيد أيضاً في التحقق من صحة نسبة الأعمال بإثبات ما إذا كان كتاب بعينه من عمل المؤلف المنسوب إليه من عدمه ، كما يفيد أيضا في اكتشاف أصحاب المؤلفات المجهول مؤلفوها . والقاعدة في استخدام الطيف هي أن الكتابات ذات الطيف الواحد يمكن أن تكون للمؤلف نفسه ، ولو أن هذا يكون على سبيل الاحتمال لا التأكيد (إذ أن أفرادا مختلفين من نفس الوسط الثقافي يمكن أن يشتركوا

---

(٢٠) قارن : P. Guiraud, Problémes et méthodes de la statistique linguistique (Paris, 1960).

في نفس الصفات المميزة) ، أما الأعمال التي يختلف بوضوح طيف كل منها عن الآخر فلا يمكن أن تنسب لمؤلف واحد ، لأن الكاتب لا يغير (لازماته) تغييرا هاما خلال حياته وهكذا يأمل ماريشال ، الذي يدرس أعمال رابيليه في معمل التحاليل المعجمية في بيسانسون ، في أن ينتهي من تحقيق صحة (الكتاب الرابع) . وهو يشعر بحق بأن المنتحل كان في استطاعته أن يقلد بسهولة الصفات الصارخة المميزة لرابلية خصوصا إسرافه في المفردات . ولكنه لا يتنبه إلى التفاصيل الدقيقة مثل ترتيب الألفاظ . والآلة الإلكترونية ستظهر الفوارق الدقيقة التي تنم عن المقلد أو تكشف عن قلم المؤلف . ويمكن استخدام القواعد نفسها للتأكد من صحة نسبة المؤلفات المشكوك في حقيقة أصحابها ، وذلك بتتبع العبارات المعترضة الطويلة . إلخ وعلى سبيل المثال ، فإن هذه القواعد استخدمت في دراسة رسائل القديس بولس وكتاب The Imitaticn of Christ وتشوس ، ولعل مثل هذه الطرق قد تلقي ضوءا على غموض المشكلة الخاصة بشكسبير والتي أثارت قدرا كبيرا من الجدل ، وكذلك على عدد كبير من مؤلفي القرون الوسطى مثل روجربيكون والبرت الكبير اللذين ينسب لهما قدر كبير من الأعمال المشكوك في صحة نسبتها لمؤلفيها .

وبرغم ذلك فعلى المرء أن يتبصر في تطبيق هذا المبدأ المزدوج ، وهو أن الأعمال التي لها نفس الطيف قد تكون لنفس المؤلف ، بينما « الأطيف » المختلفة تدل على اختلاف المؤلفين . فإلى أي مدى يمكن أن يظل المؤلف وافيا لنفسه ؟ وإلى أي

---

(٢١) قارن: G. U. Yule, The statistical study of Literary Vocabulary (Cambridge, 1944).

فيما يتعلق بمؤلف كتاب : Imitation of Christ

G. Herdan, " Chaucer's Authership of the Planetis, " in Language, 32, 1956, p. 254-259; Rev. K. Graystone and G. Herdan, " The Authorship of the Pastorals in the Light of Statistical Linguistics," in New Testament Studies, 6, 1959, pp. 1—15.

حدود يمكن لطيفه أن يختلف وفقا لفترات حياته وللمذاهب الأدبية التى يعالجها ؟ وفوق ذلك كله مامدى سلامة الوسائل المستخدمة فى رسم الصورة التى تحدد ملامح المؤلف ؟ هذه هى الأسئلة التى تنتظر جوابا . والمشكلة هى أنه فى الدراسات التاريخية لا تخضع النتائج لأية رقابة . فالنظريات المادية تخضع لامتحان الحقائق . بمعنى أنه إذا ارتكب مهندس خطأ فى حسابات هندسية عند تصميم جسر ما ، فقد ينهار الجسر . ولكن المؤرخ لا يتوقع أن يخرج أحد كتاب القرون الوسطى من قبره ليعارضه . أفلا يجدر بعلماء فقه اللغة والدراسين فى المجالات الأخرى أن يختبروا بطريقة ما الوسائل التى ينوون استخدامها فى الأحوال التى لا يمكن مراجعة النتائج فيها ؟، وللوثوق من صلاحية نظام الحساب الموضوع للآلة الإلكترونية يجب أن يجرى هذا الحساب أولا يدويا ثم تغذى به الآلة وفقاً لبرنامج مناسب . فإذا لم تتفق النتائج كانت الآلة مخطئة ، أو قد تكون الطريقة التى فرضت عليها عديمة القيمة . وبالمثل فإن على عالم فقه اللغة ، لاسيما المشتغل بالتحقق من صحة نسبة الأعمال ألا يخاطر أبدا بتكوين رأى نهائى عن المؤلفين القدامى دون أن يجرب وسائله أولا فى التعرف على المؤلفين العصريين . وهذا يمكن أداؤه بدراسة أعمال أحد المؤلفين التى لا شك فى أنه قد كتبها بنفسه دون معونة من سكرتيره . فإذا أوضحت الآلة اختلاف « أطياف » هذه الأعمال بدرجة تشير إلى أنها لا يمكن أن تكون لشخص واحد فلا بد أن الطريقة المستخدمة غير صحيحة وأن نتائجها ستكون مضللة إذا هى طبقت على أعمال قدامى المؤلفين[1] .

---

(١) وتحتوى مجلة : Science et Vie. No. 572. vol CVII. May. 1965 على نص يخفى تحذيراً جاداً « ففى سنة ١٩٦٣ برهن رجل الدين الأب مورتن Morton على أسس من التحليل اللفظى قامت بأدائه حاسبة إلكترونية على أن الرسائل الإنجيلية الأربع عشرة للقديس بولس قد لا يكون كاتبها هو الشخص نفسه ، وأن ستة أشخاص مختلفين اشتركوا فى كتابتها . وبتطبيق نفس التحليل المنهجى على أعمال نشرها الأب مورتن، أثبت الأب إليزون =

وإن قدرة الآلة الإلكترونية على دراسة « لازمات » مؤلف ما تخدم أيضا نقد النصوص فى عملية الحدس والتخمين التى غالبا ما يعتمد عليها النقد . والطريقة « التاريخية أو النسبية » ، إذا أتيحت لتطبيقها ظروف مواتية ، هى بالتأكيد أفضل الطرق لاستعادة الشكل الأصلى للنص وتنقيته من أخطاء الكتاب . وإذا أمكن تصنيف المخطوطات إلى نماذج ونسخ ، أو إلى أسلاف وأخلاف ، إذن لكان السلف المشترك لجميع المخطوطات الموجودة هو الذى يشابه الأصل تماماً ، سواء أكان هـذا المخطوط موجوداً فعلا ، أم أمكن استعادة شكله بمعونة أخلافه، ولكن نادراً جداً ما يمكن إثبات نسب المخطوط على أساس شهادة خارجية فقط ، ومن الضرورى — فى كل الحالات تقريباً — أن نبحث عن أدلة داخلية ، أى هى أصل النص أو نسخة مطابقة له والأشكال المتنوعة له . وهنا تلعب الآلة الدور التحضيرى الذى أشرنا إليه ، فهى إذ تقارن بين المخطوطات ،فإنها تتعقب المغايرات وتكون شكلا يضعها فى علاقات تفاضلية « بحتة » دون مراعاة للتكوين الحقيقى لعلاقات الأصل أو النسبى بينها . فإذا تمت هذه العمليات الحسابية المادية وجب على عالم فقه اللغة أن يؤدى العمل « الذهنى » الذى يتمثل فى فحص الأخطاء أكثر من تمثله فى الاختلافات أو المغايرات ، متجاوزاً فى هذا العمل مرحلة النسبى إلى مرحلة المطلق، وهذا التقويم النوعى لا غنى عنه ليس فقط فى طريقة « المجموعات » التى تؤيدها، ولكن فى طريقة « الأخطاء الشائعة » فى شكلها التقليدى وفى جميع طرق النقد .

ونسخة المخطوط التى يبلغ نصها منتهى المطابقة للأصل هى التى تتضمن أقل عدد من الأخطاء ، وطريقة تمييز أى القراءات — من بين العديد منها — هى الأقرب صلة بالمؤلف على الأرجح وأى الأخطاء هى أخطاء النسخ غير الدقيقة من هذه الطريقة بالضرورة تتضمن قدراً معيناً من التخمين . و « لازمات المؤلف » من بين المقاييس التخمينية الهامة ، هى ولازمات الناسخ التى سنناقشها بعد قليل . فإذا كان مخطوطان

= Ellison أنها قد لا تكون جميعاً من وضع المؤلف نفسه . ولقد أثبت العقل الإلكترونى أن الأب مورتن ليس له وجود من الوجهة المنطقية » .

يعطيان قراءتين أو شكلين مختلفين لنفس الوضـــع فى النص ، فمن الطبيعى أن نستنتج أن القراءة التى تتواءم مع ألفـــاظ المؤلف المألوفة وأسلوبه هى النسخة الأصلية، بينما النسخة التى تخالف هذه اللازمات تكون هى النسخة غير الصحيحة. وتيسر الآلة هذا التقويم النوعى تيسيراً كبيراً إذ أنها بتزويد عالم فقه اللغة « بطيف» الكاتب ، تمكنه من الحكم على القراءة بموضوعية وتمييز وهكذا يقوم الحدس على أسس صلبة ، وينمحى عنصر التخمين بغير بينة ، وهو ما يجتذب النقاد عندما يبنى على البداهة والنزعات الشخصية .

وهناك مقياس تخمينى آخر غالباً ما يستخدمه علماء فقه اللغة — يعتمد على دراسة عادات الناسخ أو سيكولوجيته . والمبدأ الذى يقوم عليه هو الآتى: إذا كانت هناك كتابتان متنافستان لموضع واحـــد من النص ، فإن من المعقول أن نستنتج أن الكتابة غير الصحيحة منهما هى التى تتضمن نوع الأخطاء التى يقع فيها الناسخون بصفة عامة ، والمشكلة هى فى أن نحدد بدقة « المناسبات » التى تقود النساخ للوقوع فى الخطأ والطريقة التى يخطئون بها .

وهـــذه الطريقة الحدسية التى قننها آفيه (للغة اللاتينية) فى كتابه لوى Manuel de critique verbale جربت حتى الآن يدوياً فقط ولابد من أن تدعمها الآلة الإلكترونية دعماً كبيراً وفى معظم الحالات تستنتج أخطاء الناسخ التى يتناولها « النقد اللفظى » بالتخمين ، وليس من خلال مراجعة النسخة على النموذج الذى نسخت عنه مباشرة . فبدلا من الدخول فى تكهنات خطرة تتعلق بسيكولوجية الناسخين فى الأزمان القديمة أو القرون الوسطى ، أليس من الأصوب أن نجرى التجارب مع الناسخين العصريين ، وهم لا يختلفون كثيراً عن نظرائهم فى القرون الوسطى . وأقسام المحفوظات (الأرشيف) فى دور الطباعة تحتوى على قدر ضخم من المواد ، إذ أن جامعى الحروف هم فى الواقع ناسخون فى مظهر حديث. ألا يمكن استثمار هذه الثروة من المعلومات ؟ هنا يبدو ممكنا أن نقرن النص الأصلى المؤلف بأول تجربة قبل التصحيح ، أى النموذج ، والنسخة المنقولة عنه مباشرة . وبهذه

الطريقة يتسنى لنا أن نلاحظ رأساً مئات الألوف من أخطاء النسخ وأن ندرسها إحصائياً . وستتمكن الآلة الإلكترونية (مع الأخذ في الاعتبار نوع آلة الطباعة المستخدمة وطريقة ترتيب لوحة حروفها) من إصدار حكم موضوعي على مختلف أنواع الأخطاء وعلى تواردها النسبي ، والمناسبات التي تحدثها ، الخ . بل إن في استطاعتها قياس المدى الذي تعتمد فيه الأخطاء على شخصية الناسخ وعلى سيكولوجيته الفردية. ومجموعة الأخطاء التي يرتكبها بكثرة ناسخ معين تحدد بهذه الطريقة « طيفه » مثلما تحدد لازمات الأسلوب ومفردات الألفاظ « طيف » المؤلف . وعلى أساس قاعدة من هذه التجارب يمكن أن تكتسب دراسة نفسية الناسخين القدامى مزيداً من الدقـــة .

والتخمين القائم على دراسة عادات المؤلف والناسخين ، واجب التطبيق في كل الحالات التي لا توجد فيها سوى نسخة خطية واحدة. فإنه السبيل الوحيد في تلك الظروف للتعرف على الأخطاء وتصحيحها ، كما أنه يستخدم في التعرف على الأصل المشترك العديد من المخطوطات إذا كان مفقوداً أو في إعادة بنائه . بل إنه أكثر ضرورة إذا انحدر إلينا عمل في شكل نسخة وحيدة ، محفوظة ومكتشفة بمحض الصدفة . وأكثر الأمثلة أهمية في هذا المجال هي « لفائف البحر الميت » . فهذه المجموعة الثمينة من الوثائق تحوي كتابات لم تكن معروفة من قبل وهي تزودنا بمعلومات عن التيارات الفكرية التي كانت سائدة فلسطين في فترة زمنية قريبة من عصر السيد المسيح ، بصرف النظر عما تحويه من نصوص قطع طويلة من التوراة العبرية . ولسوء الحظ ظلت هذه اللفائف حبيسة في أوان فخارية في قاع كهف قرابة ألفي عام . وخلال هذه الفترة تآكلت أطرافها ، وفقد جزء من النص . وليتسنى استعادة هـــذه الأجزاء الناقصة ، استخدم الأب بوسا Busa آلة إلكترونية في دراسة لازمات المؤلف في أجزاء النص التي لا تزال سليمة . على أن الآلة — بخلاف ما يحسبه الناس عامة — لن تستكمل « أوتوماتيا » الأجزاء المفقودة ولكنها ستزودنا بقاعـــدة ثمينة للتخمين .

والبحوث المعجمية والأسلوبية التي سبقت الإشارة إليها ليست المجال الوحيد الذي يمكن للآلة الإلكترونية أن تستخدم فيه في ميدان فقه اللغة. فهناك مجالات أخرى يمكن تصورها. فالوسائل الآلية والإلكترونية على سبيل المثال ـ ستكون بلا شك خير معوان للعلم الجديد المعروف باسم Codicology والذى خصصت له مجلة Scriptorium التى تصدر فى بلجيكا تحت اشراف مسيو فرانسو ماسى François Masai وما دام يدرس الكوديكولوجى للمخطوطات القديمة باعتبارها أشياء أثرية ، أفلا يمكنه أن يتناولها بنفس الطريقة التى يعالج بها جاردن الأشياء التى توجد فى المواقع الأثرية؟ فكل مخطوطة يمكن تمثيلها — كقطعة الفخار أو البلطة من الصوان — ببطاقة مثقبة للدلالة على صفاتها المميزة ، مثل المادة والشكل ، وترتيب السطور، والتوقيعات، وسياق النص ... الخ . بالإضافة إلى الزمان والمكان إذا ذكرهما الناسخ ، أو أمكن التحقق منهما . ويمكن عندئذ استخدام الوسائل الآلية أو الإلكترونية للتصنيف ، والتعرف على المجموعات بالمناطق الثقافية ، والحصول كافة البيانات المتعلقة بتاريخ الكتاب قبل طبعه — مما يساعد فى تحديد تواريخ ومواقع المخطوطات غير الموثوق من تاريخها أو أصلها .

كذلك يمكن تصنيف الاختصارات التى وجدت فى المخطوطات اللاتينية واليونانية باستخدام الآلة ، فمتى تجمعت قائمة كاملة نسبياً منها أمكن استخدامها فى تتبع تاريخ وأصل اختصارات معينة ، وهذا يزودنا بدلالات إضافية لتحديد تاريخ المخطوطات ومواقعها . وقد تبنى ساماران وماريشال مشروعات من هذا النوع ، وها يقومان بمسح منهجى للاختصارات اللاتينية، بمعهد Institut de Recherche et d'Histoire des Textes بل إن جلينيسون ، مدير المعهد ، ينوى أن يؤسس مركزاً لاستخدام الحاسبات الإلكترونية فى مختلف فروع الدراسات التى تتعلق بالمخطوطات .

وقد أثبتت الآلات الإلكترونية فائدتها الكبيرة فى مجالى الآداب وفقه اللغة ، كما أنها تبشر باحتمالات كبيرة فى المستقبل ، مما دعا الغالبية العظمى من الجامعات الكبرى فى العالم إلى استخدام هذه الآلات أو اقتناء واحدة منها لاستعمالها الخاص .

وقد كثرت مراكز البحث « الآلى » فى فقه اللغة بحيث تسبب عن هذه الكثرة شىء من الاختلال . فلقد وضح ازدواج بعض المشروعات أحيانا نظراً لعدم علم القائمين بها بأعمال الآخرين . من ذلك أنه ظهر فهرسان لكتاب Corpus Tibullianum أحدهما صدر فى إيطاليا والآخر فى الولايات المتحدة، فى حين يقوم أحد أعضاء معمل التحاليل الإحصائية للغات القديمة Laboratoire d'analyse statistiques des langue anciennes بمدينة ليبج بإعداد فهرس ثارلث ، وهو على وشك الصدور . ولتلافى هذا الإسراف فى الجهد ، ولتمكين الباحثين من الإفادة بالخبرات المنهجية للباحثين الآخرين أنشأ معمل ليبج فى مستهل سنة ١٩٦٥ « المؤسسة الدولية لتحليل اللغات القديمة بوساطة الحاسبات الإلكترونية » .

Organisation Internationale pour l'etude des Langues Anciennes par Ordinateur-International Organisation for Ancient Languages Analysis by Computer

وستصدر نشرة كل ثلاثة شهور عن الأعمال التى تتم فى دراسة اللغات باستخدام الآلات الإلكترونية فى العالم بأسره ، سواء منها الأعمال التى تمت فعلا ، أو التى تحت الإعداد ، فضلا عن المعلومات المتعلقة بالوسائل التى يتبعها مختلف الباحثين . وسيمد هذا المعهد البحوث بقوة دفع جديدة حين ينسقها، ويتزايد عدد طالبي الاشتراك فى عضوية هذا المعهد من الباحثين فى علم فقه اللغات من مختلف التخصصات، وبخاصة الإخصائيين الأمريكيين فى اللغة الإنجليزية . ونظراً إلى هذا الاهتمام ، وإلى أن الطرق المتبعة واحدة بالنسبة للغات الحديثة والقديمة ، فإن الأستاذ ل . ديلات يدرس الآن توسيع المؤسسة الدولية فى ليبج لتصبح مركزاً دولياً للمعلومات الخاصة بدراسة علم اللغات بوساطة الحاسبات الإلكترونية دون تمييز بين اللغات .

* * *

وهناك تكنيك أخير للآلة الإلكترونية سيكون عاملا فى التجديد إن لم يكن فى التغيير الكلى لاستخدامها ، وهو القراءة الأوتوماتية .

ـفى الوقت الحاضر استطاعت الآلة الإلـكترونية أن تقرأ فقط الحروف المـكتوبة وفقا لرموز واصطلاحات محددة ، تجمع أشكالها بين رموز شفرة مصطلح عليها وبين الحروف المقروءة . وترتب المادة لاستخدام الآلة ترتيبا يماثل الأحرف العادية بحيث يمكن للعين المجردة أن تتبينه كأنه حروف . والهدف هنا تمـكين الناس من قراءة شفرة وضعت خصيصاً للآلة وطبعت غالبا بمادة ممغنطة تضغط مباشرة على أجهزة الاستقبال فى الآلة أكثر من تمـكين الآلة من قراءة الأحرف العادية . ومنذ عدة سنوات تستخدم البنوك الشيكات بأرقام وإشارات مكتوبة بنفس الـكيفية ليتسنى تداولها إلـكترونيا ، كما أن إدارات الخدمات البريدية تستخدم نفس الوسيلة فى التصرف فى الخطابات .

وتجرى اليوم بحوث لتحقيق هدف مضاد هو تمـكين الآلة من قراءة الأحرف المعدة للعين البشرية والمطبوعة بحبر الطباعة العادى . ويقوم الآن البروفسور رينيه بوسيل René de Possel مدير معهد Institut Blaise-Pascal du C.N.R.S. بتصميم آلة تنجز هذه المهمة على الوجه الآتى : تقسم المساحة التى يشغلها السطر فى النص تقسيما مثاليا إلى شبكة تتـكون من ٧٢ مربعا صغيرا فى كل عمود رأسى . ويمر شعاع من الضوء ، مسلط بانحراف من أعلى إلى أسفل الورق على جميع المربعات الصغيرة فى العمود الرأسى واحدا فواحدا والأعمدة من اليسار إلى اليمين . ويسجل الضوء المنتشر من الورقة بوساطة مضاعف ضوئى photomultiplier بزاوية تختلف عن تلك التى قد ينتج عنها انعكاس ديكارتى لتلافى آثار الانعكاسات الناجمة عن حبر الطباعة . وتختلف كمية الضوء المنتشرة بوساطة الورقة تبعا للون الموضع الذى يقع عليه شعاع الضوء ، إن كان أبيض أو أسود . والتمييز بين الأجزاء المـكتوبة وغير المـكتوبة من الورقة تترجمه الآلة بلغتها التى لا تعرف إلا « الـكل أو لا شىء » بوساطة علامات على شكل ١ و ٥ أو قواطع ترسل بعد ذلك إلى الآلة الحاسبة الإلـكترونية بالاستعانة أحيانا بشريط تسجيل . والمعلومات التى تجمع بهذه الـكيفية تعالج وفقا لبرنامج يعد للآلة لمعرفة الأحرف بمعادلة العلامات المكونة من القواطع

بحروف أبجدية توضع تحت تصرفها . والحروف فى هذه الأبجدية (من ٥٩٠ إلى ألف مثلا) تتضمن حروف الاستهلال letters وحروف الكتابة الصغيرة باللغات اللاتينية والسلافية واليونانية والألمانية (القوطية) والإنجليزية ، بالإضافة إلى عدد من الرموز الرياضية والأشكال الأخرى . وتستطيع الآلة بذلك أن تقرأ أية صفحة مطبوعة برغم اختلاف الحروف ما دامت الآلاف من حرف A ، مثلا ، من مختلف البنوط التى تستخدمها دور الطباعة مترجمة كلها بنفس الرمز . وبنفس الطريقة تستطيع الآلة تمييز شكل واحد من بين الأشكال العديدة التى قد يصل عددها إلى الألف ، وبذلك تستطيع القيام بالقراءة الأوتوماتية للأبجديات المستخدمة فى الشرق الأقصى ، وللكتابة اليدوية[1] . وهذا المشروع يمكن أن يفيد فى وجوه شتى ، وبخاصة لمكفوفى البصر ، وسيكون مكملا للقارئ الأوتوماتى .

ويعمل القارئ الأوتوماتى الآن بسرعة تزيد على ٦٠ حرفا (أى أكثر من سطر واحد) فى الثانية ، وهذه سرعة تعينه على قراءة الإنجيل كاملا فى أقل من ١٨ ساعة . على أن استخدام الحاسبة الإلكترونية التجارية تبطئ كثيراً من سرعة تحليل النتائج . ويجرى الآن صنع آلة حاسبة خاصة صممت لتتمشى مع السرعة التى تعمل بها آلة القراءة فى تحرى النص ، وستحقق الآلة الجديدة لهذه العملية سرعة كبيرة .

وستتغلب القراءة الأوتوماتية على الصعوبة التى تحد بشكل خطر من مقدرة الآلة الإلكترونية فى الوقت الحاضر ، وهذه الصعوبة هى عنق الزجاجة عند نقطة البدء . فعمل الآلة يعطله عنقا زجاجة أحدهما فى « الدخل » ويتمثل فى عملية إعداد المعلومات يدويا ، فى شكل تثقيبات لاستخدام الآلة ، وهى عملية طويلة ولا غنى عنها فى الغالب ، وثانيهما فى «المخرج» حيث يجب طبع النتائج بإحدى الطرق الميكانيكية. وقد أمكن الآن التخفيف إلى حد كبير من الصعوبات التى يمثلها عنق الزجاجة عند « المخرج » بما أدخل من تحسينات فى الآلات الأكبر حجما ، وهذه التحسينات

(١) ويدرس دى بوسل Mr. de Possel حالياً آلة لإلقاء النصوص أيضاً . وقد يكون هذا المشروع مفيداً بطرق مختلفة وبخاصة للمكفوفين ، كما قد تكمل القارئ الأوتوماتى .

تتيح لها طباعة أو تصوير النتائج بسرعة تبلغ عشرين ألف سطر فى الدقيقة . أما الصعوبة التى يمثلها عنق الزجاجة فى المدخل فما زالت تنتظر الحل ، وعندئذ تبلغ آلة القراءة حد الكمال ، إذ سيمكن عمليا تغذية الآلة بالمعلومات فوراً دون خطر الوقوع فى خطأ . ومن الصعب التنبؤ بالوقت الذى تصبح بعده الآلة القارئة حقيقة واقعة . فإن الآلة التى يبنيها الآن پوسيل مقدر لإتمامها عامان . ثم يجب بعد ذلك إنتاجها بالجملة للتوزيع التجارى بحيث يمكن تعميمها فى خلال خمس أو ست سنوات. وعندئذ تصبح المكمل الذى لا غنى عنه للآلة الإلكترونية لحل جميع المشاكل المعقدة . ويجب أن نلاحظ أن كلا النوعين من الآلات : القارئ الأتوماتى ، والحاسبة الإلكترونية ، سيعاون الآخر . فالأولى ستتزايد سرعتها فى القراءة كلما ازدادت قوة الحاسبة الإلكترونية ، بينما تعمل الثانية بسرعة أكثر عندما تفيد من نظام المدخل الأتوماتى .

والآفاق التى تتيحها القراءة الأوتوماتية من الاتساع لدرجة يتعذر وصف بل تخيل الخدمات التى يمكن أن تؤديها . وأولها ، أنها ستمد التسجيل الوثائقى والترجمة الأوتوماتية بدفعة قوية وتخرجهما من حالة الركود التى أصابتهما . وهذا ما يراه الأستاذ أندريف اللينتجرادى ومسيو سستييه ومسيو ڤوكوا من مركز الترجمة الأوتوماتية بفرنسا .

Centre de Traduction Automatique CNRS–France.

ولقد كانت آراء البروفسور اندريف هى التى حفزت مسيو پوسيل إلى معالجة مشكلة القراءة الأتوماتية بأسرها .

وستساعد آلة القراءة كثيرا فى دراسة فقه اللغة واللغويات . وقد لا تكون ذات نفع كبير — على الأقل فى المستقبل القريب — فى دراسة مخطوطات العصور القديمة والقرون الوسطى، فالمخطوطات المكتوبة باللاتينية أو اليونانية بحروف «بوصية» فى uncial وكذلك المكتوبة بالأحرف الصغيرة الكارولينجية carolingian ستسهل قراءتها أوتوماتيا نظرا لأن الأحرف فيهما منتظمة وواضحة نسبيا، ولكنها فى نفس

الوقت أكثر المخطوطات قدما وأهمية ، وهى التى يضطر علماء اللغات إلى فحصها بالعين المجردة وبمنتهى العناية أما المخطوطات الأحدث عهدا (بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر) فوافرة جدا ، ومن المرغوب فيه استخدام الآلة لقراءتها بسرعة ، ولكنها أيضاً من نوع المخطوطات التى لا يمكن للقارىء الأوتوماتى علاجها إذ أن حروفها غير منتظمة الشكل ، وبخاصة الحروف المتصلة والمرتبطة بحروف أو علامات ربط ، والتى تعقدها كل أنواع علامات الاختصار . وعلاوة على ذلك فمهما كانت أعمار المخطوطات وخطوطها فهى تتضمن تصحيحات أجرتها أيد متعددة،كآثار المحو والإضافات فى الهوامش أو بين السطور،والكلمات أو الحروف المشطوبة أوالمؤكدة . . . الخ . وكل هذه التفصيلات — التى يعتبرها عالم اللغة ذات قيمة كبيرة — قد تضل الآلة فى متاهاتها .

وأيا ما كانت الحالة بالنسبة للمخطوطات القديمة، فإن القراءة الأتوماتية للمواد المطبوعة ستسهل إعداد طبعات نقدية للأعمال التى وصلت إلينامطبوعة فقط وإعداد المعاجم والفهارس للأعمال القديمة على أساس من الطبعات النقدية الحديثة. إن فكرة إعداد مجموعة أشرطة ومعاجم تحوى جميع الأعمال التى كتبت من العصور القديمة حتى الوقت الحاضر ، لن تعود — على الأقل إلى حد ما — حلماً من الأحلام. أمافى الدراسات الأسلوبية فتبسط إلى حد كبير مرحلة الفهرسة . فمثلا — ستقرأ الآلة نصاً (مكتوباً أو مطبوعاً) ، وتقوم بطباعته بواقع كلمة واحدة لكل سطر ، وسيضيف عالم اللغة فى الجزء الباقى من السطر (سواء بالآلة الكاتبة أو بخط واضح) كافة المعلومات التى يراها ضرورية . ثم تعيد الآلة قراءة النص المفهرس ، وتستطيع أن تجيب على أى سؤال يوجهه إليها عالم اللغة . وعند إتقان عمليات الترجمة الأوتوماتية ستكون العملية أبسط حتى من هذا ، فإذا استطاعت الآلة أن تقوم بالترجمة ، فإنها بالتالى تستطيع فهم المعانى والوظيفة اللغوية للكلمات . وإذا أطلقنا العنان لتخيلاتنا فإن فى استطاعتنا أن نحلم بعملية فهرسة أتوماتية شبيهة بتلك التى ما زال الباحثون يأملون فى الوصول إليها فى مجال التوثيق . فإذا قدم نص مطبوع إلى الآلة ، فإنها هى

نفسها ستقوم بتزويدنا بالمادة اللازمة للدراسة الأسلوبية وسيكون فى الإمكان استخدام برنامج واحد ، وضع نهائياً فى معالجة أى نص مكتوب بلغة معينة .

وجملة القـــول إن القراءة الأتوماتية هى العملية التى يرجى أن تـكون أعظم العمليات فائدة فى كل المجالات التى تتحكم فى الوسائل الإلـكترونية ، والتى ينتظر منها تقدم غير عادى .

هربرت ماركوس

إعادة النظر في مفهوم الثورة

ترجمة: ماهر شفيق فريد

يلخص مفهوم الثورة فى النظرية الماركسية فترة تاريخية بأكملها ، هى المرحلة الأخيرة من الرأسمالية،وفترة الانتقال لدكتاتورية البروليتاريا ، والمرحلة الأولى من الاشتراكية . إنه مفهوم تاريخى ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، يعكس اتجاهات فعلية فى المجتمع ، كما أنه مفهوم جدلى يعكس الاتجاهات المضادة فى الفترة التاريخية المناظرة له بقدر ما تكمن فى هذه الفترة . إن هذه الاتجاهات والاتجاهات المضادة مظاهر تعتبر النظرية والممارسة الماركسية نفسهاعناصر أساسية فيها . فالنظرية الماركسية نفسها قوة فى النضال التاريخى ، وعلى قدر ما تغدو مفهوماتها — حين «تترجم» إلى عمل — من قوى المقاومة والتغيير وإعادة البناء ، فإنها تخضع لتقلبات هذا النضال الذى تعكسه وتستوعبه ولكنها لا تسيطر عليه . وعلى ذلك فإن «إعادة النظر » عنصر فى مفهوم الثورة ، وجزء من تطورها الداخلى .

١ — ثورة اشتراكية تطيح بالنظام الرأسمالى وتقدم الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج وتضع التوجيه فى أيدى « المنتجين المباشرين » .

٢ — وهى تبدأ فى المجتمعات الصناعية المتقدمة (بسبب جسامة التناقضات الداخلية عند هذه المرحلة من الرأسمالية وبسبب إمكان تحقيق المبدأ الاشتراكى « لكل حسب حاجاته ») . والتقصير من أمد المرحلة الأولى أمر ضرورى، وإلا اكتسب القمع طابع الدوام.

٣ — تحدث الثورة فى الأزمات الاقتصادية التى تضعف من جهاز الدولة المستقر الأركان .

٤ — ويقوم بها العمل الجماعي الواسع (والمنظم) للطبقة العاملة ، مما يفضي إلى ديكتاتورية البروليتاريا ، كمرحلة عابرة .

ويشتمل المفهوم على الافتراضات الديمقراطية المسبقة الآتية :

١ — إن الثورة مسألة من اختصاص الأغلبية .

٢ — إن الديمقراطية تقدم أكثر الأوضاع مواتاة لتنظيم وتثقيف الوعي الطبقي .

ويؤكد هذا الافتراض المسبق أهمية « العامل الذاتي » : أي الوعي بحقائق الاستغلال ووسائل القضاء عليها ، فالخبرة بالأوضاع التي لا تحتمل وبالحاجة الحيوية إلى إحداث تغيير شروط مسبقة للثورة .

غير أن المفهوم الماركسي للثورة يتضمن أيضا استمراراً في إحداث التغيير : أي تطوراً للقوي الإنتاجية التي تحتويها الرأسمالية ، وإمساك المنتجين الجدد بزمام التكنولوجيا والجهاز الفني .

والهدف الذي يعنينا في إعادة الفحص هذه ليس التعرف على هذه الافتراضات المسبقة التي يدحضها التطور الفعلي فحسب ، وإنما أيضا مفهوم الثورة ككل ، حيث أن جميع عناصرها متداخلة . ويتضمن هذا إعادة فحص التصور الماركسي للعلاقة البنائية بين الرأسمالية والاشتراكية في ظل الأوجه الآتية :

١ — مشكلة « الانتقال » : أي الاشتراكية في تعايشها مع الرأسمالية ، أو من حيث كونها تخلفها (وترثها) .

٢ — « إعادة تعريف » الاشتراكية بما يتمشى مع المرحلة التاريخية الجديدة من تطور العالم : وعلى وجه التحديد ، ماهو الاختلاف النوعي للاشتراكية ، باعتبارها نفيا مؤكدا للرأسمالية ؟

إن مدى إعادة النظر هذه إنما تحدده النظرية الماركسية ذاتها ، أي الضرورة الكامنة للكشف عن البنية الجدلية لمفهوماتها عند تحليل الواقع الاجتماعي . وعلى قدر اختلاف الرأسمالية المتحدة عن المراحل السابقة للرأسمالية ، وهي التي وجهت

المفهوم الماركسى ، وعلى قدرما « حرف » تطور الرأسمالية تطور الاشتراكية ، والعكس صحيح ، يكون مفهوم الثورة مفهوما « جديدا » .

غير أنه مادامت المرحلة التى بلغتها الرأسمالية والاشتراكية نتيجة للقوى الاقتصادية والسياسية التى كانت تقرر المراحل السابقة ، فإن المفهوم الجديد يكون التطور الداخلى لمفهوم القديم .

والأقسام التالية لاتقدم أكثر من بعض خطوط هادية لشرح هذا المفهوم الجديد

ربما كان أكثر أوجه إعادة الفحص عمومية هو التغير الذى طرأ على الإطار النظرى ، والذى يعكس التغير واتساع الأساس الاجتماعى للثورة الممكنة أو لإمكانية احتواء الثورة وقهرها .

وقد غدا هذا الإطار النظرى — وكذلك إطار النشاط الهدام — إطارا عالميا فلا بد من إبراز وتقييم كل مفهوم أو فعل أو استراتيجية باعتبارها عنصرا وفرصة واختيارا فى المجموعة الدولية . وكما أن فيتنام جزء لا يتجزأ من نظام الرأسمالية المتحدة ، فإن حركات التحرير القومية جزء لا يتجزأ من الثورة الاشتراكية الممكنة وتعتمد حركات التحرير فى العالم الثالث — من أجل بلوغ القدرة على الهدم — على الإضعاف الداخلى من الحواضر الرأسمالية .

وقد يعترض على ذلك بأن النظرية الماركسية كانت دائما « دولية » ، على المستوى التنظيمى أيضا . وهذا حق ، ولكن هذه « الدولية » بصرت بها الطبقات الصناعية على أنها قوة مضادة داخل الرأسمالية الصناعية . أما اليوم فإنها ليست قوة هدامة . لقد أولت النظرية الماركسية اهتمامها للشعوب فى المناطق المستعمرة ، والمتخلفة . ولكن هذه الشعوب لاحت ـ أساسا ـ ملحقا أو حليفا أو « احتياطيا » (وهذا هو اصطلاح لينين) للعامل التاريخى الأول فى إحداث الثورة . ولم ينل العالم الثالث اعترافا نظريا واستراتيجيا كاملا به إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ولكن البندول ما لبث أن تأرجح نحو الاتجاه الآخر . واليوم نجد اتجاها قويا إلى النظر إلى حركات التحرير القومية على أنها القوة الثورية الرئيسية — إن لم تكن

الوحيدة — أو نجد اتجاها (يلوح مقابلا للاتجاه السابق) إلى أن يفرض على هذه الحركات النموذج النظرى والتنظيمى الذى وضع للاستراتيجية فى المناطق المالسكة للستعمرات وطبق عليها (أى القيادة التى تقوم قاعدتها فى المدينة ، والتوجيه الحزبى المركز ، والتحالف مع مجموعات من البورجوازية القومية ، والائتلافات) .

والواقع أن الموقف العالمى يناهض التقسيم الآلى إلى عالم ثالث وعوالم أخرى . والأصح أننا نواجه تقسيما ثلاثيا للقوى التاريخية التى تخترق القسمة إلى عالم أول وعالم ثان ، وعالم ثالث . إن التنافس بين الرأسمالية والاشتراكية يقسم العالم الثالث أيضا، فيظهر ، كقوة تاريخية جديدة ، ما يمكن أن يسمى (كما يسميه اليسار الجديد) بديلا عن المجتمعات الاشتراكية والمجتمعات الرأسمالية المستقرة على السواء ، ونعنى به النضال من أجل طريقة مختلفة للبناء الاشتراكى ، بناء « من أسفل » ولـكنه من « أسفل جديد » لا يدخل فى نسق قيم المجتمعات القديمة — إنها اشتراكية تعاون وتضامن ، يقرر فيها الرجال والنساء بصورة جماعية حاجاتهم وأهدافهم وأولوياتهم والمنهج المعدل الذى يتم به « التحول العصرى » .

وهذا البديل الممكن (أى فرصة تجنب « المرحلة الأولى » الممتدة إلى أجل غير محدد ، وفرصة تقصير أمد القمع والسيطرة) قد شحذ وعمق من المعارضة الجذرية فى البلدان الصناعية المتقدمة « شرقا وغربا » وخاصة فى مركز الإمبراطورية الرأسمالية. وقد تـكون هذه المعارضة هى العامل المساعد على احداث التغير . فان المفهوم الماركسى موجه لزيادة سرعة التنمية فى البلدان الرأسمالية المتقدمة . ومن المحتمل ، وإن كانت الدلائل الظاهرية تشير إلى العكس ، أن يتقرر مصير الثورة « من حيث هى ثورة عالمية » فى الدول صاحبة المستعمرات ، فإن حركات التحرير لا تستطيع أن تـكتسب زخم قوة ثورية عالمية إلا إذا غدت أقوى حلقة فى السلسلة هى الحلقة الأضعف .

ان طابع المعارضة فى مركز الرأسمالية المتحدة يتركز فى قطبى المجتمع المتقابلين : فى سكان « الجيتو » (وهم ليسوا متجانسين) وفى مثقفى الطبقة الوسطى ، خاصة بين الطلاب .

وتشترك هذه المجموعات المختلفة — بل والمتعارضة — فى طابع كلى من الرفض والتمرد :

١ — اصرار على الانشقاق على استمرار السيطرة والاستغلال – مهما اصطنعا من أسماء ، وإصرار لا على إقامة مؤسسات جديدة فحسب وإنما أيضاً على تقرير المصير .

٢ — عدم ثقة بجميع الأيديولوجيات ، بما فى ذلك الاشتراكية حين تصبح أيديولوجية .

٣ — رفض للعملية الديمقراطية الزائفة التى تعين على سيطرة الرأسمالية المتحدة .

وهذا الطابع « الخارج على السنة » الذى تتسم به المعارضة هو فى حد ذاته تعبير عن تركيب الرأسمالية المتحدة(« إدماج » غالبية السكان الذين يندرجون تحتها) . ولا يشكل أى من هاتين المجموعتين المتعارضتين« القاعدة الإنسانية» لعملية الإنتاج الاجتماعية — وهى ، فى نظر ماركس — شرط حاسم للعامل التاريخى فى الثورة .

انهما لا تشكلان غالبية السكان وهما تواجهان بالعداء (والاستهجان) فىأوساط العمل المنظم (التى ما زالت القاعدة الإنسانية للانتاج الرأسمالى ومنبع فائض القيمة ، ومن ثم فانها ما زالت بالقوة ، أداة للثورة الممكنة) وهما غير منظمتين على نحو فعال لا على المستوى القومى ولا على المستوى الدولى .

ولا يمكن النظر إلى هذه المعارضة — فى حد ذاتها — على أنها أداة لإحداث تغير جذرى : فهى لا تستطيع أن تغدو أداة من هذا النوع إلا إذا نالت تأييد طبقة عاملة لم تعد أسيرة تكوينها الخاص وأسيرة نقابة عمال بيروقراطية وجهاز حزبى يؤيد مثل هذا الاندماج . فإذا لم يتحقق هذا التحالف بين المعارضة الجديدة والطبقات العاملة فقد تغدو هذه الأخيرة — جزئيا على الأقل — هى القاعدة الجماهيرية لنظام فاشى جديد .

والنتيجة هى أن المفهوم الماركسى لثورة تقوم بها غالبية الجماهير المستغلة ، وتبلغ ذروتها فى « الاستيلاء على السلطة » وفى إقامة ديكتاتورية بروليتارية تكون البادئة

بالتحويل الاشتراكى ، هذا المفهوم « لحق به » التطور التاريخى : فهو مفهوم ينتمى إلى مرحلة من الإنتاجية والتنظيم الرأسماليين قد تخلفت : ولا يعكس المرحلة الأعلى من الإنتاجية الرأسمالية ، تلك التى تشمل إنتاجية الدمار ، والتركيز المروع لأدوات الإبادة وغرس الرأى والعقيدة بين أيدى القوى التى تكتب لها الغلبة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الحكم بـ « تقادم » المفهوم الماركسى إنما هو تسام Aufhebung صادق ودقيق : وصدق المفهوم يبقى ويعاد تأكيده على المستوى الذى بلغه التطور التاريخى فعلا . فالبروليتاريا الثورية تغدو أداة للتغير حيث ما زالت القاعدة الإنسانية لعملية الإنتاج الاجتماعية ، وذلك على وجه التعيين فى مناطق العالم الثالث الزراعية أساسا ، حيث تقدم التأييد الشعبى لجبهات التحرير القومية .

وليست هذه المناطق وهذه القوى خارجة عن نطاق النظام الرأسمالى . وإنما هى جزء أساسى من مجال استقلاله العالمى . وهى مناطق وقوى لا يستطيع هذا النظام أن يسمح بأن تمضى وتنتقل إلى ذلك الفلك الآخر (فلك الاشتراكية أو الشيوعية) لأنه لايستطيع البقاء إلا إذا لم تعترض طريق توسعه أى قوة أشد تفوقاً . وحركات التحرير القومية تعبر عن المتناقضات الداخلية للنظام الرأسمالى العالمى .

ولكن هذه الصلة بين الثورات التى تقوم فى الخارج والدول الحاكمة هى على وجه الدقة ما يكفل بقاء حلقة الصلة المصيرية بين مستقبل حركات التحرير ومستقبل التغير الجذرى فى الدول الحاكمة . فلابد للقوى « النافيـــة » فى الخارج من أن « تتزامن » مع القوى الموجودة فى الداخل ، وهذا التزامن لا يمكن أن يكون نتيجة للتنظيم وحده ، وإنما لابد من أن يضرب بأساسه الموضوعى فى العمليـــة الاقتصادية والسياسية للرأسمالية المتحدة . وهذه العوامل الموضوعية تعلن عن ذاتها فى ضغوط وتوترات الاقتصاد المتحد .

١ — إن ضرورة التنافس وتهديد الآلية المتزايدة وما يستتبعه ذلك من بطالة يتطلبان استيعابا مطرد الاتساع للعمـــل من جانب الوظائف والخدمات غير المنتجة والطفيلية .

٢ — إن تكاليف الحروب الاستعمارية الجديدة أو التحكم فى الديكتاتوريات الفاسدة تتزايد على نحو مطرد .

٣ — إن المجتمع يتطلب خلق حاجات يجنح إشباعها إلى أن يتصادم مع الروح المعنوية والنظام اللازمين للعمل فى ظل الرأسمالية . وإذ يغزو ما هو غير ضرورى ميدان الضرورة ، فإن المخترعات ووسائل الرفاهية توجد مع الفقر والبؤس المستمرين جنبا إلى جنب . وتغدو «الكماليات» ضروريات فى النضال التنافسى من أجل البقاء .

فإذا استمرت هذه الاتجاهات فى إحداث مفعولها ، فإن التناقض المطرد بين الثورة الاجتماعية الواسعة واستخدامها المبدد والهدام ، بين إمكانية الحرية وواقع الكبت ، بين إمكانية إلغاء العمل المقصى وحاجة الرأسمالية إلى الإبقاء عليه ، هذا التناقض قد يؤدى إلى تجريد تدريجى للمجتمع من وظيفتـــه ، وانحطاط الروح المعنوية التى تكفل عادة الأداء اليومى والسير وفق نموذج السلوك المطلوب فى العمل ووقت الفراغ . وقد يذكى هذا وعيا باستخدام التقدم التقنى كأداة للسيطرة .

وقد بينت أحداث مايو ويونية ١٩٦٨ فى فرنسا إلى أى حد يمكن لهـذه التوترات فى مجتمع وطيد الأركان أن ترخى من قبضة الاندماج الرأسمالى والنقابات العمالية وأن تنمى التحالف بين جماعات الطبقة العاملة وطائفة المثقفين المناضلين .

ولا بد لمفهوم الثورة من أن يدخل فى حسبانه هذا المصير النهائى لتحلل النظام تحللا واسعاً و« تلقائياً » كما يبدو التفكك العام لتماسكه — فهذا تعبير عن التقادم الموضوعى للعمل المقصى ، وعن الضغط الذى يستهـدف تحرير الإنسان من وظيفته كأداة (وخادم) لعملية الإنتاج : ويمكن النظر إلى الثورة على أنها أزمة نظام فى حالة « وفرة» وزيادة عن الحاجة .

فى مثل هذه الأزمة تنبعث العوامل التاريخية للتغيير دون أن تتطابق مع أى من الطبقات التقليدية ، ولكن « صفة » هذه العوامل يمكن الحكم عليها وتقديرها إذا نحن استرجعنا ما ربما كان أكثر عوامل المفهوم الماركسى حسما : ونعنى به أن الموضوع التاريخى للثورة لا بد أن يكون « نفيا محققا » بمعنى أن هذا الموضوع أيضا

هو طبقة اجتماعية تحررت من حاجات الإنسان الاستغلالية ومصالحه تحت ظل الرأسمالية ، ولم تتلوث بها ، وأنه موضوع حاجات وقيم « إنسانية » ومختلفة اختلافا جوهريا .

هذه هى فكرة بتر استمرار السيطرة ، وهذا هو الفارق النوعى الذى يميز الاشتراكية باعتبارها شكلا وأسلوبا جديدين للحياة ، وأنها ليست مجرد تطور عقلانى للقوى الإنتاجية وإنما هى أيضا إعاده توجيه للتقدم نحو إنهاء النضال التنافسى من أجل البقاء ، وليست مجرد محو للفقر والكدح وإنما أيضا إعادة بناء للبيئة الاجتماعية والطبيعية حتى تغدو عالما مسالما جميلا — إنها بمثابة إعادة تثمين كلى للقيم ، وتغيير للحاجات والأهداف .

ويتضمن هذا تغيراً آخر فى مفهوم الثورة وقطعاً لاستمرار الجهاز التقنى للإنتاج الذى كان فى رأى ماركس سيمتد (إذا تخلص من سوء استخدام الرأسمالية له) إلى المجتمع الاشتراكى . لقد كان مثل هذا الاستمرار « التكنولوجى » خليقاً بأن يكون حلقة مدمرة تصل بين الرأسمالية والاشتراكية لأن هذا الجهاز التقنى قد غدا ، بحكم تركيبه ومداه ، جهازاً للتحكم والسيطرة . وقطع هذه الصلة لن يكون معناه ارتدادا عن التقدم التقنى وإنما إعادة تركيب للجهاز التقنى بما يتمشى مع حاجات بشر أحرار ، بواجهم وعيهم وحساسيتهم واستقلالهم . وهذا الاستقلال يتطلب جهازاً لا مركزيا من التحكم العقلى على أساس أضيق نطاقا — أضيق نطاقا لأنه لم يعد متضخما بحكم متطلبات الاستغلال، والتوسع العدوانى والمنافسة ، ويمسكه التضامن فى التعاون .

ولكن أترى هذه الفكرة « الطوبوية » فى ظاهرها تنطبق على القوى الاجتماعية والسياسية الموجودة فعلا ، والتى يمكن أن تعد من هذه الزاوية أدوات تحقيق تغير كيفى ؟

إن المفهوم الماركسى للثورة ليس بالمفهوم الطوبوى ولا بالرومانتيكى . فهو يصر على الأساس الواقعى للقوة وعلى العوامل الموضوعية والذاتية القادرة وحدها على أن تعلو بفكرة التغير الكيفى على مستوى التفكير القائم على الأمانى . ومازال

هذا الأساس يتمثل فى البلدان الصناعية المتقدمة .

وفى البلدان الرأسمالية لا تتجلى قوة البديل اليوم إلا فى الجماعات « الهامشية » التى ذكرناها فيما سبق : المعارضة بين طائفة المثقفين وخاصة الطلاب ، وبين القادرين على التعبير عن آرائهم السياسية ، والجماعات النشطة بين الطبقات العاملة.

وكلا الجانبين لا يكتفى برفض النظام ككل وأى تغيير للنظام« داخل الأبنية الموجودة » ، وإنما يجهر أيضا بتمسكه بنظام جديد ومختلف نوعيا من القيم والتطلعات .

وضعف هذه الجماعات معبر عن المجموعة التاريخية الجديدة التى تحدد مفهوم الثورة :

١ — ضد أغلبية السكان ، بما فى ذلك « للنتجين المباشرين » .

٢ — ضد مجتمع حسن التشغيل يتمتع بالرخاء لاهو فى موقف ثورى ولا فى موقف سابق للثورة .

وتمشيا مع هذا الموقف ، فإن دور هذه المعارضة إنما هو دور تمهيدى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة : فمهمتها هى التنوير الجذرى نظريا وتطبيقيا وتطوير كادرات قوى للنضال ضد بنيان الرأسمالية العالمية .

ذلك أن بنيانها العالمى هو ، على وجه الدقة ، الموضع الذى تؤكد فيه التناقضات الداخلية ذاتها : فى المقاومة المستمرة للسيطرة الاستعمارية الجديدة ، وفى انبثاق مجهودات قوية جديدة لإقامة مجتمع متخلف نوعيا فى كوبا وفى ثورة الصين الثقافية وأخيرا — ولو لم يكن ذلك أقلها شأنا — فى التعايش « السلمى » إن قليلا أو كثيراً ، مع الاتحاد السوفيتى . وهنا أيضا نجد ديناميكية اتجاهين متعارضين :

١ — الصالح المشترك لـ « الأمم الغنية » إزاء الاضطرابات الدولية فى ميزان القوى المهدد بالخطر .

٢ — المصالح المتضاربة للأنظمة الاجتماعية المختلفة التى تؤمن وتدافع عن أفلاكها السياسية والاستراتيجية المناظرة .

خاتمة :

لا بد للمفهوم الماركسي للثورة من أن يستوعب التغيرات فى مدى الرأسمالية المتقدمة وتركيبها الاجتماعى ، والصور الجديدة للمتناقضات المميزة لآخر مرحلة للرأسمالية فى إطارها العالمى . وعلى هذا فإن تعديلات المفهوم الماركسى لا تلوح إضافات أو تكيفات خارجية ، وإنما بالأحرى تفصيلا للنظرية الماركسية ذاتها

وثمة جانب واحد ، على أية حال ، لا يلوح متمشيا مع هذا التفسير ، فإن فى ماركس جانبا يمكن أن يوصف بأنه تحيز عقلانى ، بل ووضعى ، هو على وجه اليقين إيمانه بالضرورة التى لا تحيد : ضرورة الانتقال إلى « مرحلة أعلى من التطور الإنسانى » وبالانتصار النهائى لهذه النقلة ، وعلى الرغم من أن ماركس كان شديد الوعى بإمكانية الفشل أو الهزيمة أو الخيانة ، فإن بديل « الاشتراكية أو الهمجية لم يكن جزءا لا يتجزأ من مفهومه للثورة ، ولكن لا بد له من أن يغدو كذلك : فإن إخضاع الإنسان لأدوات عمله ولجهاز الإنتاج والدمار الكلى الغامر قد بلغ نقطة من القوة لا سبيل إلى التحكم فيها : وهذه القوة الوضعية : verding licht

من وراء حجاب التكنولوجيا ، ومن وراء الصالح القومى المعبأ ، تلوح ذاتية الدفع ، تجرف فى تيارها الشعب الذى غرست فيه عقائد خاصة والذى تم اندماجه وتوحيده ، وقد توجه الضربة القاضية قبل أن تبلغ القوى المضادة درجة كافية من القوة للحيلولة دونها : فتحدث انفجاراً للتناقضات الداخلية يجعل من إعادة النظر فى مفهوم الثورة عملية تجريدية فكرية — وأن الوعى بهذه الامكانية لخليق بأن يقوى ويدعم من المعارضة فى كل مظاهرها — فذاك هو الأمل الوحيد .

جان فرانسوا برجييه

اتجاهات جديدة فى التاريخ الاقتصادى

ترجمة : لويس اسكندر

كنت وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أصغى إلى دروس أستاذ التاريخ وأضيف فى شوق إلى مادة هذه الدروس بالقراءة المستفيضة ، أما الرياضة فكنت أمقتها. ولم تكن المعادلات ، والنظريات ، واللوغاريتمات ، فى نظرى سوى بضاعة ثقيلة ينوء بها المؤرخ الذى أصبو إلى أن أكونه ، وأسوأ من هذا أنها كانت عقبة لا مناص من أن أذللها لكى أحصل على شهادتى الثانوية ، فلما ذللتها بعت جدول اللوغاريتمات رمزاً للخلاص من الرياضة ، أولم أحرر نفسى إلى الأبد من تلك المادة التى ظلت كابوسا يجثم على صدرى طوال هذا الزمن . . . والآن ، بعد حوالى اثنى عشر عاما ، ودون أن أحيد قيد أنملة عن طريقى الأصلى ، أجدنى مرة أخرى وجها لوجه أمام الرياضة . فهل هى رياضة من نفس النوع القديم ؟ كلا بالتأكيد . فالذى يواجهنى شىء أشد تعقيداً بمراحل ، شىء بعيد عن إدراكى ، لأننى أفتقر إلى الأساس الذى كنت أغفله قديما . فما الذى حدث اذن ؟ ولم يحتاج المؤرخ الذى صرته فى نفس الوقت إلى الرياضة اليوم ؟

الرياضة والعلوم الإنسانية :

واضح أن المشكلة لا تعنى المؤرخين فحسب ، بل إنها لا تعنى كل مؤرخ إطلاقا . فهى نتيجة اتجاه يبدو أنه يؤثر فى العلوم الإنسانية قاطبة . وبعبارة أخرى هى نتيجة اتجاه واحد فقط من اتجاهات توجيه البحث ، تشترك فيه طائفة بأكملها من العلوم . ومع ذلك لا ينتفى معه الاستطلاع التقليدى ، ولا استحداث تجديدات من نوع آخر . وهذا الاتجاه الذى نعنيه هو « القياس الكمى » للملاحظات التى نلاحظها. والمقصود هنا القياس الكمى بالمعنى العام ، لأن هذا القياس يمكن أن يحدد عمليات مختلفة ، هى من حيث صورها النهائية متباينة أشد التباين .

فهو قد يصلح طريقة لتصنيف ملاحظات أو مجموعة من الحقائق من حيث ترددها أو تكرارها مثلا ، وهو تكرار يظهره الإحصاء . ففقهاء اللغات وإخصائيوها مثلا يستخدمون وسائل القياس الكمى لترتيب الظواهر أو الموضوعات التى يبحثونها ، حتى ولو كانت المادة التى يجرون عليها البحث من حيث تعريفها نوعية فيستطيع عالم اللغة أن يدرس تواتر نص قديم بالنظر فى « كمية » النصوص المغايرة الواردة فى المخطوطات ، أو تطور أسلوب مؤلف من المؤلفين حسب « كميات » استعماله — المتزايدة أو المتناقصة — لكلمة أو خيال أو صيغة من الصيغ . كذلك يستطيع الأثرى أن يحلل إنتاج الفخار بدراسة « كمية » الأشكال التى وجدت على قطع الفخار المجمعة . ولكن تواتر النصوص ، والأسلوب والفخار ، هذه فى ذاتها « كيف » لا « كم » . أما الشىء الكمى هو التكنيك الذى يستخدمه رجل العلم . وهو تكنيك كمى بدرجة كافية ، حتى أن رجال العلم — رغبة فى زيادة سرعة عملهم — فكروا فى استخدام آلات التصنيف الإلكترونية .

ولكن من الجائز أيضا أن يكون الموضوع المراد تحليله كميا فى ذاته ، وذلك بإمكان قياسه حسب عدد مغاير من الوحدات ، مثال ذلك أن رجل الاقتصاد يدرس تدفق السلع والخدمات ، التى يستطيع أن يقيسها إما من حيث عدد وحداتها ، أو من حيث وظيفة ثمنها ، أو من حيث عوامل أخرى غير هذه . وهو مضطر فى النهاية إلى الجمع بين مختلف المقاييس لتفسير سير الأجهزة الاقتصادية ؛ ومن ثم فهو يضع قوانينا يستطيع أحيانا أن يعبر عنها برسوم بيانية حتى تفهم بمجرد النظر إليها . وتمثل هذه المقاييس — من الناحية النظرية — برموز حرفية ، ولكن يمكن — من حيث المبدأ — أن تحل الأرقام بسهولة محل هذه الحروف ، والأرقام هى مفاتيح المواقف التاريخية الحقيقية الملموسة .

والمؤرخ يجد نفسه بالضبط وجها لوجه أمام هذه المواقف الواقعية ، القابلة للحساب (إن لم تكن قد حسبت ، وهذا رهن بالوثائق) . وهذا يصدق — على الأقل — على المؤرخ المعنى بالجمع بين الحقائق الاقتصادية والاجتماعية وبين التفسير

الشامل للتاريخ . ولكن هذا القول ، وهو اليوم قول مألوف لا يأتى بجديد (مع ذلك فهل كان كذلك بالأمس ؟) ؟ يبرز ما يجب أن أسميه ثنائية موقف المؤرخ لأنى هكذا أتصورها .

فالتاريخ — ولعله أقدم العلوم جميعها — يدعمه تقليد طويل العهد ، نوعى — ومن ثم فهو وصفى — . ولقد كان على الدوام علم الحدث ، علم الخاص، علم الفرد، علم الوحيد . وقد درج الناس قروناً على رواية الأحداث ، وعلى وصفها ، وفى أحسن الحالات على تفسيرها حسب ارتباطاتها السببية بغيرها من الأحداث السابقة والمعاصرة. ولا ريب فى أن بعضهم آمن (حقاً أو باطلا — فهذه ليست المسألة التى نناقشها) بأنه قد كشف عن قوانين التاريخ لأنه رأى أن ضروباً من الأحداث تكرر نفسها. ولكن هذه القوانين ظلت نوعية تماماً ، لأنها بنيت على مقارنات بين عدد قليل من الأحداث ترتبط بوجوه شبه واضحة فى جملتها ، ولم تبن قط على الملاحظة الدقيقة. ومنذ بداية هذا القرن ازدادت الاستعانة بالقوانين التى كشف عنها البحث فى علوم متصلة بعلم التاريخ ، ولكنها أكثر منه نسقاً — كالجغرافيا ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والإثنولوجيا ، والإنتروبولوجيا الطبيعية أو الاجتماعية ، وعلم السياسة ، ومازالت مساحات كبيرة من البحث التاريخى يرتادها المؤرخون بالأسلوب الكيفى أو النوعى ، ولا يقتصر الأمر هنا على ميدان تاريخ الأفكار أو التاريخ السياسى — ولسنا نريد هنا نقد هذه الطرق إطلاقا ، فكلها طرق مفيدة .

ولكن « الأحداث » على أية حال قد فقدت اليوم تلك المكانة الممتازة التى حظيت بها فى اهتمامات المؤرخين ، وإذا كان كثير منهم مازالوا يواصلون تكريس أفضل جهودهم العلمية للبحث فى الأحداث ، فإن غيرهم قد شعروا بالحاجة إلى تجاوز هذه الأحداث بغية الوصول ما أمكن إلى معرفة شاملة وعميقة بالمجتمعات التى وقعت فيها . وهنا لا يعود التاريخ علم الفرد ، بل يصبح علم الجماعة .

ومن ناحية أخرى مادام الرأى أن يكون التاريخ مشتملا على الحركة التى تبعث الحياة فى المجتمعات خلال الزمن الطويل ، فهو ليس بعد علم اللحظة الحاضرة بل

الزمن المتصل . ولكن الدراسة المتعمقة لمجموعة العوامل التى كونت المجتمعات كبيرها وصغيرها ، بكل ما فيها من تعقيد نظم ومن حركية وقتية ، تنطوى بالضرورة على الحاجة إلى طريقة من طرق القياس ، فلابد من قياس عدد الأفراد ، وسرعة تطور السكان (الديموجرافية التاريخية) ، والتوترات الاجتماعية ، وعلاقات القوة على جميع المستويات ، وألوان السلوك وبواعثه ، والموارد المتاحة للناس ، وكيفية استخدامهم لها الخ . . . وليست كل هذه « المقاييس » بالطبع كمية . وكان من الممكن — نظرياً — أن تكون كذلك ، لولا أن الوثائق المتاحة لنا لا تسمح لنا بأكثر من الاستنتاجات التقريبية . ولكن المؤرخ رغم هذا مطالب بأن يستعمل هذه المقاييس ، وأن يقترح — بعد الجمع بينها — « نماذج » حركية يستطيع أن يفسر بها حقائق الماضى تفسيراً أضبط وأدق وأعمق ،

هـذه الحاجة إلى القياس تفرض نفسها أوضح ما تفرضه فى ميدان التاريخ الاقتصادى بالذات . فالتاريخ الاقتصادى لا يسعى وراء هدفه أو غايته هو . إنما هو جزء مكمل ، وجزء أساسى فى اعتقادى من التاريخ عموماً . ومعنى هذا أن له دوراً يلعبه فى ارتياد الماضى ، ذلك الارتياد المترامى الذى لاينتهى ، والذى يسعى كل جيل عن طريقه إلى فهم نفسه وتأكيده ، وحدود التاريخ الاقتصادى ليست دقيقة واضحة ، لأنه لا حدود للبحث فى جملته ، فليس هناك أنواع «خاصة » من التاريخ كما يسمونها إلى اليوم فى بعض مناهج التعليم العليا . وإذا كان هدف التاريخ الاقتصادى هو الكشف عن الحوافز المادية فى حياة المجتمع فإن من يرصدون جهودهم للبحث فيه عليمون بأن هذه الحوافز لا يمكن عزلها عن غيرها مهما كانت الروابط المؤقتة التى يستطيع المرء محاولة تحديدها (وواضح أن فى ذهنى الآن المادية الديالكتيكية). ومن ثم كان التاريخ — على مستوى أهدافه — واحداً . أما الفوارق الألفت للنظر فلا تكون إلا على مستوى الوسائل ، أى مستوى الموضوعات التى يجب على المؤرخين العلم بها ، ومن ثم على الوسائل .

و « مادة » التاريخ الاقتصادى من النوع الذى يسمح بالقياس ، بل الذى يتطلب

القياس ، ولنذكر أن ذلك يكون دائماً فى نطاق الوثائق المتاحة (ولكن هذا ليس على الدوام خداعاً كما نحسب) : ذلك أن هذه المادة محسوسة ، يمكن فى الغالب إدراكها . فإذا كانت متصلة بالناس أو السلع ، فإن فى الإمكان نظرياً عد الناس وإحصاء السلع . وإذا كانت متصلة بالخدمات أو الأسعار أو الدخول أمكن تقديرها بالقيمة النقدية أو غيرها من القيم . على أنه من الواضح أن الأمر من الناحية العملية ليس بهذه السهولة ، بل إنه فى كثير من الأحيان ضرب من المحال . وسأشرح بعد قليل مخاطر الخلط بين التاريخ الاقتصادى وما يسمى أحياناً بالتاريخ الكمى . ومع ذلك فمن المؤكد أنه يقوم على القياس ، وعلى تقدير الكميات ، وأنه يحاول الربط بين تلك الكميات التى من شأنها أن تجعل تفسيراته أبعد أثراً من اعتبارات التاريخ الكيفى الخالص . مثال ذلك ما مبلغ القوة فى وصف صناعات دولة من الدول وتطورها إذا أغفل المرء فى الوقت ذاته النظر إلى أحط مستويات هذه الدولة ، وحركتها السكانية ، ومعدل الإنتاج فيها ، وأثره فى مصادر الدخل الخ . . ؟ ومثال بأن — ما الفائدة فى أن يعرف المرء طبيعة التجارة المتبادلة فى سوق كبيرة من أسواق العصور الوسطى إذا لم يكن لديه أقل فكرة عن ثمنها ، وكميتها ، والأهمية الاجتماعية لروادها الخ ؟ كل هذا لا يقتضى وضع السلاسل العددية فى حرص ودقة فحسب ، بل تناولها تناولا صحيحاً حتى نضفى عليها معنى . وهنا تتدخل الرياضة ، لا فى أبسط صورها بالضرورة . وهنا أيضاً كان المؤرخون إلى وقتنا هذا يتوقفون دائماً تقريباً ، وقد تملكهم الخوف ، وتجردوا من كل سلاح ، تجاه صعوبة علم لا يعرفون منه أكثر من أولياته .

على أن المؤرخ الاقتصادى فى الحق لا يواجه الرياضة البحتة مباشرة ، ذلك أن المشكلات التى يبغى حلها تتطلب ضرباً من الرياضة يمكن تطبيقه على الاقتصاد ومن ثم كان هذا العلم الإنسانى الآخر واسطة اللقاء الطبيعى — رغم عدم توقعه — بين التاريخ والرياضة .

طبيعى وإن يكن غير متوقع ، أن هذه المفارقة تبرر شيئاً من التفسير الذى يقضى

بنا إلى العرض السريع للخطوات التى أعانت التاريخ الاقتصادى على إحراز استقلاله المنهجى وتذليل علاقاته — بما شابها أحياناً من صعوبة — مع التاريخ التقليدى من من ناحية الاقتصاد من ناحية أخرى .

بين التاريخ والاقتصاد :

إن التاريخ كما أسلفنا علم عريق فى القدم . ومع ذلك فإذا استطاع المرء أن يطلق اسم العلم على ذلك الذى كان فيما مضى ذا طابع أقرب إلى الناحية الأدبية والأخلاقية ومقدراً له أن يرفع من شأن القيم الأخلاقية بإعطاء أمثلة تهذيبية ، وأن يمجد الشعور الوطنى باسترجاع تقاليد الآباء والأجداد ، أقول إذا استطاع المرء أن يفعل ذلك أصبح موضوع التاريخ شيئاً من ابتكار الفلسفة الموضوعية أو العقلانية العصرية . والاقتصاد بالمثل كان فى أول الأمر نظاماً عملياً وسياسياً ثم ارتقى إلى مستوى العلم فى عصر الاقتصاديين القدامى من آدم سمث إلى ستيوارت مل ، وهم الاقتصاديون الذين عاصروا الثورة الصناعية .

ومن ثم فإن التاريخ والاقتصاد يكاد يعاصر الواحد منهما الآخر من حيث أنهما هدفان للتحليل العلمى . ولكن إذا كان مولدهما دليلا على أنهما ظهرا فى وقت واحد من الوعى الاجتماعى،وعلى وجود الحاجة الجماعية نفسها إلى تفهم معنىالحقيقة، فإن كلا منهما ، رغم ذلك سلك طريقا مستقلا إلى النمو ، كما أن رجـــال التاريخ ورجال الاقتصاد لم يشتركوا فى روح واحدة أو يهدفوا إلى غاية واحدة .

لقد تحرك الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ومن المؤكد أنه قد سبق ذلك وجود بعض الرغبة فى معرفة شىء عن اقتصاديات الماضى،وخاصةبين التجاريين الإنجليز فىالقرنين السابع عشر والثامن عشر ، غير أن هذاالاهتمام لم يتسم بالاستمرار،ولايهم كثيراً فى هذه النقطةأن نقرر ما إذاكان السبب فى هذا التحرك هو التفسير الماركسى للتاريخ الذى اقترحه أصحابه بعد ظهور « الإعلان الشيوعى » فى سنة ١٨٤٨ وأنه كان على الأرجح ظهور حساسية مبعثها تلك التغيرات العميقة التى حدثت داخل مجتمع صناعى ، والتى نشطت نتيجة لذلك بفعل الحاجة

إلى معرفة المزيد عن الأحوال الاقتصادية التى سبقت ذلك العصر . ومن وجهة أخرى فإن التفسيرين لا يستبعد الواحد منهما الآخر ، والذى لا شك فيه هو أن التاريخ الاقتصادى امتدت إليه منذ البدء أيدى نوعين من رجال العلم تميط عنه اللثام فى خطين متوازيين ، وقد اختلف هؤلاء عن هؤلاء فى اهتماماتهم الرئيسية ، وكانت كل طائفة منهما ، إذا استثنينا النادر من الحالات الشاذة ، لا تدرى شيئاً مطلقاً عن الطائفة الأخرى . ودام هذا الصدع أو الجفوة بين الطائفتين قرنا من الزمان ، ولم يتم الالتئام الكامل بينهما حتى الآن .

فمن ناحية كان هناك المؤرخون الذين أنجبتهم الفلسفة الموضوعية ، وانضم إليهم بين الحين والحين بعض فقهاء القانون ، وهؤلاء جميعا لم يدخروا جهدا فى كشف وتقرير الحقائق أو النظم الاقتصادية التى كانوا يصفونها ، وكانوا يستندون إلى العلم الغزير المكين وفن النقد التاريخى العظيم ، فاستطاعوا تجميع كتلة من الملاحظات اتسمت بالنوع أو الكيف ، ولكنها من حيث الكم كانت أقل من ذلك كثيرا . ولا تزال المطبوعات التى أصدروها نفيسة قيمة لما احتوت عليه من معلومات مأخوذة من مصادرها مباشرة ، غير أن هذه المعلومات لا تجاوز مرحلة الوصف البسيط . وكان نصيب هؤلاء العلماء من الأمانة أكثر من نصيبهم من الخيال فلم يرغبوا مطلقا ولم يفكروا ألبتة فى تنظيم تلك المعلومات تنظيما يستهدف إعطاء التفسيرات والتوضيحات ، وفوق كل شىء فإنهم فى كل حالة لم يحاولوا تفسيرها فى ضوء النظرية الاقتصادية . ولكن ، من الوجهة الأخرى ، هل كان من الممكن أن يتبادر إلى أذهانهم مثل هذا الأسلوب ؟ لقد كان ذلك مناقضا لمبدأ لا يشك فيه أحد : وهو أن الحقائق مفردة قائمة بذاتها ، ولا يمكن إدخالها فى مخطط مشترك تتلاءم فيه مع غيرها ، ولا يمكن أن تكون جزءا من نموذج واحد بعينه . ولم يكن مستطاعا إذ ذاك أن يأخذ التاريخ من أشقائه العلوم الأخرى أو يقترض منها أى شىء من أبوابها أو مما حققته ووصلت إليه .

ومن الناحية الأخرى كان هناك رجال الاقتصاد الذين لم يعودوا يجدون غناء

فى التجريد الشكلى الصارم الذى اتسمت به المدرسة الكلاسيكية ، بل شعروا بالحاجة إلى بناء أفكارهم على أساس مادة ملموسة أكثر . ونظرا لافتقارهم إلى الأدوات التى كان يمكن أن تساعدهم على ملاحظة الحاضر فإنهم وجهودا انتباههم إلى الحقائق الاقتصادية لزمن مضى هو أقرب ما يكون إلى زمنهم إذا كانت المسألة مسألة تحليل التفاصيل (وهذا يصدق على رجال الاقتصاد من الإنجليز) ، أو إلى فترة زمنية أطول ما يمكن امتدادا إذا كان للموضوع موضوع تعميات تركيبية (ويصدق هذا بنوع خاص على رجال الاقتصاد الألمانى ، من لست إلى بوخر وسمبارت) .

ألم ينشط تاريخ الفكر الاقتصادى بفعل الحركة الديالكتيكية ؟ إن مدرسة التاريخ ، فى نفس العصر الذى عاش فيه ماركس ، كانت تعمل على معارضة الشكلية النظرية للكلاسيكيين ، ولكن سرعان ما جاءت أجيال جديدة من الاقتصاديين تعارض بدورها رجال مدرسة التاريخ ، وأخذ علم الاقتصاد تحت تأثير ألفرد مارشال وبارتو وغيرهما ، وفى مقدمتهم كينز ، يبحث عن طريقة من جديد — ولكن على أساس مختلف وبأهداف أخرى — فى نطاق وضع مفهوم نظرى للظواهر التى كان يحاول أخذها فى الاعتبار . وكانت بعض المدارس قد استخدمت فعلا صياغة رياضية ، وترتب على ذلك أن التزم علم الاقتصاد بالسير فى طريق فعال لاشك فيه ، ولكنه كان طريقا أبعد مسافة أكبر عن متناول التاريخ الذى لم يكن علم الاقتصاد قد ارتبط به بأية صلة أو بدأ معه أى تعاون .

وقد كشفت الثورة التى أحدثها كينز فى علم الاقتصاد فى الثلاثينات عن أزمة ضمير حقيقية عميقة بين رجال الاقتصاد الذين ووجهوا باكتشاف عجزهم عن التنبؤ بأعنف أزمة فى العصر الصناعى وعن السيطرة عليها . وقد أثبتت هذه الأزمة أن للمفاهيم المستخدمة ، وفوق كل شىء أسلوب السؤال الذى جرت العادة على الأخذ به كل أولئك أثبتت الأزمة أنه لا يصلح لتقييم الوضع ، وأكثر من ذلك أنه لا يصلح لإلزام الحكومات والمسئولين عن الاقتصاد باتباع سياسة تشبع حاجات المجتمع . غير أن الأزمة التى أحس بها كل الناس إحساسا قاسيا شديدا ، وشعرت بها فى عنف

كل مستويات النشاط ، هذه الأزمة لم تؤثر إلا فى الفكر الاقتصادى والأنظمة الاقتصادية . ولقد أحدثت الأزمة أصداء قوية فى كل قطاع العلم الذى كان مفتوحاً للبحوث والأفكار التى تتناول الإنسان ، كما أنها طورت عقلية جديدة وأثارت حب استطلاع جديد ، وبدأت حياة الإنسان فى المجتمع تبدو متماسكة فى قطاعاته المختلفة ، وزاد هذا الكشف من سرعة التقارب بين العلوم بعد أن كانت هناك شقة بين العلماء وكان هناك تباعد بين العلوم .

ولم يستطيع علم التاريخ أن يفلت من هذه الحركة الأساسية التى اعتورت الحياة الفكرية ، فقد أحدث فيه كينز ثورة أيضا ، ومع أنها كانت ثورة أقل مظهرية ، إلا أنها كانت على مبلغ ظنى ثورة جذرية . ذلك أن بعض المؤرخين — وكانوا قلة فى مبدأ الأمر — أحسوا شعوراً بالحاجة إلى توسيع كشفهم عن الماضى، وإلى البحث عن تفسيرات أكثر من صلة السببية البسيطة بين الأحداث تلك الصلة التى ظل غيرهم قانعين بها ، فنبذوا ذلك التاريخ الذى أطلق عليه منذ ذلك الحين «التاريخ المتتابع» واتجهوا إلى علوم أخرى ، وأساليب أخرى ، وطرق أخرى للتفكير . ففى فرنسا قاد ذلك الاتجاه مؤرخان هما مارك بلوخ ، ولوسيان فيفر — الأول مؤرخ للعصور الوسطى والثانى متخصص فى تاريخ القرن السادس عشر — وقد بلغ من طموحهما أنهما جعلا من مجلة Annales التى أسساها فى ستراسبور فى سنة ١٩٢٩ أداة لالتقاء العلوم والتجارب المختلفة . وكان غيرهما من المؤرخين قد سبقوهما على ذلك الطريق، ولكنهم لم يعدوا أن يكونوا جنودا متفرقين غير نظاميين . أما هذان المؤرخان فقد كانا أول من ثابر على الطريق فى انتظام ودون هوادة . ولم يعرضا فكرتهما دون قتال ، ومن المؤكد أنهما لم يفرضاها بصورة شاملة . غير أن جماعات العمل الأولى المتواضعة أصبحت اليوم فرقا عديدة ، ومؤرخين لهم فعاليتهم يسعون سعيا لم يسبق له نظير إلى تكامل العلوم الإنسانية ، ذلك التكامل الذى دفعه أساتذتهم الدفعة الأولى.

ورغم ذلك فمن الواضح تماما أن هذا المجهود من جانب العلوم المختلفة للتكامل والتعاون بينما يسعى كل منهما إلى تحقيق أهدافه الخاصة به لم يكن

مستطاعا أن يظل مجهودا يقوم به جانب واحد فقط ، ولم يكن ليؤتى أية ثمرة ، رغم أنه لقى صدى ملائما وتطلعا متحد الاتجاه فى الميدان المنشود . ومثل هذا التطلع فى مجال الاقتصاد فى الوقت الحاضر ، كما قلنا لم يبق له وجود ، ومرة أخرى لم يعد علم الاقتصاد يهتم بالتاريخ المادى المحسوس الذى لم يقدم له مادة يقيم عليها تفكيراً أو بناء مرضيا ، ومن ثم فقد تحول مرة أخرى إلى التجريد النظرى البحت . وكان فى مقدور المؤرخين الاقتصاديين أن يوجهوا اهتمامهم إلى التحليل الاقتصادى ويمحصوه تمحيصا مناسبا بوجه عام . ولكنهم لم يكونوا على استعداد لاستخدام هذه الأداة ، ولا قادرين على تكييفها مع حاجات التفسير التاريخى بطريقة نافعة لهم ، وهذا أمر أشد خطراً . ولم يعد الاقتصاد بالنسبة لهم أثناء تطوره أكثر من دعامة ضعيفة وفى كثير من الأحيان دعامة كاذبة ، بل وفى بعض الأحيان دعامة خطرة . وهناك الكثير من مؤلفات التاريخ الاقتصادى الحديثة التى أحكمت كتابتها بإخلاص وزودت بالوثائق القوية ، قد أفسدها الرجوع العابر إلى نظريات وتقنيات رجل الاقتصاد الذى ظل غير مهتم بهذه المجهودات ، ولم يستطع تلميذ الساحر أن يعتمد على معاونة أستاذه .

ومن ثم فقد أصبح الانتظار أمراً ضروريا ، انتظار نهاية تذبذب جديد دفع بعلم الاقتصاد إلى الاهتمام بملاحظة الماضى ملاحظة مادية . ومن الواضح أن سنوات الحرب وما بعد الحرب لم تكن ملائمة لهذا اللقاء الذى طال تأخيره بين العلمين الشقيقين ، وهو لقاء كان لا يمكن أن يتم إلا على مستوى دولى بعيداً عن كل مواجهة أيديولوجية أو متحذلقة .

وها هو ذا اللقاءات فى نهاية الأمر . ولقد بدأ منذ خمس سنوات ، وربما عشر سنوات وليس قبل ذلك بالتأكيد ، ونحن نعيشه الآن ، والعلامات عليه فى ستكهلم فى سنة ١٩٦٠ ، ثم فى سنتى ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ اجتمع فى مؤتمرات دولية للتاريخ الاقتصادى رجال اقتصاد ورجال تاريخ لمناقشة مواضيع لهم بها اهتمام . وفى فترة المؤتمر الأخيرة ، الذى عقد فى ميونخ ، شكلت رابطة دولية للتاريخ الاقتصادى

هدفها الأساسي هو بالضبط تسهيل هذه اللقاءات وتوسيعها . وفي الوقت عينه خصص عدد متزايد من المطبوعات لمسائل تتعلق بطريقة البحث ، وهي المسائل التي نشأت بسبب التعاون الذي نما نتيجة لتشكيل هذه الرابطة[1] . غير أن هذا الحدث لايزال حديث العهد إلى درجة تمكننا من أن نزنه ونحكم على المستقبل مقدما . وفيما عدا التجارب الإنجلوسكسونية التي سأتناولها على الفور، فإن ثمار هذا الاتحاد لم يتم جمعها حتى الآن وسوف يكون من الضروري دون شك أن ننتظر بضع سنوات لأن البحث في التاريخ الاقتصادي لا يرتجل ، كما أن الأساليب والمشاكل لم تصل بعد إلى النضج. ومع أن الأمل يملأ صدورنا إلا أننا الآن في حالة من الحيرة ، وقد خلفت هذه الحيرة أزمة ضمير بين المؤرخين الاقتصاديين عبرت عنها مجلات متخصصة في سلسلة مناقشات تقابل فيها أنصار مثل هذا التاريخ المختلط وأعداؤه ، ذلك أن اقتران التاريخ بالاقتصاد يضطرنا نحن المؤرخين ، إذا أردنا الانتفاع به ، إلى أن نعيد التفكير (أو حتى إلى التفكير بإمعان) في مشاكلنا ، وفي أساليبنا الجارية ، وهذا يعني في عبارة واحدة ، التفكير في مهنتنا .

ويزداد نصيب هذا الكلام من الصحة لأن الرابطة المشار إليها قد اتجهت اتجاها لم نكن نتوقعه . فبينما ازداد علم الاقتصاد غنى وتهذيباً نراه قد أصبح في الوقت عينه أكثر تشعباً ، وانقسم إلى فروع كثيرة ترجع إلى أساليب من التفكير والتكوين بينها الكثير من الاختلاف . والأرجح أن ما سوف نتوصل إليه ليس من المحتمل أن يكون كل هذا العلم ، بل فرعاً معينا منه ربما كان أكثر الفروع جرأة ، وهو

---

(١) هذه المطبوعات هي في أغلب الأحيان مقالات أو طائفة من المقالات تظهر في مجلات وسأذكر قليلا منها فيما بعد ، ولكني أود أن أشير هنا إلى المقال الهام الذي كتبه روبرت و . فوجل وعنوانه « الوحدة بين التاريخ الاقتصادي والنظرية الاقتصادية » وهو الذي ظهر في المجلة الاقتصادية الأمريكية (١٩٦٥) ص ٨٢ — ٩٨ ، والعدد الخاص الذي خصص للمشاكل التي نعالجها هنا ، ونشر في المجلة الإيطالية :

Quaderni storici delle Marche (١٩٦٧)

الاقتصاد القياسي Econometry ، و بعبارة أعم ذلك الجزء من علم الاقتصاد الذي يستخدم أكثر الأساليب الرياضية تعقيداً . ومن ثم فإنه هنا يعود المؤرخ إلى الرياضة ويكتشف فائدتها له . ولا شك أننا نشعر بدهشة وحيرة عظيمتين ، ولكن ليس ثمة ما هو منطق أكثر من هذا ، فالاقتصاد القياسي، كما يدل عليه اسمه ، يختص بوضع معادلات لمفاهيم نظرية تقوم على أساس قياسات حقيقية ، ونماذج ديناميكية تقوم على أساس ملاحظات الظواهر . ومنذ ذلك الوقت ، إذا أريد الانتقال من بيانات ومعلومات مفروضة إلى زمن تاريخي معين ، فليس هناك سوى خطوة سهلة (نظريا) لا يستطيع أن يخطوها إلا البحث التاريخي نظراً لأنه في استطاعته أن يقيم سلسلة كمية يزود بها رجل الاقتصاد القياسي ؛ ولهذا فإنه من مصلحة المؤرخين ورجال الاقتصاد القياسي أن يفهم بعضهم بعضا .

وهناك سبب آخر لحدوث هذا اللقاء على مستوى الرياضة . ذلك أن ميدان الرياضة في الحالة الراهنة للعلم قد أصبح في واقع الأمر أقوى أداة يستطاع بها محاولة حل نوعين من المشاكل يشغلان الاقتصاديين والمؤرخين بنوع خاص ، وقد كانت كل من الطائفتين تعمل إلى اليوم بمفردها دون معاونة الطائفة الأخرى ، والنوع الأول من المشاكل هو التقلبات الاقتصادية ، أما النوع الثاني فهو ظواهر النمو — والنمو الحالي فوق كل شيء . أما من حيث المسألة الأولى فإن المؤرخين استطاعوا أن يتصرفوا — على نحو حسن أو سيء — ففسروا بطريقتهم الخاصة تلك النظريات القديمة الخاصة بالدورات دون أن يكونوا في مركز يسمح لهم بالحكم على قيمتها حكما دقيقا . أما من حيث المسألة الثانية فقد كانوا ، وهم متروكون ، بمفردهم ، عزلا من السلاح كلية . وبالعكس فإن رجال الاقتصاد لم يستطيعوا معالجة مشكلة النمو أو الحكم على صحة النماذج التي وضعوها دون منظور بعيد المدى يشمل مختلف القرون التي كان في مقدور المؤرخين أن يبسطوا صورتها أمام أعينهم . وهكذا برزت حاجة متبادلة إلى أن يفيد كل فريق من الآخر ، وأصبح اتصال التاريخ والاقتصاد أمراً واقعا في نهاية الأمر ، وغدت الرياضة هي الوسيط الكيميائي . ومع ذلك لم تحل المشكلات جميعها .

التاريخ والاقتصاد وأهدفهما :

رأينا كيف تطور التاريخ الاقتصادى لفترة طويلة على خطين متميزين وإن كانا متوازيين : خط المؤرخين وخط الاقتصاديين . ومن ناحية أخرى ما زالت هذه التطورات مستمرة اليوم إلى حد كبير لأن التوفيق بين الخطين — وهو التوفيق الذى تكلمنا على ظروفه — لم يشمل بعد جميع المشتغلين فى هذا الميدان . فنحن ما زلنا نفتقده . وإذا كان التاريخ الاقتصادى مقسما على هذا النحو، فانه لم يستطع أن يخلق له وجودا مستقلا، ومعنى هذا أنه لم يستطع أن يملك أسلوباً يعالج به المشكلات ولا منهجا خاصاً به ، فهو فى نظر الاقتصاد لم يكن إلا مدرسة من المدارس ، وفى نظر التاريخ فرعا كثيرا ما اعتبر هامشيا . على أى حال لم يكن التاريخ الاقتصادى علما .

على أن تطوراً معلوما حدث بالفعل ، واستطعنا مؤخراً أن نقرر أنه بدأ فى الثلاثينيات ، وأصبح واضح الحدود حوالى عام ١٩٥٠ . واتسع المجال المفتوح أمام التاريخ الاقتصادى اتساعا كبيراً وازدادت قيمة التفسيرات التى يستطيع أن يزود بها التاريخ والأنظمة الاقتصادية وضوحا ، وازداد بعد هذه التفسيرات جلاء ، وهو بالطبع لم يفصل نفسه قط عن التاريخ بوصفه علما عاما . عن التاريخ « الكلى » أو التاريخ المتكامل الذى اعتبره مؤرخ مثل لوسيان فيفر هدفا مثاليا والذى أسهم فى تقدير الناس لأهميته . وليس من المرغوب فيه إطلاقا أن يفصل نفسه عنه لأنه جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ الكلى ، وجزء لا غنى عنه له ، ولا يمكن أن يشمل الواحد منهما حقيقة إلا مقترنا بالآخر ، ولكن أليس من الجائز أن هذا التطور الذى مر به التاريخ الاقتصادى فى نطاق التاريخ العام هو بالضبط الذى مكنه من أن يتبوأ مكانه علما مستقلا عن طريق سلسلة من المشكلات أوضح تحديداً ، ومجموعة من الطرق التى اختص بها ؟

ولا شك أن التاريخ الاقتصادى سيشغل على الدوام مركزاً وسطا بين التاريخ والاقتصاد ، فالماضى هدفه والاقتصاد مادته . وهو يختلف عن علم الاقتصاد أولا وقبل كل شىء فى أنه ليس له أى هدف قياسى . وهو فى العادة لا يشكل أو يصوغ

أى فعل حاضر أو مستقبل . وقصاراه أنه ربما حدد الظروف والأحوال تحديدا جزئيا . وقد عبر مؤرخ للاقتصاد انجلوسكسونى مؤخراً تعبيراً ذكيا عن هذا المركز الوسط بتعريفه التاريخ الاقتصادى فى الوقت الحاضر بأنه «حوار بين أنواع الحقائق ومداخل تصورية معينة» . وهذا موقف غير مريح يجعل من الصعب عليه إدراك حدوده وطبيعته ، ولكنه فى الوقت ذاته يتيح له فرصته لأنه يعطيه مطلق الحرية فى اختياراته المستقبلة . أوليس اتخاذ التاريخ الاقتصادى هذا الموقف الثنائى بحكم طبيعته هو الذى يتيح له استخدام طرق هى فى الحقيقة جديدة فعالة ؟ فهو إذ أغنته هذه المشاركة الثنائية لا بد أن يكون حريصا على تنسيق هذه الطرق وحفظ التوازن بينها ، وهو شرط صارم لا غنى عنه لتحقيق القيمة الأصيلة للنتائج المستخلصة من فروضه ، وهذا «التركيب» الذى لم يحققه إلا فترة قصيرة جداً سيتوقف منذ الآن على التوجيه الذى يوجهه التاريخ الاقتصادى للمشكلات التى يتناولها وعلى الطرق التى يتبعها :

وليس هنا مجال حصر المشكلات التى حظيت بالأمس واليوم باهتمام رجال التاريخ الاقتصادى نظراً لما جد من تقدم حديث . فهى مشكلات كثيرة العدد شديدة التنوع . ولا شك فى أن خطوط قوة ، واتجاهات كبرى ، وهى المجال العام للمشكلات ، تنحو إلى الظهور ، ولكن الميدان واسع جداً ، والغرائب فيه كثيرة جداً ، بحيث لن تكفى بضع صفحات لنراها فى ضوئها الصحيح . وليسمح لى القارىء أن أبدى ملحوظتين اثنتين لا أكثر فى هذا الموضوع ، وهما ضروريتان إذا شئنا الحكم على الطرق التى نحتاج إليها .

إن هدف التاريخ الاقتصادى جعل حقائق الماضى الاقتصادية حساسة ، ومن ثم كان عليه أن يدركها بدراسة الوثائق المتاحة له ، لاسيما المكتوبة منها ، ولكن عليه أن يدرس كذلك ما يكشف له عنه علم الآثار (كالمبانى والآلات والأثاث) وعلم المسكوكات والمعادن الخ . ، ثم عليه أن يفسر هذه الحقائق كلها . وهذا التفسير هو فى الوقت ذاته وظيفة الأجهزة الاقتصادية للظواهر التى يجرى بحثها (كتطور

مساومة ما ، أو تقرير ثمن ما ، أو زيادة الطلب أو نقصه على منتج ما ، الخ) ، ووظيفة المواقف الاجتماعية الخاصة — والمعقدة — التى تحدث هذه الظواهر فى نطاقها . ومن ثم كانت هذه الوظيفة ثنائية ، وثنائيتها أساسية : لأنه إذا كان فى الإمكان وضع قوانين للميكانيكيات لإعانة النماذج (النوعية أو الكمية) الممكن تطبيقها على نفس الظواهر فى مواقف متميزة (كعصر آخر ومكان آخر) فليس أقل صدقاً من هذا أن الظروف والأصول الاجتماعية المختلفة فى كل حالة تتدخل بطريقة حاسمة . مثال ذلك أن الميكانيكية التى تضبط تحديد سعر الغلال فى سوق أى مركز من مراكز الاستهلاك يمكن تطبيقها فى سلسلة من الحالات والأماكن وفى عهود شديدة التباين، ولكن علينا فى كل مرة نستخدم فيها النموذج أن نراعى «المتغيرات» الخاصة بكل موقف (الأحوال السياسية والمؤسسية التى تؤثر فى المشتريات ، والنظم الديمغرافية والاجتماعية ، وعادات الاستهلاك ، وقدرة الإنتاج المحلية) ، إذن فهنا بالضبط تنفصل مرة ثانية المستويات المتميزة للتحليل الاقتصادى والتحليل التاريخى ، وهنا يجب على المؤرخ الاقتصادى أن يتعلم كيف يتحرك حركتين فى آن واحد .

أما وقد قلنا هذا ، فإن للتاريخ الاقتصادى أن يزعم لنفسه هدفين يبدوان لأول وهلة متباينين تبايناً شديدا أما أولهما فهو إعادة تركيب الماضى تركيباً حيا قويا ، وأما الثانى فهو تقصى أحوال الحاضر التاريخية ، أعنى خطوط القوة التى تؤدى بالتاريخ — عن طريق الحركة المتصلة — إلى الحاضر . أو كما رأى بالأمس فرنان بروديل «ربط الماضى بالحاضر بنفس التفسير» . ولكن هل هذان الهدفان متباينان حقا إذا أخذا جملة ؟ أليست إعادة تركيب جزء من الماضى ، حتى البعيد منه ، تحكمها مسائل هى مسائل عصرنا ؟ وهل التاريخ مغلق أم هو مفتوح تماماً على الحاضر ، وعلى المستقبل ؟ إن القصد الذى يحرك المؤرخ والمعنى الذى يضفيه على رسالته ذاتيان وقد يختلفان . ولكن عمل المؤرخ وقيمة النتائج التى يخلص إليها يعتمدان على الطرق التى يستخدمها .

هنا نواجه إذن مسألة الطرق التى يستخدمها التاريخ الاقتصادى . وهذه المسألة تطغى اليوم على ما عداها من المسائل بعد أن وجد هذا الفرع من فروع العلم نفسه فى وضعه المحير ، ووصل أخيراً إلى مفترق الطرق بين التاريخ والاقتصاد . ومنذ أن عـكن التاريخ الاقتصادى من أن يفرض نفسه مؤخراً فى الأعوام الثلاثين الماضية صاغ لنفسه جهازاً من الطرق والوسائل . وهو جهاز يعوزه الـكمال بالطبع رغم ما قدم من الأدلة الـكثيرة على مزاياه ، مهما كان رأى المعجبين الذين يفتنهم كل جديد . فهو يستلهم قبل كل شىء الأصول والمبادىء الراسخة للنقد التاريخى، ولـكنه امتد إلى ألوان أخرى من المصادر التى كانت إلى اليوم مهملة ، ونخص بالذكر منها سلاسل المصادر الـكمية . وهو يطالب بقدر كبير من معرفة ومفاهيم غيره من علوم الإنسان بل علوم الطبيعة ، ولـكن فى تردد ، وأحيانا فى ارتباك المبتدىء — وهو ما أوضحناه فى إشارتنا إلى علم الاقتصاد . وقد حدث ، بسبب قلة علمه أنه رجع إلى اتجاهات فـكرية معينة نبذها البحث المتخصص منذ أمد طويل .

واليوم يوضع هـذا الجهاز موضع النظر من جديد . فعلم الاقتصاد فى الظروف والأحوال التى ذكرنا يقترح على المؤرخ الطرق التى صاغها والتى تستعين بوســائل فـكرية ومادية غاية فى القوة (كالبطاقات المثقوبة ، والحاسبات الإلـكترونية) ، ومعظمها يستند إلى استخدام الرياضة . فلابد إذن من الاعتراف بأن الإمكانيات التى يتيحها هذا الجهاز ضخمة . لقد حلت بفضله سلسلة كاملة من المشـكلات التى لم يكن المرء حتى ليثيرها منذ بضع سنوات فقط لأنه لم يعرف كيف يكون الجواب عنها ، أو لأنها كانت تتطلب من الجهد الضخم قدراً لا يتناسب مع النتائج . وغير هذه ستحل فى القريب العاجل ، بحيث إنه لايبدو فى هذه اللحظة أن معضلة من المعضلات عصية على الحل مادمنا نملك المعلومات الأساسية الخاصة بها .

وقد اخترت للقارىء بضعة أمثلة من الأعمـال التى أنجزت بهذه الطريقة ، فقد وضعت وزميل لى من رجال الإحصاء رموزا لعناصر مأخــوذة من قائمة بالأسر

وضعت فى عام ١٤٦٤ لأغراض ضرائبية وتقلنا هذه الرموز على بطاقات مثقوبة ، فمكننا هذا من أن نحلل بالتفصيل سكان جنيف فى منتصف القرن الخامس عشر من حيث توزيعهم الطوبوغرافى ونظامهم الاجتماعى والمهنى الخ . وفى رأيى أن دراسة تجرى بهذه الطريقة على قوائم سابقة أو لاحقة مباشرة لهـــذه القائمة ، خليقة بأن تتيح تناول هذه النواحى تناولا حياً قويا . وقد مكنت مثل هـــذه البطاقات المثقوبة المؤرخ الفرنسى جان دلومو من أن يقوم بدراسة دقيقة جداً للحركة فى ميناء سان — مالو بين عامى ١٦٨١ و ١٧٢٠ ، ومكنت فريقاً من المؤرخـــين الروس من أن يستوضحوا نظام الملكية واستغلال الريف الروسى فى القرن التاسع عشر . وقد زودتنى الآلة الإلكترونية فى دقائق معدودات بالمعدل السنوى لنمو السكان السويسريين منذ منتصف القرن الماضى ، الأمر الذى كان يقتضينى حسابه على الورق أسابيع بأسرها . أفيدهش القارئ لهذا؟ فما باله لو عرف ماقدمته الولايات المتحدة من الأدلة البارزة على قدرة هذه الطرق ، فلقد أجريت فيها دراسات تاريخية رياضية — تجمع بين الكفاية التكنيكية والدقة النظرية — لتأثير شق القنوات والطرق فى الاقتصاد الأمريكى ، ولإمكان تحقيق الربح الاقتصادى من الرق .. الخ

لاجدال إذن فى أن هذه الطرق الجديدة تماماً ، الثورية إلى حد كبير ، تجدد إمكانيات التاريخ الاقتصادى لأنها تقلب معظم الطرق التى كانت مستعملة فى مواجهة المشكلات (خصوصاً ما يتصل منها بعصور أحدث عهداً ، حيث من الواضح أن الحقائق الكمية المتاحة عنها أوفر عدداً بالطبع) . ولـكن ليس من الحق كذلك أنها لا تجلب معها فى الوقت ذاته مخاطر شديدة . وأشد هذه المخاطر أفصح فعلا عن نفسه ، ألا وهو الإغراء بالخلط بين هذه الطرق وهدف هذا العلم ، وحسبان الوسائل غاية ، والانسياق وراء الإثارة ، التى تولدها التقنية . هنا تصبح التقنية مؤذية . فإذا طلبت أن توضع بعض الحدود فإنما أفعل ذلك للإفادة إلى أقصى حد من هذه الأداة التى أتيحت لنا . ومعنى هذا أننا يجب أن نعرف حدودها أيضاً . وسأحاول هنا أن أرسم هذه الحدود وأمثل لذلك بمثالين .

إن التاريخ الذى يستخدم الرياضة استخداماً كبيراً يسمى أيضاً «التاريخ الكمى» وقد أثار هذا التعبير فى فرنسا مؤخراً جدلاً حياً مثيراً . ففى سلسلة من المطبوعات عرفه الاقتصادى جان مارسز يفسكى بأنه « الحساب الرجعى للنتاج القومى » . وفى رأى المؤلف المذكور يشمل هذا التعريف جميع الظواهر الاقتصادية المتصلة بالدولة ، وحساب هذه الظواهر يتضمن كل عناصر التاريخ الاقتصادى الممكن تقديرها كمياً .

ولن أحاول هنا مناقشة هذا المفهوم ، ولكن لن يفوت أحداً منا أنه يضيق الطريق إلى علاج المشكلات ، ويضيق الزمن أيضاً (فمثل هذه الحسابات غير ميسورة إذا ارتددنا وراء القرن التاسع عشر ، أو هى على أية حال مشكوك فيها جداً) . فهل يستطيع المرء حقيقة — دون إنكار لطرافة هــذا البحث — أن يقبل الالتزام بتاريخ اقتصادى مختزل إلى هذا الوضع الهيكلى ؟ إن هــذا التاريخ حق ولو كان « كمياً » فهو يشمل ميداناً أكبر من هذا بكثير .

والتفسير الرياضى للتاريخ الذى اقترحه لفيف من شباب الباحثين الأمريكان المملوئين حماسة وحيوية طموح كهذا التفسير السابق ، ولكنه أكثر إيحاء وتنبيها ، لأنه لايقيد نفسه بمدخل مفرد كلى لحل المشكلات . فهو يقترح الجواب عن بعض الأسئلة التى عجز التاريخ الاقتصادى الكلاسيكى عن الجواب عنها ، وذلك بتركيب نماذج اقتصادية قياسية . وواضح أن الأمر هنا متصل بأعلى نقطة فى الالتقاء بين التاريخ ورياضيات الاقتصاد . والمجال طبقاً لهذا التفسير هو مجال الاقتصاد القياسى للماضى أكثر من مجال التاريخ الاقتصادى ، أو هو مجــال « قياس التاريخ Cliometrics » — وهى العبارة اللطيفة التى انتهى هؤلاء الباحثون أنفسهم إلى إطلاقها على تاريخهم الاقتصادى الجديد. ومع أننا ما زلنا مفتقرين إلى المنظور المناسب للحكم على هذا التفسير الرياضى حكماً صحيحاً ، فإن النتائج الأولى التى حققها مشجعة جداً ولكن الأخطار التى يغامر بها هذا البحث كبيرة كبر درجة تقنيته : ونعنى بها إهمال المتغيرات النوعية للنماذج المركبة ، أى إهمال السياق الاجتماعى التاريخى الذى اعترفنا هنا بشهادته . والأدلة والنتائج قد تزيف دون إمكان الرجوع فيها ، ومن

أخطر المصاعب العملية لهذه الطريقة الرياضية هذه الصعوبة الكامنة فى ميكانيكيتها التى لا يمكن الرجوع فيها . وهذه أساساً هى نفس المشكلة التى نصطدم بها حين نعد برامج للتصنيف المكنوجرافى أو للحساب الإلكترونى : إن ارتكبنا خطأ أو نسينا شيئا ونحن نضع البرنامج أو الرموز عرضنا العملية كلها للخطر .

الشروط اللازمة لضمان مستقبل زاهر لعلم التاريخ الاقتصادى

فى وسعنا أن نرى الآن أن الصعوبات والمخاطر التى ذكرنا حقيقية ، ولكن فى الإمكان تذليلها ، ولا ينبغى على أية حال أن تفت فى عضد المؤرخ فلا يستخدم هذه الطرق ولا يفيد من أفضل ماتستطيع أن تقدمه له من خدمات . ولكى يتقن المؤرخ التكنيكات الشديدة التعقيد التى يجهلها أو التى لا يعرفها إلا معرفة سيئة يجب أن يوثق صلته برجل الاقتصاد ، ورجل الاقتصاد القياسى ، والإحصائى ، والرياضى : فإن الكثير من الآفاق الفنية تتفتح أمام تعاون فروع العلوم المختلفة ، وأمام العمل الذى يقوم به فريق من العلماء يسهم فيه كل بمواهبه الخاصة وما يملك من معرفة ، هى ضرورية للعمل بوصفه كلا . ولكن أليست النتائج التى يحق للمرء أن يتوقعها جديرة بأن يضحى فى سبيلها بفردية المؤرخ التقليدية ؟ .

إن الأمر فى هذا المنظور لم يعد أمر وسائل جديدة تحل محل القديمة . أهى مسألة طرق أم — على وجه أدق — مجموعة من التكنيكات العقلية التى تتيح تناولا جديداً للمشكلات ؟ إن سر التجديد المنهجى هنا كامن فى استخدام مثل هذه التكنيكات وتكيفها وفق حاجات التاريخ النوعية : ولكن التاريخ يقتضى رغم هذا استخدام كل الخبرة الكلاسيكية التى يملكها المؤرخ الذى يصبح دوره خلق التناسق والانسجام فى هذا الالتقاء بين هذه الطرق والتكنيكات التى لاغنى لنا عنها جميعاً .

إنه التحام التكنيكات، وكذلك التحام العقول ذات الخيال القادر التى تستخدم هذه التكنيكات . فالخيال فى التاريخ كما فى غيره من العلوم صفة لاغنى عنها للباحث . وقد ندد دوجلاس نورث نفسه — زعيم مدرسة « التاريخ الاقتصادى الجديد » الأمريكية — ببعض سقطات زملائه الذين حسبوا أن تكنيكات الاقتصاد القياسى ،

والآلات الحاسبة ، وكل الجهاز الصارم الذى يرافقها يحل محل الخيال . . . .

وهذا الالتجاء إلى الخيال ، ألا يردنا ثانياً إلى مستوى « الكيفى » ، أى الإنسان ؟ ذلك الإنسان أو على الأصح الناس ، فى علاقاتهم بالمجتمع،هم ، وسيظلون أبدا ، المبحث المفرد للتاريخ — هؤلاء الناس ، ممثلو الأحداث ،وموضوع الظواهر التى نحاول عبثاً تفكيك أجزائها الدقيقة ما لم نعد جمعها من جديد لنبعث الحياة فى الماضى . وما أشبهنا بمن ينبش جيفا بالية دون جدوى إذا لم نعرف كيف ننفخ الحياة فى أهل الماضى .

فأى معنى للنماذج والصيغ الرياضية ، ولأنهر الأرقام والرسوم البيانية ، إذا لم تعد لنا حساسية لكل هذه الحياة التى تمثلها هذه النماذج والصيغ والأرقام والرسوم تمثيلا فقيراً جداً ، ولكنها رغم هذا تمثلها فى مجموع الآلام والأفراح والآمال والأوهام التى تحملها ؟ كل هذا يقصر دونه كل تكنيك وكل حساب . إنه يدخل فى نطاق الخيال والحساسية . والمؤرخ — حتى إن داعب الرياضة خدمة لمستقبل علمه — لا يختلف كثيراً عن الشاعر .

إريك . ج . هوبسبوم

إسهام كارل ماركس فى علم التاريخ

ترجمة : أحمد فؤاد بلبع

القرن التاسع عشر ، عصر المدنية البورجوازية ، الفضل فى عدد من المنجزات الثقافية الكبرى ، بيد أن علم التاريخ الأكاديمى ، الذى نما فى تلك الفترة ، ليس واحدا من هذه المنجزات . ونحن إذا استثنينا الطرائق التقنية للبحث العلمى ، وجدنا هذا الفرع فى الحقيقة قد ارتد خطوة متميزة عن المقالات التى كثيرا ما كانت تفتقر إلى الوثائق وتتسم بالتأمل وبالعمومية المفرطة ، وهى المقالات التى حاول فيها من شهدوا أكثر العصور الثورية عمقا ـ عصر الثورتين الفرنسية والصناعية ـ فهم التحولات التى تطرأ على المجتمعات البشرية . فالتاريخ الأكاديمى كما ألهمته تعاليم ومثل ليوبولدفون رانكى Leopol dvon Ranke وكما كان ينشر فى المجالات المتخصصة التى نمت فى الجزء الأخير من ذلك القرن ، كان مصيبا فى معارضته للتعميم الذى لا تؤيده الحقيقة بصورة كافية ، أو لا تسنده حقيقة يوثق بها . ولكنه من الناحية الأخرى ركز كل جهوده على مهمة إثبات « الحقائق » ، فكان إسهامه فى التاريخ محدودا ، فيما عدا مجموعة من المعايير التجريبية لتقويم أنواع معينة من الأدلة الوثائقية (مثل التسجيلات المخطوطة للأحداث ، المتضمنة للقرارات الواعية التى اتخذها الأفراد ذوو السلطة والنفوذ) ، والطرائق التقنية المساعدة اللازمة لهذا الغرض .

وقلما كان التاريخ الأكاديمى يلاحظ أن هذه الوثائق والإجراءات لم تكن قابلة للتطبيق إلا على عدد محدود من الظواهر التاريخية ، لأنه كان يقبل دون نقد

ظواهر معينة على أنها جديرة بالدراسة الخاصة ، وينكر ذلك على الظواهر الأخرى، ومن ثم لم يهدف إلى التركيز على « أحداث التاريخ » ـ مع أنه كان فى بعض البلاد يميل ميلا متميزا إلى مناقشة النظم والمؤسسات ـ بيد أن منهجيته كانت ملائمة بصورة واضحة للسرد الزمنى . وهو لم يكن بأية حال يقصر اهتماماته كلية على تاريخ الحرب والسياسة والدبلوماسية (أو على الصورة المبسطة ، الشائعة التى كان المعلمون يقومون بتدريسها فيما يتعلق بالملوك والمعارك والمعاهدات) ، بيد أنه كان بلا ريب يتجه إلى افتراض أن ذلك كله يشكل العمود الفقرى للأحداث التى تعنى المؤرخ . لقد كان ذلك تاريخا فى صورة المفرد . وثمة موضوعات أخرى كان يمكن ، عندما تعالج بمنهج وبمعرفة واسعة ، أن تؤدى إلى ظهور تواريخ مختلفة ، مشروطة بنعوت وصفية (تواريخ مؤسسية أو اقتصادية ، أو كنسية ، أو حضارية أو تواريخ الفنون أو العلوم أو جمع طوابع البريد .. الخ) ولكن صلة هذه التواريخ بالهيكل الرئيسى للتاريخ كانت غامضة أو لا تلقى الاهتمام ، فيما عدا بضعة تأملات مبهمة حول الطابع العقلى والأخلاقى والثقافى للعصر Zeitgeist وهو موضوع كان المؤرخون المحترفون يفضلون عدم الخوض فيه .

أما من الناحيتين الفلسفية والميثودولوجية فقد كان المؤرخون الأكاديميون يبدون مثل هذه السذاجة الصارخة . صحيح أن نتائج هذه السذاجة كانت متفقة مع ما كان فى العلوم الطبيعية ميثودولوجية واعية ، وإن كانت موضع خلاف ، يمكن أن نسميها تجاوزاً بالوضعية ، ولكن من المشكوك فيه أن كثرة من المؤرخين الأكاديميين (خارج البلاد اللاتينية) كانوا يعرفون أنهم وضعيون . فهم فى معظم الحالات ليسوا إلا رجالا يقبلون ـ حين يقبلون موضوعا ما (مثل التاريخ السياسى ـ العسكرى ـ الدبلوماسى) ، ومنطقة جغرافية ما (مثل أوروبا الغربية والوسطى) ، باعتبارهما الموضوع والمنطقة الأكثر أهمية ـ فيما يقبلون من الأفكار المتوارثة الأخرى ، الأفكار الخاصة بالفكر العلمى المبسط (مثال ذلك أن الفروض تنشأ ذاتيا من دراسة « الحقائق » ، وأن التفسير يتكون من مجموعة من سلاسل العلة والمعلول ،

ومفاهيم الحتمية ، والتطور ، . . إلخ) لقد افترضوا أنه كما تستطيع المعرفة العلمية إثبات صحة النص النهائى للوثائق وتعاقب هذه الوثائق التى كانوا ينشرونها فى سلاسل مفصلة كبيرة القيمة من المجلدات ، كذلك ستستطيع إثبات الحقيقة النهائية للتاريخ. وقد كان كتاب لورد أكتون Lord Acton « تاريخ كمبردج الحديث » « Cambridge Modern History » مثلا نموذجياً ، وإن جاء متأخرا ، لمثل هذه المعتقدات .

إذن فقد كان التاريخ — حتى إذا قيس بالمعايير المتواضعة للعلوم البشرية والاجتماعية السائدة فى القرن التاسع عشر — ، علماً شديد التخلف ، بل ربما متخلفاً عن عمد . وكان إسهامه فى فهم المجتمع البشرى فى الماضى والحاضر ، عارضاً يمكن إغفاله . وحيث إن فهم المجتمع يتطلب فهماً للتاريخ ، فقد كان من المتعين ، إن عاجلا أو آجلا ، إيجاد الوسائل البديلة والأكثر جدوى لارتياد ماضى البشرية . وموضوع هذا البحث هو إسهام الماركسية فى هذا المسعى .

وقد أجمل أرنالدو موميجليانو Arnaldo Momigliano ، بعد مائة عام من وفاة رانكى ، التغيرات التى طرأت على علم التاريخ فى أربع نقاط(١) :

١ — تدهو التاريخ السياسى والدينى تدهوراً حاداً ، على حين « تبدو التواريخ القومية أمراً عتيقاً » . وفى مقابل ذلك كان هناك تحول ملحوظ نحو التاريخ الاجتماعى — الاقتصادى .

٢ — لم يعد من المألوف ، ولا من السهل فى الحقية استخدام « الأفكار » كتفسير للتاريخ .

٣ — أصبحت التفسيرات الغالبة الآن « فى صورة قوى اجتماعية » ، برغم أن ذلك قد أثار بصورة أكثر حدة مما كان عليه أيام رانكى مسألة العلاقة بين تفسير الأحداث التاريخية وتفسير التصرفات الفردية .

---

(١) « مائة عام بعد رانكى » « One Hundred Years after Ranke » ، فى « دراسات فى علم التاريخ » « Studies in Historiography » ، لندن ، ١٩٦٦ .

٤ — أصبح من الصعب الآن (عام ١٩٥٤) الحديث عن تقدم الأحـداث ، أو حتى عن تطورها تطورا ذا مغزى ، فى اتجاه معين .

ولقد كان ورود الملاحظة الرابعة من ملاحظات موميجليانو — ونحن ننقل عنه هنا كمقرر لحالة علم التاريخ لا كمحلل لها — أمراً أكثر احتمالا فى الخمسينيات منها فى العقود السابقة أو اللاحقة ، بيد أن الملاحظات الثلاث الأخرى تمثل بجلاء اتجاهات راسخة دائمة فى الحركة المضادة لرانكى داخل التاريخ . فقد لوحظ منذ عام ١٩١٠(١) أن المحاولة كانت تبذل بانتظام منذ منتصف القرن التاسع عشر لإحلال إطار مادى فى التاريخ محل الإطار المثالى ، مما أسفر عن تدهور فى التاريخ السياسى ، وظهور التاريخ « الاقتصادى أو السوسيولوجى » . وكان ذلك ولاريب تحت وطأة حافز يتزايد إلحاحاً هو حافز « المشكلة الاجتماعية » التى « سادت » علم التاريخ فى النصف الثانى من ذلك القرن(٢) . ومن الواضح أن الأمر قد تطلب وقتاً للاستيلاء على قلاع الكليات الجامعية ومدارس المحفوظات أطول مما افترضه للوسوعيون المتحمسون . فحتى عام ١٩١٤ لم تكن القوات المهاجمة قد احتلت أكثر من المواقع الأمامية « للتاريخ الاقتصادى » ولعل الاجتماع الموجه وجهة تاريخية ، ولم يكن المدافعون ، حتى بعد الحرب العالمية الثانية ، قد أرغموا على التراجع الكامل ، برغم أنهم لم يدحروا بأية حال(٣) . على أن الطابع العام للحركة المضادة لرانكى ، ونجاح هذه الحركة عموماً ، أمران لا ينكران .

والسؤال المباشر أمامنا الآن ، هو إلى أية درجة يعزى الفضل فى هذا الاتجاه

---

(١) « الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica ، الطبعة الحادية عشرة ، مادة « History » .

(٢) الموسوعة الإيطالية Encyiclopedia Italiana ، مادة « Storio grafia » .

(٣) والحقيقة أنها قد رقت ، لعدة سنوات بعد عام ١٩٥٠ ، إلى مستوى الهجوم المضاد الناجح إلى حد ما ، مستمدة التشجيع فى ذلك من المناخ الملائم للحرب البـاردة ، وربما أيضاً من عجز المجددين عن تدعيم تقدمهم الذى كان سريعاً بصورة غير متوقعة .

الجديد إلى التأثير الماركسى . وثمة سؤال ثان ، هو على أى وجه استمر التأثير الماركسى يسهم فى هذا الاتجاه .

لا ريب أن التأثير الماركسى كان منذ البداية تأثيراً كبيراً للغاية . ويمكن القول بصفة عامة إن المدرسة الفكرية الوحيدة الأخرى ، أو التيار الفكرى الوحيد الآخر ، الذى استهدف إعادة بناء التاريخ ، والذى كان ذا تأثير فى القرن التاسع عشر ، هو الوضعية (سواء أشرنا إليها ككلمة عادية أو كاسم من أسماء الأعلام) . إن الوضعية ، وهى الوليد المتأخر لحركة التنوير فى القرن الثامن عشر ، كانت جديرة بإعجابنا لو أننا كنا من أبناء القرن التاسع عشر . فقد كان إسهامها الكبير فى التاريخ هو اقتباس مفاهيم ومناهج ونماذج من العلوم الطبيعية واستخدامها فى البحث الاجتماعى ، وتطبيق ما يناسب من الاكتشافات فى العلوم الاجتماعية على التاريخ . ولم تكن هذه بالمنجزات التافهة ، بيد أنها كانت منجزات محدودة ، وزاد من محدوديتها أن أقرب الأشياء إلى نموذج التغيير التاريخى — وهى نظرية للتطور مكيفة وفق نموذج من البيولوجيا أو الجيولوجيا ، ومستلهمة التشجيع والمثل بعد عام ١٩٥٨ من الداروينية — هذه النظرية ليست سوى دليل للتاريخ شديد الفجاجة والنقص . ومن ثم فإن المؤرخين الذين استلهموا كونت Comte أو سبنسر Spencer كانوا قلة ، وكان تأثير ، بعضهم ، مثل باكل Buckle أو حتى من هو أعظم شأناً مثل تين Taine أو لامبرخت Lamprecht ، على علم التاريخ محدوداً ومؤقتاً . وعلى الرغم من إيمان كونت بأن علم الاجتماع أرقى العلوم ، وأن ضعف الوضعية كان يكمن فى أنه لم يكن لديها الكثير الذى تقوله فى الظواهر التى تميز المجتمع البشرى ، بوصفها متميزة عن تلك التى يمكن استخلاصها مباشرة من تأثير العوامل غير الاجتماعية ، أو المطابقة بينها وبين نموذج العلوم الطبيعية . وكل ما كان لديها من آراء عن الطابع البشرى للتاريخ كان آراء تأملية ، إن لم تكن ميتافيزيقية .

إذن فقوة الدفع الرئيسية لتحول التاريخ جاءت من العلوم الاجتماعية الموجهة وجهة

تاريخية (مثل « المدرسة التاريخية » الألمانية في علم الاقتصاد) ، وبصفة خاصة من كارل ماركس ، الذى كان من المعترف به أن تأثيره بلغ حداً جعل البعض ينسبون إليه الفضل فى منجزات لم يزعم هو نفسه أنه أصلها ومصدرها . فقد كانت المادية التاريخية توصف عادة — وفى بعض الأحيان ، حتى من الماركسيين أنفسهم — بأنها « حتمية اقتصادية » ، وفضلا عن نفي ماركس لهذه العبارة ، فمن المؤكد أنه ينفى أيضاً أنه كان أول من أكد أهمية الأساس الاقتصادى للتطور التاريخى ، أو كتب تاريخ البشرية باعتباره تعاقبا للأنظمة الاجتماعية — الاقتصادية . وهو بالتأكيد نفى — ولكن عبثا — أنه الأصل فى إدخال مفهوم الطبقة والصراع الطبقي فى التاريخ ، فقد كتبت الموسوعة الإيطالية : « لقد أدخل ماركس الصراع الطبقى فى علم التاريخ » .

وليس غرض هذا البحث تتبع الإسهام النوعى للتأثير الماركسى على تحول « علم التاريخ الحديث » . ومن الواضح أن هذا الإسهام كان يختلف من بلد لآخر . من ذلك أنه كان صغيرا نسبيا فى فرنسا ، حتى الحرب العالمية الثانية على الأقل ، بسبب تغلغل الأفكار الماركسية تغلغلا متأخرا وبطيئا بصورة ملحوظة فى كل مجالات الحياة الثقافية لذلك البلد(١) . وعلى الرغم من أن التأثيرات الماركسية كانت حتى العشرينيات قد تغلغلت إلى حد ما فى التاريخ للثورة الفرنسية — وهو ميدان شديد الاصطباغ بالسياسة — فى ارتباط مع الأفكار المستقاة من تقاليد الفكر القومية بدليل ما كتبه چوريس وچورج لفيڤر — كانت الحركة الرئيسية لإعادة توجيه المؤرخين الفرنسيين تقودها مدرسة الحوليات Annales ، التى لم تكن بالتأكيد بحاجة إلى ماركس Marx كى يسترعى أنظارها إلى الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للتاريخ . (ومع ذلك فإن الاتجاه السائد إلى اعتبار الاهتمام بهذه المسائل جزءا

---

(١) انظر جورج لشتهايم George Lichtheim الماركسية فى فرنسا الحديثة Marxism in Modern France ١٩٦٦ .

من الماركسية قد بلغ حدا من القوة حمل الملحق الأدبى لجريدة التايمز مؤخرا (١) على أن يضع حتى فيرنار برودل ضمن من تأثروا بماركس) . وعلى العكس من ذلك توجد بلاد فى آسيا وأمريكا اللاتينية يكاد يكون ممكنا فيها المطابقة بين تحول علم التاريخ الحديث ، إن لم يكن خلقه ، وبين تغلغل الماركسية . وما دام من المسلم به ، إذا تكلمنا من زاوية عالية أن التأثير كان كبيرا ، إذن فلا حاجة بنا إلى المضى فى الموضوع فى هذا البحث إلى ما هو أبعد من ذلك .

ولقد أثير موضوع التأثير الماركسى ، لا لإثبات أنه لعب دورا هاما فى تجديد علم التاريخ ، بقدر بيان ما يكتنف إثبات إسهامه الدقيق من صعوبة كبرى . ذلك لأن التأثير الماركسى بين المؤرخين ، كما رأينا ، كان يتطابق مع بضعة أفكار بسيطة نسبيا ، وإن تكن قوية ، ربطت بطريقة أو بأخرى بماركس وبالحركات التى استلهمت فكرة ، ولكنها ليست بالضرورة أفكارا ماركسية بأية حال ، أو ليست بالضرورة ــ فى الصورة التى كانت شديدة التأثير ــ ممثلة لفكر ماركس الناضج . وسندعو هذا النمط من التأثير نمطا « ماركسيا دارجا » ، ومشكلة التحليل الرئيسية هى فصل ما هو ماركسى دارج عن المكون الماركسى فى التحليل التاريخى .

وإلى القارىء بعض الأمثلة : يبدو واضحا أن « الماركسية الدارجة » تشتمل أساساً على العناصر التالية :

١ ــ « التفسير الاقتصادى للتاريخ » ، أى الاعتقاد بأن « العامل الاقتصادى هو العامل الأساسى الذى تعتمد عليه العوامل الأخرى » (إذا استخدمنا عبارة ر . ستاملر) ؛ أو بدرجة أكثر تخصصا ، الذى تعتمد عليه ظواهر لم تكن تعتبر حتى الآن ذات صلة قوية بالأمور الاقتصادية . وهو إلى هذا المدى يتداخل مع :

٢ ــ نموذج « الأساس والبنيان العلوى » (الذى يستخدم على نطاق واسع جدا لتفسير تاريخ الأفكار) . وعلى الرغم من تحذيرات ماركس وإنجلز Engels والملاحظات المستنيرة لبعض الماركسيين الأوائل مثل لابريولا Labriola ، كان هذا

---

(١) عدد ١٥ فبراير ١٩٦٨ .

النموذج يفسر عادة على أنه علاقة بسيطة للسيطرة والتبعية بين « الأساس الاقتصادى » و « البنيان العلوى » ، تتوسطها على الأكثر .

٣ — « المصلحة الطبقية والصراع الطبقى » . ويخيل للمرء أن عددا من المؤرخين الماركسيين الدارجين لم تتجاوز قراءاتهم كثيرا الصفحة الأولى من « البيان الشيوعى » ، والعبارة القائلة بأن « التاريخ (المكتوب) لكل المجتمعات التى قامت حتى الآن ، إنما هو تاريخ للصراعات الطبقية » .

٤ — « القوانين التاريخية والحتمية التاريخية » . وقد كان من المعتقد عن حق أن ماركس كان يصر على تطور منتظم وضرورى للمجتمع البشرى فى التاريخ ، تستبعد منه العوارض إلى حد كبير ، على الأقل فى مستوى التعميم حول الحركات الطويلة الأمد . ومن هنا الانشغال الدائم للكتاب الماركسيين الأوائل فى التاريخ بمشكلات من نوع دور الفرد أو الأحداث العارضة فى التاريخ . ولكن هذا كان يمكن تفسيره ، بل وفُسِّر إلى حد كبير ، بأنه انتظام جامد ومفروض (مثال ذلك فى تعاقب التكوينات الاجتماعية — الاقتصادية أو حتى الحتمية الآلية التى قربت فى بعض الأحيان من حد الزعم بأنه ليست هناك تكوينات بديلة فى التاريخ) .

٥ — موضوعات البحث التاريخى النوعية المستخلصة من اهتمامات ماركس الخاصة ، مثل اهتماماته بالتطور والتصنيع الرأسماليين ، ولكن المستخلصة فى بعض الأحيان أيضا من ملاحظات عارضة فى عمومها .

٦ — الموضوعات النوعية للاستقصاء المستخلصة لا من ماركس بقدر ما هى مستخلصة من مصلحة الحركات المرتبطة بنظريته ، مثال ذلك الدعوة التى تبثها الطبقات المقهورة (الفلاحين والعمال) أو الثورات .

٧ — الملاحظات المختلفة حول طبيعة وحدود علم التاريخ ، المستخلصة أساسا من رقم ٢ ، والتى تفيد فى تفسير دوافع ومناهج المؤرخين الذين يزعمون أنهم ليسوا سوى باحثين منصفين وراء الحقيقة ، ويتباهون بأنهم « أقروا ببساطة ما كان موجودا من قبل » .

ويتضح على الفور أن ذلك يمثل على أحسن الفروض مختارات من أفكار ماركس حول التاريخ ، وعلى أسوأ الفروض (كما هي الحال غالبا مع كاوتسكي) محاولة لجعل هذه الأفكار شبيهة بالأفكار المعاصرة غير الماركسية ـ مثل الأفكار النشوئية (التطورية) والوضعية ويتضح أيضا أن بعضا منه لم يكن يمثل ماركس على الإطلاق وإنما كان نوع المصالح التي كان يمكن بصورة طبيعية أن يطورها أي مؤرخ مرتبط بالحركات الشعبية والعمالية والثورية ، والتي كان يمكن أن تتطور حتى من غير تدخل ماركس ، مثل الانشغال بالأمثلة المبكرة للصراع الاجتماعي والإيدولوجية الاشتراكية من ذلك أننا لا نجد في بحث كاوتسكي Kautsky المبكر عن توماس مور Thomas More شيئاً ماركسياً بشكل خاص من حيث اختيار الموضوع ، كما أن معالجته تعد معالجة ماركسية دارجة

ومع ذلك فإن هذا الانتقاء لعناصر من الماركسية ، أو لعناصر مرتبطة بها ، لم يأت اعتباطا . فالنقاط ١ ـ ٤ و٧ في المسح الموجز للماركسية الدارجة الذي قدمناه فيما سبق ، تمثل شحنات مركزة لمتفجر ثقافي قصد بها نسف أجزاء بالغة الأهمية من قلاع التاريخ التقليدي ، وهي بوصفها هذا كانت شحنات قوية جداً ، بل ربما كانت أكثر قوة مما تكون عليه صور للمادية التاريخية أقل تبسيطاً ، وكانت بالتأكيد على درجة كافية من القوة من حيث قدرتها على إضاءة أماكن ظلت مظلمة حتى ذلك الحين ، وعلى إقناع المؤرخين لفترة طويلة من الزمن . ومن الصعب تصور الدهشة التي كانت تعتري عالماً اجتماعياً ذكياً مثقفاً في نهاية القرن التاسع عشر ، عند التقائه بهذه الملاحظات الماركسية حول الماضي ، « إن حركة الإصلاح الديني نفسها تعزى إلى سبب اقتصادي ، وإن طول أمد حرب الثلاثين عاما يرجع إلى أسباب اقتصادية ، والحروب الصليبية إلى الجوع الإقطاعي للأرض وتطور العائلة إلى أسباب اقتصادية وإن أفكار ديكارت عن الحيوانات باعتبارها آلات يمكن ربطها بنمو نظام الصناعة[1] » .

---

(١) ج . بونار Bonar ، الفلسفة والاقتصاد السياسي Philosophy and political Economy ١٨٩٣، ص ٣٦٧ .

ومع ذلك فإن الذين يذكرون أول لقاءات لنا مع المادية التاريخية قد يشهدون حتى اليوم بما كان لمثل هذه الاكتشافات البسيطة من قوة تحريرية هائلة . على أنه إذا كان طبيعياً ، وربما ضروريا ، أن يتخذ التأثير الأولى للماركسية شكلا مبسطاً ، فإن الانتخاب الفعلى للعناصر من ماركس كان يمثل أيضاً اختياراً تاريخياً . وهكذا فإن بضع ملاحظات من ماركس فى كتاب رأس المال حـول العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية كانت هائلة التأثير، وسبب ذلك على الأرجح أن مشكلة الأساس الاجتماعى للأيديولوجية بشكل عام ، ولطبيعة المعتقدات الدينية التقليدية بوجه خاص ، كانتا موضوعا لاهتمام مباشر وشديد(1) . ومن الناحية الأخرى ، فإن بعض الأعمال التى اقترب فيها ماركس أكثر ما اقترب من الكتابة كمؤرخ ، مثل مؤلفه الرائع ١٨ برومير ، لم تنبه المؤرخين إلا بعد ذلك بوقت طويل ، وهو أمر مرجعه على الأرجح أن المشكلات التى تلقى عليها معظم الضوء ، مثل مشكلات الوعى الطبقى والفلاحين ، كانت تبدو ذات أهمية مباشرة أقل من غيرها .

إن الجزء الأكبر مما نعتبره التأثير الماركسى على علم التاريخ كان بالتأكيد تأثيراً ماركسياً — دارجاً بالمعنى الذى وصفناه فيما سبق . فهو يتكون من التركيز العام على العوامل الاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ التى كانت سائدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى جميع البلاد إلا قلة منها (كألمانيا الغربية والولايات المتحدة حتى وقت قريب)، والتى تواصل كسب الأرض . وينبغى أن نعيد أن هذا الاتجاه ، برغم أنه كان فى الأساس بلا ريب نتاج التأثير الماركسى ، لا تربطه صلة خاصة بفكر ماركس . أما الأثر الرئيسى لأفكار ماركس النوعية فى التاريخ والعلوم الاجتماعية بعامة ، فهو بشكل مؤكد تقريباً أثر نظرية « الأساس والبنيان العلوى » ، أى أثر نموذجه

---

(1) كان من شأن هذه الملاحظات أن تؤدى إلى نشوء أحد التغلغلات المبكرة لتأثير هو دون ريب تأثير ماركسى فى علم التاريخ التقليدى ، أى الموضوع الرئيسى الشهير الذى أدلى فيه سومبارت Sombart وفيبر Weber وترولتش Troeltsch وغيرهم بآراء متباينة . ومازال أمام المناقشة شوط كبير حتى تستنفد .

للمجتمع الذى يتكون من « مستويات » مختلفة تتفاعل فيما بينها ، واسنا بحاجة إلى الموافقة على أن سلم ماركس الخاص للمستويات أو لأسلوب تفاعلها (بصورته التى قدمها لنا[1]) ذو قيمة للنموذج العام . صحيح أنه لقى ترحيباً واسعاً للغاية باعتباره إسهاما قيما حتى من غير الماركسيين . ولكن نموذج ماركس النوعى للتطور التاريخى — بما فيه دور النزاعات الطبقية ، وتعاقب التكوينات الاجتماعية — الاقتصادية ، وآلية الانتقال من تكوين لآخر — كل هذا ظل أكثر مثار الجدل، حتى بين الماركسيين فى بعض الحالات . ومن الحق أن يناقش ويقلب على وجوهه ، وأن تطبق عليه خصوصا المعايير المعتادة للتحقيق التاريخى ، ولا مفر من التخلى عن بعض أجزائه التى تقوم على أدلة غير كافية أو مضللة ، مثال ذلك فى مجال دراسة المجتمعات الشرقية ، حيث يجمع ماركس بين نفاذ البصيرة والافتراضات الخاطئة ، مثل افتراضة الاستقرار الداخلى لبعض هذه المجتمعات . وعلى الرغم من ذلك فالرأى الذى يدافع عنه هذا البحث هو أن قيمة ماركس الرئيسية للمؤرخين اليوم تكمن فى بياناته عن التاريخ ، باعتبارها متميزة عن بياناته عن المجتمع بشكل عام .

* * *

إن التأثير الماركسى (والماركسى الدارج) الذى كان حتى الآن شديد الفعالية ، إنما هو جزء من الاتجاه العام إلى تحويل التاريخ إلى علم من العلوم الاجتماعية ، وهو اتجاه يقاومه البعض بقدر متفاوت من الاستنارة ، بيد أنه كان وما زال دون منازع الاتجاه السائد فى القرن العشرين . وقد كان الإسهام الرئيسى للماركسية فى هذا الاتجاه فى الماضى هو نقد الوضعية ، أى نقد المحاولات التى بذلت للمشابهة بين دراسة العلوم الاجتماعية ودراسة العلوم الطبيعية ، أو بين البشرى وغير البشرى . وهذا يتضمن الاعتراف بالمجتمعات كأنظمة العلاقات بين الكائنات البشرية ، أهمها فى نظر ماركس تلك التى يرتبط بها الناس لغرض الإنتاج وتكرار الإنتاج ، كما يتضمن أيضا تحليل بنيان

---

(١) ينبغى على المرء أن يتفق مع . ألتوسر Althusser بأن مناقشته المستويات البنيات العلوى « ظلت أكثر عمومية وأقل حسما » من مناقشته « للأساس » .

ووظيفة هذه الأنظمة باعتبار كل منها كيانا يحافظ على نفسه ، سواء فى علاقاته مع المحيط الخارجى —البشرى وغير البشرى — أو فى علاقاته الداخلية . وليست الماركسية هى النظرية البنائية — الوظيفة الوحيدة للمجتمع ، برغم مبرراتها الوجيهة فى أن تعد أول نظرية من هذا النوع ، بيدأنها تختلف عن معظم النظريات الأخرى فى ناحيتين : أولاهما أنها تصر على وجود ترتيب هرمى للظواهر الاجتماعية (مثل « الأساس » و « البنيان العلوى ») ، وثانيتهما أنها تصر على وجود توترات داخلية « تناقضات » داخل أى مجتمع ، وهى توترات تعاكس اتجاه النظام للمحافظة على نفسه كمؤسسة ناجحة(١)

وتكمن أهمية خصائص الماركسية هذه فى مجال التاريخ ، وذلك لأنها هى التى تسمح له — على خلاف النماذج البنائية — الوظيفية الأخرى للمجتمع — بتفسير سبب وكيفية تغير المجتمعات وتحويلها لنفسها ، وبعبارة أخرى تفسير حقائق التطور الاجتماعى(٢) . إن قوة ماركس الهائلة كانت تستند دائما على تمسكه بوجود البنيان الاجتماعى وبتاريخيته ، أو بعبارة أخرى ديناميكيته الداخلية للتغيير . واليوم حيث يتقبل الناس عموما الأنظمة الاجتماعية ، وإن كان ذلك على حساب تحليلها غير التاريخى ، إن لم يكن تحليلها المضاد للتاريخ ، ربما يكون تشديد ماركس على التاريخ باعتباره بعدا ضروريا ، أكثر جوهرية منه فى أى وقت مضى .

ويتضمن هذا نقدين نوعيين للنظريات السائدة فى العلوم الاجتماعية اليوم : أولهما ، نقد الآلية التى تسيطر على كثير من العلوم الاجتماعية ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، وتستمد قوتها من كل من الازدهار الملحوظ للنماذج الآلية الراقية فى الحقيقة الراهنة للتقدم العلمى ، والبحث عن أساليب لتحقيق التغير الاجتماعى لا تتضمن ثورة اجتماعية . وربما أمكن للمرء أن يضيف أن وفرة المال ووفرة بعض التكنولوجيات

---

(١) لاحاجة إلى القول بأن « الأساس » لايتكون من التكنولوجيا أو الاقتصاد ، وإنما من « المجموع الكلى لعلاقات الإنتاج هذه » ، أى التنظيم الاجتماعى بأوسع معانيه مطبقا على مستوى ما لقوى الإنتاج المادية .

(٢) من الواضح أن استخدام هذا التعبير لايتضمن أى تماثل مع عملية التطور البيولوجى .

الجديدة المناسبة للاستخدام في المجال الاجتماعي — هذه الوفرة المتاحة الآن في أغنى البلاد الصناعية ، تجعل هذا النمط من « الهندسة الاجتماعية » والنظريات التي تقوم عليها ، جذابة للغاية في مثل هذه البلاد . وهذه النظريات هي أساسا تمارين في «حل المشكلات » . وهي من الناحية النظرية بدائية للغاية ، وربما تكون أكثر فجاجة من معظم النظريات المقابلة في القرن التاسع عشر . وهكذا نجد علماء اجتماع كثيرين سواء بوعي أو بحكم الواقع ، يختزلون عملية التاريخ إلى تغير مفرد من مجتمع « تقليدي » إلى مجتمع « عصري » أو « صناعي » ، ويعرف المجتمع المصري هنا بأنه البلاد الصناعية المتقدمة ، أو حتى الولايات المتحدة في منتصف القرن العشرين ، كما يعرف المجتمع التقليدي بأنه المجتمع الذي يفتقر إلى العصرية . ومن الناحية التنفيذية قد تقسم هذه الخطوة الكبيرة المفردة إلى خطوات أصغر ، مثل تقسيمات روستو Rostow لمراحل النمو الاقتصادي . ومثل هذه النماذج تضرب صفحا عن معظم التاريخ لتركز على فترة واحدة منه ، هي فترة صغيرة برغم التسليم بحيويتها ، وتسرف بفجاجة في تبسيط ميكانيكيات التغيير التاريخي حتى في هذه الفترة الصغيرة من الزمن . وهي تؤثر المؤرخين أساسا لأن حجم ومكانة العلوم الاجتماعية التي تطور مثل هذه النماذج تشجع الباحثين في مجال التاريخ على مباشرة مشروعات متأثرة بها . ومن الواضح ، أو ينبغي أن يكون واضحا ، أنها لا تستطيع أن تقدم لنا نموذجا وافيا للتغيير الاجتماعي ، بيد أن شعبيتها الراهنة تجعل من الأهمية بمكان أن يذكرنا الماركسيون بهذه الحقيقة باستمرار .

ثانيهما ، نقد النظريات البنائية — الوظيفية ، التي وإن كانت أكثر استنارة من سابقتها بدرجة هائلة — فهي من بعض النواحي أكثر عمقا لأنها قد تنكر التاريخية كلية ، أو تحولها إلى شيء آخر . ومثل هذه الآراء أكثر تأثيرا حتى داخل نطاق تأثير الماركسية ، إذ تبدو أنها توفر وسيلة لتحريرها من الشوائب (التطور) المتميزة للقرن التاسع عشر ، التي كثيرا ما كانت ترتبط بها ، ولو على حساب تحريرها أيضاً من مفهوم التقدم ، الذي كان أيضا سمة مميزة لفكر القرن التاسع عشر ، بما فيه

فكر ماركس . ولكن لماذا تحدونا الرغبة فى أن نفعل ذلك (١) فماركس نفسه ما كان لتحدوه مثل هذه الرغبة بالتأكيد:فقدعرض أن يهدى كتابه«رأس المال» إلى دارون وما كان ليعترض على عبارة إنجلز الشهيرة التى امتدحته لاكتشافه قانون التطور فىالتاريخ البشرى ، مثلما فعل دارون Darwin فى الطبيعة العضوية . (ومن المؤكد أنه ما كان ليرغب فىفصل التقدم عن التطور،والحقيقة أنه قد وجه اللوم بصفة خاصة إلى دارون لأنه جعل من التقدم مجرد نتاج ثانوى عرضى للتطور)(٢)

والسؤال الأساسى فى التاريخ هو كيف تطورت البشرية من أول حيوان رئيسى استخدم الأدوات إلى الكائن البشرى الراهن . وهذا يتضمن اكتشاف آلية لتمايز مختلف المجموعات الاجتماعية والبشرية ، وللتحول من نوع من المجتمع إلى نوع آخر ، أو الفشل فى فعل ذلك . وفى مجالات معينة يعتبرها الماركسيون والإدراك السليم مجالات حاسمة ، مثل تحكم الإنسان فى الطبيعة ، يتضمن ذلك بالتأكيد تغيرا أو تقدما آحادى الاتجاه ، على الأقل خلال فترة من الزمن طويلة بصورة كافية . وما دمنا لا نفترض أن آليات مثل هـذا النمو الاجتماعى هى نفسها آليات النمو البيولوجى أو مماثلة لها فلا يبدو أن هناك سببا معقولا لعدم استخدام تعبير «التطور» « Evolution » للدلالة عليه .

وليس الجدل هنا مجرد جدل حـول المصطلحات ، بل هو يخفى نوعين من الخلافات : خـلاف حول « حكم القيمة » الذى نصدره على الأنواع المختلفة من المجتمعات ، أو بعبارة أخرى إمكانية ترتيب هذه المجتمعات فى أى نوع من النظام الهرمى ؛ وخلاف حول آليات التغير . وقد اتجهت النظريات البنائية ــ الوظيفية إلى تجنب ترتيب المجتمعات إلى « عليا » و« دنيا » ، ويرجع ذلك جزئيا إلى رفض

---

(١) ثمة أسباب تاريخية لهذا التمرد على الجانب «الثورى» للماركسية ، مثل رفض الاتجاهات الكاوتسكية التقليدية الذى يرجع إلى أسباب سياسية ، بيد أننا هنا لسنا معنيين بذلك .

(٢) « ماركس إلى انجلز » ، ١٧ أغسطس ١٨٦٦ ، الأعمال الكاملة « المجلد ٣١ ، ص ٢٤٨ .

الإنثروبولوجيين الاجتماعيين لحق «المتمدنين» في حكم « الهمج» بسبب تفوقهم المزعوم من حيث التطور الاجتماعي ـ وهو رفض رحبت به هذه النظريات ـ وجزئيا إلى أنه وفقا للمعايير الرسمية للوظيفة ، لا يوجد مثل هذا الترتيب الهرمي . فالإسكيمو يحلون مشكلات وجودهم كجماعة اجتماعية [1] بطريقتهم الخاصة بالقدر نفسه من النجاح الذي يحل به سكان ألا سكا البيض مشكلات وجودهم ، بل إن هناك ما يغري البعض بالقول بأنهم يحلونها بقـــدر أكبر من النجاح ، وفي ظل ظروف معينة ، ووفقا لافتراضات معينة ، قد يكون التفكير السحري بطريقته الخاصة منطقيا كالتفكير العلمي كما يستوى معه من حيث ملاءمته لغرضه ، وهلم جرا .وتلك ملاحظات سليمة برغم أنها ليست مجدية جدا في حدود ما يرغب المؤرخ ، أو أى عالم اجتماعى آخر ، في تفسير المضمون النوعي لنظام ما بدلا من تفسير هيكله العام (٢) . ولكنها على أية حال لا صلة لها بمسألة التغيير الاجتماعي ، إن لم تكن في الحقيقة حشوا لفظيا لا جدوى منه . فعلى المجتمعات البشرية ، إن أرادت البقاء ، أن تكون قادرة على إدارة ذواتها بنجاح ، ومن هنا يتعين على كل المجتمعات القائمة أن تكون ملائمة من الناحية الوظيفية، وإلا انقرضت كما انقرضت طائفة المهتزين Shakers لافتقارها إلى نظام للإنجاب الجنسي أو التجنيد من خارجها. والمقارنة بين المجتمعات، من حيث نظام علاقاتها الداخلية بين الأعضاء ، هي بالضرورة مقارنة للشيء بمثله ، فالفروق لا تقفز أمام أعيننا إلا عندما نقارن بينها من حيث قدرتها على السيطرة على الطبيعة الخارجية .

---

(١) بالمعنى الذى يتحدث به ليفي — شتراوس Lévi–Strauss عن أنظمة القرابة (أو غيرها من المخططات الاجتماعية) باعتبارها « مجموعاً متناسقاً وظيفته ضمان دوام المجموعة الاجتماعية » (الأنثروبولوجيا اليوم Anthropology To day ، إعداد صول تاكس SolTax ، ١٩٦٢ ص ٣٤٣) .

(٢) « يظل صحيحاً . . . حتى بالنسبة لصورة التحليل الوظيفي التي منحت حياة جديدة تماماً ، أن شكلها التفسيرى محدود إلى حدما ، وبخاصة أنه لا يوفر تفسيراً لماذا تحدث مفردة خاصة ، بدلا من معادل وظيفي ما لها ، في نظام ى » . كارل همبل ، في ندوة حول النظرية الاجتماعية Symposium on Social Theory » إعداد ل. جروس ١٩٥٩

والخلاف حول آليات التغيير أكثر جوهرية ، فمعظم صور التحليل البنائي — الوظيفي صور متزامنة ، وكلما كانت هذه الصور أكثر إتقانا وتعقيداً ، كانت مقصورة على الاستاتيكيات الاجتماعية ، التي ينبغي أن يدخل عليها عنصر ديناميكي إذا كان الموضوع يهم المفكر(١) . ومن الأمور التي هي محل جدل ، حتى بين أنصار النظريات البنائية — الوظيفية مسألة إمكان إحداث هذا بصورة مرضية ، ويبدو أن هناك تقبلا واسعاً لعدم إمكان استخدام التحليل نفسه لتفسير كل من الوظيفة والتغير التاريخي ، فليست المشكلة هنا أنه من غير المشروع تطوير نماذج تحليل منفصلة للاستاتيكي والديناميكي ، مثل معادلات ماركس لتكرار الإنتاج البسيط والموسع ، بل إن البحث التاريخي يجعل من المرغوب فيه الربط بين هذه النماذج المختلفة . وأبسط سلوك لأنصار هذه النظريات هو إغفال التغيير ، وترك التاريخ لأشخاص آخرين ، أو حتى إنكار صلته الوثيقة بالموضوع ، كما فعل بعض الأنثربولوجيين الاجتماعيين البريطانيين الأوائل ، ولكن ما دام التغيير قائماً فإن على النظريات البنائية — الوظيفية أن تجد طرقاً لتفسيره .

وفي رأيي أن مثل هذه الطرق إما أن تؤدي . بالضرورة إلى جعله أكثر اقتراباً من الماركسية ، أو إلى إنكار التغيير الثوري ، ويبدو لي أن ليفي — شتراوش (وكذلك ألتوسر) يتخذ الموقف الأخير . فهنا يصبح التغيير التاريخي مجرد تبديل وتأليف لعناصر معينة (مماثلة للجينات في علم الوراثة ، كما يقول ليفي — شتراوس)، يمكن في المدى الطويل بدرجة كافية أن نتوقع ائتلافها في نماذج مختلفة واستنفادها لكل الائتلافات الممكنة إذا كانت محدودة بقدر كاف(٢) فكأن التاريخ عملية

(١) وكما وصف ليفي — شتراوس الأمر ، عندما كان يكتب عن نماذج القرابة ، « إذا لم يكن هناك عامل خارجي يؤثر في هذه الآلية ، فستعمل بصورة غير محدودة ، ويظل البنيان الاجتماعي ساكناً ، ولكن ليست هذه هي الحالة ، ومن ثم كانت الحاجة إلى إدخال عناصر جديدة في النموذج النظري لتفسير التغيرات المتتابعة في البنيان. » المرجع السابق ص٣٤٣

(٢) الواضح مع ذلك أن طبيعة هذا المفهوم — مفهوم التأليف — هي التي تصلح سنداً للقول.. بأن الماركسية ليست مذهباً تاريخياً : ما دام المفهوم الماركسي للتاريخ يرتكز على

تجربة كل الألعاب الممكنة فى مباراة للشطرنج . ولـكن بأى نظام ؟ إن النظرية هنا لا تزودنا بأى دليل .

ومع ذلك فهذه هى على وجـــه التحديد المشـكلة النوعية للتطور التاريخى . وصحيح بطبيعة الحال أن ماركس قد تصور مثل هذا التأليف وإعادة التأليف للعناصر أو « الأشكال » كما يؤكد ألتوسر ، وكان فى هذا المجال ، كما فى غيره من المجالات، بنائيا ــ وظيفياً قبل أن يظهر هذا التعبير ، ــ بعبارة أكثر تحديدا ـــ مفـكرا استطاع ليفى ــ شتراوس (باعترافه) أن يستعير منه هذا التعبير ، ولو جزئيا على الأقل (١) . ومن الأهمية أن نذكر أنفسنا بجانب من فـكر ماركس أغفلته بلا ريب الروايات الأولى للماركسية ، مع استثناءات قليلة (والعجيب أن يكون من بينها بعض تطورات للماركسية السوفيتية فى فترة ستالين Staline ، برغم أن هذه التطورات لم تـكن مدركة تمام الإدراك لمتضمنات ما تفعله) . بل إنه من الأمور الأكثر أهمية أن نذكر أنفسنا بأن تحليل العناصر وتأليفاتها الممكنة يوفر لنا (كما هى الحال فى علم الوراثة) رقابة صحية على النظريات التطورية ، بإقرار ما هو ممكن وما هو غير ممكن من الناحية النظرية . ومن الممكن أيضا ـــ برغم أن هذه المسألة ينبغى أن تظل مفتوحة ـــ أن يضفى مثل هذا التحليل قدرا أكبر من الدقة على تعريف « المستويين » الاجتماعيين المختلفين (الأساس والبنيان العلوى) والعلاقات التى تربطهما ، كما يرى ألتوسر (٢) أما ما لا يفعله فهو أن يعلل الاختلاف الشديد بين بريطانيا القرن

= مبدأ تنوع صور هذا التأليف » . انظر قراءة رأس المال Lire le Capital ، المجلد الثانى ، ص ١٥٣

(١) Sens et usage de la structure dans les sciences sociales et humaines ، إعداد ر. باستيد Bastide .

(٢) « يتضح من هذا أن بعض عـلاقات الإنتاج تفترض كشرط لوجودها نفسه ، وجود بنيان علوى قانونى ، سياسى وإيديولوجى ، كما يتضح السبب فى أن البنيان العلوى نوعى بالضرورة .... ويتضح أيضاً أن بعض علاقات الإنتاج الأخرى لا تستوجب بنياناً علوياً =

العشرين وبريطانيا العصر الحجرى الحـــديث ، أو تعاقب التـكوينات الاجتماعية الاقتصادية ، أو آلية الانتقالات من تـكوين لآخر ، أو بالنسبة لهذا الأمر ، تكريس ماركس كل هذا القدر الـكبير من حياته للإجابة عن هذه الأسئلة .

وإذا أريد الإجابة على مثل هذه الأسئلة ، فإن كلتا الخصيصتين اللتين تميزان الماركسية عن غيرها من النظريات البنائية — الوظيفية ضرورية : وهما نموذج المستويات ، وأهمها مستويات علاقات الإنتاج الاجتماعية ، ووجود التناقضات الداخلية داخل الأنظمة ، والنزاع الطبقى مجرد حالة خاصة منها .

إن الترتيب الهرمى للمستويات أمر ضرورى لتفسير السبب فى أى للتاريخ اتجاها فتحرر الإنسان من الطبيعة تحرراً متزايداً ، وقدرته المتنامية على التحكم فيها — هذا هو الذى يجعل التاريخ فى مجموعه (وإن لم ينسحب على كل العصور والفـترات فى داخله) « موجهاً ولا يمـكن إعادته » ، كما يقول ليفى — شتراوس مرة أخرى . وهرم المستويات غير الناشىء على أساس علاقات الإنتاج الاجتماعية لا يكون له بالضرورة مثل هذه الخاصية . وعلاوة على ذلك ، فحيث إن عملية تحـكم الإنسان فى الطبيعة وتقدم هذا التحكم ، ينطوى على تغيرات لا فى قوى الإنتاج فحسب (مثل الأساليب التقنية الجديدة) ، وإنما فى علاقات الإنتاج الاجتماعية أيضاً ، فإنه يتضمن نظاماً معيناً فى تعـــاقب الأنظمة الاجتماعية ـــ الاقتصادية وهو لا يتضمن التسلم بقائمة التـكوينات التى وردت فى مقدمة نقد الاقتصاد السياسى باعتبارها متعاقبة زمنيا ، (ولم يـكن ماركس على الأرجح يؤمن بأنها متعاقبة) ولا باعتبارها نظرية للتطور الخطى الأحادى العام . على أنه يتضمن بلا شك أن مظاهر اجتماعية معينة لا يمـكن تصورها كظواهر تظهر فى التاريخ قبل غيرها ، مثال ذلك الاقتصاديات الثنائية ، التى تجمع

= سياسيا ، بل بنيانا علويا إيديولوجيا فقط (المجتمعات الخالية من الطبقات) . ويتضح أخيراً أن طبيعة علاقات الإنتاج موضع البحث لا تستوجب هذا الشكل أو ذاك من البنيان العلوى فحسب ؛ بل تحدد بالمثل درجـة الفعالية التى تضفى على هذا المستوى أو ذاك من الـكل الاجتماعى » المرجع السابق ص١٥٣ .

بين اقتصاديات المدنية والريف ، قبل تلك التى تفتقر إلى هذه الثنائية . وهى السبب نفسه يتضمن أن مثل هذا التعاقب للأنظمة لا يمكن ترتيبه فى مجرد بعد واحد تكنولوجى (أى أن التكنولوجيات الدنيا تسبق التكنولوجيات الأرقى) أو اقتصادى (أى أن الاقتصادى النقدى Geldwirtschaft يعقب الاقتصاد الطبيعى Naturwirtschaft) وإنما ينبغى ترتيبه أيضا من حيث أنظمتها الاجتماعية(١) . ذلك لأنه من السمات المميزة لفكر ماركس التاريخى أنه ليس « سوسيولوجيا » ولا « اقتصاديا » ، وإنما هو يجمع بين الإثنين فى آن واحد . فالعلاقات الاجتماعية للانتاج وتكرار الإنتاج (أى التنظيم الاجتماعى بأوسع معانيه) والقوى المادية للانتاج لا يمكن الفصل بينهما .

وإذا سلمنا بهذا « الاتجاه » للتطور التاريخى ، فإن التناقضات الداخلية للأنظمة الاجتماعية — الاقتصادية توفر آلية التغيير الذى يصبح تطوراً . (ومن غير هذه الآلية يمكن المجادلة بأن هذه التناقضات لن تسفر إلا عن مجرد تذبذب دورى ، عن عملية لا نهاية لها من إزالة الاستقرار وإعادة الاستقرار ؛ وتسفر بطبيعة الحال عن التغيرات التى يمكن أن تنشأ عن صلات المجتمعات المختلفة ونزاعاتها) . والمهم فى هذه التناقضات الداخلية هو أنها لا يمكن تعريفها بأنها مجرد تناقضات « غير وظيفية » إلا على أساس الافتراض بأن الاستقرار والدوام هما القاعدة ، وأن التغيير هو الاستثناء ؛ أو حتى على أساس افتراض أكثر سذاجة ، يتردد فى العلوم الاجتماعية الشائعة ، وهو أن النظام النوعى هو النموذج الذى تتطلع إليه كل التغيرات(٢) .

---

(١) إن هذه الأنظمة يمكن بطبيعة الحال وصفها ، إذا كنا نجد ذلك مجديا ، باعتبارها تأليفات مختلفة لعدد معطى من العناصر .

(٢) ويمكن للمرء أن يضيف أنه من المشكوك فيه ما إذا كان من المستطاع تصنيف هذه المتناقضات ببساطة على أنها « نزاعات » ، برغم أننا بقدر ما نركز اتجاهنا على الأنظمة الاجتماعية بوصفها أنظمة للعلاقة بين الناس ، يمكن بصورة طبيعية توقع أن تتخذ شكل نزاع بين أفراد ومجموعات ، أو بطريقة أكثر مجازية ، بين أنظمة — قيمة وأدوار ..الخ .

والأصح — كما هو معترف الآن بدرجة أوسع نطاقا بكثير عن ذى قبـــل بين الأنثروبولوجيين الاجتماعيين — أن النموذج الهيكلى (المتعلق بهيكل المجتمع) الذى لا يتصور سوى المحافظة على النظام هو نموذج ناقص . فمثل هذا النموذج يجب أن يعـكس الوجود المتزامن لعناصر الاستقرار والتمزق . وهذا هو الأساس الذى قام عليه النموذج الماركسى — وإن لم تقم عليه صورة الماركسية الدارجة .

ومن الصعب إقامة مثل هذا النموذج الثانى (الديالكتيكى) واستخدامه لأن هناك من الناحية العملية إغراءاً كبيراً بتطبيقه وفقا للهوى أو الاقتضاء إما كنموذج للوظيفية المستقرة أو كنموذج للتغيير الثورى ، على حين أن الطريف فيه هو أنه نموذج لكليهما . ومن الأهمية بالمثل أن التوترات الداخلية يمكن فى بعض الأحيان أن يعاد امتصاصها فى نموذج مستقر ذاتيا عن طريق تغذيتها عكسيا كعوامل استقرار وظيفية ، وفى أحيان أخرى لا يمكن ذلك . فالنزاع الطبقى يمكن تنظيمه بنوع من صمام الأمان ، كما حدث فى عدد كبير من أعمال الشغب التى كان يقوم بها العامة من سكان المدن قبل ظهور الصناعة فيها ، أو إقراره باعتباره « طقوس التمرد » (إذا استخدمنا عبارة ماكس جلوكمان Max Gluckman المنيرة) أو بطريق أخرى ؛ وقد لا يتسنى ذلك فى بعض الأحيان . والدولة تعمل عادة على شرعية النظام الاجتماعى بالتحكم فى النزاع الطبقى داخل إطار مستقر للمؤسسات والقيم ، واقفة فى الظاهر فوقها وخارجها (الملك البعيد ينبوع العدالة) ، وهى إذ تفعل ذلك تطيل حياة مجتمع لولا ذلك لتمزق إرباإربا بفعل توتراته الداخلية . وهذه هى فى الحقيقة النظرية الماركسية الكلاسيكية لأصل الدولة ووظيفتها ، كما شرحت فى أصـــل العائلة(١) . ومع ذلك توجد مواقف تفقد فيها الدولة هذه الوظيفة ، وتفقد حتى فى عقول رعاياها قدرتها على إضفاء صفة الشرعية ، وتبدو كمجرد « مؤامرة من الأغنياء من أجل مصلحتهم الخاصة » — إذا استخدمنا عبارة توماس مورس — إن لم تـكن

(١) إن مسألة ما إذا كانت الدولة هى المؤسسة الوحيدة التى لها هذه الوظيفة قد شغلت بدرجة كبيرة الماركسيين من أمثال جرامشى Gramsci ، بيد أنها لا تعنينا هنا .

فى الحقيقة السبب المباشر فى بؤس الفقراء وتعاستهم . ويمكن إخفاء هذه الطبيعة المتناقضة للنموذج بالإشارة إلى الوجود الذى لا ريب فيه لظواهر منفصلة داخل المجتمع تمثل الاستقرار والهدم المنظمين : كالمجموعات الاجتماعية التى يمكن ادعاء تكاملها مع المجتمع الإنطاعى ، مثل « رأس المال التجارى » ، والمجموعات الاجتماعية التى لا يمكن تكاملها ، مثل البورجوازية الصناعية » ، أو الحركات الاجتماعية التى هى حركات « إصلاحية » بحتة ، والحركات الاجتماعية التى هى حركات « ثورية » عن وعى . ولكن برغم وجود مثل مظاهر الانفصال هذه ، وبرغم أنها تشير حيث توجد إلى مرحلة معينة فى تطور تناقضات نزاع طبقى)(١) فإن من الأمور ذات الدلالة بالمثل أن الظواهر نفسها يمكن طبقا للموقف ، أن تغير وظائفها ؛ فالحركات التى تستهدف إحياء النظام المرتب القديم للمجتمع الطبقى تتحول إلى ثورات اجتماعية ، كما حدث لبعض حركات الفلاحين ، والأحزاب الثورية عن وعى تمتص فى الوضع القائم(٢) .

وبرغم ما قد يكون فى الأمر من صعوبة ، بدأ علماء الاجتماع من مختلف الأنواع

---

(١) يؤكد ج . ليشتهايم Lichtheim (الماركسية Marxism ، ١٩٦١،ص١٥٢) عن حق أن العداءات الطبقية تلعب دوراً ثانوياً فى نموذج ماركس لتلاشى المجتمع الرومانى القديم . أما وجهة النظر القائلة بأن ذلك لا بد أن يكون مرجعه « ثورات العبيد » فلا أساس لها عند ماركس .

(٢) وكما أجمل وورسلى Worsley العمل وفق هذه الخطوط : « إن التغيير فى نظام ما ينبغى إما أن يتراكم فى تغيير بنائى للنظام ، أو أن يتم التغلب عليه بنوع من آليه التنفيس » « تحليـــل الثوره والتمرد فى الأنثروبولوجيا الاجتماعيه البريطانية الحديثة » « The Analysis of Rebellion and Revolution in Modern British Social Anthropology فى سيانس آند سوسايتى ، العام ٢٥ ، العدد الأول ١٩٦٢ ، ص ٣٧ . إن النزوع إلى الطقوس فى العلاقات الاجتماعية يمكن تفسيرها على أنها تصريف رمزى لتوترات قد تكون دونه غير محتملة .

(ويمكن أن نذكر منهم علماء البيئة الحيوانية ، وبخاصة من يبحثون منهم فى ديناميكيات السكان والسلوك الاجتماعى للحيوان) يحاولون إنشاء نماذج للتوازنات قائمة على التوتر أو النزاع، وهم إذ يفعلون ذلك يقتربون بدرجة أكبر من الماركسية، ويبتعدون أكثر عن النماذج الأكثر قدما لعلم الاجتماع والتى كانت تعتبر مشكلة النظام سابقة من الناحية المنطقية لمشكلة التغيير ، وتركز على العناصر التكاملية والنمطية فى الحياة الاجتماعية . وفى الوقت نفسه ينبغى التسليم بأن نموذج ماركس الخاص لا بد أن يوضح أكثر مما هو فى كتاباته ، وبأنه قد يتطلب التفصيل والتطوير ، وبأن بقايا معينة من وضعية القرن التاسع عشر ، وهى أكثر وضوحا فى صيغ إنجلز منها فى فكر ماركس الخاص ، ينبغى إزاحتها من الطريق :

تبقى بعد ذلك المشكلات التاريخية النوعية لطبيعة وتعاقب التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية ، وآليات تطورها الداخلى ، وتفاعلها . وتلك مجالات اشتد فيها النقاش منذ أيام ماركس(١) ، لا سيما فى العقود الأخيرة ، وفى بعض النواحى كان التقدم على ماركس مثيراً للغاية(٢) . وهنا أيضاً أكد التحليل الحديث ألمعية وعمق رؤيا ماركس ومعالجته العامة للموضوع ، وإن استرعى الأنظار أيضاً إلى ما فى معالجته من فجوات ، وبخاصة لفترات ما قبل الرأسمالية ، ومع ذلك لا يكون ممكناً مناقشة هذه الموضوعات ، حتى فى مناقشة سريعة جداً إلا فى صورة للمعرفة التاريخية الملموسة ، أى أنها لا يمكن أن تناقش فى سياق هذا الغرض . وإنى إذ يعوزنى مثل هذا النقاش ، لا يسعنى سوى أن أؤكد اقتناعى بأن معالجة ماركس ما زالت هى المعالجة

---

(١) أنظر القدر الكبير من الأبحاث والمناقشات التى أجريت حول المجتمعات الشرقية، والمستخلصة من عدد صغير للغاية من الصفحات فى أعمال ماركس ، والتى لم يكن بعض من أكثرها أهمية — تلك الموجودة فى كتاب مبادىء — متاحا حتى خمسة عشر عاما مضت .

(٢) من الأمثلة فى مجال ما قبل التاريخ ، مؤلف المؤرخ الراحل ف . جوردون تشايلد Gordon Childe ، الذى ربما كان الفكر التاريخى الأكثر أصالة فى البلاد الناطقة بالإنجليزية فى مجال تطبيق الماركسية على الماضى .

الوحيدة التي تمكننا من تفسير فترة التاريخ البشري بأسرها ، وتشكل نقطة البدء الأكثر جدوى للمناقشة العصرية .

وليس في ذلك كله شيء جديد بشكل خاص ، برغم أن بعض النصوص التي تشتمل على تأملات ماركس الأكثر نضجاً حول الموضوعات التاريخية لم تصبح متاحة حتى الخمسينيات ، وبخاصة كتاب المبادئ* الذي ظهر في ٥٧ — ١٨٥٨ وعلاوة على ذلك فإن الغلة المتناقصة لتطبيق النماذج الماركسية الدارجة قد أدت في العقود الأخيرة إلى تقدم جوهري لعلم التاريخ الماركسي(١) . والحقيقة أنه من بين القسمات الأكثر تميزاً لعلم التاريخ الغربي المعاصر هو نقد المعادلات الآلية البسيطة ذات الطابع الاقتصادي — الحتمي . ومع ذلك فبصرف النظر عما إذا كان المؤرخون الماركسيون قد حققوا تقدماً جوهرياً بالنسبة لما حققه ماركس ، أو لم يحققوا مثل هذا التقدم ، فإن إسهامهم اليوم له أهمية جديدة ، وذلك بسبب التغيرات التي تطرأ على العلوم الاجتماعية في الوقت الراهن . فبينما كانت الوظيفة الرئيسية للمادية التاريخية في الأعوام الخمسين التي أعقبت وفاة إنجلز ، هي جعل التاريخ أكثر التصاقاً بالعلوم الاجتماعية ، مع تجنب غلو تبسيطات الوضعية ، أصبحت اليوم تواجه مشكلة اصطباغ العلوم الاجتماعية نفسها سريعاً بالصبغة التاريخية . ونظراً إلى افتقار هذه العلوم الاجتماعية إلى أية مساعدة من « علم التاريخ » الأكاديمي ، بدأت بصورة متزايدة ترتجل نهجها الخاص — مطبقة طرقها الخاصة على دراسة الماضي ، محققة نتائج هي في أغلب الأحوال نتائج متقدمة من الناحية التقنية ، ولكنها تقوم

(*) الإشارة هنا إلى كتاب كارل ماركس ، مبادئ نقد الاقتصاد السياسي Grundrisse der Kritik Politischen Ekonomie المترجم .

(١) قارن على سبيل المثال معالجتي دكتور اريك وليم Iric William في الرأسمالية والعبودية Capitalism and Slavery ، ١٩٦٤ ، وهو سفر طليعي قيم ومثير ، والأستاذ يوجين جينوفيز Eugéne Genovese لمشكلة مجتمعات العبيد الأمريكية والقضاء على العبودية .

كما أكدنا فيما سبق على نماذج للتغيير التاريخى من بعض الوجوه أكثر فجاجة حتى من مثيلاتها فى القرن التاسع عشر(١) . وهنا تكون لمادية ماركس التاريخية قيمة عظيمة ، برغم أنه من الطبيعى أن علماء الاجتماع ذوى العقلية التاريخية ، قد يجدون أنفسهم أقل حاجة من مؤرخى مطلع القرن العشرين إلى إصرار ماركس على أهمية العناصر الاقتصادية والاجتماعية ؟ وبالعكس قد يجدون قدراً أكبر من الحفز فى بعض جوانب من نظرية ماركس لم يكن لها تأثير كبير على المؤرخين فى الأجيال التى تلت ماركس مباشرة .

أما أن هذا يفسر التفوق الذى لا ريب فيه للأفكار الماركسية فى مناقشة مجالات معينة من العلوم الاجتماعية التى اتخذت اليوم وجهة تاريخية(٢) ، فتلك مسألة أخرى — فتفوق المؤرخين الماركسيين تفوقاً غير عادى فى الوقت الراهن ، أو تفوق المؤرخين الذين تدربوا فى المدرسة الماركسية ، يرجع جله بالتأكيد إلى نزوع المثقفين والدارسين فى السنوات العشر الماضية إلى الراديكالية ، وإلى تأثير الثورات فى العالم الثالث ، وانهيار الاتجاهات الماركسية المتشددة المعادية للعمل العلمى الأصيل بل وإلى عامل على قدر كبير من البساطة مثل تعاقب الأجيال . ذلك لأن الماركسيين الذين وصلوا إلى مستوى نشر كتب واسعة الانتشار وشغلوا مناصب رفيعة فى الحياة الأكاديمية فى الخمسينيات ، لم يكونوا فى أغلب الأحوال سوى الدارسين الراديكاليى النزعة فى الثلاثينيات والأربعينيات ، الذين وصلوا بذلك إلى الذروة الطبيعية . وعلى الرغم من ذلك فإننا إذ نحتفل بمرور مائة وخمسين عاما على ميلاد ماركس ، وبالعيد المئوى لصدور كتاب رأس المال ، لا يسعنا إلا أن نشير — برضى إذا كنا ماركسيين — إلى أمرين متزامنين — التأثير ذى الدلالة للماركسية فى مجال علم التاريخ ، والعدد ذى الدلالة للماركسيين الذين يستلهمون ماركس ، أو يبدون فى أعمالهم آثار تدريبهم فى المدارس الماركسية .

---

(١) ذلك واضح بشكل خاص فى مجال مثل نظرية النمو الاقتصادى ، كما هى مطبقة على مجتمعات نوعية ، ونظريات « التجديد » فى العلم السياسى وعلم الاجتماع .

(٢) من الأمثلة الطيبة مناقشة الأثر السياسى للتطور الرأسمالى على مجتمعات ما قبل عصر الصناعة ، وبصورة أكثر عمومية ، على « ما قبل تاريخ » الحركات والثورات الاجتماعية الحديثة .

أندريه دورموس

ملاحظات عن تناسي الظاهرة الأمريكية

ترجمة : د . محمد القصاص

١ ـــ ارتباط مصير أمريكا بتاريخ العالم :

كل خلق لإمبراطورية لا يصبح قابلا للفهم إلا عن طريق الشهوة التى تحمله ، ومن شأنه أن يتخطى البعد التاريخى ويرجع إلى بعد كونى مشترك بين جميع الأزمان . ولا يمكن لأية مرحلة عظيمة من التاريخ أن تعتبر تاريخا إلا على أساس شهوة تقرر تاريخيتها وتمحوها . ولم تكن الشعوب التى سميت بالمتبربرة كذلك إلا لأن ظهورها فى التاريخ أحس على أنه حادث كونى وطبيعى ، حادث دون تاريخ من حيث إنه لم يكن ينتظر منه أى شىء . لقد كانوا أصحاب فكرة « الكل أولا شىء » فى حالتها البحتة ، كانوا يبدون فى آن واحد حقيقة أنه لا شىء لديهم ليفقدوه ، وحقيقة أن أمامهم كل شىء ليكسبوه ، كانوا نوعا من اختلاط أصل العصور ونهايتها ، كانوا ثوران الكونى باعتباره كونيا فى قلب التاريخ نفسه .

بهذا المعنى يمكن فهم أى حضارة على أنها محاولة لحصر البعد الكونى فى التاريخ نفسه ، أو لرفع التاريخ إلى بعد كونى . وهكذا تظل الشعوب متبربرة إن قليلا وإن كثيراً بالنسبة لبعضها البعض من حيث إن الاختلافات الحضارية (من معتقدات وعادات ونظام سياسى وتكنولوجية) تظل متضمنة فى صورة أساسية ، مرتبطة بالعالم وبالحياة ، وتعجز معتقداتهم ونظمهم وعلومهم ووسائلهم الفنية (التكنولوجية) عن احتواء معناها ، فجميع محاولات الحضارة عبارة عن ضروب من الرهان على الوجود تكتسب معناها بالرجوع إلى ذلك البعد الكونى .

الحضارة والبربرية تكونان زوجا وظيفيا . ويمكن للثقافة التى ظل تعريفها غير أكيد

فى مجموعه إلى حد كبير بالنسبة لتعريف الحضارة ، أن تبدو كما لو كانت الثمرة الرقيقة للحضارة فى حيز الشعور الذى تستحوذ عليه بنفسها . ولكن ربما قل تردد المرء فى أن يحدد معناها إذا أراد أن يفهمه على أنه الوظيفة الجوهرية للتفكير فى علاقة الحضارة بما تريد إنكاره والذى لايبدو لها على أنه بربرية إلا بقدر نجاحها فى هذا الإنكار . ومن الضرورى للحضارة ألا تنسى أن البربرية ليست إلا تكرارا أو رجوعا لانبجاس أولى نبعث هى نفسها منه ، انبجاسا أو انفجاراً يعد دائما فى حيز الإمكان ما دامت الحضارة لم تستكمل حقيقة ، إذا كان ذلك فى مقدورها . والحقيقة أن مقارنة المتحضرين بالمتبربرين أو مقابلتهم بهم ليس خطأ ، ولكنه ليس إلا نوعا من التبسيط المريح ، نعم إن مقابلتهم بالمتبربرين أقل وضوحا ولكنه أقرب إلى جوهر الأمور . وفهم الثقافة على أنها وظيفة ربط حضارة أيا كانت بجوبيولوجى كونى مشترك بين جميع الحضارات ولم يبدأ بالظهور فى بعده اللازم إلا فى أيامنا هذه ، هذا الفهم من شأنه فى أغلب الظن أن يتجنب الرأى المقابل الزائف الذى يقول بثقافة تقوم بالبعد الروحى للوجود مع تجاهل ظروفه المادية ، أو ثقافة تقوم بالوظائف المادية للبشرية مع رفض الاعتراف ببعدها الروحى ، وعلى هدى هذه النظرية تعتبر الإشارة إلى المتبربرين إشارة أيضاً إلى ما هو جوهرى فى مشاكل الحضارة الصاعدة .

ومما تتميز به أمريكا (وهذه حالة فريدة فى التاريخ) أنها عكس انفجار السكونى فى التاريخ على خط مستقيم : فهنا نرى الإرادة المدبرة لترك التاريخ من أجل إعادة صبغه متناسبا مع العالم . ولعل هذه أول مرة فى التاريخ (على الأقل على هذا النطاق) نرى فيها شعبا يتكون من عناصر ينتقل جغرافيا وبصورة حرفية من التاريخ الأوروبى حتى هذا الوقت بقصد استخلاص الدروس منه وإعادة صنعه ابتداء من الصفر ، وليس لديهم من الفروض المسبقة إلا هذا الفرض (الإرادى) ، وهو إمكان صنع التاريخ . أرادت أمريكا وتريد عكس البربرية على خط مستقيم ، أعنى الحضارة بأقصى معانيها ، ذلك أن اختلافها عما عداها ينحصر فى ادعائها الانطلاق

من حدود كل حضارة سبقت البربرية . أما من حيث إرادتها السياسية فهى تنكر أن تكون سياسية بالمعنى الخاص ، لأنها لا تواجه (لا من حيث البداية ولا من حيث نقطة الانطلاق) هذا المشروع السياسى الخاص أو ذاك ، بل جميع المشروعات السياسية التى حاولها البشر حتى يومنا هذا ، وباعتبارها إيماناً بإمكان إقامة مدنية أرضية بمجرد السيطرة على الطبيعة .

وحينما وصل المهاجرون الأولون إلى أمريكا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت أوروبا التى تركوها فى هذه الفترة هى نفسها فى مرحلة من تاريخها لها مغزاها : حيث بدأ الناس يعتقدون فى قدرة الإنسان على أن يوجه هو وحده مصيره ، هو وحده أى بوساطة العقل ، بوساطة عقل يعتقد أنه طبيعى وعام ، كفيل بأن يعقد الاتفاق بين جميع البشر لأنه لا يدعو إلى التدخل فى تصوراته وأحكامه أى شىء من خارج التجارب المشتركة . هذه الرسالة وصورة التجارب التى تلقفها المهاجرون الأولون . وكونهم فعلوا ذلك فى حركة انتقال خارج التاريخ من شأنه أن يؤدى إلى نوع من خداع المرآة حيث تؤخذ النتيجة على أنها السبب ، حيث تؤخذ الصورة على أنها هى الشىء الحى . لقد أرادوا أخذ العقل وفى الوقت نفسه أن يتجنبوا ضروب النزاع التى صدر عنها والتى ربما لم يكن ليقبل الانفصال عنها : لقد أرادوا أن يتلقوه على أنه ظاهرة غير زمنية تعكس مقدماً على كل ضروب النزاع الأيديولوجية واتهم الإنسان باللامعقولية دون أى تساؤل عما إذا كان من الممكن لهذا العقل أن يعبر عن نفسه دون ضروب النزاع تلك . فالأمريكان الأولون لم ينسوا فقط تاريخ أوروبا ، بل لقد أرادوا أن ينسوه فإن إرادتهم كانت تتجه إلى بناء تاريخ دون تاريخ ، نوع من المدنية غير الزمنية ، مع اختزال التاريخ الأوروبى إلى سلسلة من الحوادث الفاضحة بالنسبة للعقل ، حوادث فى نظر الواقع الذى كان أكثر عمقا ، على الأقل فى هذه الفترة : وهو الطبيعة :

أما الدين — وهو فى نظر الأمريكان إذ ذاك مزيج من البيوريتانية المركزة على الحوار الفردى من النفس إلى الله ونوع من الدين الطبيعى الذى يحل السكون محل

الزمن وسلطة الآلهة — فقد لعب دوراً رئيسيا فى بدايات الأمريكيين باعتبار وظيفته فى تبرير الرسالة التى خلعوها على أنفسهم ، وقد زاد ذلك فى شمول الاعتقاد بأنهم قادرون على تشييد مدنية مثالية .

وهكذا تتناسق العناصر الثلاث لهذه اللاتاريخية التى هى فى الوقت نفسه تناول جديد للتاريخ : إقامة مدنية جديدة كل الجدة ، وذلك بالاعتماد على مجرد العقل الذى سيسمح لهم فى النهاية بأن يحققوا فى الواقع مالم تعمل الأيديولوجيات إلا بالاحتفاظ به فى مستوى الصور الخيالية التى يتناصر من أجلها الناس ، فسيطرة الإنسان على الطبيعة ستحل محل النزاع بين الشعوب .

ومن بين هذه العوامل الثلاثة يعتبر ثانيها مركزها ، يعتبر نوعا من رومنسية العقل العملى ، من الإيمان بالوسائل التكنولوجية ، بالهندسية الاجتماعية ، ويقوم مقام النبوة الحقيقية . وهنا نجد أن العمل السياسى ، فى أحسن ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معنى ، يحل محل الدين والميتافيزيقا ، ويتساوى فى الغاية مع إقامة المجتمع الجديد وتشييد المدنية الجديدة يحل محل ضروب النزاع التاريخية . وهناك ظرفان يؤدى التفاؤلهما إلى تقديم التربة التى سينمو فيها هـــذا التفاؤل : العزلة الجغرافية فى قارة غنية وعذراء .

والحقيقــة إنه فيما بين السنين ١٧٧٥ و (١٩١٤) ١٩٣٩ كان كل شىء يجرى كما لو كانت الولايات المتحدة خارجة عن متناول أوروبا . نعم إنهم لهم تاريخهم الخاص (حروبهم مع الهنـــود الأصليين ومع انجلترة — ١٧٧٦ — ١٧٨٣ و ١٨١٢ — ١٨١٤ — ، ومع المكسيك — ١٨٤٦ — والحرب الأهلية — ١٨٦١ — ١٨٦٤) ، ولكن كل ذلك كان يجرى فى عالم منعزل بكليته عن بقية العالم إلى حد أنه كان يبدو أن الخطوط العريضة للفكرة السياسية الأولية والمركزية تقوى أكثر مما تضعف من جراء النجاح المستمر فى تكوين الوطن الأمريكى وامتداده . وهم على تمام البينة من الأخطار والمصاعب التى تحدق بهذا المشروع إلى حد أنهم صمموا على إخماد كل سبب للخلاف لتكريس كل الجهود لهذا الأمر

وحده ، وهو تحقيق أمريكا Right or wrong,- America first my country وهم لم يصرفوا النظر عن الماضي فحسب ، بل أيضاً عن الآخرين ، عن المعاصرين . ومع ذلك فإن هذا الحلم المبدئي بتشديد أمريكيتهم نراه يتحد مع صورة عامة لمسئولية سياســية عالمية ، وذلك حين دخلت الولايات المتحدة التاريخ بالرغم منها سنة ١٩٤٥ .

وذلك أنه قبل انتهاء هذين القرنين اللذين ثبتت فيهما أمريكا في حلمها لبناء عالم ليس أحسن من غيره ولا أسوأ منه ، تمخضت أوروبا في مسيرتها نحو الشرق عن إرادة موازية لإعادة صنع التاريخ . ابتداء من لا شيء ، ولكنها إرادة تعتبر نفسها مسجلة في مجرى التاريخ ومن ثم فإن هذا « اللاشيء » لم يكن يعني أن يخدع أصحاب هذه الإرادة أنفسهم بالاستغناء عن التاريخ ، بل بالأحرى يعنون قلب هذا التاريخ من الداخل ، يعنون ثورته . فقد تحققت الثورة السوفيتية ، هي الأخرى ضد الدين والميتافيزيقا ، وكانت هي الأخرى إرادة لخلق مدنية عادلة حققت على النطاق الاجتماعي ما كان يعتبر حتى ذلك الحين مجرد فكرة ، مجرد أمل . وقد شعرت بنفسها في الحال على اعتبار أنها إطار لمشروع ثورة عالمية . ويبدو كل هذا من الجلاء إلى حد أننا إذا نظرنا إلى دوراتها خارج التاريخ والعودة إلى الدخول فيه بالرغم منها وجدنا أن ما تقابله أمريكا أمامها عبارة عن مشروع مماثل لمشروعها من حيث المظهر ومقابل له بمعنى ما ولكنه مع ذلك يختلف عنه اختلافاً كلياً . هذه هي الثورة الروسية التي تقدم بُعدها العالمي أمام الحلم القومي الأمريكي .

ومما يناسب أن نتساءل عن المعنى وعن الظروف التي أدت إلى وجود فرق زمني يبلغ قرنين بين اللحظة التي ظهرت فيها الإرادة الأمريكية لبناء مدنية قائمة على أساس العقل (العملي) — مدنية ينبغي أن تكون أمريكية بحتة في تصميمها المبدئي — وبين اللحظة التي كان على إرادة الســابقة أن تواجه فيها إرادة أخرى لبناء مدنية تقوم على أساس العقل (السياسي) — مدنية يجب أن تكون عالمية في تصميمها المبدئي ، كما كانت هذه اللحظة الأخيرة هي الأخرى اللحظة التي بدأ فيه توافر

الوسائل الفعالة للاستجابة لهذا الحلم . إنه لطموح عالمي ذلك الذي أخذته أمريكا عن أوروبا في القرن الثامن عشر دون أن تعرف ، بل دون أن تريد معرفة ذلك أو حتى تستطيعها . والحقيقة أن عالمية المشروع الأمريكي التي ترجع إلى جذوره نفسها من حيث ما كان ينطوي عليه من عناصر إيجابية وإلى انفصاله عن التاريخ من جهة بعده الحلمي ، لم تنكشف لها إلا في الوقت الذي كان عليها فيه أن تواجه ذلك الطموح المساوي المتعمد الذي بني في عقدين فقط من الزمان ، ونعني به أن تحقق عالمياً ما كانت قد حاولت أن تحققه لنفسها خلال قرنين .

ومع ذلك فإنه لا ينبغي للطريقة السياسية التي تم بها هذا الدخول في التاريخ ونعني بها تجابه القوتين الأمريكية والسوفيتية (أو الصينية فيما بعد) — أن تحجب عنا أو تنسينا المعنى العميق جداً لوجـــه الاختلاف الذي أرادته أمريكا لنفسها في مواجهة أوروبا حاملة — فكرة العالم أو البشرية . فوجـه أوروبا الذي كثيراً ماخربته أو هدمته حركات التاريخ وقواه لم يكن في يوم من الأيام من الاتساع بحيث يستطيع احتواء هذه الحركات والقوى . ففي أوروبا لا يمكن لمصير الأمم وحدودها العقلية وآفاقها الأيديولوجية أن تفهم إلا بالرجوع إلى تاريخ يتجاوزها . أما مخاطر الولايات المتحدة الأمريكية بالقيام خارج التاريخ فإنها تخضع لرجوع إلى السكوني ، إلى كوني يشبه أن يكون قد تخلص من تاريخه الخاص . من خلقه ، من منشئه ، بالاختصار من الفكر الإنساني . فتاريخ أوروبا بالنسبة لأمريكا ليس إلا ما قبل تاريخ تنظيم الكوكب الأرضي . والعالم القديم مرسوم في ركن اللانهائي — (قارن هسرل ، « الأزمة » «la Crisis » de Husserl) — الذي يفرض عليه معناه منذ أن انفصل عن الكون — أما العالم الجديد فإنه يفهم مهمته على أنها اضطلاع أو إعادة اضطلاع بالكون منفصلا عن معناه .

وفي مقابلة أوروبا الموجعة المنتزعة من ذات نفسها والتي تجد معناها وجذورها في زمن هذا الانتزاع تقف أمريكا القلقة المنتزعة من جذورها وقد وجدت جذورها ومعناها وثقتها في المكان غير الراضي لاستقرارها ومأواها . أمام أوروبا ابنة العقل

المنطقة الواثقة من معناها قبل أن تخوض تجاربها . تقف أمريكا النافرة من كل ماهو مسبق (فيما عـــدا حكمها للسبق على وجودها الخاص) ، والمهتمة باطمئنانها إلى التجارب قبل أن تـكون واثقة من معناها . فـكل من أوروبا وأمريكا قد علقت وجودها على لحظة مختلفة من لحظات العقل، كل منهما قائمة على العقل بالنسبة لنفسها، غير قائمة عليه بالنسبة الأخرى، وتحمل فى نفسها عدم معقولية الأخرى على أنها مشكلتها الخاصة . وهـكذا يجب أن نفهم حوارها على أنه يمثل ظروف مصير العقل، مع كل الصعوبات والمخاطر التى يتعرض لها الأفراد الذين يشاركون فى الحركتين المتعارضتين وقد ضرب عليهم بالعمى من جراء التناقض الناجم من ضروب الانقلاب التى هم فيهـا .

وظيفة التفـكير هذه وظيفة عودة النهاية الأوروبية إلى أصلها التى تقوم بلعبها دورها عودة الويات المتحدة إلى التاريخ فى منتصف القرن العشرين يعبر عنه انتقال النزاع الأوروبى الداخلى— بجناحيه الغربي والشرقي— إلى نطاق يكاد يكون كوكبياً: وهـكذا نرى أن الولايات المتحدة وروسيا يتواجهان معاً فى تحقيق نظـام عالمى بطرق تزداد تشابها فى مظهرها ، ولـكنهما لا يستطيعان التخلص من طبيعةضروب العسر والمتطلبات التى أدت بكل منهما إلى هذه المواجهة .

وإذا كانت الولايات المتحدة قـــد وجدت نفسها فى الظروف التى تحتم عليها الاضطلاع بمسئولية عالمية ، فإنها لم تسع إلى هذه المسئولية عمداً ، فى حين أن الاتحاد السوفيتى أراد عامداً أن يبنى نظاماً عالمياً ، ولـكنه لم ينجح فى الواقع إلا فى بناء امبراطوريته الخاصة . أما بالنسبة للولايات المتحدة فإن فـكرة بناء نظام كامل استخدمت غطاء لتحقيق نفسها وليست وسيلة . فإن الأمريكيين لم يشعروا قط أن بلدهم قد تم بناؤه نهائياً . وحينما أعلن تيرنر Turner فى شيكاغو ١٨٧٣ أن الحدود أصبحت مغلقة ، فإن بلبلة الرأى التى ارتفعت فى ذلك الحين نجمت من أن هـــذا الإعلان كان يصطدم بأعمق مشاعر الشعب وأدومها أكثر ممـا نجمت عن دلالته الاجتماعية المباشرة . فأمريكا لم تتم ولم تعتبر أنها تمت ، إنها على العـكس من ذلك

تريد لنفسها قصداً أن تظل مشروعا غير منته ، ومن ثم فهناك نوع من الاختلاط بين بناء أمريكا وتحقيق المدنية المثالية ، ولذلك كانت وجهة نظرها أن أى أذى يوجه إلى تصور معين للعالم من شأنه أن يصيب وجودها نفسه بالأذى بطريق مباشر . وكل تاريخ الولايات المتحدة ومأساتها الناجمة من هـذا التاريخ إنما يرجعان إلى التناقض المبدئى الذى حبست نفسها فيه ، وهو إرادتها بناء نفسها ابتداء من مبادىء عالمية ولـكن بروح تجريبية بحتة ، ذلك أن الأسلاف المؤسسين Founding Fathers أرادوا أن يصنعوا الأمور على مايرام ، أرادوا خير مايمكن لبلدهم ، ولـكنهم أرادوه بصورة تجريبية (على غير نظرية مسبقة) فقبلوا أن يتصوروا التحقق النهـائى أنه شيء بعيد المدى ، وفى هذه الأثناء تحولت المبادىء نفسها التى يعتمدون عليها إلى مثل أعلى يسعى إلى تحقيقه ، مثل يتحد فيه النظام الذى يجب تحقيقه لأمريكا بنظام العالم ، وهو نظام لا يخلو من سمات غيبية ، وقد جمل ، بسبب عدم الاقتناع الدفى بنوع من التبرير الذاتى الإرادى : فمـا هـو خير لأمريكا يعتبر خيراً للعالم والعـكس .

وعلى العـكس من ذلك روسيا ، فقد انطلقت من وضع معين ومن دفاع : من وجودها كدولة ، هذا الأمر الذى يعتبر اللحظة الضرورية لتحقيق رسالة ذات أفق عالمى . وهذا المثل هو الذى يبرر نفسه بنفسه ويحدد العمل الراهن ، الذى يخضع بوجه خاص لضغوط خارجية: فهو يحدث فى صميم التاريخ ، وعلى هذا الإعتبار لا يملك وقتاً غير محدود للتصرف ، ومن هنا لم تـكن هناك فرصة لحدوث اختلاط بين نجاح الثورة وخلق الدولة البلشفية من جهة، ومن جهة أخرى تحقيق الأيديولوجية الماركسية اللينينية على نطاق العالم ، ذلك التحقيق الذى أمامه كل الوقت ليتم فيه . فمنذ البداية لعبت الأيديولوجية دور الوسيلة لتحقيق حاضر . لقد كانت هذه الأيديولوجية عقيدة ووسيلة ، وكان تصور هذه العقيدة بادىء ذى بدء من المرونة بحيث يقبل التطبيق على ظروف الزمان والمـكان الخاصـة بالثورة فى البـلاد المختلفـة . فالمثال الماركسى لم يكن وظيفة تؤخـذ على حرفيتها أكثر منه منظما لتطور منطقى ـ وعند الضرورة ـ وللعمل فى نطاق الزمن وعلى العـكس من ذلك لم تـكن لتوجد فى

الولايات المتحدة نظرية للعمل حيث أصبح فيها استمرار الاعتماد على التجربة مذهبا غير زمني أدى إليه رفضها لشكل تسام . لقد نجحت الولايات المتحدة خلال قرنين من الزمان فى خلق وتنمية أعظم قوة تكنولوجية مع احتفاظها بعدم تغير العقلية والإطار والثقافة الموروثة من عصر « النور » فى جوهرها . ولما كانت قد نجحت فى زمن مبكر جداً فى تصنيع الزراعة ، فقد استطاعت أن تحقق الثورة الصناعية بمعناها الحقيقي دون إذابة للاستمرار الظاهرى ، ودون ثورة اجتماعية أو سياسية عنيفة . بل لقد بدت وكأنها محصنة ضد مثل هذه الثورة ، ولكنها فى مقابلة ذلك احتفظت بعقلية القرن الذى يرجع إليه أصلها كما احتفظت بحرفية مبادئه أكثر مما احتفظت بروحها . وعلى العكس من ذلك الروس فقد حققوا ثورتهم بعد ذلك بكثير وبعد درجة من النضج العقلى والسياسى كانت الثورة التكنولوجية تعبيراً عنها أكثر منها وسيلة لها ، وإذا كانت التكنولوجيا قد أصبحت اليوم وسيلة للنظام السياسى بصورة أكثر صراحة فإن ذلك لا يوجد تشابها بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة إلا من حيث المظهر ، فإن الروس لا يزدادون إلا تطرفا فى نظرتهم إلى تحقيقاتهم التكنولوجية على أنها تبرير وغاية لرؤيتهم السياسية ، غاية ووسيلة لنموهم الاقتصادى وإن كان ذلك قد أوقعهم فى شىء من الحيرة التى تشهد بها ضروب النزاع طوال الفترة التى تلت الاستالينية بين المدافعين عن الأيديولوجية والمدافعين عن الاقتصاد .

وقد كان من باب المصادفة أن التقت أمريكا بمسئوليتها العالمية وهى فى أوج سيادتها التكنولوجية ، وبفضل هذه السيادة وجدت نفسها فى موقف من « يلقى الدروس على العالم » ، وهى التى انطلقت من موقف من « يستعرض التاريخ » ويستخلص منه الدروس . وكان أن التقت أمامها بإرادة موازية لصنع نظام عالمى ، وتعتمد على قوة تكنولوجية تكاد تكون مساوية لها ، ولكن هذه الإرادة وهذه القوة تنبعثان من علاقة الإنسان بالإنسان ، وليس من علاقة الإنسان بالعالم بوجه خاص . وإذا كان حقيقياً أن التساوى فى القوات المسلحة حقيقة واقعة حاليا ، فإنه

لا يضمن لنا التوازن فى المستقبل ما دام التنافر فى استخدام هذه القوى وفى الغايات الحقيقية التى أريدت من أجلها يظل على هذا الحد من الوضوح .

ويعتبر الاختلاف بين الاقتصادين الأمريكى والسوفييتى الشاهد الأساسى (من حيث سببه ونتيجته على السواء) والمحك لهذا التنافر ، من بعض الوجوه ، وكل ما كتب عن التكامل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى أو التلاقى المشترك بينهما لا معنى له إلا على أساس هذه الملاحظة ، وما دام فى إمكان كل من القوتين أن تجر على الأخرى ضروبا ثقيلة من الأذى وأن تجر فى نفس الوقت على نفسها أضراراً مماثلة وما دام أن هذا الإمكان ليس معناه التحطيم الحقيقى للعالم كما ظن وكرر فى بادىء الأمر ، فإن هذا التساوى الفعلى فى الطاقة الحربية ليس فى وسعه أن يحقق بنفسه الاستقرار السياسى لزمن طويل . إذن يجب أن نتجه إلى ميدان آخر نبحث فيه عن ضروب الامتياز وضروب الضعف لدى كل منهما ، وهو ميدان الثقافات والأيديولوجيات والعقليات .

وأغلب الظن أن ما يسترعى الانتباه فى هذا الميدان هو وجود تكامل من حيث المبدأ أكثر أساسية فى حد ذاته من الأيديولوجيتين اللتين يتحكم هو فيها من وراء ستار . فسواء وجهنا الجوهر من أساس تجاربنا إلى العلاقات بين الإنسان والطبيعة ثم تصورنا العلاقات بين البشر ابتداء منها ، أو وجهناها إلى العلاقات بين البشر بعضهم البعض ثم أقمنا عليها العلاقات بين الإنسان والطبيعة ، فإن هاتين حركتان طبيعيتان وضروريتان عمليا ومتكاملتان تمام التكامل . ولا يمكن القول بالسمو الداخلى لأحد الموقفين على الآخر إلا اعتمادا على الروح المذهبى التحكمى ، ذلك أنهما ينتميان فى كليهما إلى وجهات نظر تبادلية ومرتبطان عضويا أحدهما بالآخر . فكون الإنسان كائنا تاريخيا وصانعا لتاريخه إلى حدما لا يمحو مطلقا وضعه كمخلوق كونى ، ومن وجهة أخرى يعتبر السكون الذى يبدو أن تاريخ الإنسان يدور فيه خاضعا لتاريخ الإنسان أجنبيا عنه بصورة كاملة . وهذا التكامل بين الطبيعة والتاريخ هو الذى ينعكس أو يعبر عن نفسه بصورة ما فى المشاكل السياسية للعلاقات بين الأمتين .

وإذن فإن الانطلاق من لا شيء بالمعنى التاريخي - كان أمرا ممكنا للولايات المتحدة، لأن تحت يدها بديلا هو طبيعة - بالمعنى الجغرافي - غنية جدا تسمح لهم بأن يتجنبوا تلك التجربة الصعبة دائما وهي أن يضعوا أنفسهم موضع البحث باعتبارهم بشرا . فلما استيقظوا في نهاية قرنين من النوم في غمار أيديولوجية القرن الثامن عشر ظنوا أنفسهم بطبيعة الحال سادة العالم ومالكيه . وكانت هذه اليقظة في نفس الوقت نوعا من تفتت تصورهم غير الزمني للإنسان ، ولم يكن من شأن هذا التفتت أن يقضي على وجهة نظرهم في ملكية الإنسان للعالم ، ولكنه ضايق عندهم ما انكشف لهم في نهاية الأمر على أنه فلسفتهم الحقيقية .

٢ — أمريكا للتناقضات

أرادت أوروبا أن تكون معادية لكل بربرية ، فكان تاريخها في نهاية الأمر امتداداً لعصور البربرية ، وأرادت أمريكا أن تكون أكثر البلاد حضارة ، أن تكون البلد المتحضر الوحيد ، البلد المتحضر بكل معنى الكلمة ، فأصبح يبدو أنها تحدد نفسها بصورة متناقضة وأنها تجعل نفسها ، بالقوة ، بلد جميع التناقضات . وها نحن نرانا ، إذا باعدنا بيننا وبين كل مذهبية ، أمام قاعدة عملية تصلح لقراءة الظاهرة الأمريكية . إن التنوع الذي لا حد له بل العماء الذي تبدو لنا أمريكا من تحته في تجاربها اليومية أو في تفاصيل حياتها يبدو لنا غير متناقض مع الوحدة المالية التي يتمتع بها البلد ، وذلك لأننا نسلم بأن نرى في كل مظهر مشخص من مظاهر المجتمع نقطة توازن لتناقضات حقيقية هي الأخرى. وإننا إذا نظرنا إلى عشوائية بعض هذه المظاهر المشخصة وجدنا أنها تكشف لنا من ذات نفسها عن المنابع الممكنة لهذه التناقضات . فقد كثر الكلام عن أمريكا المبهجة ، وكثر الكلام عن أمريكا المقبضة، وكان مما لا يمكن تجنبه أن تبدو في نظر أوروبا ، بحكم أصولها الأوروبية تارة هذه وتارة تلك . أما إذا نظر إليها من الداخل فإنها تكون هذه وتلك .

والحقيقة أن هذا البلد المتنوع العناصر إلى أقصى حد ، الذى تلقى المهاجرين الأوروبيين من ضحايا الحروب بين الأوطان أوضروب النزاع الأيديولوجية أوأى صورة أخرى من مشاكل الحياة ، هذا البلد الذى قام على أنه رفض للتعصب القومى ، لكل تعصب قومى ، الحقيقة أن الولايات المتحدة تعرف وتريد أن تكون أقوى أمة فى العالم . فلقد تلقوا من أوروبا جميع أنواع خيبة الأمل وجميع الآمال ليصلوا بها ، بعد ما انقطع بينهم وبين موطنهم الأصلى ، إلى أعلى قممها ، إلى نوع من الدينامية المشوبة أحيانا بالمثالية وأحيانا بالقدرية ، تبعا للظروف وتبعا للأمزجة . ولما كانوا قد أرادوا أن يكونوا خارج التاريخ ، فقد حكم على تاريخهم الحاضر ألا يعرف الوسط. إنهم يعيشون حرفيا على قاعدة الكل أولا شىء فى جميع المستويات . مستوى الاختيار والإمكانيات ، وآفاق الاستهداء ، وبالاختصار يعيشون فى حياتهم اليومية على هذه القاعدة المركبة . الكل أولا شىء .

والنمو الأسطورى لقوة الولايات المتحدة الاقتصادية والصناعية والتكنولوجية والعسكرية هو المخرج الوحيد بين هذا الكل وهذا اللاشىء ، وفى الوقت نفسه الوسيلة لمحاصرة التناقض فى عملية دائرية ، الكل أو لاشىء ، تلك هى البديهية اللاشعورية بفلسفة الأمريكيين العملية ، لممارستهم رفض كل ميتافيزيقا وكل دين وكل أيديولوجية وكل غيبى ، لكل ما هو مسبق .

ولما كانوا قد قرروا أو صمموا على أن كل ما هو مسبق منبع للثنائية ، وكل ثنائيــة منبــع لضروب النزاع البشرى ، وأن ضروب النزاع هــــذه نتيجــة للدين أو الميتــافيزيقا ، وليست تطلعــا إلى وحــــدة التعبيــر عن ضروب النزاع الفعلية ، فقد أسسوا تجربتهم بادئ ذى بدء على رفض كل ثنائية بين المثل الأعلى والحقيقة الواقعة ، وأصبحوا مثنويين فى لقائهم مع الآخرين . والنقطة التى يكف عندها المرء عن أن يكون غريبا على الولايات المتحدة هى النقطة التى يعترف

عندها بجامعية ومانعية وجهة النظر الأمريكية . ولا شيء سوء النية في بواعث هذا الموقف ، (فأين البلد الغني الذي يخلو من التعصب القومي وبعض الأجنبي ؟) ولكنها ظاهرة فريدة ومختلفة من حيث إنها إذ تريد الرفض البات لهذه البواعث تصل بها — على العكس من ذلك — إلى أعلى قممها عن شعور وعن غير شعور وبسخاء وجرأة. إن طاقة الاستيعاب لهذا البلد تصل إلى حد غير عادى وقدرته على التذويب تصل إلى حد الإدهاش ، ومع ذلك فكم من الأمريكيين يشعرون فى قرارة أنفسهم أنهم غرباء فى ديارهم ، أو على الأقل كم منهم يربطون بهذه العاطفة أو بالحرص على إظهارها كل قوى نشاطهم والعمى الناشيء من فرط ثقتهم؟ إن جميع السائحين الذين يزورون الولايات المتحدة بصورة منتظمة تصدمهم سرعة تحولها المادى وازدياد تقدمها الصناعى والاقتصادى والفنى . ولكن كل مرحلة فى هذا التقدم تكذب ما تثبت تلك المثالية والرومنسية والسخاء التى استطاعت فى أغلب الظن أن تنمو فى صورة نقية وفى حد ذاتها حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، بل وربما حتى الحرب الثانية . وهكذا فكل مرحلة فى التقدم المادى تقابل عن غير إرادة خطوة أخرى نحو ذلك الالتقاء الحتمى لأمريكا بنفسها على مستوى حلمها الذى تبغى أن تبنى نفسها بمقتضاه . ومما لا ريب فيه أن المثالية والدينية الزائفة لن تظلا وقتا طويلا كافيين لضمان الجهل بسبب قوتها. فإن أبعاد هذا البلد وتنوعه وتعقده من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية تجعل منه حقيقة واقعية يستحيل على الفرد أن يحاصرها ، حقيقة غير معروفة أو مقلقة أو مهددة للحساسية الفردية من جراء كونها غير معروفة ، لاسيما وأن كل معتقد فيها مرفوض ما عدا الاعتقاد فى الحكم الشخصى الحر . وذلك إلى حد أن معاداة المذهب العقلى وبعض الأفكار التجريدية والنظريات تسير جنبا لجنب مع الاستخدام المسرف والضرورى للرموز العقلية ، والنماذج التجريدية وجميع أشكال التصوير بالأرقام ، وهذه كلها مما يخاطب الخيال ويغذى معنى «الوهم» والاعتقاد فيه ، كما أنها ذات معنى عملى إلى أقصى حد : أى معرفة قد يكون من شأنها أن تصنع التاريخ خارج

نطاق الزمنية . وجدية العمل وتفاهة الصورة هما العروتان المتوازيتان المنفصلتان المتناقضتان اللتان تربطان الإنسان الأمريكي بالواقع . ولعل الغرابة التي لم تقدر حق قدرها التي تتسم بها أمريكا الحاضرة (والمستقبلة) تنحصر في أن قدرتها على العمل والتنظيم (management) والبحث (التكنولوجيا) تتجه بنفسها إلى سد الفراغ بين مثلها الأعلى لبناء مدنية كاملة وواقع العالم ، وتقوم في هذا الفراغ مقام جميع النظريات المرفوضة مسبقا . فهل هذه إمكانية معقولة أم شهوة جنونية ؟ .

من الممكن أن يتحدد مصير الولايات المتحدة (والعالم) خلال القرن العشرين بين هذين الطرفين المتبادلين . فعلى الأقل كلما زادت قوة الولايات المتحدة ، كسبت في الظاهر من الثقة العملية ما يقابل زعزعتها وقلقها وعزلتها الداخلية . فأوروبا والعالم ينتقلون تاريخيا من الحياة الدينية والسياسية والعلمية إلى الصناعة وإلى التكنولوجيا ، أما الأمريكيون فيبدو أنهم يسيرون في طريق عكسي بقدر ما يحصلون من القوة الاقتصادية والتكنولوجية فيلتقون بالإنسان وبمشكلة طبيعته ومعناه . وهم من الناحية الفردية ليسوا ملاكا بالمعنى الذى يفهمه الأوروبي من هذه الكلمة . فعنده « أن يملك » معناها « أن يكون » أن يكون في العمل . إذ أن الأمريكيين نهمون في الإنجازات ، ولا يحسون برضاء إلا في العمل ولا براحة إلا في الحركة . أما بالنسبة للجزء الأتعس من بين الجماهير ، فإن ذلك يعني في عبارات إنسانية القلق ، الحرمان ، احتمال الحاجات العارضة لتوفير الحاجات الأساسية ، ولكن ما يقال في هذا الصدد أصبح نوعاً من التزايد ، وأصبح الملك يعني فرديا بالنسبة لعدد متزايد من الناس ، وجود نشاط متزايد من الناس ، وجود نشاط متزايد الذكاء متناسق ، ويزدادون له تقديراً بقدر ما يتطلب التحضير له من جهد عقلي عملي: وعن طريق الدوران ينشب البلد جذوره في داخله وسط عالم يشعر أنه يجر عليه الاستنكار ، هذا هو المستوى — الجماعي — الذى يحسن بالمرء أن يضع نفسه فيه لكي يفهم الولايات المتحدة . فهنا لم يعد معنى « أن يملك » ينحصر في أن « يكون » فحسب ، بل على العكس من ذلك أصبح عمل الفرد وكينونته يختلطان بملكية

الجميع . أصبحت الملكية الجماعية تحل محل كينونة كل فرد ، وعلى هذا النطاق تعود التناقضات إلى الظهور . ذلك أن التغير التكنولوجي والاقتصادى فى القرن العشرين قد ثبت أقدام الأمة الأمريكية فى مواجهة العالم : فبقى عليها أن تتملك نفسها داخليا، عقليا وسياسيا ، بقى عليها أن تعمل على تكامل نفسها داخليا واجتماعيا وعقليا وإنسانيا . فهل يمكن بذلك وباعتبارها أمة أن تتحرر بدرجة كافية من خوف إنكار الأمم الأخرى لها من حيث وجودها ؟ أليس من شأن الارتفاع الفجائى لقوتها على نطاق عالمى أن يزيف استخدام تلك القوة ، ولاسيما أن هذا الارتفاع يتفق مباشرة وحلم الأسلاف المؤسسين (الذى أصبح خطة فى القرن العشرين) فى أن يكونوا مجتمعا مثاليا ؟ إذا نظرنا إلى الالتقاء بين الأساليب التاريخية لبناء المجتمع الأمريكى بين سنتى ١٧٧٥ و ١٩١٦ (أو ١٩٤٥) وبين المناخ التاريخى الذى وجد فيه هذا المجتمع فى القرن العشرين ، رأينا أنه ربما كان من المستحيل على الولايات المتحدة ألا تخضع حل مشاكلها الداخلية لحل مشاكلها العالمية وألا تمتص هذه الأخيرة تلك الأولى أولا تحسب حسابها . والحقيقة أن هذا التغلب الظاهرى للمجموع على عناصره يعنى شيئين مختلفين تمام الاختلاف . فمن جهة يقوم رفض أمريكا لكل أيديولوجية على أساس الارتياب العميق فى الإنسان الذى يبدو أنه نشأ من البيوريتانية وقد وجد ذلك الرفض ما يبرره ويدعمه فى النجاح التكنولوجي والاقتصادى ، وهذا النجاح يدل فى نظر الأمريكى على حقيقة طريقته التجريبية وإنكاره لأى تسام ، حتى لفكرة الإنسان بوجه عام غير مرتبط بشعب من الشعوب أو قارة من القارات ، ونتيجة كل ذلك هو التفسير المستند على القوة الأمريكية لإثبات القيمة العامة للمجتمع الأمريكى ، ذلك الإثبات الذى كان خفيا فى بدايته . وهذه إحدى المعطيات الواقعية : الولايات المتحدة تعرف أنها أقوى دول العالم وتعتقد أنها ستظل كذلك لزمن طويل . وهذه المعطاة الواقعية تجعلها فى مركز يمكنها من إلقاء أوامرها على العالم وتنظيمه تبعا لظروفها . وهى لا تمارس هذه النتيجة من جانب واحد ولا بصورة عقلية ، بل بطريقة متناقضة . ولا يمكن لهذه الطريقة إلا أن تكون متناقضة ، لأنها مشتبكة

بصورة مقلوبة فى العلاقات بين المجموع والعنصر الخاص . وهى نفسها ، أى ذلك العنصر الخاص ، فى وضع من يحل نفسه محل المجموع . فقد أدى نجاح تجربتهم العملية إلى إغرائهم بالاعتقاد بأنهم قد وصلوا فعلا إلى أهداف مثاليتهم ، ومن جهة أخرى نرى أن مركز القوة هذا يضطرهم إلى التفكير فى المجموع الذى يتعاملون معه والذى يشعرون شعورا قويا بأنه غيرهم . وهنا لايرون بدا من إدخال الزمن فى حسابهم ، وبوجه خاص من التفكير فى التاريخ . ولكى نفهم صفة هذا التفكير ينبغى لنا ألا نفصله عن مركز القوة الذى يرتبط به الآن ، أى بمخابرة البقاء أوعدم البقاء التى ترجع إليها كل حركة للولايات المتحدة على رقعة الشطرنج العالمية . وليس هذا التفكير إلا يأتى لواجهات عقلية تجريدية بحتة . ولكن مرتبطة بالمعطيات التكنولوجية والاقتصادية والعسكرية والسياسية بإمكانيات المستقبل على ضوء إمكانيات الماضى .

وأوروبا من جهة وآسيا من جهة أخرى هما قطبا الاستدلال الحيان للماضى وللمستقبل بالترتيب . فأثينا وروما تقدمان للولايات المتحدة نموذجين لمصير شعب ، وهى ترجع إليهما طائفة ،وإن ذلك بصورة مبهمة. أما آسيا فهى المغامرات وضروب التهديد الجاثمة فى الأفق . وهكذا يبدو لهـا الماضى والمستقبل كما لو كانا محددين جغرافيا فى شرق البلاد وغربها ، أى أن الزمن التاريخى يظل كما كان كله فى غير بلادها . والزمن الواقعى الوحيدهو زمن ضروب التنمية التكنولوجية والاقتصادية والعسكرية . ولما كانت هى المجلية فى هذا الميدان ، فإنها تشعر بأنها فى موقف يسمح لها السيطرة على الزمان وتوجيه التاريخ . وهنـا ملاحظة هامة : فهى لما كانت تنفر من رؤية التناقضات فى التجارب ، لم تنظر أول الأمر إلى علاقاتها بالعالم على أنها علاقات تنافس، بل بالضبط على أنها صلة حق وواجب من أجل المشاكل المادية التى تعرض نفسها فى صورتها القصوى : فالرقم الذى لايصح لسكان العالم أن يتجاوزوه حتى تكون المسائل المرتبطة ببقائهم قابلة لحل تكنولوجى هو محور التحديد للتاريخ الذى ينبغى أن نهتم بتحديد نقطة مسقطه منذ الآن . ورسالة تقويم التاريخ هذه التى تبدو كما

لو كان من واجبها إخراج الإنسانية من تاريخها تجيب على الأولوية المعطاة لمشا كل المجموع على المشا كل الفردية والقومية مثلا . وهى تجيب أيضا على ذلك الميل العميق لدى الولايات المتحدة التى تراها بممارستها له بعد قرنين من العزلة تتقمص الحلم الذى ولدت به . ولكن تعايش للتناقضات العسكرية والمدنية مثلا فى المشروعات الشاسعة يشير إلى مقدار السهولة والضرورة التى ترى بهما هذه المشا كل ذات الطابع التكنولوجى والخاصة بالمجموع تختلط بالمجموع الزائف ذى الطابع السياسى والناتج من انقلاب العلاقة بين بلد واحد وبين العالم . فالولايات المتحدة تحتل اليوم فى مواجهة تاريخ العالم نفس الموقف الذى كان يحتله ديكارت فى مواجهة الطبيعة : وهو أن يصل إلى أن يكون سيدا لها ومالكا ، هذا هو نفس الموقف ، أى أن المسألة معروضة على أية حال سواء أردنا أو لم نرد ، وليس ذلك متعلقا بقصد شخص من الولايات المتحدة . هذا إلى أن مشروع سيادة التاريخ ليس إلا النقطة التى يبلغ فيها مشروع سيادة الطبيعة أقصى مداه وتركزه فى نفسه . وإذا كانت الولايات المتحدة تجد نفسها مزودة بقوة مادية تسمح لها بالشروع فى حركة نحو هذه السيادة ، فإن ذلك ليس أمراً عرضيا ولا يصح أن يعالج على أنه كذلك ، ولو لم يكن ذلك إلا بسبب ما لنتائجه من وزن ثقيل . وبعبارة أدق إذا كانت الولايات المتحدة تحتل هذا المركز باعتبار واقعها ، فإنه لا يصح علاج هذا الأمر على أنه حادث عرضى . فعلينا أن نفكر فيه دون انفصال لنحاول أن نميز فيه نصيب الضرورة ، نصيب ما لا يمكن تجنبه الذى يجب على أوروبا نفسها أن تقبله وإلا أصبحت تعمل ضد نفسها ، ونصيب الصدفة نصيب المخاطرة نصيب ما قد تجره عن غير شعور صيغة « الإمبريالية الأمريكية » التى من العسير أن نفهم معناها إذا لم نعرف ما يمكن أن يريده الجميع بصورة إيجابية .

٣ — مجد النقص أو عدم الاستكمال .

إذا كان المجتمع الأمريكى لم يستكمل بعد ، إذا كان ناقصا، فإنه يريد هذا النقص باعتباره قاعدة لنموه . فهناك فى هذا المجتمع كثير من المظاهر المحيرة أو الفاضحة التى تزول عنها هذه الصفحة بمجرد أن يحاول المرء فهم وجهة نظر بلد فى سبيل أن يفى

نفسه . وهو يخلط بصورة مبهمة بين تطوره الخاص وتطور العالم .

والأمريكي يشعر بأن النقص على هذا النحو إحدى المزايا ، لأن ذلك يكون جزءاً من أسلوب حياته ، إنه يود أن يكون الأحسن وهو يعتقد ذلك ، وفي نفس الوقت يبدو أنه يحتقر الكمال (ماعـــدا الميدان التكنولوجي) كما لو لم يكن إلا سراباً ، إلا شيئا غير واقعي . النقص والتفوق لا يتناقضان بالنسبة له ، هو الذي تعتبر نظرته للحياة نظرة متحركة ، وليست حركة بالمعنى السطحي للكلمة الذي ينحصر في الاضطراب والهياج كما تعتقد أوروبا ، وإنما المقصود حركة الأشياء نفسها التي في سبيل الإنجاز . ولسنا نشير إلى الكمال المثالي للبلد حينما نتكلم على عدم الكمال أو النقص ، بل إلى الانتصار على الحياة ، على الطبيعة ، على الآخرين . هذا النصر الذي يسلم مقـدماً بأنه من الممكن إعادة النظر فيـه إلى مالا نهـاية . ومعنى التنافس أنه خلق اقتصادي (تجاري وصناعي) وسياسي وتكنولوجي قبـــل أن يكون خلقاً رياضياً . فالأمريكي ليس خالقاً ، ولكنه محقق عجيب ، لديه موهبة التنظيم والإنتاج وموهبة امتداده . وعدم الكمال هو عدم كمال الإنتاج ، لأنه يوجد دائماً أمام المرء ميدان لزيادة الإنتاج وتنويعه . فالإنتاج يقوم مقام الجذور . فوجود الولايات المتحدة يتفق مع إنتاج الإنتاج . غير أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون محل خوف هو أن يكون ذلك الإيمان بعدم الكمال يخفي من ورائه في الحقيقة عملية هروب .

يبدو أنه يوجد لدى الأمريكي نوع من العمى ، أو من عدم الحساسية ، أو من عدم الاهتمام الطبيعي بمناعة كاملة من المشاكل البشرية ، والاجتماعية على وجه الخصوص ولكن هذه ليست عدم حساسية بل أثر للحكم ، قرار للعقل ، والواقع أن هذا العمى يخفي من ورائه بالأحرى شهوات قوية (مرتبطة بالاختلافات بين البلاد الأصلية من حيث الدين والجنس والمال) كما أنه يعرف كيف يصطحب معه نوعاً من الرومنسية يستخدمه في تغطية هذه الشهوات . فالمرء أكثر حساسية نحو العمل البطولي منه إلى تحقيق بسيط وإن كان متينا . إنه أخرج إلى العمل الشجاع منه إلى العدالة ، إلى عبادة البطل منه إلى معنى الكرامة ، فهناك في الحساسية نحو العمل الشجاع نظام

ميتافيزيقي بأسره ، وهذه ليست من المبالغة في شيء : إنها شكل من أشكال الدفاع (والرفض) ضد صفار الحياة ، واللامعقولية ، والخيبة ، والخوف . والعمى تجاه المشاكل البشرية هو في الحقيقة خوف من مجابهة الضرر وجها لوجه ، من الاعتراف به في جميع أشكاله الطبيعية ، اللامعقولية ، الألم ، الموت . والحقيقة أنه مما لا يمكن تجنبه في بلد يدعي فيه كثيراً التمسك بمعنى العدالة أن يرى المرء يجري تحت سمعه وبصره كثير من ضروب الجور دون مبالاة بل وبنوع مما يشبه الشماتة ، وأن يلقي بها بسهولة وبكل سهولة على عاتق القدر أو المحتوم أو عدم كمال أمريكا ، وفكرة عدم الاستكمال تستخدم هنا جيداً كضمان أو كتبرير لوجود المثالية التي يفضلونها ويطالبون بها في آن واحد مع عدم الإنجازات الفاضحة،المتعمدة ومن الممكن أن نحمل هذا التناقض على محمله الصحيح إذا طاب لنا أن نرى فيه قوة هذه الشهوات الأولية التي هي خوف الموت والاستمتاع بالقوة . فهذه ليست بلادة في الحس ولا عدم مبالاة ، بل هي بالأحرى حاسة الزهو . فالحياة في تقدمها تترك وراءهـــا ضحايا وخسائر ، وهذا طبيعي ، كالانتخاب الذي يوصف بهذا الوصف ، والاسم الحقيقي لأخلاق التنافس ، بالمعنى الاجتماعي أو السياسي ، هو « الانتخاب الطبيعي » . وهي أخلاق بيولوجية الاستيحاء في جوهرها . والرجوع إلى العقلية يستخدم كغطاء للمصلحة أو للخوف . إنه وسيلة للتحصن ، وليس تبريراً عميقاً ، ليس تعبيراً مباشراً عن السخاء . وهذا الأخير شيء وحقيقي يستخدم كغطاء للقلق ، أو — على الأقل — ليس العمق الذي يمكن أن يكون له ولا يريد أن يضطلع بهذا العمق لكي يتخطاه وهناك حل للاتصال بين الخوف والإيمان بالعمل من شأنه أن يحدد بنفسه ما للأول من أهمية تفوق أهمية الثاني ، وهو حل اتصال يمر بضمير كل مواطن كما يمر خلال مجموع الأمة كأمة ، ويعتبر — في لغة التحليل — هو الوجه الحقيقي للنقص أو عدم الاستكمال .

٤ — التكنولوجيا والأيديولوجيا :

لقد أكن الأمريكيون في أنفسهم رفض أوروبا ، فالفرض المسبق الوحيد عندهم

أصبح مبدأ « الانطلاق من لا شيء » فى صوره المختلفة إمكان الحصول ، السخاء الدائم ، حب الاستطلاع العام ، والحركة الدائمة ، الإحساس بأن كل شيء فى حيز إمكانهم ، رفض الاستقرار أو التملك الفردى ، براءة الإحساس بأن المرء عالم من الحقوق يتناسب مع كونه عالماً من الواجبات . ولكن مبدأ « الانطلاق »من لاشيء ليس من البساطة بهـذه الدرجة : فإن الانطلاق من لاشيء فى اتصاله بالانقلاب البيوريتانى الأمريكى قد وصل مع الزمن إلى أن يدل على « وضع كل اعتبار يتعلق بالطبيعة البشرية بين حاجزين أو طرحة وراء الظهر » ، والاضطلاع بقوة انفجارية من القلق والضيق وعدم الصبر ، تلك القوة التى استطاعت أن تستخدم كل موارد حاسة للصالحة لتسير إلى الأمام دون أن ترجع إلى الخلف بأية حال . وليس هذا — فى مصطلحات اللغة الإنسانية — بتعريف لحركة حقيقية وإنما لضرب من الجمود — جمود ديناميكى إذا شئنا أن نقبل هذا التناقض الذى يصوره أن نرانا نجد فى منتصف القرن العشرين عقلية زراعية وعقلية اختراعية تكنولوجية من الدرجة الأولى تتعايشان فى صعيد واحد . إنها بالضبط التكنولوجيا بجميع أشكالها (جميع فنون الاختراع والكشف والمعالجة والتنظيم) هى التى صنعت حركة الولايات المتحدة ، حركة عالم لم يضع فيه الإنسان الأمريكى نفسه موضع البحث ، لا لأنه يعتبر نفسه شبه إله (بل قد يصبح بالأحرى فى هذا الحال قدرياً أو متبلداً ، وهو وحده فى علاقته بالحياة) ، وإنما لأنه كلما سمحت له اختراعاته بأن يثبت أنه المجلى فى العالم وأمام الآخرين سمحت له فى نفس الوقت بأن يتسلى فى همومه وأن يولى ظهره لقلق لا يزيده هذا الإغضاء إلا نمواً .

موقف الأمريكى أمام أية مشكلة هو موقف التكنولوجى أولا وقبل كل شيء . ومعنى ذلك أنه لن يتعرف على مشكلة إلا فى موقف مشخص وأنه لن يحلها إلا « بمهاراته الخاصة » أى على أساس التجربة ، دون أن يسبقها أو أن يرجع إلى أى أمر مسبق أو قيمة خارجة عن الموقف الذى هو بصدده ، ذلك أن حكم المسبق الوحيد ينحصر فى استغنائه عن كل ما هو مسبق . وهـذا الخضوع لحقائق التجربة الذى يؤدى بطبيعته وبالنسبة للجميع إلى وحدة الحواس من خلال تنوع التجربة ليس ، مع ذلك

بالنسبة للأمريكي موقفاً نظريا ولا منهج تناول للتجربة ، بل بالأحرى وفي غمار عدم التمييز بين النظرية والعمل ، كيفية للوجود بقـــدر ما هو طريقة للتفـكير . والأمريكي الذي هو مقتنع إلى أقصى حد بأن كل مشكلة لها حلها لا يقدم رغم ذلك على مشكلة قبل أن يكون واثقاً من القدرة على حلها . ومن هنا كان الإحجام الشديد الذي يصحب إمكانية العمل الشديد . ومن هنا بوجه خاص تلك الهوة المتزايدة بين ازدياد النمو في جميع فنون التكنولوجية المادية (الفنون الخاصة بالفضاء والمـادة والطاقة) وبين الجمود أو التـكرار في جميع الميادين التي يتصل العمل فيها بالإنسان وبوجه خاص في ميدان السياسة . وإذا أردنا ألا نبـــدو في مظهر الساخرين الـكاريكاتوريين فلنـكن مقتضبين ، ولنبرز تلك النقطة الأساسية إذ نقول : إن الأمريكي ، بالاختصار ، لا يتصور العمل إلا منقطعاً عن الخلق . وهذا يؤدي إلى نتائج باهرة في جميع الميادين التي يفيد فيها بالفعـــل الانطلاق من الصفر ، حيث يمـكن إلقاء نظرة حرة جديدة كل الجدة على التجربة ، حيث يستطيع التحقيق التـكنولوجي أن يقوم حقا مقام الخلق ، ولـكنه يغرق صاحبه في مصاعب غير قابلة للحل بمجرد أن تـكون المشاكل المراد حلها مواقف مفروض فيها أن تؤخذ على العاتق وأن تفهم حرفيا من أجل النجاح في تسييرها . وإذا كان القرن الثامن عشر في أوروبا يمثل بروز تفـكير تـكنولوجي وعلمي وسياسي يحل ويحسم فيه من خلال أزمة التفـكير الديني ، فإن ذلك التفـكير لم يعدم أن ينقل بعض أساليبه إلى هذا التفـكير الديني الذي كان يرد عليه ، وما علينا مثلا إلا أن ننظر في أصول التفـكير الـكانتي ولواحقه ، بل لعل التفـكير الهيجلي يقدم لنا مثـــلا أوضح من ذلك . فالحساسية التي تغذي التفـكير الأمريكي ابتداء من القرن الثامن عشر ، أي في الوقت الذي بدأت فيه الولايات المتحدة وجودها باعتبارها هذا ، انقطعت تمام الانقطاع عن المـاضي الديني باعتباره ماضيا دينيا . إنها حساسية نفس تبـــدو كما لو كانت قد أصيبت فجأة بفقدان الذاكرة ، ليس فقط بالنسبة لتاريخ البشر الذي تشارك فيه ، بل أيضاً بالنسبة لوضعها المتناقض من أنها خلقت منتهية وقادرة على مالا ينتهي . إنها

حساسيه نفس ترى ، وهى فيما يشبه حكم اليقظة ، أحد وجهى مأساتها ، وهو الوجه الذى يبدو فيه كل شىء ممكنا . ولا تستطيع أن تحتفظ بوجودها فى هذا الحلم إلا بجهلها المتعمد للوجه الآخر ، وجــه الموت ، وجه الفشل ، وهذه أكثر أنواع الحساسية تناقضا ، بسبب جهلها النائم المستيقظ بتناقضاتها . فى هــذه الصورة من الحساسية ولد التفكير الأمريكى . وحلم اليقظة هذا ، يقظة النائم تلك هى أسلوبها . والذى يضمن هذا التفكير ، الذى يوهمه بأنه فى حالة يقظة هو العالم ، الطبيعة ، المادة الطاقة ، الحياة ، الإنسان ، منظورا إليه من خلال كل ذلك ، ولكن ليس الإنسان باعتباره إنسانا ، فليس لدى الإنسان الأمريكى أية فكرة عن الإنسان المتسامى .

أما ما ينقص الإنسان الأمريكى ، أما ما لعله بدأ يدرك أنه ينقصه فهى بالضبط حاسة الخلق يشملنا والذى نساهم فيه ، أعنى الشعور بمبدأ الخلق التى يشارك فيها العمل البشرى . وليست القوة التكنولوجية فى حد ذاتها هى تظهر الولايات المتحدة أحيانا بمظهر الشيطانية ، ولكنه عدم شعورها بالنتائج الحتمية لما تأخذ على عاتقها القيام به ، العمى عن ظروف مشروعها وغاياته . إنها فى الحقيقة لم تمس بعد مشكلة علاقة التكنولوجيا بالإنسان ، إنها فقط افترضته مسبقا ، أى أنها وضعته بين قوسين ، ورأت علاقته بالطبيعة فحسب ونسقت علاقته بغيره من البشر على غرار علاقتها بالطبيعة . وهذا ما يضعها فى مركز استثنائى من القوة لتنظيم مملكة البشر بقدر تزايد ما تصيبه هذه المملكة فى « بيئتها » الطبيعية ، وبقــدر تزايد تبعية البشر للاستخدام الذى نستطيعه للمادة والطاقة والمكان . أما ما يمد الولايات المتحدة بالقوة الحقيقية فليس هو مالها ، وليس هو اقتصادها ؛ وليست أساليبها التكنولوجية ، وليست معتقداتها ؛ ولكن ذلك أننا ندخل عصرا من الحضارة يتوقف فيه بقاء البشرية بالفعل على قدرة البشر على تكييف البشرية بالعالم . على ربطها ربطا عضويا والولايات المتحدة لا تجهل أن المشكلة الحقيقية الوحيدة من الناحية النظرية أو المثالية هى إخضاع العالم للإنسان ، ولكنها تعتقــد أننا لا نملك الاختيار . وأن المشكلة الواقعية الوحيدة التى تقع على عاتقنا منذ الآن هى أن نكيف الإنسان بالعالم . ومن

ثم فإنها تحس أن جميع ضروب النزاع بين البشر . أو بين الأمـــم . أو بين الأيديولوجيات ليست إلا عقبات لا معنى لها تنضم إلى الدراما الأساسية الوحيدة . وهى سيطرة الإنسان على الطبيعة ؛ سيطرة تخلط اليوم بالسيطرة على التاريخ من قبل أن جميع المشاكل البشرية ذات الوزن ليست إلا مشاكل طبيعية قصوى (السكان، الغذاء، الطاقة ؛) .

وهى تتبع فى ذلك طريقا معاكسا لطريق ماركس على خط مستقيم ؛ فإن ماركس انطلق من مشكلة تبعية الإنسان للطبيعة وانتهى بإمكان حلها عن طريق حل مشكلة تبعية الإنسان للإنسان . فالولايات المتحدة تعتقد أن المشكلة الوحيدة هى مشكلة تبعية الإنسان للطبيعة ، ولكنها تعتقد أنها ليست مشكلة دينية أو فلسفية ، بل تكنولوجية . وأن على حلها تتوقف حياة البشرية أو موتها . وأن كل نزاع بين البشر لا يعمل إلا على تأخير هذا الحل . على زيادة فرص الموت للبشرية :

ونحن هنا نقول « الولايات المتحدة » ولا نقول « الأمريكيون » لنلفت النظر إلى أن الأمريكيين لا يعتقدون أن فى وسعهم جر بقية البشر إلى حل مشكلة الإنسان والطبيعة إلا باعتبارهم هـــذه القوة (الولايات المتحدة) . فهناك من جهتهم اختيار أو التزام مدبر : إن المشكلة العنصرية فى أمريكا ، وحرب فيتنام وضرور النزاع الأيديولوجية كلها يحسونها على أنها مصاعب يزيد من شناعتها أنها لا معنى لها تماماً ، إنها لا معنى لها لأنها كلية خارج المشكلة الحقيقية ، مشكلة السيطرة على الطبيعة الذى يعتبر فتحها المكانى من أكبر قطعها . وبعد ذلك نحن أحرار فى أن نتساءل ، إلى أى حد يعتبر المشروع المكانى مرتبطاً فى أصله وتطوره بالنزاع الأيديولوجى مع الاتحاد السوفيتى وبإمكانياته الحربية ؟ . وهذا الالتزام الذى نشير إليه تشعر الولايات المتحدة بأنه هو وحده للتمشى مع العقل (وتعتبر أنهـا تبدى كثيراً من التسامح والحكمة حين تتحمل بكل صبر حماقات الآخرين وعدم معقوليتهم .

لا شك أننا ، نحن (الأوروبيين) نستطيع أن نرى فى كل تحويل مشـــاكل الإنسان إلى مشـــاكل علاقة الإنسان بالعالم ضرباً من الهروب من « المشاكل

الحقيقية » . ولكن يجب ألا ننكر أنه إذا كان لهذا التحويل بالنسبة للأمريكيين قيمة البديل عن المظهر الديني أو الأيديولوجي أو الفلسفي ، فإنه أيضاً يقابل بعداً حقيقياً من تاريخ البشرية ، وأن هذا التقابل هو الذي يكون أساساً قوة الولايات المتحدة في عالم اليوم ، مهما كانت المظاهر المختلفة التي تعبر بها هذه القوة عن نفسها . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول بأن الولايات المتحدة لها قوة ضعفها ، بقدر استطاعتها أن تسمو بإنكارها للطبيعة البشرية إلى حد أن توحد بينها وبين الطبيعة على وجه العموم. ولقد كان ماركس ، قبل أن يوجه كل اهتمامه إلى تبعية الإنسان للإنسان وحدها ، عن صبغ الإنسان بصبغة الطبيعة وصبغ الطبيعة بصبغة الإنسان . ويمكننا أن نتساءل ما إذا كانت ما قبل الماركسية هذه التي انحدرت مباشرة من القرن الثامن عشر هي التي أخذ الأمريكيون على عاتقهم أن يصلوا بها إلى أقصى مداها ؟ .

والأمريكي يخضع للتجارب الطبيعية المكانية القابلة للإدراك بالبصر (لمعطيات الواقع) بنفس الإصرار واليقظة والثقة في نفسه (في بلده) التي يخضع بها الإنسان الشيوعي للتاريخ والزمان . وفي جدل السيطرة الذي سجل فيه كل خضوع نرى أن الرفض الأمريكي لا يهيىء فرصة مثلى للحوار ، بل للحديث الفردي مع الذات وإخراج الفرض الإنساني من الحلبة لا يرجع إلى خطة موضوعة ، بل يترجم عن قلق مغلف بثقة ساذجة في النفس ، في إحساس بالحق الطبيعي في الملكية الجماعية . والحوار مع الآخرين لا يمكن أن يكون له إلا شكل واحد : شكل التعاون أو الاتفاق . والولايات المتحدة مشغولة بكل طاقتها في هذا المشروع وهو أن تجعل الإنسان « سيداً ومالكا للطبيعة » وكل الناس مدعوون للقيام بهذه المهمة التي تتطلب مجهوداتهم جميعاً .

وليس عداؤهم للشيوعية من قبيل المبدأ . وإنما يتركز فيه كل بغضهم وضيقهم بمن ينكر بداهة رسالتهم ، وتبدو عليه بهذا الاعتبار كل مظاهر المرضية ، كما يبدو دائماً قريباً من أن يصير كراهية للذات . وهنا نرى كيف ينقسم ويتكامل موقف السياسة التي يصل فيها (كما لو كان ذلك عن طريق الخطأ) إلى حد الشيوعيين على أن كانت

لهم أيديولوجية ، وموقف الغنى الذى أصبح كل شىء بالنسبة إليه مجهزاً ما دامت التكنولوجية تحل محل الأيديولوجية . وبالنسبة لمشاكل العالم ومشاكل المجتمع الأمريكى نفسه تحيا الولايات المتحدة هكذا بصورة مبهجة حياة التناقض والانقسام بين التحييد المشروع للأيديولوجية عن طريق تكنولوجية المشاكل العالمية باعتبارها مواقف واقعية تمكن معالجتها،وبين الاستفاضة بالأيديولوجيا التكنولوجية عن السياسة فى حل مشاكل العالم باعتبارها ضروب نزاع بين البشر ،حول تصور الإنسان،وحول الوسائل التى عكن بها إشباع رغباته العميقة . وهنا تقودنا التكنولوجيا إلى أدق النقط وأكثرها حساسية فى جدل الإخضاع والسيطرة . فهى لا تستطيع فى الواقع الحلول محل السياسة وتعتقد أنها تستطيع ذلك ، وهذا الاعتقاد يثقل السياسة ليدخل فيها نوعا مما فوق المعقولية تمتص لا معقولية الأيديولوجيا فى معقولية التكنيات ، (أو التكنولوجيا) . ونعنى بالأيديولوجيا هنا تلك التى يعتنقها الآخرون والتى للأمريكيين أنفسهم عن غير شعور منهم . والذى ينجم عن ذلك بصورة مثالية (لأنها قصوى) فى مغامرة الفضاء أو فى المجموع الاستراتيجى السوفيتى الأمريكى كما يدركه الأمريكيون يتوج ويشمل من هذه الناحية ، جميع المشاكل الخاصة ، سواء أكانت عالمية أم أمريكية ، ولكن على نحو ما يراها الأمريكيون، وباعتبار أن بعديها (العلاقة الطبيعية والعلاقة بالإنسان) يتداخلان فى عملية دقيقة من المنافسة والجهل المتبادل وحلول أحدهما محل الآخر واستخدام أحدهما للآخر ، وفى كل ذلك نرى بوضوح الاقتناع الأمريكى الغامض بالتغلب فى المجموع على الطرف الآخر .

ويزيد من هذا اللبس ويقويه أن الولايات المتحدة لم تصل إلى التكنولوجيا عن طريق قطيعة أو ثورة فى تاريخها الخاص، بل بصورة مباشرة وفى خط مستقيم ابتداء من هذا التاريخ وبصحبته منذ أن قطعت صلتها بالتاريخ . ويقوى منه أيضاً أن قوة الولايات المتحدة التكنولوجية تنمو داخل التاريخ وليس خارج التاريخ ، وبعبارة أخرى لأنهم على خطأ فى اللحظة التى بدءوا أن يكونوا فيها على صواب ولأنهم على صواب ، ذلك أن نجاحهم نفسه يضعهم بصورة مباشرة فى مواجهة ما كانوا قد اعتزموا

أصلا ألا يروه . والسؤال الذى عرضه نيتشه بمناسبة العلوم يعرض نفسه بصورة أكثر حدة بالنسبة للتكنولوجيا التى لا يمكن فصلها عنها . وهذا هو السؤال، بعد أن برهنت على أنها قادرة على تحطيم بعض أهداف الحياة بالنسبة للإنسان ، أهى قادرة على أن تعطيه أهدافا جديدة لها ؟ وهو سؤال تمكن صياغته على النحو التالى . هل المثل العليا التى تحرك الإنسان أو تلهمه شيء آخر غير الأهداف التى تفرضها عليه نفس بنية التجارب التى تتضمن وجوده أيضا؟ وهو سؤال عام ليس خاصا بالأمريكيين ، ولكنه يظهر اللبس الضرورى لموقف الولايات المتحدة فى المشاكل العالمية ، ويوضح فى آن واحد ضيق الأمريكيين أمام موقف بقية العالم وضيق العالم أو على الأقل شهواته المتناقضة أمام «الأمركة» والحقيقة أن ضخامة المهمات التى يكشف عنها العالم اليوم أمام الإنسان وموضوعها لا يمكنهما إلا أن يساعدا على الاختلاط بين المثل العليا والأهداف . كما أن ضخامة وتحرك المشاكل التى ظهرت داخل المجتمع الأمريكى خلال تاريخه قد ساعدت هى الأخرى على اختلاط بين المثل الأعلى لأمريكا والأهداف المحددة للمجتمع الأمريكى ، وأمريكا التى هى دائما فى «سبيل البناء» هى التسامى الوحيد الذى يخاطب الأمريكيين ، وإبهام الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمشاكل العالمية يقوم فى مستوى الاختلاط الذى بين أمريكا ، التى فى سبيل البناء ومسائل العالم.

ويبرز الإبهام أيضاً عن طريق طبيعة العلاقات بين التكنولوجيا والأيديولوجيا والسياسة . فإنه يمكن لكل من التكنولوجيا والسياسة أن يحددا على أنهما وظيفتان لمسبقات عملية ، الأولى لمسبقات الوسائل والثانية لمسبقات الغايات . وقد سهل من الاختلاط بين الأهداف والمثل العليا قلب أولوية الوسائل على الغايات ، ذلك الأمر الذى تتميز به حضارتنا . فالعمل السياسى ينطوى بصورة متزايدة على اعتبارات تكنولوجية ، ولكن لا ينبغى أن يدفعنا ذلك إلى التفكير فى أننا ذاهبون نحو تكنوقراطية حقيقية فى أى بلد كان . ولكن السياسة تظل فى نظر الأمريكيين مرادفة لعدم المعقولية — إما لا معقولية الآخرين ، وإما اللامعقولية التى يقضى عليهم

الآخرون بها . والأيديولوجيا فى نظرهم رديئة بذاتها ، إنها سبب لكل فوضى ، إنها أردأ ما يمكن أن يكون لأنها تشارك فى اللامعقولية ، ولذلك لا يمكن أن نقول بأن التكنولوجيا يجب أن تحل محل السياسة ، بل بأن التكنولوجيا يمكن أن توازن الأيديولوجيات (أيديولوجية الاتحاد السوفيتى وأيديولوجية الصين) ، وأن سياسة التكنولوجيا ستتغلب على السياسة الأيديولوجية . وفى هذا الجدل سيأتى الاقتصاد لينضم إلى التكنولوجيا فى نفس الوظيفة . وهكذا سيعترف المرء بالرغم منه وباعتبار أو ذلك شر لا بد منه بأولوية السياسة على التكنولوجيا ، ولكن مع ممارسة التكنولوجيا واعتقاد أولويتها على السياسة . سيعثر بالضبط فى وجود الخصم بما لا يريد أن يعترف بأنه من افتراضه هو .

وفى هذا الصدد نرى أن الوقت الذى دخلت فيه الولايات المتحدة التاريخ يفصل بين زمن إرادة البراءة وزمن الاغراء ، زمن الجهل بمستلزمات الإرادة البشرية وزمن مجابهة هذه المستلزمات ، وذلك كالثورة بالنسبة للماركسيين فإنها تفصل بين زمن تبعية الإنسان وزمن تحرره .

لقد قلبت ضخامة التطور التكنولوجى فى كل البلاد تصور ممارسة السلطة السياسية بطرق شتى ، ونعتها كثيرا فى الولايات المتحدة ، ويقبل الناس عن طيب خاطر على أن يستخلصوا من هذا الظرف دلائل الكلام عن التقاء المجتمعات السوفيتية والأمريكية . وهذا قد ألقى الضوء من جديد على تلك المشكلة المشتركة ، مشكلة العلاقات بين الطبيعة والتاريخ التى تظهر فى ثوب جديد فى العلاقات بين التكنولوجيا والسياسة التى تهتم بها جميع أقطار العالم فى أيامنا هذه . ونرجو أن يعمل إلقاء الضوء عليها فى هذا البحث على تحذيرنا من هذا الإغراء السهل ، إغراء الاعتقاد بأنها إنما نشأت أصلا إما فى الولايات المتحدة ، وإما فى الاتحاد السوفيتى ، ونرجو أن يؤدى بنا تخلينا عن هذا الزعم الذى لم نتخل عنه بعد — وتتمسك به الولايات المتحدة عن

عمد إلى النجاة بقدر الإمكان من نتائج الإبهام الضخم الكامن فيه .

الولايات المتحدة ، وهى بلد التناقض والظاهرة المتناقضة ، هى أيضا — وفى هذا ما فيه من تناقض — نواة اللاعقلانية التى يجب على العالم أن يفكر فى تماسكه المأمول بالرجوع إليها ، وعلى العكس من ذلك لن تجد الولايات المتحدة تماسكها الخاص إلا بقدر قدرتها على إخضاع نفسها لمثل كل العالم الحيوية التى تتخطط صياغتها من خلال تجاربها الخاصة .

عمد إلى '

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٥٧ لسنة ١٩٦٩

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦


Bibliotheca Alexandrina
0536982